الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر – باتنة –

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
قسم أصول الدين
تخصص كتاب وسنة

نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الظلم في ضوء القرآن الكريم

حقيقته – أنواعه – أسبابه – آثاره – الوقاية منه

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في التفسير

إعداد الباحثة:
نورة بن حسن

إشراف الأستاذ الدكتور:
أحمد رحماني

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د/ سعيد فكرة	أستاذ التعليم العالي	كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية– جامعة باتنة	رئيسا
أ.د/ أحمد رحماني	أستاذ التعليم العالي	كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية– جامعة باتنة	مقررا
أ.د/عبدالحليم بوزيد	أستاذ التعليم العالي	كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية– جامعة باتنة	عضوا
أ.د/ نور الدين عباسي	أستاذ التعليم العالي	كلية أصول الدين – جامعة الجزائر	عضوا
د/ عبدالحميد بوكعباش	أستاذ محاضر	كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعيةجامعة جيجل	عضوا
د/ صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة	عضوا

السنة الجامعية: 1429–1430هـ/ 2008– 2009م


UNREGISTERED VERSION
REGISTERED
VERSION
ADDS NO
WATERMARK
www.print-driver.com



مُقدِّمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

إشكالية الموضوع:

إن هذا البحث يعالج مشكلة الظلم التي تعاني منها البشرية اليوم، إذ استفحل الظلم بصوره المختلفة، وشمل جميع جوانب الحياة، بحيث يكاد يكون بمثابة القانون العام الذي يحكم العالم بأسره، تحت أسماء وأغطية مختلفة. هذا الداء الذي يفتك بكيان الدول، ويعجل باندثارها، شجع أهل الأطماع والاحتيال، مما جعل النّاس في حالة من الفتور واليأس والخوف الذي يطارد النفوس ليلا ونهارا. وقد أفرز هذا الوضع فقدان الثقة في أولي الأمر، وضعف الولاء لهم، والعزوف عن العمل والإنتاج، والإتقان والإبداع، والسعي إلى الهجرة خارج البلاد.

ومما زاد الوضع سوءا لجوء الظلمة غالبا، إلى إيجاد الأعذار والمبررات لتلك الممارسات الظالمة، التي يقعون فيها بالتفريط في الحقوق ومنعها، أو مجاوزة الحد فيها وتعديه، سواء أكان ذلك تحت وطأة الأهواء أو استبداد الغضب أو سيادة الجهل.

وليست هذه المشكلة مشكلة الإنسان المعاصر فقط، بل هي أعقد مشكلة، وأبشع جريمة عرفتها البشرية منذ القدم، فلقد استأصل الظلم قرى وأمما، ودمر شعوبا ودولا بأكملها، ولذا تنزه الله ﷻ عنه فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[1] وقال ﷻ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾[2] وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[3] فحرّمه على نفسه، وجعله محرما بين عباده؛ فعن النَّبِي ﷺ فِيمَا روى عن اللَّه تبارك وتعالى أَنَّهُ قال: {يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا}[4].

[1] - ق: 29.

[2] - آل عمران: 108.

[3] - غافر: 31.

[4] - أخرجه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، فهرسة محمد بن نزار تميم وهيثم بن نزار تميم، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1999م)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص 1244، رقم (2577).

وبعث ﷻ الرسل وأنزل الكتب؛ لتخرج النّاس من ظلمات الظلم إلى نور العدل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1] أي العدل، ويقابله الظلم. والأمر بالشيء نهي عن ضده، فمقتضى ذلك أن الأمر بالعدل يقتضي النهي عن الظلم، والشارع نهى عن الظلم، وأكد تحريمه في نصوص كثيرة.

والملفت للانتباه إسهاب القرآن الكريم في الحديث عن هذا الموضوع، في مواضع كثيرة منه حيث تكرر لفظ الظلم بصيغه المختلفة في مائتين وخمس وستين آية في ثمان وخمسين سورة، أي فيما يتجاوز نصف سور القرآن الكريم.

هذا بالإضافة إلى ما استخدم من ألفاظ مقاربة، وأخرى مقابلة للفظ الظلم، في مواضع عديدة كلفظ الجور والحيف والضيم والهضم والقسوط والشطط والغشم والجنف والعسف والاضطهاد والرهق والبغي والتعدي والضيز والطغيان والعدل والقسط والميزان ونحوها.

وجاء ذلك بأساليب متنوعة ومتباينة تتراوح بين التصريح والتلميح، والتفصيل والإجمال والتهديد والوعيد، والشدة واللين، والوعظ والإرشاد والأمر والنهي؛ إذ يتحدث مرة عن أنواع الظلم وأسبابه، وتحريم الظلم وذم الظالمين وتهديدهم، ومرة عن التحذير من موالاتهم، أو ما حلّ بهم من عقوبات دنيوية أو إمهالهم وما ينتظرهم من عذاب الآخرة، وفي أحيان أخرى يذكر آثاره المدمرة للعمران ثم يرشد إلى سبل الوقاية منه، ويدعو الظالمين إلى التوبة من الظلم والإقلاع عنه.

ولا شك أن تعرض القرآن الكريم للحديث عن موضوع الظلم بهذا القدر، يدعو إلى إفراده بالبحث والتأليف، ويجعله جديرا بالتأمل والتدبر؛ لبيان جوانبه والكشف عن حقائقه من خلال النصوص القرآنية.

فهل يمكن بالفعل أن نبني من خلال القرآن الكريم موضوعا متكاملا يقدم لنا تصورا واضحا عن الظلم؟ وكيف نظر القرآن إلى هذا الموضوع؟ وما هي الحقيقة القرآنية التي يمكن الوصول إليها من خلال هذا البحث؟ وإذا كان العدل هو الأصل، وأن الظلم انحراف عن الطبيعة، فما الذي يجعل الظلم مستشريا في نسيج الحياة الفردية والجماعية؟ وما هي الأسباب الحقيقية الكامنة وراء انتشار الظلم وميل الناس إليه، وما هي الظروف التي يتراجع العدل فيها؟ وما هي آثار ذلك على الأفراد والدول كما حددها القرآن؟ وكيف عالج هذا الداء؟ وما هي الإجراءات الوقائية الممكنة في ضوء القرآن الكريم؟.

[1] الحديد: 25

وللإجابة على هذه الأسئلة، كان من الضروري بحث هذه الإشكالية، التي يفرض القرآن طرحها، وفقا لما تناوله من أطراف الموضوع، تحت عنوان: "الظلم في ضوء القرآن الكريم: حقيقته- أنواعه- أسبابه- آثاره". وبما أن الهدف هو الوقوف على نظرة القرآن الكريم إلى الموضوع، فإنّه لا يمكن الوصول إليها عن طريق مناهج التفسير التي كانت سائدة، والتي تعتمد على النظرة التجزيئية. بينما يمكن ذلك عن طريق التفسير الموضوعي التجميعي، بل يعد المنهج الأمثل الذي يمكن من خلاله الإجابة عن هذه الأسئلة، وتدبر القرآن الكريم وفق هذه النظرة الشاملة. هذا المنهج الذي يستمد مادته من القرآن الكريم؛ إذ يعتمد على جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع البحث، ثم الغوص في أعماقها لإدراك معانيها، والوقوف على أغراضها ومقاصدها، للخروج بتصور واضح عن الموضوع أو بحقيقة قرآنية فيه.

أهمية الموضوع:

إنّ أهمية الموضوع تجلت في العناية الكبيرة التي أولاها له القرآن الكريم، كما سبق الإشارة إلى ذلك، لما له من أثر في تبصير النّاس بحقيقة الظلم وأنواعه، والتنبيه لبعض صوره التي تكاد تكون خفية، والتحذير من عواقب التمادي فيه، وعدم الاعتراف به أو عدم محاولة التخلص منه، وأضرار اللجوء إلى التبرير والدفاع عن الممارسات الظالمة. ومحاولة الأخذ بأيدي الظالمين إلى مدارج التوبة، والرجوع إلى الله ﷻ قبل حلول الأجل. وتحذير النّاس من ترك النَّهي عن الظلم، والركون إلى الظالمين، ومجاراتهم في ظلمهم، وإعانتهم عليه، والاغترار بما هم فيه من النّعم كالصحة والمال والسلطان، وعدم تعرضهم للعقاب الدنيوي؛ والاحتجاج على ذلك برضوان الله ﷻ عنهم، غفلة عن استدراج الله للظالمين، وإملائه لهم أو إمهالهم وتأخيرهم، رجاء توبتهم من الظلم. ودعوة الظلمة سواء كانوا أفرادا أو دولا إلى الاتعاظ والاعتبار من مآل الأمم الظالمة المستأصلة، وفقه سنن الله والتصرف وفقها؛ لأن سنن الله لا تتبدل ولا تحابي أحدا.

ومما زاد في أهمية الموضوع تأكيد القرآن على أنّ بقاء الدول سواء كانت مسلمة أو كافرة، وسقوطها أو استئصالها، مرهون بالظلم. فيكشف عن شرّ عواقب الظلم الدنيوية التي تستأصل النوع البشري، وتحيل حياته إلى جحيم، إذ يخرب الدول في جميع الميادين علميا واقتصاديا وعمرانيا وعسكريا، ويجعلها عرضة للعدوان، وتخلي شعوبها عن الدفاع عنها، وعدم الحرص على بقائها، بل قد يدفعهم الظلم إلى الرغبة في سقوطها وانهيارها.

وهو ما يبرر حاجة المسلمين إلى فهم حقيقة الظلم، ومعرفة الأسباب التي أدت إلى ظهوره والظروف التي ساعدت على انتشاره، والوقوف على ما أفرزه من آثار مختلفة، كالخوف والقلق وعدم الاستقرار الذي أضحى يهدد النّاس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وغيرها من ضرورات

حياتهم، وانتشار الأمراض المستعصية، والكوارث الطبيعية والاعتداءات المختلفة على مستوى الأفراد والدول. وذلك من أجل اتخاذ الإجراءات اللازمة لعلاج هذا المشكل الذي ظلّ على مرِّ العصور خطرا يلاحق الأفراد، ويهدد كيان الدول، منذ عهد آدم عليه السلام، والسعي من أجل إيجاد السبل التي تُمَكِّن من دفع آثاره والوقاية من عواقبه، واسترجاع الأمن والسلم، والاستقرار والهدوء.

ولا شك أنّ تكوين تصور واضح حول هذا الموضوع، ومعرفة حقيقته، والوقوف على حجم عواقبه وآثاره، وإدراك مدى خطورته على حياة الأفراد والدول، سيكون دافعا قويا لتفادي كل السبل التي تدفع إلى الوقوع في ظلمات الظلم، والعمل من أجل النجاة من عواقبه الوخيمة.

الدراسات السابقة:

رغم أهمية موضوع الظلم إلا أنه لم يحظ- في حدود ما اطلعت عليه- ببحث أكاديمي وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي، يجمع مادته القرآنية ثم يقوم بدراستها وفق الخطوات التي حددها المنظرون لهذا المنهج؛ ليقدم تصورا واضحا عن الموضوع أو نظرية علمية أو حقيقة قرآنية فيه.

وجل ما تحصلت عليه مؤلف تحت عنوان: **"الظلم وأثره على الفرد والمجتمع"** لمحمد بن عبد الله علي الحكمي، ورغم أن عنوان هذا الكتاب تناول موضوع البحث إلا أنّ منهجه يختلف عن منهج هذا البحث، إذ الكتاب عبارة عن دراسة إسلامية عامة، لا تنتمي إلى التفسير عموما، فضلا عن التفسير الموضوعي خصوصا؛ لذلك لم استفد منه كثيرا كما يظهر ذلك واضحا من خلال البحث.

كما حظي بدراسة مستقلة تحمل عنوان **"الظلم وعلاجه على ضوء السنة النبوية"** لأحمد بن عمر بازمول، والدراسة وإن كان محورها يدور حول موضوع الظلم وسبل علاجه، ومبنية على نفس المنهج المعتمد في هذا البحث، وهو المنهج الموضوعي، إلا أنّ اهتمامها لم يتجه إلى جمع النصوص القرآنية بل انصب على الأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع الظلم، ودراستها دراسة موضوعية، فهي تنتمي إلى الحديث الموضوعي، وقد استفدت منها في هذا الجانب.

وعموما فإن معظم الأفكار المتعلقة بموضوع الظلم عبارة عن إشارات سريعة، مبثوثة في بعض الرسائل العلمية التي تناولت قصص الأمم البائدة في القرآن الكريم أو السنن الإلهية، وفي ثنايا تفاسير القرآن، وشروح الأحاديث وفي كتب متنوعة، خاصة كتب علم السلوك والترغيب والترهيب. ولكن ما جاء في هذه الكتب لا يتجاوز عادة السرد لأحاديث نبوية، وآيات قرآنية،

تناولت موضوع الظلم في أحد جوانبه، كما هو الحال في كتاب مساوئ الأخلاق أو صياغة الموضوع بأسلوب الوعظ والإرشاد.

وربما لو استثنينا كتاب "**وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم**" الذي أفرد لهذا الموضوع جزءا كاملا من أصل أربعة أجزاء، ويتكون من أربعة مباحث، بذل فيه صاحبه عبد العزيز بن ناصر الجليل جهدا طيبا وواضحا على الرغم من قصره، فإنّه في حدود علمي، لا توجد دراسات تناولت هذا الموضوع، وفق منهج التفسير الموضوعي.

أسباب اختيار الموضوع:

من أهم الحوافز التي كانت وراء الرغبة في بحث هذا الموضوع ما يلي:

1- الواقع المأساوي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، بسبب ما تتعرض له من اعتداءات وتجاوزات من قبل اليهود والصليبين والوثنيين، وما يمارس عليها من صور الظلم المختلفة، والتي كان لها الأثر الكبير في إحساس الشعوب بالقهر واليأس، والذل والهوان، وفقدان العزة والكرامة. هذا الواقع الذي يدعو الغيورين من أبناء هذه الأمة لاسيما أصحاب الكفاءات إلى الإسراع في البحث عن مخرج يعيد لها عافيتها، ويحفظ لها عزها وكرامتها، ويحقق لها الأمن والطمأنينة، ويكفل لها الحياة الطيبة.

2- انتشار الظلم بجميع صوره في كثير من الدول، إذ أصبح أمرا مألوفا، حيث يظلم القوي فيها الضعيف، ويجد الأغلبية تؤيده، وتنصره على المظلومين، وتصفه بالحكمة والعدل وحسن التصرف، حتى اختلطت على النَّاس الحقائق والموازين، وسادت حالة الفتور والخوف على الأديان والأبدان والأموال والأعراض والحريات، وتخلي أغلب أهل الفضل والصلاح والقوة على إنـــكار الظلم؛ فغاب النهي عن الظلم، والأخذ على يد الظالم، وعزَّ ناصر المظلوم، ولعلّ الأغرب أن يقنن للظلم باسم العدل على مستوى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدّولي.

3- امتلاء المحاكم بالمظالم والخصومات والتراعات المختلفة.

4- غنى النصوص القرآنية التي تتطرق إلى الظلم ومشكلاته وأنواعه وآثاره المختلفة وسبل الوقاية منه. وتأكيدها على أن استئصال الدول، وسقوط الحضارات مرهون بالظلم.

5- افتقار مكتبة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى دراسة علمية أكاديمية في هذا الموضوع رغم أهميته، وعظيم الحاجة إليه لاسيما في عصر استبد فيه الظلم، وانقلبت الموازين، واختلطت المفاهيم؛ إذ كل ما تتوفر عليه المكتبة الإسلامية عموما -حسب علمي- لا

يتجاوز معالجة لبعض جوانبه، التي جاءت مبثوثة في بعض الرسائل العلمية التي تتمحور موضوعاتها حول سنن الله في سقوط الأمم وإهلاكها أو قصص الأمم البائدة أو في كتب علم السلوك والترغيب والترهيب، وغالبا ما تكون إشارات سريعة وقصيرة لا تروي ظمأ الباحث، ولا تفي بحاجة المسلمين إلى فهم هذا الموضوع.

6- الإلحاح الذاتي في تجسيد منهج التفسير الموضوعي التجميعي، من خلال هذا البحث، لاسيما بعد تطبيق منهج التفسير الموضوعي الكشفي على سورة البقرة في رسالة الماجستير. وهذا لاستكمال مناهج هذا اللون من التفسير، وتكوين نظرة شاملة، وتصور واضح عن هذا المنهج الذي فرض نفسه في العصر الحديث بقوة، وإن كانت له جذور في القِدم.

7- الرغبة في التواصل الدائم مع القرآن الكريم، والتفاعل مع أجوائه، والتفيؤ تحت ظلاله، والارتواء من ينبوع حكمته، والاستنارة بهديه، فهو مصدر الكمال الديني والدنيوي الذي تتبارى فيه النفوس الأبيّة، وتطمح إليه الهمم العالية، والسبيل الوحيد الذي يحقق السعادة والشعور بالأمن والطمأنينة، وإن فاتني ذلك كله وفاتني أجر الصواب، فأطمع ألا يفوتني ثواب القراءة والتأمل والتدبر.

الأهداف:

أما الأهداف المتوخاة من خلال هذا البحث فيمكن إجمالها فيما يلي:

1- تكوين تصور شامل وواضح، حول موضوع الظلم، من خلال القرآن الكريم، وبيان أنواعه وصوره، وأهم الأسباب التي تدفع إلى الوقوع فيه، والكشف عن آثاره وعواقبه الوخيمة على الأفراد والدول؛ ودوره في نشر الخراب والفساد في الأرض، وإضعاف الدول أو استئصالها عن آخرها، والخروج بنظرية علمية- حقيقة قرآنية- فيه.

2- كما توخيت من خلال هذا البحث أن تدرك الأمة الإسلامية مدى خطورة الظلم على حياة الأفراد والدول، فتسعى جاهدة لوقف استمراره، وتُوَّحد الجهود لمنع استشرائه، والأخذ على أيدي الظالمين ونصرة المظلومين، ونشر جناح العدل.

3- المساهمة في النهي عن الظلم، والتحذير منه بشتى صوره وأنواعه، ودعوة الظالمين إلى الكف عن الظلم قبل أن يكون القصاص بالحسنات، وتسلية المظلومين وتثبيتهم، وبيان سنن الله في إمهال الظالمين واستدراجهم.

4- المساهمة في إثراء مكتبة التفسير الموضوعي بدراسة حول هذا الموضوع، وفق المنهج التجميعي.

المنهج:

بما أنّ هذا البحث اعتمد منهج التفسير الموضوعي التجميعي؛ فإنّ هذا المنهج فرض استخدام عدة آليات وأدوات، كان أولها استقراء القرآن الكريم، وجمع الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع، والتي تعد بمثابة المادة العلمية له، لاسيما التي تناولته بصريح اللفظ.

وبعد الاستقراء وجمع المادة العلمية جاء دور التحليل والتفسير؛ تحليل الآيات القرآنية والغوص في أعماقها، لإدراك معانيها، والكشف عما تحمله من علل وأسباب، استنادا إلى ما ورد بشأنها من تفسير وآراء، والإطلاع على ما كتب في الموضوع قديما وحديثا، ومعرفة ما توصل إليه الفكر الإنساني فيه، وما بقي في حاجة إلى بيان أو حلول. واكتشاف العلاقة بين عناصرها، وموضوعاتها الجزئية، وطبيعة العلاقة التي تربطها بالموضوع الكلي، ومعرفة المقاصد والأغراض التي ترمي إليها.

وهذا لا يعني الاستغناء عن بقية المناهج لأنها في الحقيقة تخدم بعضها بعضا، وقد كنت ألجأ أحيانا للمنهج المقارِن من أجل الموازنة بين مختلف الآراء والأفكار المتعلقة بالموضوع .

تحرير المادة العلمية المتعلقة بالموضوع، وصياغتها وفق مخطط البناء الكلي للموضوع الذي تترابط فيه الموضوعات الجزئية فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين الموضوع الكلي من جهة أخرى؛ لتمكين القارئ من إدراك الكل إدراكا شاملا، ثم تسجيل أهم الحقائق والنتائج التي تم التوصل إليها.

طريقة تنفيذ المنهج:

اعتمدت في كتابة البحث على مجموعة من الأدوات والآليات، يمكن تحديدها فيما يلي:

1- كتبت الآيات القرآنية بخط مخالف لخط متن الرسالة مع الشكل؛ تمييزا لها، وعزوتها إلى مواضع ورودها في القرآن الكريم، بذكر اسم السورة ورقم الآية في الهامش.

2- أما الأحاديث النبوية والآثار فأوردتها مشكولة، دون أن أجعل لها خطا مغايرا منعا من الالتباس بينها وبين الآيات القرآنية. وخرجتها جميعا، وعزوتها إلى مواضعها في كتب السنة، بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث إن وجدت هذه المعلومات، مراعيا تقديم الكتب التسعة، أما إذا لم يرد الحديث في هذه الكتب، فألجأ إلى غيرها من كتب السنة، ولا أكتفي بالتخريج من الصحيحين، وإن اتفقا في رواية الحديث إلا نادرا. وتجنبت قدر المستطاع الاستشهاد والاستئناس بالأحاديث الضعيفة، فضلا عن

الموضوعة، إلا في مواضع نادرة تستدعيها؛ لغياب النقل الصحيح، ومع ذلك أذكر الحديث وأشير إلى ما قاله أهل التخصص في درجته في الهامش.

3- حرصت على الأمانة العلمية في نقل النصوص والأفكار المقتبسة وأقوال العلماء؛ فعزوتها إلى أماكنها في المصادر المختلفة، ورتبت العزو إليها تبعا لأقدميتها التاريخية.

4- عرفت بالأعلام الواردة أسماؤهم في البحث، سيان في ذلك بين الشخصيات والأماكن والبلدان إلا ما فاتني سهوا، ولم أفرق بين المشهور منها والمغمور باستثناء زوجات النبي ﷺ وحرصت ألا تكون الترجمة مُخلَّة.

5- عنيت بتفسير الكلمات والألفاظ الغريبة الواردة في ثنايا البحث، سواء في الأحاديث أو النصوص المقتبسة، لفك ما فيها من غرابة مستعينة بالمعاجم اللغوية وشروح الحديث.

6- تفاديت قدر الإمكان الخوض في المسائل الخلافية المختلفة، التي لا تخدم الهدف من بحث هذا الموضوع، وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي، إلا ما اقتضاه المقام في النادر.

7- اجتهدت في إخراج البحث في صورة خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية والمطبعية إلا ما وقع غلبة.

8- ذيلت الرسالة بفهارس علمية للآيات، والأحاديث والآثار والأعلام والمصادر والمراجع فجاءت وفق هذا الترتيب تبعا للأولوية، ولما درجت عليه البحوث في ميدان العلوم الإسلامية. وكل واحد منها على حده مرتب ترتيبا هجائيا مع إهمال "أبو" و"ابن" و"أل" التعريف، ودون تمييز بين الأحاديث والآثار ولا بين المصادر والمراجع، إلا فهرس الآيات فأخضعته لنظم المصحف الشريف، وفهرس الموضوعات استجاب لترتيب البحث.

9- أما ثبت المصادر والمراجع فبنيته على ما اشتهر به المؤلف من اسم أو لقب فالاسم كاملا، فعنوان الكتاب، وبقية معلومات النشر -الناشر، المكان، الطبعة، والتاريخ- إن وجدت وإلا رمزت لها (د.ط.ت) يليها رقم المجلد والجزء إن وجدا ثم رقم الصفحة. وهي نفس الطريقة المعتمدة في توثيق الإحالات في الهوامش ماعدا الاسم فأذكره بالترتيب كاملا. هذا إذا ذكرت هذه المعلومات لأول مرة، أمَّا إذا تكررت فأكتفي بالمعلومات الأساسية، وهي الاسم الشهير للمؤلف، فعنوان الكتاب ثم المجلد والجزء والصفحة.

خطة البحث:

و لتحقيق هذا الغرض تم تقسيم البحث إلى **تمهيد وأربعة فصول**، تم تخصيص **التمهيد** لبيان حقيقة الظلم ومعانيه لغة واصطلاحا، وتحديد العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي. ويليه

الفصل الأول الذي تناول أنواع الظلم عبر **مبحثين** يعالج **المبحث الأول** الظلم العقدي، **والثاني** الظلم الاجتماعي، أمَّا **الفصل الثاني** فتتبع دوافع الظلم، وجاء مجسدا في **ثلاثة مباحث** عالجت على التوالي: في **الأول** اتباع الهوى والظن، وفي **الثاني** الجهل والاستكبار والترف، وفي **الثالث** الحسد والانتقام وغياب النهي عن الظلم، أمَّا **الفصل الثالث** فقد كشف عن آثار الظلم وعواقبه، وتم توزيعه على **ثلاثة مباحث** عالجت على التوالي: ذهاب الأمن ونزول القحط، الحرمان من الهداية والفلاح، سقوط دولة الظلم. أمَّا **الفصل الرابع** فتطرق لسبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج، ويعالج من خلال **أربعة مباحث:** تجنب الركون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم ثم الانتصار والعفو عند المقدرة، ثم الدعاء والاعتبار، وأخيرا التوبة من الظلم وإنكار حصوله، واختتمت البحث **بخاتمة** سجلت أهم النتائج التي توصل إليها البحث والمقترحات.

مصادر البحث ومراجعه:

بذلت وسعي في الوقوف على أكبر قدر ممكن من المصادر والمراجع التي تخدم الموضوع، وتساهم في إتمامه وإنضاجه؛ فاطلعت على كثير منها، وتمكنت من الاستفادة من أزيد من مائتي كتاب، أشير إليها في ثبت المصادر والمراجع؛ اعترافا لأصحابها بالفضل كما هو مقيد في آخر الرسالة.

وجاءت متنوعة، بين التفسير والحديث والمعاجم وكتب التراجم، وغيرها من المصادر والمراجع التي لا يستغنى عنها في البحوث العلمية، التي تنتمي إلى دائرة العلوم الإسلامية؛ وذلك لتلبية حاجة البحث ومقتضياته، وتصدرتها كتب التفسير التي كان لها الحظ الأوفر؛ لأنها المصدر الثاني للبحث بعد القرآن الكريم؛ نظرا لطبيعة المنهج المعتمد فيه، وهو التفسير الموضوعي التجميعي الذي يستمد مادته من القرآن الكريم بالدرجة الأولى ثم السنة الصحيحة في المرتبة الثانية، والتفاسير بدورها تنوعت بين الأثري والعقلي باتجاهاته المتعددة.

الصعوبات:

من الصعوبات الموضوعية التي واجهتني خلال مرحلة إعداد البحث، سعة الموضوع، وكثرة دوران الظلم في القرآن الكريم، حيث ورد في مواضع كثيرة، قاربت الثلاث مائة موضعا، مما أدى إلى صعوبة الإلمام بمختلف جزئياته، والإحاطة بجميع أطرافه، واستيعاب مختلف صوره مع كثرتها، بحيث لا يكاد يعرف بعضها لشدة خفائها؛ إذ الظلم يتناول جميع السيئات والمعاصي، حتى أنه لا يكاد يسلم امرؤ من أدنى صور الظلم وإن نجا من أعظمها.

وفي الختام: أشكر الله ﷻ الذي وفقني إلى إتمام هذا البحث، شكرا يوافي نعمه ويكافئ فضله، ثم خالص الشكر والدعاء إلى فضيلة الأستاذ المشرف الدكتور أحمد رحماني الذي فتح لي أبواب بيته ومكتبته، وبذل الكثير من الوقت والجهد في قراءة البحث، وظلّ وراء إنجازه بتوجيهاته العلمية وملاحظاته القيمة، وتحفيزاته المتواصلة، في طلاقة وجه ورحابة صدر كان لها الأثر البليغ في إتمام البحث، فأسأل الله أن يبارك له في علمه وعمره، وأن يجزل له الأجر والمثوبة.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر إلى السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة، الذين تحملوا عبء قراءة وتقييم هذا البحث رغم كثرة انشغالاتهم.

كما اغتنم هذه الفرصة لأتوجه بالشكر إلى جميع القائمين على إدارة كلية العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية متمثلة في السيد العميد، وهيئة المجلس العلمي ونواب العميد، ورؤساء الأقسام، سائلة العلي القدير لهم التوفيق والسداد.

ووافر شكري لأختيّ: فراح دهيلي وسليمة اللتين لهما أياد سابغة على البحث أعُد منها ولا أُعَددها.

ولا يفوتني أن أثني على كل من صنع إلي معروفا، وأخص بالذكر: الأخوين الفاضلين عبد الحكيم الوهابي ولخضر ألحانية.

فلهم مني جميعا خالص الدعاء، ومن الله ﷻ الأجر والجزاء.

وأخيرا، لا أدّعي أني وفيت بالمراد أو أتيت به على وجه التمام، ولكن بذلت وسعي في أن أوافق الصواب، فإن وفقت فذاك ما رجوت، وإن أخطأت فمن طبيعة البشر، إذ قلّما يخلص باحث من الهفوات أو ينجو من العثرات، وحسبي أنني حاولت.

وإني أسأل الله ﷻ أن يغفر لي وينفع بهذا العمل، إنه سميع مجيب.

وصلي اللّهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.




تمهيد

تمهيد: حقيقة الظلم

يستدعي عنوان البحث قبل الحديث عن محاوره الأساسية الوقوف أولا عند لفظ الظلم لبيان حقيقته في اللغة، هذه الحقيقة التي يتفق فيها عادة اللغويون كما سيظهر ذلك من خلال التعريفات الواردة في بيان أصل الظلم، ثم تثنيته بالاستعمال الاصطلاحي الذي يكثر عادة حوله الخلاف، وهو ما يقتضي النظر والتأمل والمقارنة لتحديد أوجه الاتفاق والاختلاف.

أولا: تعريف الظلم في اللغة

يقال ظَلَمَه يَظْلِمُهُ ظَلْماً وظُلْماً ومَظْلِمةً، فالظَّلْمُ مَصْدرٌ حقيقيٌّ والظُّلمُ الاسمُ يقوم مَقام المصدر، وهو ظالمٌ وظَلوم، وتَظَلَّم منه شَكا مِنْ ظُلْمِه وتَظَلَّم الرجلُ أحالَ الظُّلْمَ على نَفْسِه. ويقال تَظَلَّمَ فُلانٌ إلى الحاكم مِنْ فُلانٍ فظَلَّمَه تَظْليماً أي أنْصَفَه مِنْ ظالِمه وأَعانَه عليه. وظَلَّمْتُ فلانا: نسبتُه إلى الظُّلمِ. وظَلَمْتُ فلاناً فاظَّلم وانْظَلَم، إذا احتمل الظُّلْم. والظُّلاَمة اسم ما تطلبه من مَظْلِمَتِكَ عند الظَّالم، والجمع المظالم.[1]

والمُتَظَلِّمَ من الأضداد؛ إذ يطلق على المظلوم والظالم.[2]

[1]– أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، (1399هـ/1979م)، 469/3؛ محمد بن مكرم الإفريقي المصري بن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلا كاملا ومذيلة بفهارس مفصلة، د.ت، 2757/4.

[2]– أبو الطيب عبد الواحد بن علي العسكري، كتاب الأضداد في كلام العرب، تحقيق عزة حسن، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط2، (1996م)، ص300.

و قد عُرِّف الظلم في اللغة عدة تعريفات، تكاد كلها تتفق في معناه، وسأذكر أهمها تبعا لأسبقيتها لتتسنى الموازنة بينها، ومنها:

ما ورد عند الفراهيدي[1] (100-175هـ) من أن الظُّلم يقع على معنيين[2]:

الأول: أخذُ حقّ الغَيْر.

الثاني: الشِّرْك، واستدل بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[3]

وقال ابن دريد[4] (ت 321هـ) في معنى الظلم: "الظلم مصدر ظلمته أظلمه ظلما، وأصل الظلم وضعك الشيء في غير موضعه ثم كثر ذلك حتى سمي كل عَسْفٍ ظُلما".[5]

وذهب ابن فارس[6] (ت 395هـ) في بيان أصل هذا اللفظ إلى أنّ: الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غيرَ موضعه تعديا. فالأول الظُّلمة. والأصل الآخر: ظَلَمَه يَظْلِمُه ظُلْمًا. والأصل وضعُ الشَّيءِ في غير موضعه؛ ألا تراهم يقولون: "من أشبه أباه فما ظَلَم" أي ما وضع الشَّبه غيرَ موضعه.[7]

---

[1]- الفراهيدي هو: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي. ولد سنة (100هـ). كان إماماً في علم النحو، وهو الذي استنبط علم العروض، وأخرجه إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر، يستخرج منها خمسة عشر بحراً. وقيل إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجه ففتح عليه بعلم العروض، وله معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض. توفي سنة (175هـ). [أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، (1994م)، 244/2، برقم (220)].

[2]- أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران،ط2، (1409هـ)، 162/8.

[3]- لقمان: 13.

[4]- هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، من أزد عمان من قحطان. من أئمة اللغة والأدب، تقلد ديوان فارس لآل ميكال ومدحهم. كتبه كثيرة. توفي سنة (321هـ). [خير الدّين الزركلي، ترتيب الأعلام على الأعوام، رتبه وعلّق عليه زهير [illegible] شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، د.ط، (1411هـ/1999م)، 269/1، برقم (80/6)].

[5]- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، كتاب جمهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف، بلدة حيدر آباد، الدكن، ط1، (1344هـ)، 134/3.

[6]- هو: الإمام العلامة، اللغوي المحدث، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، المعروف بالرازي، المالكي اللغوي، نزيل همذان. كان رأسا في الأدب، جمع إتقان العلم إلى جانب الكتابة والشعر. توفي بالري في صفر سنة (395هـ). [شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1403هـ/1983م)، 103/17-106، برقم (65)].

[7]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (1399هـ/1979م)، 468/3.

والعلاقة بين الأصل الأول والثاني هي أنّ "الظُّلم ظلمة كما أنّ العدل نور {الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[1] ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[2]".[3] وإذا كان الظلام يمنع الرؤية ويسدها فإن الظُّلم أيضا ظلمة ترين على القلوب فتمنعها من رؤية الحق وأداء الحقوق إلى أهلها ووضع الأمور في الموضع المناسب لها شرعا.

وقد استفاد الرّاغب الأصفهاني[4] (ت 502هـ) من جهود السابقين في تعريفه للظلم فذكر له معنيين في قوله: "والظلم عند أهل اللّغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إمّا بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السقاء إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك اللبن الظليم. وظلمت الأرض حفرتها ولم تكن موضعا للحفر وتلك الأرض يقال لها المظلومة والتراب الذي يخرج منها ظليم. والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجرى مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز. ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفى الذنب الصغير ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم وفى إبليس ظالم وإن كان بين الظلمين بون بعيد".[5]

ويقول الجوهري[6] (ت453هـ) في بيان معنى الظلم: "وأصله وضعُ الشيء في غير موضعه. ويقال: "من أشبهَ أباه فما ظَلَمَ". وفي المثل: من استَرعى الذئبَ فقد ظَلَمَ".[7]

---

[1]- أخرجه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (1424هـ/2003م)، كتاب المظالم والغصب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، ص429، برقم (2447)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص1245، برقم (2579)، كلاهما من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

[2]- الزمر: 70.

[3]- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عُيون السُّود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، (1419هـ/ 1998م)،626/1.

[4]- هو: أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، أديب، من الحكماء العلماء. سكن بغداد، واشتهر حتى قُرن بالغزالي. من كتبه "محاضرات الأدباء" وغيره. توفي سنة (502هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 351/1، برقم (255/2)].

[5]- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، غريب مفردات القرآن، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1425هـ/2004م)، ص352-354؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 541/3.

[6]- هو: أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري، من أصل تركي، دخل العراق صغيرا، وطاف بالحجاز ثم أقام في نيسابور. كان من أشهر لغويي عصره وله مؤلفات في ذلك، وكان مولعا بالاختراع، وركز جهوده في الطيران، فصنع لنفسه جناحين من خشب وحاول التحليق لكنه سقط أرضا قتيلا سنة (394هـ/1003م). [باقر أمين الورد، معجم العلماء العرب، مراجعة الأستاذ كوركيس عواد، مكتبة النهضة العربية، ببيروت، ط1، (1406هـ/1986م)، 96/1، برقم (115)].

[7]- إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، (1990م)، 1977/3.

و لم يخرج عن هذا المعنى ما ورد عند الْفَيُّومِي[1] (ت770هـ) حيث قال: "الظُّلْمُ اسْمٌ مِنْ ظَلَمَهُ ظَلْمًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ ... وَأَصْلُ الظُّلْمِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ".[2]
ويطلق الظُّلْم عند بعض اللغويين ويراد به:[3]

أولا: وَضْع الشيء في غير موضِعه، ومن أمثال العرب في الشَّبه، مَنْ أَشْبَهَ أَباه فما ظَلَم، قال الأصمعي:[4] ما ظَلَم، أي ما وضع الشَّبه في غير مَوْضعه. وفي المثل: "من اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فقد ظلمَ".

ثانيا: وأصل الظلم الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدِّ، أو النقصان والزيادة، ومنه حديث الوُضُوء: {فَمَنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ}[5] أي أَساءَ الأدبَ بتَرْكِه السُّنَّةَ والتَّأَدُّبَ بأَدَبِ الشَّرْعِ وظَلَمَ نفْسه بما نَقَصَها من الثواب بتَرْدادِ المَرّات في الوُضوء.

ومنه قوله ﷻ: **﴿آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾**[6] أي لم تنقص منه شيئا، وقوله ﷻ: **﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[7] أي: ما نقصونا شيئا بما فعلوا ولكن نقصوا أنفسهم. وقوله تعالى: **﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾** [8] أي ما نقصونا بفعلهم من مِلْكنا شيئاً ولكن نَقَصُوا أنفسهم وبخسوها حقها. والعرب تقول: ظلم فلان سِقَاءه، إذا سقاه قبل أن يُخرج زبده، أي قبل وقته.
ويقال: ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعا لم يكن ناله فيما خلا ولا بلغه قبل ذلك.

---

[1]- هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، لغوي اشتهر بكتابه "المصباح المنير". سكن حماة فكان من خطبائها. له "نثر الجمان في تراجم الأعيان". توفي سنة (770هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 482/1، برقم (224/1)].

[2]- أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير: معجم عربي-عربي، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، (1424هـ/2003م)، ص230.

[3]- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق يعقوب عبد النبي، مراجعة محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، (د.ط.ت)، 382/14- 388؛ ابن منظور، لسان العرب، 2756/4-2760؛ مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، (1425هـ /2004م)، ص577.

[4]- هو: الإمام العلامة الحافظ، حجة الأدب، لسان العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن عدنان الأصمعي البصري، أحد الأعلام، ولد سنة بضع وعشرين ومائة. تصانيفه ونوادره كثيرة، وقد فقد أكثرها. مات سنة (215هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 175/10-180، برقم (32)].

[5]- أخرجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (1395هـ/1975م)، كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه، 146/1، برقم (442).

[6]- الكهف: 33.

[7]- النحل: 118.

[8]- البقرة: 57؛ الأعراف: 160.

ثالثا: المَيْلُ عن القَصد أو العدول عن الحق إلى الباطل: والعرب تَقُول الْزَمْ هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِمْ عنه أي لا تَجُرْ عنه.

ويطلق الظلم على الكفر والشرك ويسمى كل من الكافر والمشرك ظالما؛ لأنهما يعدلان عن الحق إلى الباطل، قال ﷻ: ﴿**فَظَلَمُوا بِهَا**﴾[1] أي بالآيات التي جاءتهم؛ لأنهم لما كفروا بها فقد ظلموا، وقال: ﴿**وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾[2] أي بشركٍ. ومنه قول لقمان: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[3] يعني أن الله تعالى هو المُحْيي المُمِيتُ الرزّاقُ المُنْعِم وَحْده لا شريك له فإذا أُشْرِك به غيره فذلك أَعْظَمُ الظُّلْمِ لأنه جَعل النعمةَ لغير ربِّها، وقال: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾[4] أي بكفرهم وعصيانهم، ومن كفر بالله أو جعل مع الله شريكا، فقد عَدَل عن الحق إلى الباطل، فالكافر ظالم لهذا الشأن.

ويقال: أخذ في طريق فما ظَلَمَ يمينا ولا شمالا أي ما عدل، والمسلم ظالمٌ لنفسه لتعَدِّيه الأمور المفترضة عليه. ومنه قوله: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**﴾.[5]

رابعا: أخذ حق الغير: يقال: لهو أظلم من حَيَّةٍ، لأنها تأتي الجُحر لم تحفره فتسكنه.

خامسا: المنع: يقال: ما ظَلمك عن كذا، أي ما منعك. والظَّلَمةُ المانعون أهل الحقوق حقوقهم.

وتابع الجرجاني[6] (740-816هـ) السابقين في أن أصل: "الظلم: وضع الشيء في غير موضعه".[7]

ولم يخرج عن هذا المعنى تعريف الفيروز آبادي[8] (729-817هـ) حيث قال: "الظُّلْمُ، بالضم وضْعُ الشيءِ في غير مَوْضِعِه".[9]

1- الأعراف: 103.

2- الأنعام: 82.

3- لقمان: 13.

4- النمل: 52.

5- الأعراف: 23.

6- هو: علي بن محمد الشريف الجرجاني. ولد في تاكو قرب أستراباد سنة (740هـ). فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية. كان بشيراز [illegible] تيمور، له نحو 50 كتابا، منها "التعريفات" وغيره. توفي سنة (816هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 502/1، برقم (7/5)].

7- علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، (1985م)، ص148.

8- هو: مجد الدّين محمد بن يعقوب بن فضل الله الفيروز آبادي الإدريسي الشافعي، لغوي مشارك في عدة علوم. ولد بشيراز سنة (729هـ/1329م) ونشأ بها. أخذ الأدب واللغة عن والده وغيره من علماء شيراز. أخذ عنه الصفدي وابن عقيل. توفي بزبيد سنة (817هـ/1414م). من تصانيفه: القاموس المحيط، تنوير المقياس وغيرها. [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1414هـ/1993م)، 776/3-777، برقم (16426)].

9- مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 145/4-146.

وفي الحدود الأنيقة: الظلم: "وضع الشيء في غير موضعه، يقال: ظَلَمَ الشَّعرُ إذا ابيضَّ في غير أوانه".[1]

وقال الزبيدي[2] (ت 1205هـ): "الظلم بالضم التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد".[3]

وبالنظر في هذه التعريفات يتبين أنّ معنى الظلم في اللغة لا يخرج عن هذه المعاني:

وضع الشيء في غير موضعه، الجور ومجاوزة الحدّ، الميل عن القصد أو العدول عن الحق إلى الباطل، أخذ حق الغير أو المنع؛ التصرف في ملك الغير. ولا تعارض في الحقيقة بين هذه المعاني.

وإذا كانت هذه معاني الظلم في اللغة، فهل استخدمه العلماء في الاصطلاح بنفس المعنى؟ هذا ما سيحاول البحث الإجابة عنه من خلال العنوان اللاحق.

ثانيا: تعريف الظلم في الاصطلاح

وفي ضوء الحقيقة اللغوية جاءت التعريفات الاصطلاحية للظلم، وبنيت عليه فلم تخرج في عمومها عن معناه، ومن بينها:

تعريف الرازي[4] (544-604هـ) الذي مفاده أن الظلم: "في عرف الشرع عبارة عن الضرر الخالي من نفع يزيد عليه ودفع مضرة أعظم منه والاستحقاق عن الغير في علمه أو ظنه، فإذا كان الفعل بهذه الصفة كان فاعله ظالماً".[5]

---

[1]- زكريا بن محمد الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، تحقيق وتقديم مازن المبارك، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1991م)، ص73.

[2]- هو: أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الملقب بمرتضى، لغوي، نحوي، محدث، أصولي، أديب، مشارك في عدة علوم. أصله من العراق ومولده في بلجرام شمال الهند سنة (1145هـ/1732م). نشأ في زبيد باليمن. توفي بالطاعون بمصر سنة (1205هـ/1792م). من تصانيفه: تاج العروس، معجم المشايخ وغيرها. [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 681/3، برقم (15801)].

[3]- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، تحقيق إبراهيم الترزي، مراجعة سلامة رحمة، مصطفى حجازي، عبد اللطيف محمد الخطيب، مطبعة الفيصل، الكويت، ط1، (1421هـ/2001م)، 32/33.

[4]- هو: محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري الطبرستاني الرازي فخر الدّين، المعروف بابن الخطيب الشافعي، الفقيه. ولد بالري سنة (543هـ)، وتوفي بهراة سنة (606هـ)، له من التصانيف: الآيات البيّنات وأحكام الأحكام وغيرها. [إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1413هـ/1992م)، 107/6-108].

[5]- فخر الدّين الرّازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، طبعة جديدة مصححة ومخرجة آيات الشواهد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1990م)، 71/3.

أمّا الجرجاني (740-816هـ) فذكر للظلم تعريفين؛ فقال بأنّه: "عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجَوْر، وقيل: هو التصرف في مُلك الغير ومجاوزة الحد".[1]

ووافقه في الأول تعريف زكريا بن محمد الأنصاري[2] (824-926هـ) الذي يدل على أنّ الظلم عبارة عن: "التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجوْر".[3]

كما وافقه في المعنى الثاني صاحب التفسير الوسيط في أن "الظلم: مجاوزة الحدود التي شرّعها الله تعالى".[4]

أمّا ابن حجر العسقلاني[5] (ت 852هـ) فقال: "الظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي".[6]

وهو الذي ذكره أبو السعود العمادي[7] (898-982هـ) في تفسيره، فقال: "عبارة عن وضع الشيءِ في غير موضعِه الذي يحِقُّ أن يوضعَ فيه".[8]

وجمع تعريف الكَفَوي[1] (ت1094هـ/1683م) بين عدة معان للظلم فقال: "الظلم "بالضم": وضع الشيء في غير موضعه؛ والتصرف في حق الغير؛ ومجاوزة حد الشارع. ومن الأول: "من استرعى الذئب فقد ظلم".[2]

---

[1]- الجرجاني، التعريفات، ص148.

[2]- هو: زكريا بن محمد الأنصاري، السنيكي المصري الشافعي، شيخ الإسلام. ولد سنة (824هـ)، ونشأ فقيرا معدما ثم مالت عليه الدنيا، فجمع نفائس الكتب وألّف الكثير، منها: "تحفة الباري على البخاري". [الزركلي، ترتيب الأعلام، 544/1، برقم (46/3)].

[3]- الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، ص73؛ محمود عبد الرحمن عبد النعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ط.ت)، 450/2.

[4]- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، (د.ط.ت)، 110/14/8.

[5]- هو: الحافظ، العالم الفاضل المحقق العلامة المدقق، شهاب الدّين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. من أئمة العلم والتاريخ. صنّف "تجريد التفسير من صحيح البخاري"، و"الإحكام لما وقع في القرآن من الإبهام". وكانت وفاته سنة (852هـ). [أحمد بن محمد الأدنه وي، طبقات المفسرين، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، (1417هـ/1997م)، ص329-330، برقم (425)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 515/1، برقم (178/1)].

[6]- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، كتاب استتابة المرتدين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، 277/12، شرح حديث رقم (6675).

[7]- هو: محمد بن مصطفى أبو السعود العمادي، صاحب التفسير المعروف باسمه، من علماء الترك المستعربين، ولّي القضاء والإفتاء، وألّف الكثير. توفي سنة (982هـ) ودفن جوار أبي أيوب الأنصاري. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 561/1، برقم (597)].

[8]- محمد بن مصطفى أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1999م)، 313/1.

وحول هذه المعاني يدور المعنيان اللّذان وردا عند ابن عاشور[3] حيث قال: "الظلم الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان صالحان".[4]

وجاء في معجم لغة الفقهاء أنه: "الجور ومنع الحق".[5]

وقال الشعراوي[6] في معنى الظلم: "إنه نقل الحق لغير صاحبه".[7] والحق قد يكون لله ﷻ على عباده، وهو أعظم الظلم أو للخلق فيما بينهم.

ومن خلال المقارنة بين هذه التعريفات يلاحظ أنّ تعريف الرازي جاء مختلفا من حيث اللفظ تماما عما ورد في التعريفات الأخرى، إذ احتكم إلى معيار الضرر والمنفعة الشرعية لتعريف الظلم، فجعل من الضرر الخالص المحض والمشوب بمنفعة ولكنها أقل منه، والذي لا يدفع مضرة أعظم منه، والعلم أو الظن بعدم الأحقية بالشيء ظلما. وضرب مثلا بفاعل ما يؤدي إلى العقاب والنار، حيث يظلم نفسه، ويسمى ظالما، وإن كان يجلب منفعة ولذة عاجلة كالمشرك.

أمّا بقية التعريفات فإنّ طائفة منها تتفق في أنّ الظلم في الاصطلاح عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، والثانية في أنه التصرف في حق الغير وإن قيّده ابن عاشور بما لا

---

[1]- هو: أيوب بن موسى الحُسَيْني القريمي الكَفَوي، المكنى بأبي البقاء. صاحب "الكليات". من قضاة الأحناف، ولّي القضاء في كفه بتركيا وغيرها، له كتب بالتركية، توفي سنة (1094هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 604/1، برقم (38/2)].

[2]- أبو البقاء أيوب بن موسى الحُسَيْني الكَفَوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، فهرسة عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، (1419هـ/1998م)، ص594- 595.

[3]- هو: محمد الطاهر بن عاشور، ولد بتونس سنة (1296هـ/1879م). رئيس المفتيين المالكيين بتونس، وقد كانت دراسته بها، عيّن عام (1932م) شيخا للإسلام مالكيا. له مصنفات مطبوعة منها: مقاصد الشريعة الإسلامية، التحرير والتنوير في تفسير القرآن. توفي سنة (1393هـ/1973م). [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 363/3].

[4]- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، (1984م)، 680/1/1.

[5]- محمد قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، عربي-انكليزي مع كشاف إنكليزي- عربي بالمصطلحات الواردة في المعجم، وضع حامد صادق قنيبي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، (1408هـ/1988م)، ص296.

[6]- هو: محمد بن متولي الشعراوي المصري، داعية إسلامي كبير، مفسر من المعاصرين. ولد سنة (1329هـ) بقرية دقادوس بمصر، حفظ القرآن وهو صغير، التحق بالأزهر بكلية اللغة العربية. تولى التدريس بطنطا والإسكندرية، وأعير للملكة العربية السعودية مدرسا ثم أستاذا زائرا بجامعة الملك عبد العزيز، وتولى مناصب عديدة كان آخرها وزيرا للأوقاف، تفرغ بعده للدعوة وتفسير القرآن. ترأس بعثة الأزهر للجزائر في (1966م)، ثم عمل فيها مدة سبع سنوات. من مؤلفاته: "معجزة القرآن الكريم"، "تفسير الشعراوي" وغيرها. [محمد بن رزق بن طهروني، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، (1426هـ)، 467/1-471].

[7]- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، راجع أصله وخرّج أحاديثه أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر، إدارة الكتب والمكتبات، (د.ط.ت)، 5946/10.

يرضي صاحب الحق؛ فأخرج بذلك من الظلم التصرف في ملك الغير إذا كان بما يرضيه. ولكن رضا صاحب الحق ليس معيارا لكون التصرف في ملكه ظلما؛ لأنّ من أنواع الظلم في حق النّاس ما يقع برضا صاحبه، كالرّبا والرشوة والقمار، رغم أنّ الشارع الحكيم لا يرضاها لما فيها من أكل أموال النّاس بالباطل، وأكلها كذلك ظلم؛ لذلك فهي محرمة. فرِضا صاحب الحق لا يخرجها من دائرة الظلم إنّما المعيار هو رضا الشارع. والثالثة في أنه مجاوزة الحدود الشرعية، والرابعة في أنه: منع الحق، والخامسة أنّه: وضع الشيء في غير موضعه، وهذا الموضع المناسب للشيء هو الذي يحدده الشارع الحكيم، وهو الذي يحق أن يوضع فيه دون غيره.

ولكن القول بأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه الذي يليق به شرعا، لا يعطي مفهوما دقيقا للظلم، وإن كان وضع الشيء في غير موضعه أحيانا من قبيل الظلم، ولكن ليس دائما؛ إذ كثيرا ما يسيء الإنسان التصرف؛ فيضع الأمور في غير مواضعها، لا من باب الظلم، بل نتيجة الافتقار للحكمة.

أمّا تعدي الحق إلى الباطل، فعبارة عن منع للحقوق، ومنع الحقوق تصرف في حق الغير بما لا يرضي الشارع الحكيم، وتجاوز للحدود الشرعية، فتبين بذلك معنى الظلم في الاصطلاح، وإن اختلفت الألفاظ؛ لذلك ذكر له الجرجاني معنيين والكفوي ثلاثة.

ويستخلص من هذه التعريفات أنّ الظلم عبارة عن تعدي ومجاوزة الحدود الشرعية، أو تعدي الحق إلى الباطل. وهو ما صرح به المولى ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [1]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [2].

ثالثا: العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للظلم

المعاني الاصطلاحية للظلم مستقاة من المعاني اللغوية للفظة الظلم، كما دلت على ذلك أقوال العلماء.

[1] – البقرة: 229.

[2] – الطلاق: 1.

فالعلاقة بينهما ظاهرة في جميع المعاني المذكورة، فمن حيث كون الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، فكذلك في الاصطلاح، إذ أنّ الظالم لَمَّا يأخذ ما هو لغيره أو يمنعه عنه أو يرتكب ما ليس له ارتكابه شرعا، فقد وضعه في غير موضعه. وعدل عن الحق إلى الباطل. وفي كل ذلك تجاوز للحدود الشرعية سواء بالزيادة أو النقصان.

فظهر بهذا ارتباط المعاني الاصطلاحية للظلم بالمعاني اللغوية، وأن المعاني الاصطلاحية مستمدة من المعاني اللغوية.



المبحث الأول: الظلم العقدي.

المبحث الثاني: الظلم الاجتماعي.

توطئة:

تبيّن من خلال التعريف أن الظلم عبارة عن التعدي على حدود الله تعالى أو مجاوزة الحدود الشرعية، وهذا ما يدل على أنّ جميع المعاصي والسيئات تُعدّ ظلما سواء قلّت أو كثرت، صغيرة كانت أو كبيرة، فكلها صور للظلم، وإن كان بعضها أعظم من بعض؛ ولهذا قال ابن تيمية:[1] "الحسنات كلّها عدل والسيئات كلها ظلم".[2]

---

1 - ابن تيمية هو: تقي الدّين أبو العباس أحمد بن شهاب الدّين بن تيمية الحراني، ولد سنة (661هـ/1263م) في حرّان، هاجر إلى دمشق سنة (667هـ) خوفا من التتار. أصبح رئيس المذهب الحنبلي وهو لم يتجاوز 21 سنة، لكنه سرعان ما اتخذ طريق الاجتهاد لنفسه. واجه الكثير من المحن فألقي في السجون. وافاه الأجل وهو محبوس بقلعة دمشق سنة (728هـ/1328م). [تصدير إبراهيم مدكور، معجم أعلام الفكر الإنساني، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، (1984م)، 1/81-82].

2 - تقي الدّين أبو العباس أحمد بن تيمية الحرّاني الدمشقي، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرّحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د.ط، (1425هـ/2004م)، 20/79-80.

وهو ما يبرر كثرة صور الظلم، بحيث لا يكاد يعرف بعضها من بعض من شدة خفائه، ونتيجة لذلك قلّما ينجو المرء من الظلم الأدنى وإن نجا من الظلم الأعظم، فأكثر النّاس إما ظالم أو مظلوم، وإما ظالم ومظلوم معاً.

وتندرج هذه الصور جميعا تحت أنواع الظلم.

وهذه الأنواع أشار إليها الرّاغب فيما نقله عن بعض الحكماء من أنّها ثلاثة. "الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ولذلك قال ﷻ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] والثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾[2] وبقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾[3] والثالث ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[5] أي أنفسهم وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[6] وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه فإذا الظالم أبدا مبتدئ بنفسه في الظلم، ولهذا قال تعالى في غير موضع: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[8] فقد قيل هو الشرك".[9]

وبما أن جميع أنواع الظلم في الحقيقة لا تخلو من ظلم الإنسان لنفسه؛ لأنّ أوزارها عائدة عليه، فإنه يمكن تقسيم الظلم إلى نوعين بدل ثلاثة، يتناول الأول ظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وهو الظلم في حق الله تعالى بالشرك والكفر والنفاق، ويتعلق هذا النوع بالاعتقادات؛ لذلك آثرت تسميته باسم الظلم العقدي، وهو محل اهتمام المبحث الأول من هذا الفصل.



[1] – لقمان: 13.
[2] – الشورى: 42.
[3] – الإسراء: 33.
[4] – فاطر: 32.
[5] – البقرة: 35.
[6] – البقرة: 231.
[7] – النحل: 33.
[8] – الأنعام: 82.
[9] – الراغب الأصفهاني، [illegible] مفردات القرآن، ص353.

أما النوع الثاني: فظلم في حق الخلق أو العباد بالاعتداء عليهم في ضرورات الحياة، وأخذ حقوقهم أو منعها، أي ظلم الإنسان للآخرين سواء كان الظلم صادرا من فرد أو جماعة، واقعا على فرد أو جماعة، وهو ما أطلقت عليه في هذا البحث اسم الظلم الاجتماعي؛ لتعلقه بالحقوق الاجتماعية. وسيأتي الحديث عنه بالتفصيل في المبحث الثاني من هذا الفصل.

المبحث الأول: الظلم العقدي

بما أن الظلم العقدي يتعلق بحق الله تعالى؛ فإنّه قد يكون بالشرك أو الكفر أو النّفاق. وقد يجمع الظالم إلى جانب ذلك صورًا أخرى من الظلم ككتمان الشهادة، وتخريب المساجد ونحوها ممّا عدّه القرآن الكريم من أعلى درجات الظلم، وعبّر عنه بصيغة تلفت الانتباه لدورانها في عدة مواضع من القرآن، وافتتح بعض الآيات القرآنية بها، وهي "من أظلم".

فأين يتجلى الظلم في هذه الصور؟ ولما تُعد من أعظم أنواعه؟ هذا ما سيتولى هذا المبحث الإجابة عنه من خلال أربعة مطالب.

المطلب الأول: الظلم العظيم "ظلم الشرك"

الفرع الأول: أصل التسمية

سمى القرآن الكريم الشرك بالله تعالى ظلما عظيما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ولم يكتف بالتسمية بل أكدها بحرفي التوكيد "إنّ" و"اللام" حتى لا يدع مجالا للشك في أنّ الشرك من أعظم أنواع الظلم علاوة على أنه ظلم.

---

[1] لقمان: 13.

وهذا ما بيّنه النبي ﷺ فيما يرويه عنه عبد الله بن مسعود ﷺ[1] قال: {قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[2]}.[3]

فنصّ جواب النبي ﷺ عن سؤال السائل على أن للظلم عدة مستويات وأنواع، بعضها أشد من بعض، فذكر له أعظم هذه الأنواع، وهي الشرك الذي يعد من الظلم العقدي، ثم ثناه بظلم الدماء وأشده قتل الأولاد خشية الفقر، ثم ثلثه بظلم الأعراض عن طريق الزنا لاسيما الزنا بحليلة الجار.

وقد اختلف المفسرون في جملة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أهي من كلام الله تعالى أم من كلام لقمان؟

فذهب ابن عطية[4] إلى القول بجواز كونها من كلام الله تعالى،[5] وقعت معترضة بين كلام لقمان مستدلاً بما ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: {لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[1] قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾}.[2]

---

[1]- هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من أكابر الصحابة السابقين للإسلام، أول من جهر بقراءة القرآن بمكة. كان خادم النبي ﷺ وصاحب سره، وليّ بيت مال الكوفة بعده. له 848 حديثا. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 120/1، برقم (137/4)].

[2]- الفرقان: 68.

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص811، برقم (4477)، وكتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، ص1123، برقم (6001)، وكتاب الحدود، باب إثم الزناة، ص1257، برقم (6811)، وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص1389، برقم (7520)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ص6486، برقم (86)، واللفظ له.

[4]- هو: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (481-541 هـ/1088-1147م)، الغرناطي، المالكي، عالم فقيه عارف بالحديث والتفسير والأحكام. لغوي وأديب. ولد في عهد دولة المرابطين التي كانت تعرف بدولة الفقهاء، من أسرة مهاجرة من المشرق، ذات علم ومكانة، فتتلمذ على كبار علماء الأندلس. كان كثير الخروج للجهاد. تولى القضاء. ترك كتابين فقط، أحدهما فهرست في ترجمة شيوخه، وقد ترجم فيه لنفسه. وكتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. توفيّ في لورقة من بلاد الأندلس في 15 رمضان. [أحمد بن المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (1997م)، 526/2-527؛ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، (1982م)، 862/2-868، برقم (492)؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 93/5].

[5]- أبو أحمد عبد الحق بن غالب الأندلسي بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، مطابع فضالة المحمدية، المملكة المغربية، ط2، (1403هـ/1982م)، 492/11.

قـــال الخطابي:[3] "إنما قالت الصحابة هـــذا القول؛ لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره الذي هو الافتيات بحقوق الناس، أو الظلم الذي ظلموا به أنفسهم، من ركـــوب معصية أو إتيان محـــرم كقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.[4] وذلك حق الظاهر فيما كان يصلح له هذا الاسم ويحتمله المعنى عندهم. ولم تكن الآية نزلت بتسمية الشرك ظلما، وكان الشرك عندهم أعظم من أن يلقب بهذا الاسم، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزل قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾،[5] فسمي الشرك ظلماً. وعُظِّم أمره في الكذب والافتراء على الله ﷻ".[6]

ويظهر هذا التعظيم في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.[7]

بينما رجّح ابن عاشور كون جملة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ من كلام لقمان، مدعما ذلك بدليلين هما:[8]

الأول: ظاهر السياق الذي يدل على أنها جاءت تعليلا للنهي عن الشرك وتهويلا لأمره، وهي بعض حكمة لقمان، التي ذكرت في الآية السابقة لها مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.[9]

---

[1]- الأنعام : 82.

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، ص13-14، برقم (32)، وكتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، ص623، برقم (3429)، وكتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، ص845، برقم (4629).

[3]- هو: حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، أبو سليمان الخطابي الإمام، من نسل زيد بن الخطاب، الحافظ اللغوي، صاحب التصانيف ومنها: "معالم السنن في شرح أبي داود" و"غريب الحديث" توفي سنة (388هـ). [عبد الكريم محمد السمعاني، الأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د.ت)، 2/210؛ أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، (1994م)، 2/214؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 17/23-28، رقم (12)].

[4]- آل عمران: 135.

[5]- لقمان: 13.

[6]- الخطابي، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الظلم دون ظلم، 1/ 162-163.

[7]- الأنعام: 21.

[8]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/21/155.

[9]- لقمان: 12.

الثاني: ما ورد في رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: {لَمَّا نَزَلَتْ **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾** شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: **﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[1]}.[2]

قال النووي:[3] "أعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هناك المراد به هذا المقيد وهو الشرك، فقال لهم النبي ﷺ بعد ذلك: ليس الظلم على إطلاقه وعمومه كما ظننتم إنما هو الشرك كما قال لقمان لابنه. فالصحابة ﷺ حملوا الظلم على عمومه، والمتبادر إلى الأفهام منه، وهو وضع الشيء في غير موضعه، وهو مخالفة الشرع، فشقّ عليهم إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم".[4]

وسواء كان ذلك من كلام الله تعالى أو من كلام لقمان وحكمته، إلا أن القرآن نقله تصديقا له، على عادته في إقرار بعض ما يرد على ألسنة الأنبياء والعقلاء والحكماء، فإن ذلك لا يؤثر في تسمية الشرك باسم الظلم العظيم.

وهو ما يؤكده قوله تعالى: **﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾**[5] وقوله: **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾**[6]

---

[1]- لقمان: 13.

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: **﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾**، ص605، برقم (3360)، وباب قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾**، ص623، برقم (3429)، وفي كتاب التفسير، باب لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، ص894، برقم (4776)، وفي كتاب استتابة المرتدين، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته، ص1276، برقم (6918)، وباب ما جاء في المتأولين، ص1281، برقم (6937)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، ص79، برقم (124).

[3]- هو: محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي الحوراني الشافعي. ولد سنة (631هـ/1234م)، كان إماما بارعا حافظا، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر. أتقن علوما شتى. ولّي مشيخة دار الحديث الأشرفية. وتوفي سنة (676هـ/1278م) كان لنبأ وفاته وقع أليم على دمشق وأهلها. من تصانيفه: "الأذكار"، "رياض الصالحين"، "الأربعون النووية". [الزركلي، ترتيب الأعلام، 435/1، برقم (1498)؛ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، الأذكار،تحقيق وتعليق عبد القادر الأرنؤوط، منشورات دار الملاح للطباعة والنشر، (1391هـ/1971م)، ص(ز- ل)].

[4]- محي الدين بن شرف الدين النووي، شرح صحيح مسلم المسمى المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج، حقق أصوله وخرّج أحاديثه على الكتب الستة ورقّمه حسب المعجم المفهرس وتحفة الأشراف الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، (1418هـ/1997م)، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، 143/2.

[5]- البقرة: 51.

[6]- البقرة: 92.

حيث تدل هاتان الآيتان أنّ الشرك الذي وقعت فيه بنو إسرائيل بعبادة العجل ظلم. وهو ظلم اعتقادي يتعلق بحق من حقوق الله ﷻ.

الفرع الثاني: سبب التسمية

سميّ الشرك باسم الظلم العظيم؛ لأنّ "أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أشرك بالله، وجعل الربوبية مستحقة لغيره أو عدل به شيئا، واتخذ معه ندًا فقد أتى الظلم، ووضع الشيء في غير موضعه ومستقره".[1]

بل وقع في أظلم الظلم لعدم القيام بحق الخالق في التوحيد والعبادة، والتفريط في ذلك، ووضع هذه الحقوق في غير ما وضعت له، وصرفها إلى مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئا، دون مراعاة للهدف من الخلق. هذا المقصد الذي يعد أساس قيام الحياة.

إضافة إلى ما في الشرك من ظلم للنفس وللغير واعتداء على حقوق كثيرة منها:[2]

– ظلم النفس؛ بإخضاعها للمخلوقات، وتعبيدها لغير الله، ووضعها في حضيض العبودية لأخسّ الجمادات، وتعريضها للسخرية في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

– وظلم للأعقاب الذين يتبعون آثار الظالمين في ضلالهم عبر العصور والأجيال.

– وظلم لأهل الإيمان، إذ يبعث الشرك على اضطهادهم وأذاهم.

– وفيه ظلم للعقلاء، ممن جعلوهم أندادا لله كالملائكة وعيسى عليه السلام وغيرهم من الرجال الصالحين كيغوث ويعوق ونسر واللّات، ظلموهم إذ كانوا سبباً لهول يحصل لهم من السؤال يوم القيامة، كما قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾**[3] وقال: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾**[4] وقال: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾**.[5]

1 – الخطابي، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الظلم دون ظلم، 1/162-163.

2 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/2/94، 8/21/155.

3 – المائدة: 116.

4 – سبأ: 40.

5 – الفرقان: 17.

ونظرا لتعدد الحقوق التي يقع عليها الظلم بسبب الشرك حذف مفعول (ظلموا) ليفيد التعميم، ونزل منـــزلة اللازم؛ لأنه صار كاللقب[1] في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.[2]

فهذا الظلم العظيم يشتمل على ظلم الإنسان لنفسه ولغيره، ففيه أنواع الظلم الثلاثة: الظلم في حق الله تعالى، وظلم الإنسان لنفسه، وظلم الأنداد والأعقاب، سواء من أهل الشرك أو من أهل الإيمان.

فالشرك عموما فساد في الاعتقادات، وخطأ في التصورات، يثمر انحرافا في الأعمال والسلوكات. فبسببه تَسُود الأوهام والخرافات والأباطيل، وينتشر الجهل، ويستولي على العقول، ويمنعها من رؤية الحقائق، ويدفعها إلى نبذها. ولا تقف عند جيل أو زمان معين، بل يتوارثها الأجيال ويقدسونها، حتى تصبح بمرور الوقت من المسلّمات التي لا تقبل النقاش. فتحكم الفرد والمجتمع، وتأخذ دور القائد الموجّه، فتستحل باسمها الأنفس والأموال والأعراض؛ فتكثر الاعتداءات ويعم الفساد. وقد دفعت البشرية، ولا زالت ثمن ذلك باهضا جدا.

وأي ظلم أعظم من هذا الظلم الذي يعطل وسائل الإدراك، ويسوّي بين الإنسان وسائر المخلوقات، ويترل به من رتبة تقديس الخالق وتعظيمه إلى الخضوع لأهون المخلوقات والعدول عن المقصد الحقيقي للحياة.

وإذا كانت هذه بعض أسرار تسمية الشرك باسم الظلم العظيم، فإنه يبقى التعرف على ماهيته وحكمه وبعض صوره.

الفرع الثالث: ماهية الظلم العظيم

ويعرف بالشرك الأعظم أو الأكبر، وهو:[3] اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية، وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾،[1] وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.[2]

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 94/2/1.

[2]- البقرة: 165.

[3]- أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، (1373هـ/1954م) 181/5.

أو هو "أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله. وبالجملة فهو أن يجعل لله نداً يعبده كما يعبد الله".[3] ومن صرف شيئاً من العبادات المختلفة لغير الله تعالى فقد وقع في الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.[4]

فأهل الظلم العظيم إنما يعبدون من دون الله آلهة من الأصنام والأوثان أو من الناس وغير ذلك، ويتوجهون إليها بما لا يحق من العبادات إلا لله ﷻ سيان في ذلك بين العبادات المتعلقة باللسان والقلب والجوارح. رغم أن هذه الآلهة كلها محرومة من القوة، لم يترل الله بها قوة من عنده، فهم لا يعبدونها عن علم و لا دليل يقتنعون به، وإنما هو الوهم والخرافة. وما لهم من نصير يلجأون إليه بعد أن حرموا من نصرة الله العزيز القدير.[5]

ومن هذه العبادات ما تحدث عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.[6]

والآية تصرح بأنّ اتخاذ الأنداد وصرف المحبة، التي هي من حق الله تعالى وحده، إليهم ظلم يستحق عليها الظالم العذاب الشديد.

وأحوال أهل الظلم العظيم مختلفة، فمنهم من يعبد الأنداد ويعترف بوجود الله ويسوي بين الأنداد وبينه، ويسميهم شركاء أو أبناء لله تعالى. ومنهم من يجعل لله تعالى الإلهية الكبرى، ويجعل الأنداد شفعاء إليه. ومنهم من يقتصر على عبادة الأنداد وينسى الله تعالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[7] ومن هؤلاء صابئة العرب الذين عبدوا الكواكب.[8]



[1] – النساء: 48.

[2] – النساء: 48.

[3] – عبد العزيز بن ناصر الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1419هـ/1999م)، 52/4.

[4] – الحج: 71.

[5] – سيد قطب، في ظلال القرآن، مطابع الشروق، القاهرة، ط15، (1408هـ/1988م)، 2443/17/4.

[6] – البقرة: 165.

[7] – الحشر: 19.

[8] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 91/2/1.

والأنداد عند جمهور المفسرين أعم من الأصنام والأوثان، فتشمل الرؤساء الذين خضع لهم الناس خضوعاً دينياً؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾.[1] ولهذا فالنّد من يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله ﷻ أو يؤخذ عنه ما لا يؤخذ إلا عن الله تعالى، كالتشريع والتحليل والتحريم؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [2] كما بيّنه النبي ﷺ.[3]

والأنداد قسمين: قسم يعمل بالاستقلال أي يقضي حاجة اللاجئين إليه بنفسه، وقسم يشفع عند الله ويتوسط لصاحب الحاجة.[4]

والنّد قد يكون كوكبا كالشمس والقمر، أو جمادًا كالأصنام والحجر أو حيواناً كالعجل والبقر، أو بشرًا سواء ادعّى الألوهية كفرعون، أو ادعيت له كعيسى عليه السلام أو قد يكون من المخلوقات الغيبية كالجن والملائكة والشيطان. وكلها شرك خفي أو ظاهر، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله، وإذا أشركها المرء مع حب الله. فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي يختص به المولى سبحانه وحده.[5]

وقد وجد هذا في أمم شتى كادعاء فرعون الألوهية لنفسه ظلما، كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[6] الذي يدل على مدى ظلم فرعون الذي بلغ به حدّ ادعاء الألوهية، وأنه لا إله لبني إسرائيل غيره، وأن ما جاء به موسى عليه السلام من أن له إلها غيره ادعاء كاذب. لذلك أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطين، أي يتخذ له آجرًا لبناء قصر عال، ليطلع بزعمه إلى إله موسى. وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى وجود إله غير فرعون. ثم إن فرعون واجه موسى بهذه

---

[1] - البقرة: 166.

[2] التوبة: 31.

[3] - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، (1414هـ/1993م)، 67/2.

3- نفسه.

[5] - وجدي محمود إبراهيم بخيت، تأمل الفرق بين مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، دار الإيمان، الإسكندرية، مصر، (د.ط.ت)، ص77.

[6] - القصص: 38.

الدعوى، دعوى الألوهية لنفسه، وهدده بالسجن إن لم يسلم له بألوهيته؛[1] فقال له كما أخبر عن ذلك القرآن: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.[2]

وكما ادعى فرعون لنفسه الألوهية كذباً وزورًا ادعى لنفسه الربوبية ظلماً وتجبرًا وطغياناً، لقوله تعـــالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[3] قال ابن عباس[4] ومجاهد:[5] وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[6] بأربعين سنة.[7]

وقد بيّن ﷻ جزاء الظالم بادعاء الألوهية فقال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.[8]

وإن كانت هذه الآية في الملائكة وكونهم لا يقدمون على هذا الظلم ولا يدعون الألوهية قطعا. ولو ادعوها جدلاً لكان جزاؤهم جزاء من يظلم بادعاء الألوهية كائنا من كان، وهو جهنم، فذلك جزاء الظالمين الذين يدّعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ولكل أحد، ولكل شيء

---

[1] – أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، (1420هـ/1999م)، 390/13.

[2] – الشعراء: 29.

[3] – النازعات: 23-24.

[4] – ابن عباس هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم الرّسول ﷺ، كنى بابنه العباس وهو أكبر ولده. كان يسمى البحر لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة. ولد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشعب من مكة قبل الهجرة بثلاث سنين. توفي سنة (68هـ) بالطائف، عمي في آخر عمره. [عز الدين بن الأثير بن أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، الشعب، القاهرة، د.ط، (1970م)، 290/3-294، برقم (3035)].

[5] – هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج مولى السائب المخزومي المكي، قرأ على ابن عباس وصاحب ابن عمر مدة طويلة وأخذ عنه وحدّث عنه قتادة والأعمش وغيرهما. قال قتادة: "أعلم من بقي بالتفسير مجاهد". توفي سنة (103هـ). [الأدنه وي، طبقات المفسرين، ص11، رقم (16)].

[6] – القصص: 38.

[7] – أبو القاسم جار الله بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل عبد الموجود، علي معوض، فتحي حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1418هـ/1998م)، 695/4- 696؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 468/4.

[8] – الأنبياء: 29.

في هذا الوجود، فكل من ادعى هذه الدعوى الظالمة وتطاول ذاق جزاءها الأليم.[1] فهذه سنة الله في جميع الظالمين دون محاباة ولا تمييز وإن كان الظالم من الملائكة.

وكما ظلم فرعون ظلماً عظيماً بادعاء الألوهية لنفسه، فقد ظلمت النصارى؛ لأنها جعلت مع الله إلها آخر، بل جعلوه ثالث ثلاثة، وادّعو لعيسى عليه السلام الألوهية كما أخبر بذلك القرآن في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**.[2]

فالتوحيد هو "قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للنّاس، لا تبديل فيها ولا تحويل، توحيد الإله وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة".[3]

وعيسى عليه السلام قام من خلال هذه الآية بتصحيح التصور الذي كان سائدا وطاغيا على عقول قومه، من خلال التبرؤ أولا من ظلمهم والاعتراف بربوبية الله عز وجل عليه وعليهم، ثم حذّرهم من عاقبة ظلمهم؛ وذلك ببيان مآل جميع الظالمين بالشرك يوم القيامة، وهو الحرمان من الجنة وورود النّار مع انتفاء جميع أوجه النصرة والإغاثة.

وإذا كان هؤلاء جعلوا مع الله إلها من البشر، فإن بني إسرائيل لما استبطأوا رجوع موسى عليه السلام من ميقات ربه اتخذوا عجلاً من ذهب إلهاً عبدوه من دون الله، فازدادوا بذلك إيغالاً في الشرك وانهماكاً في أعظم الظلم رغم قيام الحجة وبلوغ الدعوة؛[4] لقوله تعالى: **﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾**،[5] وقوله: **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾**.[6]

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/17/2375.

[2] – المائدة: 72-73.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/17/2374.

[4] – محمد رشيد رضا، [illegible] 1/317، 1-386.

[5] – البقرة: 51.

[6] – البقرة: 92.

لقد اتخذوه وهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم، ولا يملك دفع الضر عنهم، ولا إسداء النفع إليهم، أي أنهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل. بل عن تقليد للعاكفين على الأصنام. وكانوا ظالمين لأنفسهم ولحق ربهم بهذا الاتخاذ؛[1] لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[2]

فهذا النوع من الظلم "هو الشرك الذي تضمّن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] مع إقرارهم بأنّ الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن ألهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت".[4] كما تدل على ذلك الكثير من الآيات القرآنية، الناطقة بأنهم إذا سئلوا: من خلق كذا وكذا؟ يقولون: الله كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[5]

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[6] ونحوها،[7] ومع هذا كله فقد سمّاهم القرآن باسم الشرك الذي يُعد ظُلماً عظيماً.

وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والخوف والرجاء وعموماً في العبادة، كما هو حال أكثر مشركي العالم مع معبوداتهم من دون الله، حيث إنّ أكثرهم يحبون ألهتهم، ويستبشرون

---

[1] – محمد رشيد رضا، المنار، 9/202.

[2] – الأعراف: 148.

[3] – الشعراء: 97-98.

[4] – ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق أحمد فخري الرفاعي، عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، (د.ط.ت)، 1/379.

[5] – الزخرف: 9.

[6] – يونس: 31.

[7] – انظر أيضا: العنكبوت: 61-63؛ الزمر: 39.

بذكرها، ويغضبون لمنتقصها ومنتهك حرماتها، أكثر من محبة الله والاستبشار بذكره، والغضب لانتهاك حرماته[1] كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.[2]

والمراد "إنكار محبتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله تعالى، وإنما قيدت بمماثلة محبة الله لتشويهها، وللنداء على انحطاط عقول أصحابها. وفيه إيقاظ لعيون معظم المشركين، وهم الذين زعموا أن الأصنام شفعاء لهم كما كثرت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فنبهوا إلى أنهم سووا بين محبة التابع ومحبة المتبوع ومحبة المخلوق ومحبة الخالق لعلهم يستفيقون، فإذا ذهبوا يبحثون عما تستحقه الأصنام من المحبة وتطلبوا أسباب المحبة وجدوها مفقودة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[3]".[4]

فمعظم الظالمين بالشرك يعتقدون أن الأنداد، وسطاء وشفعاء لهم عند الله عز وجل يقضون حاجتهم أو يقضيها هو لأجلهم، ويحتجون لذلك بأن المقصرين في حاجة إلى وسائط؛ لتعذر الوصول إلى الله عز وجل بأنفسهم، قياسا على المعهود من الرعايا الضعفاء مع عظماء الملوك، لاسيما المستبدين منهم؛[5] لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾،[6] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.[7]

وقد أبطل المولى سبحانه هذا الاعتقاد، من خلال بيان أن الله عز وجل لا يحتاج إلى وسائط؛ بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[8] وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[9] ومن خلال أيضا بيان حقيقة الأنداد في أنها لا تملك النفع ولا الضر، وأعلمَ أن النفع والضر يتعلقان بالإرادة الإلهية في قوله تعالى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا



---

[1] – ابن قيم، مدارج السالكين، 1/380.

[2] – البقرة: 165.

[3] – مريم: 42.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/2/91.

[5] – محمد رشيد رضا، المنار، 2/65.

[6] – يونس: 18.

[7] – الزمر: 03.

[8] – البقرة: 186.

[9] – غافر: 60.

﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.[1]

بل قطع جميع الأسباب التي تعلّق بها الظالمون بالشرك، فنفى سبحانه عن معبوداتهم الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة نفياً مرتبا، منتقلا من الأعلى إلى الأدنى؛ لأن النفع الذي يرجوه الظالمون بالشرك من الأنداد لا يكون إلا ممن كان مالكا لمراد عابده، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده؛[2] لقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.[3]

الفرع الرابع: التحذير من الظلم العظيم

أمر ﷻ في الآية السابقة النبي ﷺ بالتبرؤ من طائفة المشركين بدل وصف الشرك؛ لما فيه من بلاغة الاتصاف، وإلاّ وقع في الظلم وكان من الظالمين. وهذا على سبيل الفرض، والمقصود منه تنبيه الناس على فظاعة وعظم هذا الظلم حتى لو وقع فيه أشرف المخلوقات لكان من الظالمين.[4] كما يبدو من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[5] إذ لا محاباة عند الله ﷻ.

وهذا مما يدعو إلى الاحتراز من الظلم عموما والعظيم منه خصوصا، لاسيما أن المولى ﷻ حذر منه تحذيرا شديداً في مواضع شتى في القرآن الكريم، بأساليب مختلفة مفعمة بالترهيب والوعيد الذي يزلزل النفوس ويرجها رجا، سواء بالكشف عن مآل الظالمين، وعاقبتهم في الدنيا والآخرة أو غيرها.



---

[1] - الزمر: 38.

[2] - ابن قيم، مدارج السالكين، 383/1.

[3] - سبأ: 22-23.

[4] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 5/11/304-306.

[5] - يونس: 106.

أما في الدنيا فنحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.[1]

هذه القرى التي ظلمت نفسها بالظلم العظيم والفساد في الأرض، حتى ساد فيها الظلم بأنواعه وسيطر الظالمون، فأفضى بها إلى الاستئصال دون أن تمنع ذلك عنهم الآلهة المفتراة لما جاء أمر الواحد القهار. بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارا ودمارا، ذلك أنهم اعتمدوا عليهم، فازدادوا استهتارا وتكذيبا، فزادهم الله نكالا وتدميرا، مع أن الأنداد لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، لكن كانت سببا لخسارتهم وتدميرهم المضاعف الشديد.[2]

أما في الآخرة، فإنّ الظلم العظيم يؤدي إلى حرمان الظالمين بالشرك من ناصر ومعين، يلوذون ويلجأون إليه من النار بعد حرمانهم من الجنة، ومن معونة الله ونصرة العزيز القدير القاهر فوق عباده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.[3] وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.[4]

وفي ذلك اليوم يقف أهل الظلم العظيم بين يدي الله، الواحد القهار، ويعاينون العذاب؛ فيعلمون حينئذ أن القوة لله جميعا لا شريك له، فيتبرأ قادة الظلم من أتباعهم، وتنقطع الأواصر بينهم، وينشغل كل بنفسه، ويعجز زعماء الظلم عن حماية أنفسهم فضلا عن أتباعهم؛ لتظهر الحقيقة أمام العذاب؛[5] لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.[6]



[1] – هود: 100-101.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1928/12/4.

[3] – المائدة: 72.

[4] – الحج: 71.

[5] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 154/2/1.

[6] – البقرة: 165-166.

في هذا اليوم تتبرأ من الظالمين بالشرك جميع معبوداهم وشركائهم من الملائكة والجن والبشر ونحوها؛ لقوله تعالى على لسان الملائكة ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1] وقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.[2] وقوله على لسان الجن: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.[4]

فالآية تكشف عن تطلعات الأتباع الظالمين بالشرك، وأمانيهم في العودة إلى الحياة الدّنيا للتبرء من المتبوعين الظالمين، وإفراد الله تعالى بالعبادة، بوجوه تنضح بالحقد والغضب، وعيون تنطق بالكذب؛ لأهم لو أعيدوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى ظلمهم وافترائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛[5] لأنّ "نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات، هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير، وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني، فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حلّ بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة".[6]

فالظلم والكذب أصبح سجية من سجاياهم التي تطبّعوا عليها في الحياة الدّنيا. فلا يمكن للخواطر الناشئة عن الأحاسيس دون النظر والتأمل أن تدوم بعد زوال تلك الأحاسيس وزوال أثرها، فشأنها شان انفعال العجماوات من زجر ونحوه.[7] لذلك لا أمل لهم في العودة، ولا أمل لهم في الخروج من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.[8]

---

[1] – القصص: 63.

[2] – سبأ: 41.

[3] – الأحقاف: 6.

[4] – مريم: 81-82.

[5] – الأنعام: 28.

[6] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 186/7/3.

[7] – نفسه.

[8] – البقرة: 167.

إنه مشهد مؤثر، مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين أهل الظلم العظيم، بين قادة الظلم وأتباعهم، بين الأحباب والمحبوبين.[1] مشهد ينطق بالتحذير من الظلم، والاحتراس من الوقوع فيه، ويدعو الظالمين إلى الإقلاع عن الظلم والكف عنه.

الفرع الخامس: حكمه

بيّن القرآن الكريم والسنة النبوية أن الظلم العظيم لا يغفره الله ﷻ إلا بالتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.[2]

وهو ما يؤكده ما ورد عن أنس ﷺ[3] عن النبي ﷺ أنه قال: {الظُّلْمُ ثَلاَثَةٌ؛ فَظُلْمٌ لاَ يَتْرُكُهُ اللهُ وَظُلْمٌ يُغْفَر وَظُلْمٌ لاَ يُغْفَر. فَأَمَا الظُّلْمُ الذّي لا يُغْفَر فَالشِرْكُ لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ وَأَمَا الظُّلْمُ الذّي يُغْفَر فَظُلْمُ العَبْدِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِهِ وَأَمَا الظُّلْمُ الذّي لاَ يُتْرَك فَظُلْمُ العِبَادِ فَيَقْتَصُ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ}.[4]

وبما أنّ الشرك ظلم لا يغفره الله دون توبة؛ فإنّ هذا يدل على أنه من أعظم أنواع الظلم وأشدها قبحا وإنكارا؛ لذا رتب الله ﷻ عليه من العقوبات ما لم يرتبه على غيره من أنواع الظلم وبيّن أنه ينتهي بأهله يوم القيامة إلى النّار دون أن يجدوا لهم منقذا أو نصيرا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 154/2/1.

[2]- النساء : 48.

[3]- هو: أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري، واسمه تيم الله. خادم رسول الله ﷺ، وكان يتسمى به ويفتخر بذلك. كان عمره لما قدم المدينة مهاجرا 10 سنين. من المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ، اختلف في وقت وفاته ومبلغ عمره، فقيل توفي سنة (91هـ)، وقيل سنة (92هـ)، وقيل سنة (93هـ). توفي وعمره 99 سنة، وهو آخر من توفي بالبصرة من الصحابة. [ابن الأثير، أسد الغابة، 151/1-152].

[4]- أخرجه أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م)، 155/43، برقم (26031)، بلفظ الدواوين من طريق عائشة –رضي الله عنها-، وصححه المحقق؛ وسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، ط1، (1420هـ/1999م)، كتاب ما أسند مالك بن أنس الأنصاري، باب يزيد بن أبان، 579/3، برقم (2223)؛ وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، (د.ت)، 252/6، برقم (6133)؛ أبو القاسم الطبراني، المعجم الصغير ويليه رسالة غنية الألمعي لأبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، ضمن من اسمه أحمد، ذنب لا يغفر وذنب لا يترك، ص40، دون رقم، بلفظ الذنب بدل الظلم؛ وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، باب الربيع بن صبيح، 309/6.

﴿يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1] لا أمل في خروجهم منها فهي مثواهم ومقامهم، كما أخبرنا بذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.[2]

وبعد معرفة حكم الظلم العظيم، أخطر أنواع الظلم وأشدها، يحسن تقديم بعض النماذج والصور لتجسيده من خلال الواقع.

الفرع السادس: بعض صور الظلم العظيم

للظلم العظيم أو ظلم الشرك صور وأشكال كثيرة، منها ما يتعلق بالعبادات القلبية كالرهبة والرغبة والخوف والخشية والرجاء والحب، ومنها ما يتعلق بالجوارح كالصلاة والسجود والركوع والصيام والطواف والنذر والذبح، ومنها ما يتعلق باللسان كالدعاء والاستعانة والاستغاثة والذكر.[3]

فمن توجّه بشيء من هذه العبادات أو غيرها لله تعالى، وصرفها عن الخالق صاحب الحق إلى المخلوق، فقد تجاوز حدود الله تعالى، ووقع في الظلم العظيم؛ لأنها اعتقاد للضر والنفع في غير الله كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى ناهيا النبي ﷺ عن هذا الظلم ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾،[4] وقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.[5]

فالله وحده النافع الضار، لذلك لا يحق لأحد من عباده، وإن كان أشرف خلقه، وهو النبي ﷺ صرف شيء من العبادات لغيره تعالى كصرف الدعاء ونحوه للأموات.

أولا: دعاء الأموات وتعظيم القبور

إن من صور الظلم العظيم، التي لا يزال خطرها قائما إلى اليوم زيارة قبور وأضرحة الأموات من الأولياء الصالحين والشيوخ، ورفع أكف الدعاء والضراعة إليهم، والاستغاثة بهم

[1]- المائدة: 72.

[2]- آل عمران: 151.

[3]- عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، مركز فجر للطباعة، القاهرة، د.ط، (2001م)، ص12-13.

[4]- يونس: 106.

[5]- النساء: 36.

لطلب ما لا يطلب إلا من الله ﷻ، ولا يقدر عليه إلا هو، رجاء قضاء الحاجات، وتفريج الهموم والكربات وتحقيق الأمنيات، وحصول جميع المطلوبات من جهة هؤلاء الأموات.[1]

فهم يعتقدون أن الأولياء والشيوخ واسطة بينهم وبين الله ﷻ يرفعون حاجاتهم إليه، ويشفعون لهم عنده فينفعون ويضرون؛ لذلك يتفانون في تعظيمهم، وحبهم ونيل رضاهم بتقديم الطعام والذبائح وغيرها. ويستبشرون بذكرهم، ويخافون من غضبهم الذي قد يفضي إلى إصابتهم بالمكاره. ويغضبون لانتقاصهم وانتهاك حرمة من حرماتهم، ويتخذون ذكرهم على الألسنة ديدناً لهم في قيامهم وقعودهم ومرضهم ووحشتهم. وهذا أصل شرك العالم.[2]

وقد أبطل المولى ﷻ هذا الاعتقاد في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾.[3]

ورغم أن هذه الصورة من الظلم العظيم إلا أنها قد تخفى على كثير من الناس لسببين هما:[4]

الأول: أن دعاء الأموات وتعظيمهم وحبهم واللجوء إليهم، لا يعد عبادة في نظرهم؛ لأنهم يظنون أن العبادة تنحصر فقط في بعض العبادات البدنية والمالية، كالصلاة والصيام والزكاة ونحوها، رغم ما ورد صريحا في القرآن من كون الدعاء عبادة؛ لقوله ﷻ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾.[5]

[1] – محمد بن عبد الله علي الحكمي، الظلم وأثره على الفرد والمجتمع، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط2، (1415هـ/1995م)، ص24.

[2] – ابن قيم، مدارج السالكين، 380/1.

[3] – فاطر، 13-14.

[4] – الحكمي، الظلم وأثره، ص24-26.

[5] – غافر، 60.

الثاني: عدم الاعتقاد بأن الأموات آلهة، بل هم مجرد وسائط بينهم وبين الله وشفعاء عنده، وهذا عين ظلم الشرك الذي وقع فيه عُبّاد الأصنام قديما، كما يتجلى من قوله تعالى على لسانهم **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**،[1] وقوله: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** [2] رغم أنهم لم يدعوا قط أن آلهتهم تخلق أو ترزق أو تحيي وتميت كما سبقت الإشارة.

إذًا فالعبادات سواء كانت دعاء أو غيرها، بدنية كانت أو مالية أو فكرية لا ينبغي أن توجه لغير الله، ولا أن تصرف إلى مخلوقاته حية أو ميتة؛ لأنها لا تملك لنفسها فضلا عن غيرها النفع ولا الضر، ومن اعتقد شيئا من ذلك فقد ظلم ظلما عظيما وما عرف الله حق المعرفة، تعالى الله عمّا يظلمون **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**.[3]

ثانيا: تشريع ما لم يأذن به الله

يدل قوله تعالى: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**،[4] على أنّ رفض شرع الله تعالى، واتخاذ غيره مشرعا يحلل ويحرم، واتباعه وطاعته فيما لم يأذن به الله تعالى، صورة من صور الظلم بالشرك أو الظلم العظيم يستحق صاحبها العذاب الأليم.

والتشريع والتحليل والتحريم من حق الله ﷻ وحده، ومن تجرأ على ذلك فقد ظلم بتجاوزه وتعديه للحدود الشرعية، وهو ما يؤكده قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**.[5]

[1]– الزمر: 3.
[2]– يونس: 18.
[3]– الزمر: 67.
[4]– الشورى: 21.
[5]– المائدة: 87.

والقرآن يتساءل في استنكار عن هذا الظلم وعما فيه أهل الظلم العظيم وما هم عليه، وعن الظالم الذي تجرأ على أن يشرع لهم هذا الظلم الذي يخالف ما شرّعه الله ﷻ منذ أن أرسل الرّسل بالرسالات والتشريعات؟

فإن لم يكن هذا مشروعا من الله الحق، فهو إما "مشروع من الآلهة الباطلة، وهي الشركاء، وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين؛ لأنها لا تعقل ولا تتكلم، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له".[1] وإما أن " أيمة دين الشرك شرعوا لهم دينا لم يأذن بشرعه الله، أي لم يرسل به رسولا منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته".[2]

فهم إذًا لا يتبعون ما شرع الله من الدّين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم الظالمون من "شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدّم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة والأموال الفاسدة".[3]

فالتشريع والتحليل من دون الله لا يحق لأحد كائنا من كان، فالله وحده يشرع لعباده، لأنه الخالق لهم، المبدع لهذا الكون كله والمحيط بما فيه، يدبره بما أختاره له. فوحده يعلم ما يتناسق مع طبيعة الكون والبشر وفطرتهم؛ فيشرع لهم ما يكفل لهم حياة معتدلة متوازنة مادياً وروحياً، ويحقق لهم السعادة الدنيوية والأخروية. وكل قاصر عن تلك الإحاطة لا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور.[4]

وكل من ادّعى بعد ذلك حق التشريع والتحليل والتحريم، فقد ظلم ظلما عظيما.

وهذه الصورة من صور الظلم العظيم هي "شرك الطاعة والاتباع والذي كثر في هذا الزمان حيث رفض فيه شرع الله ﷻ ونُحيَ جانباً، وحلّت مكانه قوانين البشر ونخاتات أفكارهم وأنظمتهم الجائرة الكافرة الموصوفة بالجهل والظلم والهوى والنقص....كما انطبق على الراضين بهذه الأنظمة، المطيعين لها، المنقادين لها بعد علمهم بأنها معاداة لشرع الله، قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[5]".[6]

وهذه الآية قد فسرها النبي ﷺ لعَدِيّ بن حَاتِم الطائي،[7] حين قدم عليه مسلما، وكان نصرانيا في جاهليته، فسمعه يقرأ هذه الآية، قال عَدِيُّ بْن حَاتِم: {أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي

---

1 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 76/25/10.

2 – نفسه.

3 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 196/6.

4 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 3152/25/5.

5 – التوبة: 31.

6 – ابن [illegible]، وقفات تربوية، 58/4.

7 – عدي بن حاتم الطائي هو أمير، كان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، شهد فتح العراق، وشهد الجمل وصفين مع علي رضي الله عنه وله 66 حديثا. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 149/1، برقم (220/4)]

صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ}.[1]

فبيّن النبي ﷺ أنّ عبادتهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله. فكلاهما عبادة؛ فالأولى مالية والثانية بدنية. وقد ذكر الله أنّ ذلك شرك بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.[2] فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.[3]

فسمى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم عبادة لهم، وسمى الأحبار والرهبان أربابا أي شركاء لله، مما يدل على أن من أطاع غير الله واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه ربا ومعبودا، وجعله لله شريكا.[4] سواء أكان عالما أو أميرا أو شيخا أو غير ذلك.

إنّ هذا الظلم العظيم الفظيع، يقتضي تعجيل العقوبة لأهله الظالمين، المخالفين لشرع الله، المتّبعين لشرع غيره، لولا إرادة الله وكلمته الفاصلة وحكمته القاضية بإمهالهم وإنظارهم. وإن كانوا لا يفلتون من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[5]

[1]– أخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، (1422هـ/2002م)، في كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، ص858، برقم (3104) وقال: "هذا حديث غريب"؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، (1424هـ/2003م)، كتاب آداب القاضي، باب إثم من أفتى أو قضى بالجهل، 198/10، برقم (20350)؛ وعبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، ضبطه وعلق عليه سعيد اللحام، إشراف ومراجعة وتصحيح: مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر طبعة مستكملة النص ومنقحة ومشكولة ومرقمة الأحاديث ومفهرسة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ/1989م)، موقوفا على أبي البختري، 210/8؛ والطبراني، المعجم الكبير، 92/17، برقم (218)، ورقم (219)؛ وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، (1420هـ/2000م)، 220/14، برقم (16632).

[2]– التوبة: 31.

[3]– الصافات: 22-23.

[4]– الحكمي، الظلم وأثره، ص[illegible].

[5]– الشورى: 21.

وبدل ترتيب العقاب على هذه الصورة للظلم، فإنّ المولى ﷻ رتّبه على جميع أنواع الظلم، فجاء بحكم عام يتناول الظالمين بتشريع ما لم يأذن به الله وأتباعهم، كما يتناول غيرهم من أهل الظلم.

وقد أكّد المولى ﷻ استحقاق الظالمين للعذاب الأليم بعدة أدوات مما لا يدع مجالا للشك في ذلك. هذا التأكيد الكفيل بردع العقلاء ومنعهم من الظلم بأنواعه المختلفة.

المطلب الثاني: الظلم الأصغر

يلي الظلم العظيم أي ظلم الشرك الأكبر في المرتبة ظلم أقل منه خطرًا يمكن تسميته بالظلم الأصغر؛ لأن الشرك بجميع أنواعه ظلم، وإن كان بعضه أعظم من بعض. وهذا النوع من الشرك

يشر إليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.[1]

وهو الذي اشتهر باسم الشرك الأصغر؛ لقوله ﷺ: {إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً}.[2]

وورد عند القرطبي أنه "الإشراك في العبادة وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئا من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره، وهذا هو الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال، وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي".[3]

ومن هذه الأحاديث، ما رواه الصحابي أبو سعيد بن أبي فضالة الأنصاري[4] قال: قال رسول الله ﷺ: {إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ}.[5]

وما رواه أبو سعيد الخدري[6] قال: {خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ قُلْنَا: بَلَى

فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ}.[7]

---

[1]- الكهف: 110.

[2]- أخرجه أحمد في مسنده، 39/39، برقم (23630)، من طريق محمود بن لبيد، والحديث حسّنه المحقق.

[3]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 181/5.

[4]- هو: أبو سعيد بن أبي فضالة الأنصاري، ويقال أبو سعد بن أبي فضالة، صحابي، قدم الشام وشهد الفتوح، من شيوخه سهيل بن عمرو، ومن تلاميذه زياد بن مينا. [جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1413هـ/1992م)، 342/33].

[5]- أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الكهف، ص874، برقم (3168)، قال:"هذا حديث حسن غريب"؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، 1406/2، برقم (4203)؛ وأحمد في مسنده، 161/25، برقم (15838)، 417/29، برقم (17888).

[6]- أبو سعيد الخدري هو: سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخارجي، كان ملازما للنبي ﷺ، ولد عام (10 ق.هـ)، وغزا 12 غزوة وله 1170 حديثا. توفي بالمدينة. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 152/1، برقم (87/3)].

[7]- أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، 1406/2، برقم (4204)؛ وأحمد في مسنده، 354/17-355، برقم (11252)؛ وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الطحاوي، مشكل الآثار، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (د.ت)، باب بيان مشكل ما روي عن الرسول: في النجوى من نهى من أباحه، 313/2-314.

وما ورد أيضا عن شداد بن أوس[1] قال: قال رسول الله ﷺ {إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً}.[2]

وعنه أيضا قال: {كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ "الشِّرْكُ الأَصْغَر"}.[3]

فدلت هذه الأحاديث على أن من الظلم الأصغر الذي يعد شركاً خفياً الرّياء في العبادات والأعمال التي يتقرب بها إلى الله ﷻ وعدم الإخلاص فيها لله وحده. وذلك تصنعا للخلق، ومجاملة لهم؛ لتلبية شهوات النفس المختلفة، التي لا تخرج عن طلب الدنيا عموما، كطلب المناصب والجاه والثراء، والسمعة الطيبة، والثناء والذكر الحسن، ونيل رضا الناس ونحوها.

الفرع الأول: صور الظلم الأصغر

تتنوع صور الظلم الأصغر بتنوع الأعمال والعبادات التي يُتقرب بها إلى الله ﷻ إذا خالطتها شبهة الرّياء. ولم تكن خالصة لوجهه تعالى سيان في ذلك بين العبادات البدنية والمالية، القلبية واللسانية، وسائر عبادات الجوارح المختلفة كالصلاة والإنفاق، والنذر والحلف والطيرة، واستخدام بعض الألفاظ الموحية بالشرك وغيرها.

أولا: الإنفاق والنذر لغير الله تعالى

من الظلم الأصغر الإنفاق والنذر لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.[4]

---

[1] – هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، من أمراء الصحابة، ولاّه عمر رضي الله عنه إمارة حمص. ولما قتل عثمان رضي الله عنه اعتزل. قال عنه أبو الدرداء: فقيه هذه الأمة. له 50 حديثا. وهو ابن أخ حسان "الشاعر". روى عنه ابناه يعلى ومحمد، وغيرهم في الحديث. قال له النبي ﷺ وهو يجود بنفسه: {إِنَّ الشَّامَ سَيُفْتَحُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ سَيُفْتَحُ وَتَكُونُ أَنْتَ وَوَلَدُكَ مِنْ بَعْدِكَ أَئِمَّةً فِيهِمْ}. [ابن الأثير، أسد الغابة، 2/387-388؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 138/1، برقم (158/3)].

[2] – أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، 1406/2، برقم (4205).

[3] – أخرجه أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي وبذيله تتبّع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي لأبي عبد الرّحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، (1417هـ/1997م)، كتاب الرقاق، باب الرياء الشرك الأصغر، 475/4، برقم (8018).

[4] – البقرة: 270.

والنذر "ما أوجبه المرء على نفسه تبررا في طاعة الله، وتقربا إليه".[1] أو ما يلتزمه الإنسان بإيجابه على نفسه. وأصله من الخوف؛ لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه خوف التقصير في الأمر المهم عنده. وفي الشريعة على ضربين مفسر وغير مفسر.[2] فالمفسر ما كان نذر قربة وطاعة لله تعالى بلا شرط؛ لئلا يتهاون فيها كنذر نفقة، أو بشرط حصول نعمة أو رفع نقمة كتوقيف صدقة معينة على شفاء مريض. أما غير المفسر فما كان نذر لجاج وغضب، أي ما يقصد به حث النفس على شيء أو منعها عنه، كالقول: نذرت لله أن لا أفعل كذا ثم يفعله، أو يقول لله عليّ نذر من غير تسمية. و يجب في الأول الوفاء باتفاق، أما الثاني ففيه اختلاف بين لزوم الكفارة، والتخيير بينها وبين الوفاء.[3]

وقد كانت النذور من سيرة العرب تكثر منهم، فذكر تعالى النوعين، ما يفعله المرء متبرعا وما يفعله بعد إلزامه نفسه. وفي الآية وعد ووعيد، أي من كان خالص النية في صدقته ونذره فهو مثاب، ومن أنفق رياء الناس، ونذر للشيطان، أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم يذهب فعله باطلا ولا يجد ناصرا فيه.[4]

ومن النذور الباطلة التي تنتشر عند العوام، نذر الطعام والذبائح والشمع عند أضرحة الأولياء الصالحين؛ لأن النذر عبادة، وصرف العبادة عن الله إلى مخلوقاته، ووضعها في غير موضعها ظلم.

قال الطبري: [5] "وإنما سمى الله المنفق رئاء الناس والناذر في غير طاعته ظالما لوضعه إنفاق ماله في غير موضعه، ونذره في غير ما له وضعه فيه، فكان ذلك ظلمه".[6]

فالظلم هنا نوعان ظلم عقدي واقع على النفس، وهو حاصل في كل المعاصي – لأن نيته في الإنفاق على المستحق الرياء والسمعة، أو إفساد النفقة بالمعاصي، وظلم اجتماعي واقع على

---

[1] – الطبري، جامع البيان، 91/3.

[2] – الرازي، التفسير الكبير، 62/7.

[3] – الرازي، التفسير الكبير، 62/7؛ محمد رشيد رضا، المنار، 78/3.

[4] – ابن عطية، المحرر الوجيز، [illegible]/2.

[5] – هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي الطبري أبو جعفر، الإمام صاحب التصانيف المشهورة. ولد بآمل سنة (224هـ)، واستوطن ببغداد، وأقام بها إلى حين وفاته. كان حافظا لكتاب الله، عارفا بالقراءات، بصيرا بالمعاني، فقيها في الأحكام، له الكتاب المشهور في "تاريخ الأمم والملوك" وكتاب "التفسير". توفي سنة (310هـ). [شمس الدّين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، طبقات المفسرين، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 110/2-117، برقم (1612)].

[6] – الطبري، جامع البيان، 92/3.

الغير؛ بصرف الإنفاق عن المستحق إلى غيره.[1] سيان في ذلك بين الفقراء والمساكين والمصالح العامة للأمة.

ولهذا يرى محمد رشيد رضا[2] أنّ الظلم في مقام الإنفاق عام وشامل؛ فهو من جهة ظلم للنفس؛ لعدم تزكيتها وتطهيرها من رذيلة أو آفة الرياء. ومن جهة ثانية ظلم للفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم. ومن جهة ثالثة ظلم للملة والأمة بترك الإنفاق في المصالح العامة، وإعطاء قدوة سيئة للغير.[3]

وبهذا يتبيّن أنّ المولى ﷻ قد حذّر من هذا الظلم الأصغر، الذي يخفى على كثير من الناس، وذلك من خلال المجيء بوعيد للظالمين الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وفي معصية الله، ويجعلون نذورهم في غير طاعته، يبتغون بذلك ثواب الدنيا. الوعيد الذي ينذر بفقدان من يدفع عن هؤلاء الظالمين العقاب والعذاب الأليم، سواء بالجاه أو الافتداء بالمال يوم الجزاء؛ لأن الله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة من ظلمهم وريائهم؛ ويفهم ذلك من تعقيبه بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.[4]

بل إن الآية ساقت التعميم بعد التخصيص، وبينت أن فقدان الأنصار يوم القيامة حال جميع الظالمين. فجاء ذلك على عادة القرآن في تذييل بعض القصص والآيات بتعقيبات في هيئة قواعد شاملة لجميع أفراد النوع الواحد.

ثانيا: الحلف بغير الله تعالى

يُعد الحلف بغير الله تعالى، عدا المقدسات، صورة من صور الظلم الأصغر الذي يراد به الشرك الأصغر؛ لأنّ المعظمات كالنبي ﷺ والبيت اختلفت فيها آراء العلماء بين الحرمة والكراهة،

---

1 – الرّازي، التفسير الكبير، 62/7.

2 – هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني: (1282هـ-1353هـ/ 1865م-1935م)، محدث، مفسر، مؤرخ، أديب، سياسي. ولد في القلمون في 27 جمادى الأول، وتعلم فيها وفي طرابلس وبيروت، نشأ على الصلاح والتقوى والتنسك، هاجر إلى مصر سنة (1897م)، وفيها لحق بمحمد عبده، وأنشأ مجلة المنار، توفي فجأة في 23 جمادى الأول بالقاهرة. من تصانيفه: "تفسير القرآن الكريم"، "الوحي المحمدي"، وغيرهما. [عمر كحالة، معجم المؤلفين، 293/3]

3 – محمد رشيد رضا، المنار، 78/3.

4 – البقرة، 270.

إذ يكره الحلف بغير الله تعالى عند الشافعية ويحرم عند الحنابلة، وللمالكية رأيان الحرمة والكراهة، والمشهور الحرمة.[1]

ولم يفرق ابن قيم[2] بين المقدسات وغيرها مستدلا[3] بقوله ﷺ: {مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ}؛[4] لأنه يرى أنّ الحلف تعظيم، والتعظيم حق لله وحده، فمن حلف بغيره ﷻ فقد جعل التعظيم مستحقا لغيره، أو عدل به شيئا، واتخذ معه نداً، ووضع التعظيم في غير موضعه؛ فوقع بذلك في الظلم.

ولا يترتب على هذه الصورة من الظلم وفاء ولا كفارة؛ لأنها شرك والشرك لا حرمة له. وإنما على الظالم في هذه الحال التوبة الصادقة، والاستغفار.[5]

ثالثا: الألفاظ الموحية بالظلم الأصغر

ومن صور الظلم الأصغر بعض الألفاظ التي توحي بالشرك كالقول: "باسم الله واسم الشعب" و"ما شاء الله وشئت" و"هذا من الله ومنك" و"أنا بالله وبك" و"ما لي إلا الله وأنت" و"أنا متوكل على الله وعليك" و"لولا أنت لم يكن كذا وكذا"، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده".[6]

---

[1]- عبد الرحمن الجزيري، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، (1406هـ/1986م)، 74/2-75.

[2]- هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن حريز الدمشقي الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية، فقيه، أصولي مجتهد مفسر، متكلم، نحوي، محدث. ولد بدمشق سنة (691هـ/1292م)، برع في علوم الشريعة والعربية حتى ارتقى منصب الإفتاء والإمامة. توفي سنة (751هـ/1350م). من تصانيفه: التفسير القيم، أحكام أهل الذمة. [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 164/3-165، برقم (12418)].

[3]- ابن قيم، مدارج السالكين، 384/1.

[4]- أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ/1988م)، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، 242/2، برقم (3251)؛ وأحمد في مسنده، 249/10، برقم (6072)؛ وأبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان التميمي البستي، صحيح ابن حبان، بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، (1414هـ/1993م)، كتاب الأيمان، باب أن يحلف المرء بشيء، 199/10-200 برقم (4358)، من طريق سعد بن عبيدة رضي الله عنه؛ والحاكم، المستدرك، كتاب الإيمان، باب سمرة بن جندب، 60/1، برقم (45)، 61/1، وبرقم (46).

[5]- الحكمي، الظلم وأثره، ص28.

[6]- ابن قيم، مدارج السالكين، 384/1.

ويشهد له ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: {"مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ " أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ}.[1]

وما رويّ عن النبي ﷺ أنه قال: {لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانْ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَ شَاءَ فُلَانْ}.[2]

حيث حذّر النبي ﷺ في هذه الأحاديث من هذا الظلم، كما حذّر من ذلك ابن عباس رضي الله عنه في تفسير؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛[3] فقال: {الأَنْدَاد هُوَ الشِّرْك أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَا، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانْ وَحَيَاتِي وَتَقُول: لَوْلَا كُلَيْبَة هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوص، وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ، مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلِ الرَّجُل لَوْلَا الله وَفُلَان، لاَ تَجْعَل فِيهَا فُلَانًا هَذَا كُلُهُ بِهِ شِرْكٌ}.[4]

فبيّن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الألفاظ وما شابهها كلّها شرك، والشرك ظلم، والمراد هنا الظلم الأصغر.

ويلحق بهذه الألفاظ التسمية بأسماء الله تعالى، أو بأسماء تدل على العبودية لغيره كعبد النبي، وعبد الكعبة، وعبد الحسين وعبد الرسول ونحوها.[5]

---

[1]- أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت، 684/1، برقم (2117)؛ وأحمد في مسنده، 339/3، برقم (1839)، بلفظ "عدلا" بدل "ندا"؛ ومحمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، خرج أحاديثه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1417هـ/1996م)، باب قول الرجل ما شاء الله وشئت، جعلت لله ندا، ص234، برقم (783).

[2]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي، 713/2، برقم (4980)؛ وأحمد في مسنده، 299/38-300، برقم (23265)، 370/38، برقم (23347)، 396/38، برقم (23381)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الجمعة، باب ما يكره من الكلام في الخطبة، 206/3، برقم (5810)؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2000م)، فصل في حفظ المنطق وما فيه الأدب، 312/4-313، برقم (5222)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، 264/6، برقم (231)، و92/7، برقم (68).

[3]- البقرة: 22.

[4]- رواه عبد الرحمن بن محمد إدريس الرازي بن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق أسعد محمد الطيب، إعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط1، (1417هـ/1997م)، ص62، برقم (229).

[5]- [illegible] ص53.

فالشرك بجميع أنواعه ظلم وإن كان بعضه أعظم من بعض؛ لأنه اعتقادات وتصورات خاطئة تؤدي إلى انتشار الأوهام وسيطرة الخرافات على العقول، فتتوارثها الأجيال كما يتوارثون معها الظلم والعدوان.

المطلب الثالث: الظلم الأعظم

قال تعالى:

1- ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.[1]

2- ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.[2]

3- ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾.[1]

---

[1]- البقرة: 114.

[2]- البقرة: 140.

4- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [2]

5- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. [3]

6- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾. [4]

7- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾. [5]

8- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. [6]

9- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾. [7]

10- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. [8]



[1] – الأنعام: 157

[2] – الأنعام: 144

[3] – الأنعام: 21.

[4] – يونس: 17.

[5] – العنكبوت: 68.

[6] – هود: 18.

[7] – الأعراف: 37.

[8] – الأنعام: 93.

11- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.[1]

12- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

13- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾.[3]

14- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.[4]

تحدّث القرآن الكريم، عن أعظم أنواع الظلم وأشدها، ووصف أهله بالأظلمية وبيّن أنه لا ظالم أظلم منهم؛ لأنهم أتوا أصنافًا من الظلم العظيم، ولفت الانتباه إلى ذلك من خلال دوران لفظ ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ﴾ في عدة مواطن حيث بلغت أربع عشرة آية. يمكن بعد النظر فيها حصر هذه الأنواع في ما يلي:

الفرع الأول: النوع الأول من الظلم الأعظم: افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته

بيّن القرآن الكريم أن من أشد أنواع الظلم، افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته، وأظلم الظالمين من افترى الكذب على الله وكذّب بآياته؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[5]

[1]- الزمر: 32.

[2]- الصف: 7.

[3]- السجدة: 22.

[4]- الكهف: 57.

[5]- الأعراف: 37.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[1] وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.[2]

فشر"أنواع الظلم والإجرام في البشر شيئان أحدهما، افتراء الكذب على الله، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم [أي تبديل القرآن][3] وثانيهما التكذيب بآيات الله، وهو ما اجترحوه بإجرامهم، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الإنكاري، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين من الظالمين".[4]

فالآية افتتحت بالاستفهام عن وجود فريق، هم أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله كذبا أو كذبوا بآياته؛ توجيها لأذهان السامعين نحو البحث، هل يجدون أظلم منهم، حتى إذا أجادوا التأمل واستَقْروا مظانّ الظلمة، واستعرضوا أصنافهم، تيقنوا أن ليس ثمة ظلم أشد من ظلم هؤلاء.[5] ولا يسع السامعين الجواب إلا بأنّهم أظلم الظالمين ولا ظالم أظلم منهم.

وإنما كانوا أشد الظالمين ظلما؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه، وأشد من المنع أن يمنعه مستحقَّه ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، وهؤلاء سلبوا عن الله ما هو متصف به من صفات الإلهية، وأثبتوا له ما هو متره عنه، وكذبوا الرسول ﷺ ورموه بما هو بريء منه كذبًا؛ فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في غير مواضعها.[6]

فقد ارتكبوا "أصنافًا من الظلم العظيم: ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته، إذ زعموا أن له شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنه أمرهم بما هم عليه من الباطل، وظلم الرسول بتكذيبه، وظلم القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلم المؤمنين بالأذى، وظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد".[7]



---

[1] الأنعام: 21.

[2] – يونس: 17.

[3] – زيادة في النص من طرف الباحثة للتوضيح.

[4] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 11/322-323.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/21/34.

[6] – نفسه، 8/21/35.

[7] – نفسه، 9/24/6.

وما يلفت الانتباه في هذه الآية هو وجود حرف "أو" الذي قد يكون بمعنى الواو، فيكون الموصوف بأنه أظلم الناس، هو من اتصف بالأمرين الكذب والتكذيب.[1] ويكون أشد أنواع الظلم، وهو الجمع بين افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته.

ولكن الظاهر أنّ "أو" للتقسيم،[2] والآية تتحدث عن فريقين من أظلم الظلمة، وعن نوعين من أعظم أنواع الظلم، وهما افتراء الكذب على الله والتكذيب بآيات الله.

أولا: افتراء الكذب على الله

إنّ افتراء الكذب على الله، هواختلاق القول عليه زورًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. وفيه دلالة على أنّ الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم.[3] والافتراء الكذب المتعمد، وقد أكده بمؤكد أعم منه، وهو المصدر"كذبا"؛ لأنّ التأكيد يحصل بالأعم.[4] والغرض من ذلك زيادة تفظيع الافتراء؛ لأنّ اسم الكذب مشتهر القبح في عرف النّاس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة.[5]

والمراد: لا أحد أظلم وأجهل وأخطأ قولا، وأبعد ذهابا عن الحق والصواب ممن يختلق على الله زورًا من القول، بنسبة الشريك والولد إليه، والادعاء بأنّ الله أرسله إلى النّاس و لم يكن أرسله، والزعم بأنّ الله أمره بالفواحش، وادعاء التحليل والتحريم وغيرهما دون دليل.[6] قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.[7]

ومن الكَذِب المفترى على الله ما يزعمه بعض من يدّعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد ﷺ ويقولون عن أنفسهم إنّهم "مسلمون"، مع أنهم يصدرون أحكاما وينشئون أوضاعا،



1 – نفسه، 14/130.

2 – نفسه.

3 – الرازي، التفسير الكبير، 16/163.

4 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/21/35.

5 – نفسه.

6 – الطبري، جامع البيان، 12/408؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/301-302؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 7/11/54؛ أبو بكر جابر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه "نهر الخير على أيسر التفاسير"، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط3، (1418هـ/1997م)، 2/457.

7 – النحل: 116.

ويبتدعون قيما من عند أنفسهم، يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم، و يزعمون ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم؛ ليشتروا به مثوى في دركات الجحيم، أنه هو دين الله.[1]

ولا يوجد أقبح ظلما ممن بلغ به الظلم المبلغ الذي يدعوه فيه الداعي إلى الإسلام، الذي يجلب له الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويقيم له على ذلك الحجة والبرهان، فيقف في وجهه موقف العداء والكيد والتضليل، ويحاربه بشتى الوسائل والطرق، ويرشقه بالاتهامات، ويسعى للدس والوقيعة بين أفراده، ويحبك مختلف المؤامرات للقضاء عليه ونصرة الباطل[2]، ويضع موضع الإجابة اختلاق الكذب والباطل على الله ﷻ بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرًا،[3] أو غير ذلك، فيظلم بدل أن يعدل ويسلم لله وينقاد لحكمه، لا ترده عن ذلك موعظة، ولا يزجره بيان ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[4]

وإنما كانوا أظلم الناس لأنّهم "ظلموا الرسول ﷺ بنسْبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة، فيعرضوا دعوة الرسول ﷺ على النظر الصحيح حتى يعلموا صدقه، وظلموا ربهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله ﷺ إلى ما ليس منه فسموا الآيات والحجج سحراً ، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب".[5]

وقد بيَّن الله ﷻ وعيد المفترين عليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.[6] فاستحضرهم باسم الإشارة؛ لتمييزهم للنّاس كلِّهم حتى يشتهروا بالسوء ويفتضحون، بأن يقول الأشهاد، وهم إمّا الملائكة الذين كانوا يحفظون عليهم أعمالهم في الحياة الدنيا، وإمّا النّاس، وإمّا الأنبياء _عليهم الصلاة والسلام_ عند عرضهم ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه.[7]

---

[1] – سيد قطب ، في ظلال القرآن، 1062/7/2.

[2] – نفسه.

[3] – الطبري، جامع البيان، 359/23؛ أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1994م)، 282/28/14.

[4] – الصف: 7.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 118/28/11.

[6] – هود: 18.

[7] – الرازي، التفسير الكبير، 163/16؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 33/12/5.

وبعد أن أخبر عن حالهم في عذاب القيامة، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والأنبياء والرسل، وسائر البشر والجان، أخبر عن حالهم في الحال؛ فبيَّن أنهم ملعونون من عند الله تعالى؛[1] فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، فأقصاهم الله وطردهم وأسحقهم وأخزاهم وأبعدهم منه ومن رحمته، غضبا وسخطا عليهم بظلمهم، وعقوبة لهم عليه.[2]

وقد يكون هذا القول من بقية قول الأشهاد. وافتتاحه بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير، والخبر مستعمل في الدعاء خزياً وتحقيراً لهم، وممّا يؤيد أنه من قول الأشهاد التصريح بذلك[3] في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.[4]

ويشهد له أيضا ما نقله صفوان بن مُحْرِز[5] قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر،[6] إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا

1- الرازي، التفسير الكبير، 164/16؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 313/4.

2- الطبري، جامع البيان، 328/2، 437/10، 447/12.

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 34/12/5.

4- الأعراف، 44.

5- هو: صفوان بن مُحرز، بصري من بني تميم، تابعي ثقة، وله فضل وورع. روى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما. [أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1، (1405هـ/1985م)، 468/1، برقم (766)، المزي، تهذيب الكمال، 212/13، برقم (2891)].

6- هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، هجرته كانت قبل هجرة أبيه، مات بمكة سنة (73هـ) ودفن بذي طوى بمقبرة المهاجرين. [أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، (1412هـ/1992م)، 950/3-953، برقم (1612)].

وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ: ﴿الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ }.[1]

وهذا النوع الأول فيه عدة صور، ومن هذه الصور، ادعاء النبوة كذبا، وادعاء القدرة على إنزال مثل ما أنزل الله؛ ولا أحد أظلم ممن قال: أوحي إليّ، وممن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.[2] فعطف الخاص على العام؛ لأنّ هذين القولين لتبيين صورتين من صور افتراء الكذب على الله.[3] وهما:

أ- ادعاء النبوة والرسالة كذباً

إنّ ادعاء النبوة والرسالة بغير حق، صورة من صور افتراء الكذب على الله، الذي يُعد أشد الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

وقد أخرج الطبري أنّه نزل في مسيلمة،[4] كان يدّعي النبوة، ويزعم أنّ الله أوحى إليه.[5]

واستبعده ابن عاشور فقال: "وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادّعى النّبوءة قبل هجرة النّبي ﷺ إلى المدينة لأنّ السّورة مكّية. والصّواب أنّ مسيلمة لم يدع النّبوءة إلاّ بعد أن وفد على النّبي ﷺ في

---

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب قوله تعالى: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ص428-429، برقم (2441)، وكتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ص861، برقم (4685)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ص1321، برقم (2766)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، 65/1، برقم (183)؛ وأحمد في مسنده، 318/9، برقم (5436).

[2]- الأنعام: 93.

[3]- طنطاوي، التفسير الوسيط، 177/5.

[4]- هو: مسيلمة (الكذاب) بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي، متنبئ. كتب إلى النبي ﷺ يسأل أن يشاركه في النبوة والأمر، قُتل قُتل في وقعة اليمامة بقيادة خالد بن الوليد والتي استشهد فيها 450 صحابيا. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 110/1، برقم (226/7)].

[5]- الطبري، جامع البيان، 533/11، برقم (13555)، ورقم (13557)، ورقم (13558)؛ جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية، (د.ط.ت)، ص144.

قومه بني حنيفة بالمدينة سنة تسع طامعاً في أن يجعل له رسول الله ﷺ الأمرَ بعده فلمّا رجع خائباً ادّعى النّبوءة في قومه..... والوجه أنّ المقصود العموم ولا يضرّه انحصار ذلك في فرد أو فردين في وقت مّا وانطباق الآية عليه".[1]

فأظلم النّاس إذًا كل من يزعم أنّ الله يوحي إليه، وهو كاذب في دعواه، فإنّ الله ما أوحى إليه شيئا؛ فيكذب بذلك على الله، ويتجرأ على عظمته وسلطانه، ويكذب على النّاس ويفرض عليهم اتباعه، ويَسْتحل دماء وأموال من خالفه، كمسيلمة الكذّاب والأسود العنْسي، وغيرهم ممن تجرأ على ارتكاب هذا الظلم الأعظم في كل زمان ومكان.[2]

ب- ادعاء الإتيان بمثل ما أنزل الله

وعن طريق العطف يأتي الجزء الباقي من الآية ليبيّن درجة أعظم في الظلم من الدرجة السابقة معبرا عنها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إذ بعد أن ادعى أنه نبي يوحى إليه لم يقنعه ذلك الكذب، و لم يكفه فادعى الربوبية بحيث يكون هو مصدر الإنزال، وليس فقط جهة للتلقي. وهكذا يصبح الظلم مركبا في نفسية الإنسان، حيث تختلط في ذهنه معالم الرؤية الصحيحة والفهم السليم لموقع الإنسان في هذا الكون، ولدوره في الحياة، فإذا هو يدّعي النبوة أحيانا ويدّعي الألوهية أخرى!

فأظلم الظالمين من يدعي القدرة على معارضة الوحي المنــزل من الله بما يفتري من القول؛[3] لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، إمّا على سبيل السخرية كقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [4] وإمّا أنّه قال سأنزل مثل هذا الكلام، فحكاه الله تعالى بالمعنى بقوله: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ كقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾[5]".[1]

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 375/7/3.

[2] - عبد الرّحمن بن ناصر بن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، (1420هـ/2000م)، 264/1؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 177/5.

[3] - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 302/3.

[4] - الحجر: 6.

[5] - النساء: 157.

واختلف في سبب نزولها، فذكر الواحدي[2] والسيوطي[3] أنّها نزلت[4] في عبد الله بن سعد بن أبي سرح[5]، "كان قد تكلم بالإسلام، فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب له شيئاً، فلما نزلت الآية التي في المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ﴾ [6] أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [7] عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت عليّ، فشكّ عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، وذلك قوله: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ وارتدّ عن الإسلام". [8]

---

[1]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 376/7/3.

[2]– هو: علي بن أحمد أبو الحسن الواحدي النيسابوري. كان واحد عصره في التفسير، لازم أبا إسحاق الثعلبي، وأخذ العربية عن أبي الحسن القهندزي، ودأب في العلوم وأخذ اللغة عن أبي الفضل أحمد بن محمد العروضي. صنّف التفاسير الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز، كذا أسباب النـــزول. توفي سنة (468هـ). [جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السيوطي، طبقات المفسرين، راجع النسخة وضبطها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، ص 66-67، برقم (70)].

[3]– السيوطي هو: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. والسيوطي نسبة إلى أسيوط مدينة في صعيد مصر. عالم موسوعي في الحديث والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والفقه وغيرها من العلوم. وُلد في القاهرة (849هـ/1445م)، ونشأ فيها. رحل إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب، ثم عاد إلى مصر فاستقر بها. تولى مناصب عدة. ولما بلغ الأربعين، اعتزل في منـــزله، وعكف على التصنيف. ذُكر له من المؤلفات نحو 600 مؤلف. من أشهر كتبه: الجامع الصغير في أحاديث النذير البشير؛ الإتقان في علوم القرآن. وتوفي سنة (911 هـ/1505م). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 539/1، برقم (301/3)].

[4]– السيوطي، أسباب النـــزول، ص144.

[5]– هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث بن عامر بن لؤي القرشي. أخو عثمان بن عفان من الرضاعة أرضعت أمه عثمان، أسلم قبل الفتح، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركا، ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، فتح إفريقيا، ولي مصر بعد عمرو، ولما قتل عثمان قدم الشام واعتزل الفتنة ومات وهو قائم يصلي. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 124/1، برقم (88/4)].

[6]– المؤمنون: 12.

[7]– المؤمنون: 14.

[8]– علي بن أحمد أبو الحسن الواحدي، أسباب النـــزول، تعليق وتخريج مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، (1408هـ/1988م)، ص181.

ولكن رفضه ابن عاشور فقال: "هذا لا ينثلج له الصّدر لأنّ عبد الله بن أبي سرح ارتدّ بعد الهجرة ولحق بمكّة وهذه السّورة مكّية."[1]

بينما نقل القرطبي[2] أنّها : نزلت في النضر بن الحارث؛[3] لأنّه عارض القرآن.[4]

ولا تمانُع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: "إني قد قلت مثل ما قال محمد"، وأنّه ارتدّ عن إسلامه ولحق بالمشركين، فكان بقوله مفتريًا كذبًا. وكذلك لا خلاف بين الجميع أن كلا من مسيلمة والعنسيّ، ادّعى أنّ الله أوحى إليه، وهو كاذب. لذلك يدخل في هذه الآية كل من اختلق على الله كذبًا، وادعى بأنّ الله أوحى إليه أو ادعى القدرة على إنزال مثل ما أنزل الله كذبًا، بما في ذلك الأظلمين المذكورين في سبب النزول، وغيرهم ممن اقتدى بقولهم في كل زمان ومكان، وإن كان سبب نزولها بعضهم أو جميعهم أو جميعُ المشركين من العرب، لأنهم لم ينكروا على قائل ذلك منهم، رغم أنّهم أنكروا نبوّة محمد ﷺ وجحدوا ما جاء به من آيات الله ﷻ.[5]

وعليه فلا أظلم ممن ادعى بأنه قادر على أن يُنـــزل قرآنا مثل الذي أنزله الله، ويجاري الله في أحكامه، وتشريعاته، أو زعم أنّه قادر على معارضة القرآن، وذلك في كل زمان ومكان، كالذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[6] حيث بلغوا النهاية في الظلم، فكانوا أظلم الظالمين.

وأيُ ظلم أعظم من دعوى الضعيف، الناقص من كل وجه، مشاركةَ القوي، الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟[7]

---

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 375/7/3.

[2]- القرطبي هو: عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحدث، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين. له تفسير كبير من اثني عشر مجلدا وهو من أجل التفاسير وأعظمها. توفي سنة (671هـ). [محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط، د ت)، 197/1/1، برقم (666)].

[3]- هو: النضر بن الحارث بن علقمة العبدري القرشي، ابن خالة النبي ﷺ صاحب لواء المشركين ببدر. اطّلع على كتب الفرس وقرأ تاريخهم، أسر يوم بدر ثم قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 103/1-104، برقم (8/33)].

[4]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 41/7.

[5]- الطبري، جامع البيان، 536/11.

[6]- الأنفال: 31.

[7]- السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 264/1.

وبعد التهديد والتخويف العظيم في أول الآية من أعظم الظلم على سبيل الإجمال جاء التفصيل لذلك المجمل؛[1] مبينا مصير أولئك الظالمين، وما أعدّ لهم الله ﷻ من عقوبة في الدنيا وقت الاحتضار ونزع الأرواح أو ما يلاقونه من شدائد العذاب يوم القيامة؛ مبرزاً بدل ضميرهم وصف الظلم الذي أداهم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أي: ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حال أولئك الظالمين، وهم في شدائد الموت وكرباته الشنيعة أو في عذاب جهنم وأهواله الفظيعة، لرأيت أمرا عظيما هائلا ترتعد منه الأبدان، والملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواحهم أو لضربهم وتعذيبهم،[2] يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾.

ولكن إخراج الظالمين لأنفسهم لا قدرة لهم عليه، لذلك ورد في تفسيره عدة وجوه:[3]

الأول: أي أخرجوا أنفسكم من عذاب جهنم الشديد إن قدرتم تعجيزا لهم.

الثاني: أي أخرجوا أنفسكم من شدائد سكرات الموت وخلصوها من آفاته وآلامه، تبكيتا لهم.

الثالث: أي أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال.

الرّابع: أنّه كناية عن شدة حالهم، وأنّهم بلغوا في البلاء والشدة إلى حيث تولى بنفسه إزهاق روحه.

الخامس: أنّه وعيد وتقريع، لتعصي أرواحهم على الخروج من الأبدان، لأنّها تصير إلى أشد العذاب.

ثم استأنف تعالى الوعيد تتمة لما تقوله الملائكة لأولئك الظالمين:[4] ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقد قرأه ابن

[1] – الرازي، التفسير الكبير، 69/13؛ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1، (1391هـ/1972م)، 674/2.

[2] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 66/3؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 264/1؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 177/5.

[3] – الرازي، التفسير الكبير، 70/13.

[4] – طنطاوي، التفسير الوسيط، 179/5.

مسعود: ﴿الْهَوَانِ﴾ أي العذاب الشديد "وهو عذاب جهنم الذي يُهينُهم فيذلّهم، حتى يعرفوا صَغَار أنفسهم وذِلّتَها".[1]

وجمع بين الإيلام والإهانة، لأنّ شرط العذاب أن يكون مضرة مقرونة بالإهانة، كاشتراط المنفعة المقرونة بالتعظيم في الثواب. والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب الشديد إنما حصل بسبب مجموع الأمرين الافتراء على الله، والتكبر على آيات الله.[2] فهو نتيجة لكذبهم عليه، وردهم للحق الذي جاءت به الرسل، وترفعهم عن الانقياد لآياته، والاستسلام لأحكامها.[3]

ثانيا: التكذيب بآيات الله

ومن صور الظلم الأعظم، التكذيب بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، أي: كذب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه فجحد حقيقتها ودافع صحتها.[4] وكذب بالآيات التي جاءت بها رسله، فجحدها وعاند في ذلك وكابر.[5]

ويرى إطفيش أنّ المراد بالآيات "القرآن لا ما نصبه من الأدلة العقلية كخلق السموات والأرض والجبال وغير ذلك؛ لأنهم لم يكذبوها إلا بتكلف أنّ عدم الاعتبار بها تكذيب فتشمل الآيات القرآن والأدلة العقلية، لكن تسمية عدم الاعتبار تكذيبا مجاز فيجمع بين الحقيقة والمجاز إلا إن اعتبرنا عموم المجاز فنقول معنى التكذيب عدم العمل بالقرآن".[6]

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.[7]

أي: "أو كذّب بما بعث الله به رسوله محمدا ﷺ من توحيده، والبراءة من الآلهة والأنداد لما جاءه هذا الحقّ من عند الله".[1]

---

[1] - الطبري، جامع البيان، 540/11.

[2] - الرازي، التفسير الكبير، 71/13.

[3] - الرازي، التفسير الكبير، 71/13؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 264/1.

[4] - الطبري، جامع البيان، 408/12.

[5] - أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 457/11/2.

[6] - امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، تحقيق وإخراج الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي بمساعدة لجنة من الأساتذة، المطبعة المطبعة العربية، غرداية، د.ط، 1416هـ/1998م)، 233/4-234.

[7] - العنكبوت: 68.

وقد عبّر القرآن بلفظ الحق بدل الآيات، وقيّد تكذيبهم به بقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ وذلك "لإدماج ذم المكذبين بنكران نعمة إرسال الحق إليهم التي لم يقدروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلبوا الحق ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحق بين أيديهم فكذّبوا به. وأيضاً فإنّ " لَمَّا " التوقيتية تؤذن بأن تكذيبهم حصل بداراً عند مجيء الحق، أي دون أن يتركوا لأنفسهم مهلة النظر".[2]

وهو ما أشار إليه قوله تعالى أيضاً: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.[3] الذي يدل على أنّهم سارعوا إلى تكذيب ما جاءهم به الرسول ﷺ من عند الله ﷻ بمجرد أن سمعوه، دون أن يتدبروه أو يفكروا فيه، بما في ذلك القرآن الكريم.[4] الذي جاء بلسانهم، بحيث لا يَصدف عنه إلا معاند ومكابر مؤثِر للباطل على الحق، ولحظوظ الشهوة على حظوظ الإنصاف والنجاة.[5]

فهذا الظالم الأعظم هو الذي يحدثه الأنبياء عما أنزله الله من وحي، أو يحدثه العلماء عن ذلك، فيقف ليكذب بآيات الله، ليجحدها وينكرها وهي واضحة أمامه، ما يعطّل تأثيرها في نفسه، لأنه يحرم نفسه من الحقائق التي جاءت بها آيات الله ﷻ .[6]

وعلاوة على ذلك فإنّ ظلمه قد لا يقتصر عليه بل يتجاوزه إلى التأثير على بعض النّاس سواء قصدا أم من غير قصد؛ فيسيروا بسيرته، ويقتدوا بظلمه؛ فيضلهم عن سبيل الحق.

وهذا ما جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[7]

قال ابن كثير:[8] "وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بنُ لُحَيّ بنِ قَمْعَة، فإنه أول من غيّر دين

---

1 – الطبري، جامع البيان، 62/20.

2 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 35/21/8.

3 – الزمر: 32

4 – سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 50/12.

5 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/24/9.

6 – محمد حسين فضل الله، درس التفسير القرآني ألقاه يوم 2004/6/1.

7 – الأنعام: 144.

8 – ابن كثير هو الإمام العلامة شيخ المحدثين، عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي. ولد سنة (171هـ)، تخرّج في علم الحديث بالحافظ المزي وصاهره. تفقه وبرع، وألّف في التفسير والحديث والتاريخ. له تآليف مفيدة ومشهورة مثل البداية والنهاية، الطبقات، كانت له خصوصية بالشيخ ابن تيمية. [ولي الدّين أبو ورعة أحمد بن عبد

الأنبياء، وأول من سيّب السوائب،[1] ووصل الوصيلة، وحمى الحامي،[2] كما ثبت ذلك في الصحيح" [3] لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه[4] قال: قال رسول الله ﷺ: {رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ[5] فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ}.[6]

وإن كان المؤسس لهذا الظلم الأشد ظالم أعظم واحد، هو أظلم من كل ظالم، وإن كان المنفي صريحا في الأظلمية دون المساواة، إلا أنّه لا يقدح في أظلمية التابع والمتبوع كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين به.[7]

ويحمل هذا على كل من فعل ذلك، لأنّ اللفظ عام والعلة الموجبة لهذا الحكم عامة.[8]

والآية افتتحت بسؤال إنكاري من المتكلّم عمّن اتّصف بزيادة ظلم الظّالمين الّذين كذبوا على الله ليضلّوا النّاس[9] بحيث لا يشك السامع في أنّه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا بتحريم ما لم يحرمه وتشريع ما لم يشرعه أو غير ذلك، لإضلال الناس به، بحملهم على اتباعه فيه مع نسبته

الرحيم بن الحسين ابن العراقي، الذيل على العبر في خبر من غبر، تحقيق وتعليق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ/1989م)، 358/2-360].

[1]- و"السائبة": كانوا يسيبونَها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء. [البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، ص843-844، برقم (4623)].

[2]- وَالْوَصِيلَةُ النَّاقة البكر تبكِّرُ في أول نتاج الإبل ثمَّ تثنّي بعد بأنثى وكانوا يسيِّبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ والحَام فحل الإبل يضرب الضِّراب المعدود فإذا قضى ضِرَابَهُ ودعوه للطَّواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء حديث وسموه الحامي. [البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، ص843-844، برقم (4623)].

[3]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 352/3.

[4]- هو: أبو هريرة الدوسي اليماني، الإمام، الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ سيد الحفاظ الأثبات. اختلف في اسمه على أقوال جمة، أرجحها: عبد الرّحمن بن صخر. كان النبي ﷺ يدعوه أبا هِر. حدّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين. مات سنة (57هـ). هو رأس في القرآن، وفي السنة والفقه. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 579/2-532، برقم (126)].

[5]- قُصْبه: "بضمِّ القاف وإسكان الصاد، قال الأكثرون: يعني أمعاءه، وقال أبو عَبيد: الأمعاء واحدها قصب". [النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفها ونعيمها وأهلها، باب جهنم أعاذنا الله منها، 189/17].

[6]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: 103]، ص844، برقم (4624)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النّار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ص1361، برقم (2846)؛ وأحمد في مسنده، 137/13، برقم (7710)، 391/14-392، برقم (8787).

[7]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 454/2.

[8]- الرازي، التفسير الكبير، 178/13.

[9]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 135/8/4.

إلى الله تعالى بغير علم، أي عن جهل تام عام. ونفي العلم شامل لما يؤثر أو يعقل ويستنبط، كالنظر العقلي والتجارب العملية، وطرق درء المفاسد والشرور، وتقدير المصالح وعمل البر والخير.[1]

ولهذا يرى ابن عاشور أنّ المراد به "التّنبيه على أنّهم فعلوا ذلك ظنّا منهم أنّهم أصابوا فيما فعلوا، وأنّهم علموا كيف يَرأَبُون[2] ما في العالم من المفاسد، وينظمون حياهم أحسن نظام، وهم في في ذلك مغرورون بأنفسهم، وجاهلون بأنّهم يجهلون **﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾**[3]".[4]

وقد وجد في البشر عقلاء فكروا وبحثوا، فيما يجب عليهم لله، من الشكر والعبادة واتباع الحق والعدل وفعل الخير، واجتناب المضار؛ مسترشدين بالعقل والتجارب، فأصابوا في بعضها وأخطأوا في البعض الآخر، وكانوا خير الناس للناس على حين فترة من الرسل، كما فعل قُصي،[5] إذ وضع للعرب سننا حسنة كسقاية الحاج ورفادهم وإطعامهم، وسن الشورى في مهام الأمور، وكتأسيس قريش حلف الفضول لمنع الظلم.[6]

والمقصود من الإخبار بنفي العلم، هو أنّ الأظلم افترى على الله ﷻ جاهلاً بصدور التحريم عنه جلّ شأنه، وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفتري عالم بعدم الصدور إيذاناً بخروجه في الظلم عن الحدود والنهايات. أو أنّه غير عالم بما يؤدي إليه من العذاب العظيم. أو أنّه عمِل عمَل القاصد إضلال الناس من أجل دعائهم إلى ما فيه الضلال وإن لم يقصد الإضلال وكان جاهلاً بذلك غير عالم به.[7]

وهكذا تبيّن أنّ من أشد درجات الظلم، افتراء الكذب على الله ونسبته إليه لإضلال النّاس بغير علم، علاوة على إضلال النفس؛ لتحمل وزرها مع أوزارهم.

---

[1] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 144/8؛ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.ت)، 55/8.

[2] – يصلحون. [المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط21، (د.ت)، ص243].

[3] – الكهف: 104.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 115/8/4.

[5] – هو: قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي، سيد قريش في عصره، من سلالة النسب النبوي، قيل: هو أول من كان له ملك من بني كنانة. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 41/1، برقم (198/5)].

[6] – محمد رضا، تفسير المنار، 144/8-145؛ المراغي، تفسير المراغي، 55/8 -56.

[7] – الألوسي، روح المعاني، 286/7/4.

ويستفاد من الآية " أنّ من الظلم أن يُقدِم أحد على الإفتاء في الدّين ما لم يكن قد غلب على ظنّه أنَّه يفتي بالصّواب الّذي يُرضي الله، وذلك إنْ كان مجتهداً فبالاستناد إلى الدّليل الّذي يغلب على ظنّه مصادفته لمراد الله تعالى، وإن كان مقلّداً فبالاستناد إلى ما يغلب على ظنّه أنَّه مذهب إمامه الّذي قلَّده "[1].

فأشدّ أنواع الظلم افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآياته، و"الأول: هو الحكم بوجود ما لم يوجد. والثاني: هوا لحكم بإنكار ما وجد. والأول دخل فيه قول من أثبت الشريك لله، سواء كان ذلك الشريك عبارة عن الأصنام أو عن الكواكب...، ويدخل فيه قول من أثبت البنات والبنين لله تعالى، ويدخل فيه قول من أضاف الأحكام الباطلة إلى الله تعالى. والثاني يدخل فيه قول من أنكر كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله تعالى وقول من أ نكر نبوة محمد ﷺ".[2]

وعلى هذا فأظلم الناس فريقين، فريق افتروا على الله الكذب، وفريق كذّبوا بآيات الله و لم يفتروا على الله، وعلى هذا فكل واحد من الفريقين لا أظلم منه، لأنّ الفريق الآخر مساوٍ له في الظلم وليس أظلم منه، فأمّا من جمع بين الأمرين فهم أشد ظلما، ولكنهم لّما كانوا لا يخلون عن الانتساب إلى كلا الفريقين وجامعين للخصلتين لم يخرجوا من كونهم من الفريق الذين هم أظلم الناس، ولاشك أن الجامع بين الخصلتين أظلم ممن انفرد بخصلة منها، وذلك يوجب له زيادة في الأظلمية، لأنّ كل شدة وصف قابلة للزيادة.[3]

وهذا الذي ذهب إليه ابن عاشور من أنّ كلا الفريقين ظالم، وأنّ كليهما بالغ في ظلمه فتساويا في الظلم، لا يستقيم مع منطق الأثر الذي يحدثه كل ظلم على حده. إذ الظالم بالافتراء على الله أشد ظلما لتأثيره على النّاس بما يفتريه؛ ولذلك كان المغضوب عليهم هم اليهود لما قاموا به من تحريف لكتاب الله وافتراء عليه، في حين كان الضالون هم النصارى لتكذيبهم ببعض ما جاءهم من الحق. فظلمهم إذاً أقل تأثيرا من ظلم المفترين.

وقد بيّن القرآن أنّ من افترى على الله الكذب، أو كذب بآياته فقد ظلم ظلماً عظيما، حتّى حق أن يُسأل عمن هو أظلم منه، وذلك من خلال الاستفهام الإنكاري الذي استعملته الآية في تهويل ظلم هذين الفريقين، "وإنما كانوا أظلم الناس و لم يكن أظلم منهم، لأنّ الظلم اعتداء على حقّ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى، وأعظم الاعتداء على حق الله، الاعتداء عليه بالانتقاص من صاحبه العظيم، وذلك بأن يكذّب بما جاءه من قِبله، أو بأن يَكْذِب عليه فيبلّغ عنه

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 135/8/4.

2- الرازي، التفسير الكبير، 82/25-83.

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 113/8/4.

ما لم يأمر به، فإن جمع بين الأمرين فقد عطّل مراد الله تعالى من جهتين: جهة إبطال ما يدل على مراده، وجهة إيهام الناس بأنّ الله أراد منهم ما لا يريده الله".[1]

وعلاوة على ما في هذا الظلم من اعتداء على حق الله تعالى، ففيه اعتداء على عدة حقوق أخرى، وهي الاعتداء على حق النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار، والاعتداء على النّاس بتعبيدهم لغير ربهم الحق، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء.[2]

وهذه حال الأظلمين الذين يشرّعون للنّاس ما لم يشرّعه الله، ويقدمون لهم أمورا على أنّها من الله وهي ليست منه افتراءً وكذباً على الله، فهذا يعتبر أشد الظلم. أولاً لأنهم يظلمون حق الله ويسيئون إلى قداسته من جهة أنهم ينسبون إليه ما لم يقله، وثانيا هو أنّ الإنسان عندما يكذب على الله، يحدّث الناس بأنّ شيئاً أوحى الله به إليه، دون أن يكون ذلك صحيحاً، فيتبعه الناس في ذلك ويعملون بما حدّثهم به، وقد يخضعون كلّ حياتهم له، فينتهي بهم إلى الهلاك أو الفساد.[3]

ثم جاء المولى ﷻ بتهديد ووعيد للظالمين جميعا، سيان في ذلك بين من افترى عليه الكذب وقال عليه الزور والبهتان أو غيرهم من الظالمين، إن لم يقلعوا عن ظلمهم، بأنّ الله لن يوفّقهم لإصابة الحقّ، لا من طريق الوحي ولا من طريق العلم، ولا للطاعة، عقوبة لهم، ولا يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم عاجلا وآجلا، بل يذرهم في غيهم يعمهون، وفي ظلام ظلمهم يتخبطون، لسوء استعدادهم وعدم توجههم إليه؛[4] فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[5] ونفي الهداية عن الظالمين يقتضي نفيها عن الأظلمين من باب أولى.[6]

وهو تأييس من إقلاعهم عن هذا الظلم الذي بلغوا فيه مبلغا، بحيث لا طمع في صلاحهم؛ لتمكنُه منهم حتى خالط سجاياهم، وصار من مقومات قَوميتهم.[7] لأنّ الاسترسال في الظلم يفضي يفضي إلى أن يصير طبعا للإنسان، فلا يقبل الظالم فضلا عن الأظلم بعد ذلك الهداية، فيحرم منها حسب سنة الله تعالى في ذلك.[8]

---

1 – نفسه، 1127/8/4.

2 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1063/7/2.

3 – محمد حسين فضل الله، درس التفسير القرآني ألقاه يوم 2000/6/1.

4 – الطبري، جامع البيان، 359/23؛ الرازي، التفسير الكبير، 272/29؛ الألوسي، روح المعاني، 282/28/14؛ المراغي، تفسير المراغي، 56/8.

5 – الصف: 7.

6 – الألوسي، روح المعاني، 286/7/4.

7 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 189/28/11.

8 – أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 338/5.

وقد يأتي تعليلا لأظلميتهم أو" لكونهم من أظلم النّاس، لأنّ معنى الزّيادة في الظلم لا يتحقّق إلاّ إذا كان ظلمهم لا إقلاع عنه، لأنّ الضّلال يزداد رسوخاً في النّفس بتكررّ أحواله ومظاهره، لأنّهم لمّا تعمّدوا الإضلال أو اتّبعوا متعمّديه عن تصلّب، فهم بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النّظر في حال أنفسهم، وذلك يغريهم بالازدياد والتملّي من تلك الأحوال، حتّى تصير فيهم ملكة وسجيّة، فيتعذّر إقلاعهم عنها".[1] لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

وأسند نفي هديهم إلى الله تعالى لأنّ "سبب انتفاء هذا الهدي عنهم أثر من آثار تكوين عقولهم ومداركهم على المكابرة بأسباب التكوين التي أودعها الله في نظام تكوّن الكائنات وتطورها من ارتباط المسببات بأسبابها مع التنبيه على أن الله لا يتدارك أكثرهم بعنايته، فمُغَيِّر فيهم بعض القوى المانعة لهم من الهدى غضباً عليهم إذ لم يخلفوا بدعوة تستحق التبصر بسبب نسبتها إلى جانب الله تعالى حتى يتميز لهم الصدق من الكذب والحق من الباطل".[3]

يقرر الله ﷻ الحقيقة الكلية؛ ويصف الحصيلة النهائية للظلم والظالمين، فيقول مؤكدا لأجل إنكارهم أن يكونوا من الظالمين، ومعللا ومفتتحا الجملة بضمير الشأن لقصد الاهتمام بمضمونها: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[4] أي: لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة، ولا ينجون من مكروه، بل يبقون في الحرمان والخذلان، ولا عبرة بما تراه العيون في الأمد القريب فلاحا ونجاحا. لأنّ الفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل، وهو سبب فلاح الآخرة. ونفى الفلاح عن الظالم يستدعي نفيه عن الأظلم؛ لأنّه إذا كان الظالم لا يفلح فكيف يفلح الأظلم وقد بلغ ظلمه النهاية؟![5]

والظلم جرم، والظالمون الذين يفترون الكذب على الله، ويكذبون بآياته مجرمون لا يفلحون؛ لتذييل هذا الظلم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.[6]

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 188/28/11.

[2] - الأنعام: 144.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 188/28/11.

[4] - الأنعام: 21.

[5] - محمد بن يوسف أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد بن الموجود، وعلي محمد معوض، وزكريا عبد المجيد النوقي، وأحمد النجولي الجمل، قرضه عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، (1413هـ/1993م)، 98/4؛ الألوسي، روح المعاني، 115/7/4؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 1063/7/2؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 172/7/3.

[6] - يونس: 17.

ويؤذن هذا إجمالا بجزاء فظيع يترقب الأظلمين، وهو ما بيّنه ﷻ بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.[1] وهو بألفاظه ونظمه يفيد تمكنهم من عذاب جهنم إذ جعلت مثواهم، ومكان إقامتهم وسكناهم، ومقام إهانتهم وإذلالهم وتعذيبهم. وعلق ذلك بعنوان الكافرين للتنبيه على استحقاقهم ذلك لأجل كفرهم، وعدل عمّا يقتضيه الظاهر من الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر لإحضارهم بوصف الكفر.[2]

الفرع الثاني: النوع الثاني من الظلم الأعظم: الإعراض بعد التذكير

الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، نوع من أنواع الظلم الأعظم، فلماذا يُعد ظلما؟ وما هي الآثار المترتبة عليه حتى يُعد كذلك؟

جاء في القرآن الكريم أنّ الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، نوع من أنواع الظلم الأعظم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[3] وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾.[4]

ومن خلال المقارنة بين الآيتين نلاحظ أن كلا منهما تتحدث عن نوع من أنواع الظلم الأعظم، وهو الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، وإن كانت الآية الأولى تُبيّن أن سبب هذا الظلم يعود إلى تعطل آليات الفقه والفهم عند الظالمين، والتي تتمثل في القلوب والآذان التي أصبحت عاجزة عن فهم وسمع ما ينفعهم، نتيجة الاستشراء في الظلم الذي حجب عنهم الحقائق.

وإذا بلغ الظالم هذا الحد من الظلم، فقد أجرم في حق نفسه وحق غيره، وأصبح أهلا لانتقام الله ﷻ منه، وهو ما أشارت إليه الآية الثانية.

وقد استهلّت هاتان الآيتان بالاستفهام، على عادة القرآن في الحديث عن أعظم أنواع الظلم، وجاء الاستفهام "على سبيل التقرير، ولكنه أظهر للتنبيه على الوصف الموجب للإنكار على من شك في أنهم أظلم".[5]

---

[1] – العنكبوت: 68.

[2] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 354/15/6.

[3] – الكهف: 57.

[4] – السجدة: 22.

[5] – البقاعي، نظم الدرر، 61/6.

وهذا من أفصح التقرير لوقوف الأمر على ما لا جواب له فيه إلا الذي يريد الخصم.[1]

قال أبو السعود: "وهذا السبكُ وإن كان مدلولُه الوضعيُّ نفيَ الأظلمية من غير تعرّضٍ لنفي المساواة في الظلم إلا أن مفهومَه العُرْفيَّ أنه أظلمُ من كل ظالم، وبناءُ الأظلمية على ما في حيز الصلة من الإعراض عن القرآن للإشعار بأن ظلمَ من يجادل فيه ويتخذُه هزواً خارجٌ عن الحد".[2]

والملاحظ أنّ هناك فرقاً دقيقاً بين صدري الآيتين، حيث عطف في الآية الأولى الإعراض عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب، التي تفيد المبادرة إلى الإعراض دون تفكر.[3] وأمّا في الثانية فعطف بأداة البعد "ثمّ" التي تفيد استبعاد الإعراض في العقول عن مثل هذه الآيات البالغة الغاية في الوضوح والإنارة والإرشاد إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها.[4]

ويجوز "وهو أحسن أن يكون "ثمّ" على بابها للتّراخي، ليكون المعنى أن من وقع له التذكير بها في وقت ما، فأخذ يتأمل فيها ثم أعرض عنها بعد ذلك ولو بألف عام فهو أظلم الظالمين، ويدخل فيه ما دون ذلك عن باب الأولى لأنه أجدر بعدم النسيان، فهي أبلغ من التعبير بالفاء كما في سورة الكهف، ويكون عدل إلى الفاء هناك شرحاً لما يكون من حالهم، عند بيان سؤالهم، الذي جعلوابأنه آية الصدق، والعجز عن آية الكذب".[5]

واختلف المفسرون في المراد من الآيات، فذهب الأكثرون إلى أنها القرآن العظيم؛ بحجة قوله بعدها ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ فالإضافة للعهد، والضمير يعود إلى الآيات، والإفراد والتذكير باعتبار المعنى،[6] جُوز أن يراد بها جنس الآيات ويدخل القرآن العظيم دخولاً أولياً.[1] كما جُوِز أن يُراد بها النِّعم أولاً، والنِّقم ثانيا.[2]

---

[1]- ابن عطية، المحرر الوجيز، 342/9.

[2]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 199/4.

[3]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 354/15/6.

[4]- الزمخشري، الكشاف، 515/3؛ عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تفسير النسفي المسمى مدارك التنـــزيل وحقائق التأويل، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1995م)، 329/2.

[5]- البقاعي، نظم الدرر، [illegible]

[6]- أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، 132/6؛ أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، عليه حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ضبط عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1417هـ/1997م)، 62/4؛ جلال الدين أحمد بن محمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف بالرسم العثماني مذيلا بكتاب لباب النقول في أسباب النـــزول للسيوطي، تقديم ومراجعة مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، (1418هـ/1997م)، ص547؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 107/15/8؛ أبو الفرج جمال الدين بن محمد بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ط3، (1404هـ/1984م)، 159/5.

وعلى هذا فالمعنى وأي الناس أوضع للإعراض والصدِّ في غير موضعهما ممن ذُكِّر بآيات الله وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك، ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، و لم يُنِب.[3]

أو لا أحد أشد ظلما ممن ذكّره مُذكر، ووعظه واعظ بآيات ربه المحسن إليه، المُنعِم عليه، هذا الإحسان الذي يقتضي الشكر، ثُم سارع إلى الإعراض عنها دون أن يترك لنفسه مهلة للنظر فيها أو تأملها وتدبرها، رغم أنها تنذره بسوء العاقبة. بل نبذها وراء ظهره، ونسي ما قدمت يداه من المعاصي، نسيان ترك وإهمال واستخفاف.[4]

ومعنى نسيان ما قدمت يداه "أنه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم: أهي صالحة لا تخشى عواقبها أم سيئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة، لاسيما بعد أن جاءهم الذكرى على لسان رسول الله ﷺ فهم بمجموع الحالين أشد الناس ظلمًا، ولو تفكروا قليلاً لعلموا أنّهم غير مفلتين من لقاء جزاء أعمالهم".[5]

فهذا "أعظم ظلما من المُعرض الذي لم تأته آيات الله و لم يُذَكَّر بها، وإن كان ظالما، فإنه أخف ظلما من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك".[6]

فمن أظلم إذًا من هذا الإنسان، الذي يمنع عن نفسه الانفتاح، على حقائق الأشياء التي تمثلها الآيات القرآنية، في ما يتعلق بما يحمل من فكر أو بما يتحرك به من نشاط وسلوك أو في ما يقوم به من معاملات وعلاقات وما إلى ذلك.[7]

ولا أحد يشك في كون الإعراض عن آيات الله، بتعطيل وسائل الفهم والإدراك، وعدم الاستفادة منها للوقوف على الحقائق التي تقوم عليها الحياة والكون، بحيث تصبح لا فائدة منها تنزل

---

[1]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 8/11؛ البقاعي، نظم الدرر، 62/6؛ محمد بن علي محمد الشوكاني، فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، (1417هـ/1997م)، 319/4.

[2]- أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، شارك تحقيقه برسالته الجامعية محمد سعد رمضان حسن، محمد المتولي الدسوقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1998م)، 489/15.

[3]- الطبري، جامع البيان، 51/18.

[4]- سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 107/15/8.

[5]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 354/15/6.

[6]- ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 480/1.

[7]- محمد حسين فضل الله، درس التفسير القرآني ألقاه يوم 2004/6/1.

بصاحبها إلى مرتبة العجماوات؛ فيظلم بذلك نفسه؛ إذ يدفعها إلى الوقوع في العقاب في الدنيا والآخرة. وهو أعجب الظلم؛ إذ شأن العاقل حماية نفسه مما يجلب لها الهلاك، وذلك بالإقبال على كل ما يضمن له السلامة، وأخذ الحيطة والحذر من كل مكروه متوقع.

ولهذا "قال بعضهم أحق النّاس تسمية بالظلم من يرى الآيات فلا يعتبر بها، ويرى طريق الخير فيعرض عنها، ويرى مواقع الشر فيتبعها ولا يجتنب عنها".[1]

فالقرآن يصوِّر نموذجا من أظلم النّاس، يتمثل في الإنسان الذي تُتلى عليه آيات الله تعالى، يوعظ ويرشد بها؛ ويبيَّن له الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويُذكر بتقوى الله وخشيته، والرغبة في رحمته والخوف من عذابه، ولكن يدير ظهره ويُعرض بفكره وقلبه، فلا يتذكر ولا يتعظ، ولا يخشى سوء العاقبة، لقد نسي ما قدمت يداه من المعاصي، وما اجترحت من السيئات التي ظلم بها نفسه وربه أو النّاس من حوله.[2]

وتعود علة هذا الإعراض والنسيان[3] إلى أنّ الله ﷻ جعل على قلوب هؤلاء الظالمين أغطية تمنع وصول النور إليها وتحجبها عن فقه آياته ﷻ، وجعل في آذانهم صمما وثقلا يمنعها من سماع ما ينفعهم، وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى، وإيثارهم الكفر على الإيمان؛[4] لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

والمقصود من القلب هنا العقل الذي يفكر، وليس معنى ذلك أنّ الله أغلق قلوبهم بشكل جبري، ولكنّهم أغلقوا قلوبهم فأغلقها الله، فالله يفتح قلب الإنسان عندما يريد الإنسان ذلك. وقيمة العقل ليست في تعطيله بل في تفعيله وتحريكه من أجل النظر، وتدبر ما يعرض له. أمّا إذا فقد الإنسان الاستعداد للسماع والتفكر كلية، والرغبة في الأخذ والعطاء، فقد استوى بمن لا عقل له.[5]

وذهب ابن عاشور إلى أنّ جعل الأكِنَّة على القلوب، والوَقْر في الآذان، يُعد تعليلا بالمآل للنسيان فقط؛ لأنّ الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئة عن جملة﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: "إن لم تعلم سبب نسيانه ما قدمت يداه فأعلم أنا جعلنا على قلوبهم أكِنّة".[6]

---

[1] - إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 261/5.

[2] - محمد حسين فضل الله، درس التفسير القرآني ألقاه يوم 2004/6/1.

[3] - الزمخشري،الكشاف، 730/2؛ حقي البرسوي، روح البيان، 261/5؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 107/15/8.

[4] - سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 107/15/8؛ وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم ومعه أسباب النزول وقواعد الترتيل، دار الفكر، دمشق، سورية، (د. ط. ت)، 301/15.

[5] - محمد حسين فضل الله، درس التفسير القرآني ألقاه يوم 2004/6/1.

[6] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 355/15/6.

وفي الحقيقة علة الإعراض تعود إلى توغل الظالمين في الظلم، وإصرارهم عليه بحيث لم يعد في قلوبهم متسع للفقه والتدبر، فأصبحت تموج في ظلمات الظلم لا منفذ فيها للنور.

ولا سبيل إلى هدايتهم بعد بلوغهم هذه الدرجة العظمى من الظلم؛ لأنّ "الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالما، وأما هؤلاء، الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق"؛[1] لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فقطع المولى ﷻ بهذا الطمع في إقلاعهم عن الظلم واهتدائهم واستقامتهم على مَحْجة الحقِّ إلى الأبد، ونفى إيمانهم بدعوته ﷺ لأنّ الله ﷻ طبع على قلوبهم وختم على أسماعهم، أو بسبب فطر قلوبهم على عدم قبول الحق.

وأكّد نفي ذلك بحرف توكيد النفي "لن" وبلفظ "أبدًا" المؤكد لمعنى "لن"، وبحرف الجزاء المفيد تسبب الجواب على الشرط.[2]

ولكن وجود من آمن واهتدى منهم يجعل الكلام يحتمل وجهين من التأويل، أحدهما: أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاص، ممن علم الله أنّه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويخرج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حال، والثاني: أن يكون المقصود عدم إيمانهم جميعا أبدًا وإن آمن بعض الأفراد.[3]

ثُمّ بيَّن المولى ﷻ جزاء الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، الذي يُعد أشد الظلم، وأهله أظلم الظالمين، فختم الآية بتهديد ووعيد شامل للمجرمين جميعًا بالانتقام.

ثم بيّن المولى جزاء هذا الظلم "جوابا عن سؤال يقتضيه الحال، فختم الآية بتهديد ووعيد شامل للمجرمين جميعًا بالانتقام، فاستخدم الجمع بدل الإفراد؛ لأنّ إهانة الجمع دالة على إهانة الواحد من باب الأولى، مؤكدًا لأنّ إقدامهم على التكذيب كالإنكار، صارفاً وجه الكلام عن صفة الإحسان التي تظهر في لفظ ﴿رَبِّهِ﴾ إلى ﴿إِنَّا﴾ إيذاناً بالغضب، مُظهرًا الوصف بدل إضماره، تعميمًا وتعليقاً للحكم به، معيِّناً لنوع ظلمهم تبشيعاً له؛ فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ وعبر بصيغة العظمة تنبيهاً على أنّ العذاب الذي يحصل لهم لا يمكن وصفه على جرد العِداد في الظالمين،

---

[1]– ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 480/1.

[2]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 356/15/6.

[3]– ابن عطية، المحرر الوجيز، 343/9.

فكيف وقد كانوا أظلم الظالمين؟ والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم في الدنيا إما باطناً بالاستدراج بالنعم، وإما ظاهراً بإحلال النقم، وفي الآخرة بدوام العذاب على مر الآباد".[1]

إذن فلمَّا لم يرجعوا بالعذاب الأدنى وجب في حقهم العذاب الأكبر،[2]كما يشير إلى ذلك السياق، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[3] فدلت تلك الخاتمة على "إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة".[4] قال النيسابوري:[5] "قال المحققون: الذي لا يحتاج في معرفة الله إلاّ إلى الله عدل كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [6] كما قال بعضهم: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله. والذي يحتاج في ذلك إلى دلائل الآفاق والأنفس متوسط، والذي يقر عند الشدة ويجحد عند الرحمة ظالم كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [7] والذي يبقى على الجحود والإعراض وإن عذب فلا أظلم منه".[8]

فالتعذيب نوع من أنواع التذكير بضرورة الإقلاع عن الظلم، لكل من له قلب يفقه وآذان تسمع. فهو وسيلة كفيلة بردع الظالمين عن ظلمهم إلا من عطل آليات الإدراك والتدبر، وأصرّ على الظلم، وأوغل فيه إيغالا شديدا.

الفرع الثالث: النوع الثالث من الظلم الأعظم: الصَدَف عن آيات الله

إذا كان التكذيب بآيات الله والإعراض عنها، وعدم الانتفاع بها، وحرمان النفس من الحقائق والهدايات التي جاءت بها رغم وضوحها، ودعوتها إلى الصلاح والفلاح، من أعظم أنواع

---

[1]- البقاعي، نظم الدرر، 62/6.

[2]- أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنـــزيل، ضبط وتصحيح عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1995م).، 406/3.

[3]- السجدة: 21.

[4]- الزمخشري، الكشاف، 515/3؛ النسفي، مدارك التنـــزيل، 329/2.

[5]- النيسابوري هو الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري (النظام النيسابوري)، مفسر، له اشتغال بالحكمة والرياضيات، أصله من قمّ. من كتبه "غرائب القرآن". توفي سنة (728هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 514/1، برقم (216/2)].

[6]- فصلت: 53.

[7]- الروم: 33.

[8]- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبط زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م)، 440/5.

الظلم، فإنّ الأعظم منه الصدف عن آيات الله. فما المقصود بالصدف؟ ولماذا يعد من الظلم الأعظم؟

هذا ما سيجيب عنه تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.[1] الذي افتتح "باسم الموصول لتدلّ الصّلة على تعليل الحكم ووجه بناء الخبر، لأنّ من ثبَت له مضمون تلك الصّلة كان حقيقا بأنّه لا أظلم منه".[2]

اختلف المفسرون في معنى فعل صدف في هذه الآية على قولين، الأول: أنه لازم، ومعناه أعرض هو عنها، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد، وقتادة،[3] واختاره الطبري.[4]

أمّا الثاني: فمفاده أنّه متعدٍ بنفسه لمفعول محذوف -ويتعدى بعن أيضًا- لكن شاع تنـــزيله منـــزلة اللازم حتّى غلب عدم ظهور المفعول به، والمعنى أنه صد النّاس وصرفهم عن اتباع آيات الله، فهو مروي عن السّدي.[5] وعليه أغلب المفسرين.[6] ودليلهم قوله تعالى قبلا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. والتكذيب بالآيات يتضمن الإعراض عنها؛ فناسب أن يكون يصدفون بمعنى يصرفون النّاس.

---

[1]- الأنعام: 157.

[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 182/8/4.

[3]- هو: قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، مفسر، ضرير أكمه، كان مع علمه بالحديث رأسا في العربية. أخذ القرآن ومعانيه وروى عن أنس بن مالك. توفي سنة (117هـ). [الأدنه وي، طبقات المفسرين، ص14؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 182/1، برقم (189/5)].

[4]- الطبري، جامع البيان، 243/12.

[5]- هو: إسماعيل بن عبد الرّحمن بن أبي كريمة السدي، كان يقعد في سدة باب الجامع فسمي بالسدي. تابعي، حجازي الأصل، مفسر، عالم بالمغازي والسير وأيام النّاس. [شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، (1404هـ/1985م)، 273/1، برقم (572)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 185/1، برقم (317/1)].

[6]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 370/3-371؛ حقي البرسوي، روح البيان، 121/3؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 1236/8/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 182/8/4-183؛ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، خرج آياته وأحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1417هـ/1996م)، 212/2؛ سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، 305/5.

ويشهد لهذا المعنى من النصوص القرآنية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾.[1] وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[2] أي يصدون الناس عن اتباع محمد ﷺ ويتباعدون عن اتباعه.

وذهب الشعراوي إلى أنّ المولى ﷻ جاء بهذا اللفظ الذي يصلح للاثنين؛ ليفيد غرضين. الأول: أن يكون لازما بمعنى أعرض وانصرف فضل في ذاته. والثاني: أن يكون متعديا فيدل على أنه يصرف غيره ويضله؛ فيقع عليه وزران، وزر ضلال نفسه أولا ثم وزرَ من أضل ثانيا. وبذلك يعذبه الله عذابين؛[3] لقوله تعالى: ﴿سنجزي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

وهو الأظهر في كون هذا النوع من الظلم أعظم أنواعه، إذ يجمع فيه الظالم بين ظلم النّفس وظلم النّاس، ضلال وإضلال، إن لم تكن وجوه الظلم والاعتداء أكثر من ذلك، حيث يقع الظلم على عدة أطراف، فيشمل "ظلم نفوسهم، إذ زجُّوا بها إلى العذاب في الآخرة وخسران الدّنيا، وظلمَ الرّسول ﷺ إذ كذّبوه، وما هو بأهل التّكذيب، وظلم الله إذ كذّبوا بآياته وأنكروا نعمته، وظلموا النّاس بصدّهم عن الإسلام بالقول والفعل".[4]

هذا التهديد والوعيد، بأسوأ ألوان العذاب وأشدها وأقواها، لأولئك الظالمين الذين يصدفون عن آيات الله في قوله تعالى: ﴿سنجزي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ جاء واضحا في قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ جزاءً لهم على ضلالهم وإضلالهم، و"يحتمل أنّه أريد به عذاب الدنيا بالقتل والذلّ، وعذاب الآخرة، وإنّما كان ذلك جزاءهم لأنّهم لم يكذِّبوا تكذيبا عن دعوة مجردة ، بل كذبوا بعد أن جاءتهم الآيات البيِّنات".[5]

---

[1] – النحل: 88.

[2] – الأنعام: 26.

[3] – الشعراوي، تفسير الشعراوي، 4011/7.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 182/8/4.

[5] – نفسه، 183/8/4.

وعلق الجزاء على الصدوف لأنه ناشئ عن التكذيب،[1] واستغنى عن الإضمار بالإظهار – إظهار كلمة يصدفون– تعميما وتعليقا للحكم بالوصف، وعبّر بالفعل المضارع، الذي يفيد تجدد إعراضهم عن الآيات الإلهية، وعدم الإسراع إلى التوبة، والاستمرار على تلك الحال، التي أصبحت ديدنا لهم وعادة من عاداتهم.[2]

بل وتجدد إضلالهم للنّاس، وللأسف لا يندمون على ذلك إلا بعد فوات الأوان، يوم لا ينفع الأظلمُ المتبوع الظالمَ التابع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.[3]

ففي هذا النوع من الظلم لا يكتفي الأظلمون بظلم أنفسهم؛ بالإعراض عن الانتفاع بآيات الله، بل يتجاوزون ذلك إلى صرف الناس وصدّهم عن هذا النور الذي يخرجهم من الظلمات، ويضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة، ويجمعون بين الضلال والإضلال؛ فيحملون علاوة على وزر ظلم أنفسهم وزر ظلم من صدفوهم عن الحق، وحالوا بينهم وبين الهداية والرّحمة الشاملة الكاملة. فهؤلاء الأظلمون لا يتوقفون عند ظلم أنفسهم بل يعيثون في الأرض فسادا بنشر الظلم وتعميمه.

الفرع الرابع: النوع الرابع من الظلم الأعظم: كتمان الشهادة

ورد في القرآن الكريم أنّه لا أحد أظلم ممن عنده شهادة من الله وكتمها؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[4] وفي الحقيقة هذه الآية تثير تساؤلا مهما في الذهن عن الشهادة المقصودة، أيراد بها مطلق الشهادة، أم لا؟وهل يُعد إخفاء مطلق الشهادة عن عباد الله من أشد الظلم، وكاتمها من أظلم الناس؟ وإذا كان الحال كذلك فالأمر عسير لأنّه مما قد لا يسلم منه الكثير من الناس لاسيما في ظل الظروف الصعبة التي تلاحق الشهود، والتي قد تصل أحيانا إلى الاختطاف أو الموت.

[1] – أبو حيّان، البحر المحيط، 258/4.

[2] – البقاعي، نظم الدرر، 748/2.

[3] – الفرقان: 27-29.

[4] – البقرة: 140.

والإجابة عن ذلك تستدعي الوقوف عند قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ حيث يحتمل ثلاثةَ أوجه.[1]

الأول: أنه ذمهم على منع وصول شهادة الحق إلى عباد الله، وعدم أدائها إليهم. والثاني: أنّ الله تعالى قد أشهده تلك الشهادة ، وحصلت عنده من قِبل الله، ومن جهته، واستودعه إياها، كقول الرجل لغيره عندي شهادة منك، أي شهادة سمعتها منك وجاءتني من جهتك ومن عندك، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.[2] والثالث: أنّه كتم شهادة الله التي عنده أنّه شهد بها، وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية. ومن في قوله: شهادة من الله، مثلها في قولك: هذه شهادة مني لفلان، إذا شهدت له.

والوجه الثاني والثالث أحسن، لأنه أبلغ في الأظلمية أن تكون الشهادة قد استودعها الله إياه فكتمها. أمّا على الوجه الأول، تكون الأظلمية حاصلة لمن كتم من عباد الله شهادة مطلقة وأخفاها عنهم، ولا يصح إذ ذاك الأظلمية، لأن فوق هذه الشهادة ما تكون الأظلمية فيه أكثر، وهو كتم شهادة استودعه الله إياها.[3]

وهكذا تُبَيِّن الآية أنه لا أحد أظلم ممن كتم شهادة أودعها الله تعالى في كتابه وما عنده من علم، وأخفاها وعمل على تلبيسها رغم أنّ الله مطلع على ما يخفيه من الشهادة التي ائتمنه عليها، وقد افتتحت بالاستفهام الإنكاري التوبيخي لنفي الواقع والوقوع.[4]

وأظلم الظالمين من الواقع، خاصةً أحبار ورهبان اليهود والنصارى، أولائك الذين انتهى بهم الظلم إلى آخر حدوده، وذلك بكتمان الشهادة؛ فقد أخفوا ما لديهم في كتبهم من شهادة استودعها الله إياهم، وائتمنهم عليها، رغم أنّ الله مطلع على ذلك، وهذه الشهادة هي:[5]

ما في كتبهم من أنّ إبراهيم ومن معه من أنبياء الله كانوا مسلمين، على الحنيفية التي لا تشرك بالله شيئا، معصومين من اليهودية والنصرانية الباطلتين، بل جاءوا قبل اليهودية والنصرانية، وكانوا قبلها خاضعين لله مستسلمين له مقرين بالوحدانية والعبودية له. وقد أعلمنا الله بذلك في

---

[1] – ذكر الاحتمال الأول والثاني أبو حيّان في البحر المحيط، 588/1؛ أمّا الاحتمال الثالث فقد ذكره الزمخشري في الكشاف، 197/1.

[2] – آل عمران: 187.

[3] – أبو حيان، البحر المحيط، 588/1.

[4] – محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (د.ط.ت)، 431/1.

[5] – محمد رشيد رضا، المنار، 490/1؛ أبو زهرة، زهرة التفاسير، 431/1.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] كما كتموا ما يتعلق بالشرائع والفروع، مثل كتمان أحكام الله في الزنا.[2]

أو أنّ الشهادة المكتومة هي شهادة كتبهم- التوراة والإنجيل- المبشرة ببعثة نبي من بني إخوتهم العرب أبناء إسماعيل في آخر الزمان دينه الحنيفية، دين إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3] وكما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[4] ويكتمونه حتى لا يُعلم، وكانوا ولا يزالون يكتمون ذلك بالإنكار على غير المطلع على التوراة وبالتحريف على المطلع.[5]

وبهذا تركوا "عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته وظنت جهالتها علماً فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقـــالوا :

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[6]".[1]

---

[1] – آل عمران: 65.

[2] – عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: {أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْ الْيَهُودِ قَدْ زَنَيَا فَقَالَ لِلْيَهُودِ مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا قَالُوا نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا وَنُخْزِيهِمَا قَالَ: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فَجَاءُوا فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَرْضَوْنَ يَا أَعْوَرُ اقْرَأْ فَقَرَأَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ قَالَ ارْفَعْ يَدَكَ فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهِ آيَةُ الرَّجْمِ تَلُوحُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ وَلَكِنَّا نُكَاتِمُهُ بَيْنَنَا فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا فَرَأَيْتُهُ يُجَانِئُ عَلَيْهَا الْحِجَارَةَ}. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب مَا يَجُوزُ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ بِالْعَرَبِيَّةِ، ص1394، برقم (7543)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ص835، برقم (1699).

[3] – الأعراف: 157.

[4] – آل عمران: 81.

[5] – محمد رشيد رضا، المنار، 1/490.

[6] – الزخرف: 23.

فقد كتموا هذا العلم وهذه الشهادة، التي أودعها الله- لا الخلق- عندهم؛ ولم يكتفوا بذلك بل أظهروا ضدها، فجمعوا بين إخفاء الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، فكان ظلمهم أعظم الظلم.[2]

وقد توعّدهم الله ﷻ بأشد العقوبة؛ فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [3] نافيا نفيا مؤكدا الغفلة عمّا اجترحوه من أعمال في الدار الدنيا بما والباء الدالة على استغراق النفي.[4] بل الله ﷻ علمه محيط لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فقد أحصاها عليهم، وعدها وادخر لهم جزاءها، وسيجازيهم على ذلك في الحياة الأخرى، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين.[5]

وهذه الخاتمة لا تأتي إلاّ "عقب ارتكاب معصية، فتجيء متضمنة وعيدا، ومعلمة أنّ الله لا يترك أمرهم سدى، بل هو محصل لأعمالهم، مجاز عليها".[6] وهي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم.[7] وهي "الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أنه تعالى عالم بسره وإعلانه ولا يخفى عليه خافية أنه من وراء مجازاته إن خيراً فخير وإن شراً فشر لا يمضي عليه طرفة عين إلا وهو حذر خائف ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر، فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفى إذا هدد وأوعد بهذا الجنس من القول".[8]

وهذا التذييل يحمل تهديدا لليهود والنصارى الذين قد تسول لهم أنفسهم شهادة الزور فيدَّعون انتساب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط إلى اليهودية والنصرانية.[9]

إذاً فمن أشد الظلم وأظلمه كتمان الشهادة المبلغة من الله عن طريق رسله وأنبيائه-عليهم السلام- وإخفائها.

---

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 747/1/1.

[2]- ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 69/1.

[3]- البقرة: 74.

[4]- أبو زهرة، زهرة التفاسير، 431/1.

[5]- ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 69/1.

[6]- أبو حيّان، البحر المحيط، 589/1.

[7]- أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدي، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، زكريا عبد المجيد النّوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1413هـ/1993م). 163/1.

[8]- الرازي، التفسير الكبير، 89/4.

[9]- أبو عبد الله مصطفى بن العدوي، التسهيل لتأويل التنـــزيل: التفسير في سؤال وجواب، ط1، (1416هـ/1996م)، 353/2.

الفرع الخامس: النوع الخامس من الظلم الأعظم: العمل على تخريب المساجد

هذه صورة خامسة من صور الظلم الأعظم، والتساؤل نفسه يطرحه القرآن الكريم: ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾؟ فالقرآن يتحدث هنا عن منع مساجد الله والسعي في خرابها. فيرتب عليها عقوبتين دنيوية وأخروية، شأن جميع صور الظلم الأعظم المذكورة سابقا. فما المقصود بالمساجد في الآية؟ أيراد بها موضع السجود أم أراضي الإسلام باعتبارها كلها مسجدا لهذه الأمة؟ ولماذا تُعد هذه الصورة من الظلم الأعظم؟

دلّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[1] على أنّ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها، والسعي في خرابها، صورة من صور الظلم الأعظم.

فأظلم الناس من منع مساجد الله أن يُعبد فيها، بإقامة العبادات كالصلاة وقراءة القرآن، ونحو ذلك من أنواع الذِكر والطاعات وشعائر الإسلام، وبذل وسعه في تعطيلها عن أداء وظيفتها، وإعاقة حركتها وإفقادها حيويتها حتى لا تتفاعل مع الفرد والمجتمع، ولا تساهم في تربيته وإصلاحه وتطويره لاسيما أنّ للمسجد دورا أساسيا في بناء الأجيال وإعدادهم للنهوض بالأمة. وقد كان المسجد في عهد النبي ﷺ المؤسسة الأولى التي تخرج منها الصحابة ﷺ.

وأيُ ظلم أكبر من الوقوف ضد ما أراده الله ﷻ لعباده، من عبادته وطاعته وذِكره، والحيلولة دون تحقيق المقصد الأساسي للشارع الحكيم الذي من أجله خلق الإنسان، والغاية السامية التي من أجلها وجدت الحياة؟!

وأي "امرئ أشد تعديا وجراءة على الله وخلافا لأمره، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها؟"[2]

فظاهر الآية "يقتضي أن هذا الفعل أعظم أنواع الظلم وفيه إشكال لأن الشرك ظلم على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] مع أنّ الشرك أعظم من هذا الفعل، وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل، والجواب عنه: أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه".[1]

1 – البقرة: 114.

2 – الطبري، جامع البيان، 2/519.

3 – لقمان: 13.

وقد أجمع المفسرون[2] على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء، بل المراد منه بيان أن من النَّاس من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها ، ثم أن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية إلا أنهم اختلفوا في هؤلاء من هم على عدة أقوال:[3]

الأول: أنّهم النصارى، كانوا يطرحون الأذى في بيت المقدس، ويمنعون النّاس من الصلاة فيه.

الثاني: أنّهم النصارى؛ لأنّهم أعانوا بُخْتَنَصَّر[4] البابلي المجوسي وأصحابه على خراب بيت المقدس، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعدما انصرف بُخْتَنَصَّر عنهم إلى بلاده.

الثالث: أنّهم مشركو قريش منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين دخول مكة، وذلك يوم الحديبية.

الرابع: أنّهم مشركو قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ من الدعاء إلى الله بمكة وألجأوه إلى الهجرة.

الخامس: قال الرازي: "وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم: وهو أن يقال: أنّه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود، فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه".[5]

---

[1]- الرازي، التفسير الكبير، 10/4.

[2]- نفسه، 9/4.

[3]- صنّف الطبري هذه الأقوال إلى ثلاثة، فجمع الثالث والرابع وجعلهما قولا واحدا. [الطبري، جامع البيان، 520/2-521؛ الرازي، التفسير الكبير، 9/4]؛ أمّا ابن كثير فقد صنفها إلى قولين، يتناول الأول النصارى والثاني مشركي قريش. [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 387/1-388].

[4]- هو [illegible] "بختنشه"، عاش دهرا طويلا جاوزت مدته ثلاث مائة سنة. ملّكه الملك بهمن على بابل وأمره بالمسير إلى بيت المقدس ليجلي اليهود عنها. فنصر بختنصر على بني إسرائيل عقوبة لهم من الله، فسباهم وهدّم البيت ورجع إلى بابل. [أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، (1411هـ/1991م)، 541/1-543].

[5]- الرازي، [illegible] 9/4؛ وعلى هذا الرأي سيد قطب حيث قال: "وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أنّ هاتين الآيتين (الآية 114-115) تتعلقان بمسألة تحويل القبلة؛ وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة. أول بيت وضع للناس وأول قبلة". [سيد قطب، [illegible] ظلال القرآن، 104/1/1].

وهو الرّاجح عند سيد قطب[1] اعتمادا على الآية التي تليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [2] والتي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أنّ صلاة المسلمين إلى بيت المقدس كانت باطلة، وضائعة ولا حساب لها عند الله.[3]

السادس: أنّها عامة في كل ظالم منع أي مسجد من مساجد الله أن يذكر فيه اسم الله ﷻ.

ورجّح الطبري القول الثاني، أي: أنّهم النصارى، واحتج لصحة ما ذهب إليه بدليلين:[4]

الأول: عدم احتمال معنى الآية لغير الأقوال الثلاثة،[5] يقتضي أن يكون المقصود بالمسجد إمّا مسجد بيت المقدس، وإمّا المسجد الحرام. وكان معلوما أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله ﷻ بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها. ومشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وكان افتخارهم بعمارته، وإن لم تكن بعض أفعالهم فيه على الوجه الذي يرضاه الله منهم.

الثاني: السياق الذي وردت فيه الآية، والمناسبة التي تربطها بسابقتها ولاحقتها، فما قبلها عبارة عن ذم لأفعال اليهود والنصارى، وما بعدها ذم للنصارى، بينما لم يرد ذِكر لقريش ولا لمشركي العرب ولا للمسجد الحرام.

وقد غلّط الجصاص[6] هذا الرأي بحجة أن ما روي في خبر قتادة[1] يشبه أن يكون غلطا من من راويه؛ لأنّه لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الأولين، أن عهد بُخْتَنَصَّر كان قبل مولد المسيح

---

[1] - سيد قطب: باحث إسلامي مصري، من مواليد قرية موشا في أسيوط سنة (1324هـ/1906م)، تخرج من كلية دار العلوم القاهرة، وعمل بجريدة الأهرام، أوفد ببعثة إلى أمريكا. انضم إلى الإخوان المسلمين، ترأس قسم نشر الدعوة، ثم سجن إلى أن صدر الحكم بإعدامه وأعدم سنة (1387هـ/1967م). من آثاره: النقد الأدبي، معالم في القرآن وغيرها. [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 804/1].

[2] - البقرة: 115.

[3] - سيد قطب، في ظلال القرآن، 105/1/1.

[4] - الطبري، جامع البيان، 523/2-524.

[5] - ذكر الطبري الأقوال الثلاثة الأولى فقط. [الطبري، جامع البيان، 523/2-524].

[6] - هو الإمام العلامة المفتي، المجتهد، عالم العراق، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، الحنفي، صاحب التصانيف. كان مع براعته في العلم ذا زهد وتعبد، يحتّج في كتبه بالأحاديث المتصلة بالأسانيد. مات سنة (370هـ) وهو يبلغ من العمر 65 سنة. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 390/17-391، برقم (253)].

عليه السلام بدهر طويل،[2] والنصارى إنما كانوا بعد المسيح وإليه ينتمون، فكيف يكونون مع بُخْتَنَصَّر في تخريب بيت المقدس، وأيضاً فإن النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر، فكيف أعانوا على تخريبه.[3]

وتابعه على ذلك الرازي، واستبعد أيضا حمل الآية على المشركين وصدهم الرسول ﷺ عن المسجد الحرام اعتمادًا على النظم كالطبري، فقال بالوجه المذكور سابقا-القول الخامس- لمناسبته للسياق.[4]

واعترض على رأي الطبري، ابن كثير أيضا، واختار القول الثالث[5] الذي استبعده الرازي بالنظم، والذي مفاده أنّ المشركين منعوا النبي ﷺ والمسلمين من دخول مكة، واستدل بدليلين:

الأول: أنّ النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس، كان دينهم كأنّه أقوم من دين اليهود، مع أنهم كانوا أقرب منهم. ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك؛ لأنّهم لـعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم -عليهم السلام- ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.[6]

الثاني: الشروع في ذم المشركين الذين منعوا الرسول ﷺ وأصحابه من الصلاة في المسجد الحرام، بعد ذم اليهود والنصارى.

---

[1]- أخرجه الطبري عن سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114]، أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. [الطبري، جامع البيان، 520/2، الأثر (1823)].

[2]- اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه بُخْتَنَصَّر على بني إسرائيل وأكثرهم على أنّه كان في عهد أرميا النبي، ودانيال، وحنانيا، وعزاريا وميشائيل، وقيل: إنما أرسله الله على بني إسرائيل لما قتلوا يحي بن زكريا. [أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف "بابن الأثير" الجزري الملقب بعز الدّين، الكامل في التاريخ: تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1407هـ/1987م)، 198/1-199].

ولكن الرأي الثاني خطأه المحقق القاضي فقال عنه: "غلط فاحش في التاريخ فإنّ بُخْتَنَصَّر ولي الملك سنة (606ق.م)، ويحي قتل بعد الميلاد في العقد الثالث منه أي سنة (28م) تقريبا". [ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 199/1، الهامش (1)].

[3]- أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، 1335هـ، 61/1.

[4]- الرازي، التفسير الكبير، 9/4.

[5]- يمثل القول الثاني عند ابن كثير. [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 387/1- 388].

[6]- إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78].

وردَّ اعتماد الطبري على أنّ قريشا لم تسع في خراب الكعبة، واحتج بعدم وجود خراب أعظم من إخراج رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ من مكة، واستحواذ المشركين عليها بشركهم، وبأنّ عمارتها لا تتحقق بزخرفتها وإقامة صورتها فقط، بل بذكر الله وإقامة شرعه فيها، وتطهيرها من الشِّرك، ودعَّم ذلك بنصوص قرآنية.[1]

واختاره ابن عاشور أيضا، واحتجّ برواية عطاء[2] عن ابن عباس، وبقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الـــذي يقتضي ذلك، وبما جاء في حديث سعد بن معاذ[3] حين دخل

مكة خفية، وقال له أبو جهل: {أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا وَقَدْ أَوَيْتُمْ الصُّبَاةَ}[4].

والآية تبعا له عبارة عن استطراد وقع معترضاً بين ذِكر أحوال اليهود والنصارى لذِكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام.

وردَّ القول بأنّها في تخريب بُخْتَنَصَّر أو طيطس الروماني[1] لبيت المقدس لعدم ظهور مناسبة لذكر الآية عقب ما تقدمها، فضلاً عن بناء التفسير على ذلك.[2]

1- من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:34] وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ* إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:17-18] وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 25] وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: 18]. [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 388/1].

2- هو عطاء بن أبي رباح أسلم، نشأ بمكة وعلّم الكتابة بها، وكان مولى لأبي فهر، يكنى بأبي أحمد. وكان أسود أعور وأفطس. وكان عالما بالقرآن ومعانيه وهو ابن ثمانين. توفي سنة (115هـ). [الأدنه وي، طبقات المفسرين، ص14، برقم (21)].

3- هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد، أسلم على يد مصعب بن عمير لما أرسله النبي ﷺ إلى المدينة ليعلم الناس، كان من أعظم الناس بركة في الإسلام، شهد بدرا وأحدا وغيرهما من المشاهد. فتحت أبواب السماء وهز عرش الرّحمن يوم وفاته. قال عنه رسول الله ﷺ: {كُلُّ نَادِبَةٍ كَاذِبَةٍ إِلاَ نَادِبَةُ سَعْدٍ}. [ابن الأثير، أسد الغابة، 296/2-299].

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر، ص715-716، برقم (3950).

وقد رفض أحمد شاكر[3] اعتراض ابن كثير وعاب عليه إغفال السياق، وأثنى على دقة الطبري وصبره في استخلاص المعاني، وانتصر لاختياره الذي اعتمد على سياق الآية، والذي كان خبرا عن اليهود والنصارى، وكان بمعزل عن المشركين، وأقرَّ صحة دخول بعض ما كان من المشركين في الجاهلية في البيت الحرام، في عموم معنى السعي في خراب المساجد.[4]

وتابعه على ذلك ابن العدوي الذي يرى من جهة قوة دليل الطبري الذي نقله عن قتادة لحسن إسناده،[5] ومن جهة أخرى ضعف ما نقل من اتفاق عن أهل العلم والسير، عن كون عهد بُخْتَنَصَّر قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل؛ لاختلافه مع المنقول عن التابعين رحمهم الله.[6]

ويدفع ادعاء إغفال ابن كثير للسياق المناسبة التي كشف عنها ابن عاشور حيث يرى أنّه بعد أن فضح السياق نوايا أهل الكتاب إزاء الإسلام وأهله، وبيّن أن تلك عادة متأصلة فيهم، وأشار إلى مشابهة المشركين لهم في ذلك عند قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[7] عطف الكلام على بيان ما أفرزته المشابهة من ظلم لم يبلغه أحد من قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى أمام النّاس.[8]

---

[1]- طيطس الروماني هو: طيطس بن قسبسيانس إمبراطور روماني. ولد سنة (39م)، قام في عهد والده بحصار القدس ودمرها سنة (70م). اشتهر بحلمه وإحسانه، على أيامه ثار بركان الفيزوف (79م) فدفن في ليلة واحدة مدينتي هرقولانوم وبومباي. توفي سنة (81م). [المنجد في الأعلام، ص199].

[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 679/1/1.

[3]- هو: أحمد بن محمد شاكر بن أحمد، يُرْفَع نسبه إلى الحسين بن علي. عالم بالحديث والتفسير. كان مولده ووفاته في القاهرة (1309-1377هـ/1891-1957م). أبواه من جرجا بصعيد مصر. اصطحبه أبوه معه حين ولّي القضاء سنة (1900م)، فأدخله في كلية غوردون (جامعة الخرطوم الآن) وانتقل معه إلى القاهرة، وألحقه بالأزهر فنال شهادة العالمية سنة (1917م) وعُيّن في بعض الوظائف القضائية حتى أحيل إلى المعاش، وانقطع للتأليف والنشر إلى أن تُوفي. له مصنفات عديدة منها: شرح مسند الإمام أحمد، وله تحقيقات مهمة منها: رسالة الإمام الشافعي وغيرها. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 847/2، برقم (253/1)].

[4]- الطبري، جامع البيان، 522/2، الهامش (1).

[5]- أخرج الطبري عن قتادة قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ {أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس}. [الطبري، جامع البيان، 520/2، برقم (1823)].

[6]- ابن العدوي، التسهيل لعلوم التنزيل: تفسير سورة البقرة، 226/2، هامش (1).

[7]- البقرة: 105.

[8]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 679/1/1.

وقد توسط أبو حيّان فذكر بأنّ النظم لا يرجّح رأيا على آخر، بل يحتمل كليهما، ويظهر ذلك في قوله: "مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه جرى ذِكر النصارى في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [1] وجرى ذِكر المشركين في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾[2] وفي أي نزلت منهم كان ذلك مناسباً لذكرها تلي ما قبلها". [3]

وفي الحقيقة ذِكر المشركين هنا لم يجر باللفظ الصريح كما جرى ذِكر النصارى واليهود، بل اللفظ عام يتناولهم كما يتناول غيرهم في غياب النقل الصحيح. وقد ذُكروا باللفظ الصريح في موضع سابق، وهو قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. [4]

كما أنّه جرى ذكر اليهود في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [5] وهو ما يجعل السياق يحتمل أيضا أن يكون المراد بهم اليهود، وقد قال بهذا الوجه الرازي، ورجحه سيد قطب[6]، وإن كان يفتقر إلى دليل نقلي.

وفذلكة فقد جرى ذِكر جميع الكفار وذمهم، فوجه الذم مرة إلى اليهود والنصارى، ومرة إلى المشركين.[7]

وكيفما كان سبب النـــزول، فظاهر الآية يوحي بأنّ الحكم عام في كل مسجد وفي كل مخرب له، ومانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات؛ لأنّ العموم وإن كان سبب نزوله خاصاً – فعل طائفة معينة في مسجد مخصوص– فالعبرة به لا بخصوص السبب؛ فتشمل الآية بذمها ووعيدها كل من منع عمارة مساجد الله، وسعى في خرابها؛ كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها.[8]



[1] – البقرة: 113.

[2] – البقرة: 113.

[3] – أبو حيّان، البحر المحيط، 527/1.

[4] – البقرة: 105.

[5] – البقرة: 113.

[6] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 104/1/1-105.

[7] – الرازي، التفسير الكبير، 10/4.

[8] – أبو حيّان، البحر المحيط، 527/1؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 104/1/1-105؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 324/1.

وقد تفرّد ابن عطية بتعميم الحكم على أراضي الإسلام من خلال توسيع مفهوم المسجد؛ فقال: "وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام، لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة".[1]

وإجمالا فالآية تنفي أن يكون هناك من هو أكثر ظلما وأشد جرما من الذي منع ذِكْرَ الله ﷻ وعبادته في المساجد، وجدّ واجتهد في خرابها الحسي بالهدم والتخريب والتقذير، كما فعل بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي والنصارى أو الرومان ببيت المقدس، أو خرابها المعنوي وذلك بإغلاقها أو تعطيلها عن العبادة، ومنع الذاكرين والمصلين والمتعبدين والمتعهدين لها من دخولها، كما فعل كفار قريش بصدهم النبي ﷺ وأصحابه ﵃ عن المسجد الحرام، أو غيرهم من أنواع الظلمة، ممن فعلوا هذا الفعل أو من سيفعلونه مستقبلاً، إفراطا منهم في الظلم وبلوغا فيه إلى أقصى غاية.[2]

ولا يزال بيت المقدس والمساجد في فلسطين تتعرض للهدم والتخريب على أيدي اليهود، ويعاني الفلسطينيون من الصدّ عن أداء المشاعر الدينية في المساجد، وغلقها في وجوههم لاسيما في المناسبات والأعياد.

والمراد من المنع، منعُ العبادة في أوقاتها الخاصة بها كالطواف والجَماعة على المتأهلين لها. وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة، ولا غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم، ولا غير المتأهل لدخولها؛ لأنّ ذلك حفظ للمساجد وصيانة لها.[3]

ولبيان جزاء أولئك الأظلمين، الذين اتصفوا بالجرأة على السعي في خراب المساجد استأنفت الآية الكلام بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾. ويجوز كونه اعتراضاً بين قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لا لبيان جزاء فعلهم أو التحذير منه، بل لبيان هاته الحال العجيبة من أحوال المشركين، بعد بيان عجائب أهل الكتاب، والإعلام عن جدارتهم بالعقوبة المترتبة على تلك الأوصاف التي استحضرهم بها من خلال اسم الإشارة.[4]

فأولئك الأظلمون يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلاّ أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين، كما حدث في عام الفتح بعد ذلك، إذ أمَّن رسول الله ﷺ يوم الفتح كل من دخل المسجد الحرام من مشركي قريش، بعد أن كانوا يصدونه ﷺ

---

[1] – ابن عطية، المحرر الوجيز، 454/1.

[2] – طنطاوي، التفسير الوسيط، 325/1؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 103/1.

[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 680/1/1.

[4] – نفسه، 681/1/1.

وصحابته عنه.[1] فجازاهم الله على إخافتهم عباد الله بأن منعهم دخول المساجد شرعا وقدرا، إلا خائفين ذليلين.[2]

ويتضمن قوله تعالى هذا "أمر المسلمين بجهاد الكافرين وقتالهم حتى يسلموا أو تكسر شوكتهم فيذلوا ويهونوا".[3]

أو أولئك الأظلمون، الواضعون الجبروت موضع الخضوع، ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته ووَجَلٍ من العقوبة. فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلاله العظيم.[4]

ولكن استبعد هذا ابن عاشور فقال: "وهذا الوجه وإن فرضه كثير من المفسرين إلا أن مكان اسم الإشارة المؤذن بأن ما بعده ترتب عما قبله ينافيه لأن هذا الابتغاء متقرر وسابق على المنع والسعي في الخراب".[5]

وقد توعدهم الله ﷻ بعقوبتين، دنيوية وهي الخزي، وأخروية وهي العذاب العظيم، فقال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فاستأنف الكلام ثانية، ولم يعطفه على ما قبله اهتماماً به؛ لأن المعطوف لكونه تابعاً لا يهتم به السامعون كمال الاهتمام؛ ولأنه يجري من الاستئناف الذي قبله مجرى البيان من المبين، فإن الخزي خوف والخزي الذل والهوان.[6]

ونقل الرازي اختلاف المفسرين في الخزي بين الذل بمنعهم من المساجد، والجزية في حق أهل الذمة، والقتل في حق أهل الحرب؛ فقال: "واعلم أن كل ذلك محتمل فإن الخزي لا يكون إلا ما يجري مجرى العقوبة من الهوان والإذلال، فكل ما هذه صفته يدخل تحته، وذلك ردع من الله تعالى عن ثباتهم على الكفر؛ لأن الخزي الحاضر يصرف عن التمسك بما يوجبه ويقتضيه".[7]



---

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، 105/1/1.

[2] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 63/1.

[3] – أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 103/1.

[4] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 105/1/1.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 681/1/1.

[6] – نفسه، 682/1/1.

[7] – الرازي، التفسير الكبير، 11/4.

ولتتميم العقوبة عطف على العذاب الدنيوي العذاب الأخروي؛ فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ووصف العذاب بما جرى مجرى النهاية في المبالغة، لأن الذين قدم ذكرهم وصفهم بأعظم الظلم، فبيَّن أنهم يستحقون العقاب العظيم.[1]

وهذا الجزاء مناسب لظلمهم الأعظم. أمّا الخزي في الدّنيا وهو الهوان والإذلال، فمناسب للوصف الأول؛ لأن فيه إهمال المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها من ذلك. وأمّا العذاب العظيم في الآخرة، فهو العذاب بالنار، وهو إتلاف لهياكلهم وتمزيق لصورهم، وتخريب لها بعد تخريب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [2] فهو مناسب للوصف الثاني، وهو سعيهم في تخريب المساجد. ولم يحتج إلى وصف الخزي الذي يلحقهم في الدنيا؛ لأنّهم لا يتفاوتون فيه حكماً، سواء فُسر بقتل أو سبي، أو جزية. بينما احتيج إلى وصف عذاب الكافر بالعظم؛ ليتميز من عذاب المؤمن لتفاوته.[3]

وإنّما كانوا أظلم الناس؛ لأنهم أتوا بظلم عظيم، فقد اعتدوا على حق الله تعالى وتصرفوا في المساجد بما لا يرضيه، وهي ملك له وحده، فتجاوزوا بذلك الحدود التي شرّعها الشارع، وظلموا النّاس بمنعهم من حقهم في عبادة الله في المساجد، وظلموا أنفسهم بسوء الذكر والسمعة بين النّاس، وجلب الخوف والخزي لها في الحياة الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

وخلاصة القول في هذه الأنواع التي تعد من أشد أنواع الظلم أنّ ما يلفت الانتباه تكرار الاستفهام، الذي جاء عبارة عن خبر معناه النفي بقوله تعالى: ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ في القرآن في أربع عشرة آية، جاء في إحداها أنّ أعظم أنواع الظلم منع المساجد، وفي أخرى أنّه كتم الشهادة، وفي بعضها أنّه افتراء الكذب على الله، وفي البعض الآخر أنّه الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها، وغير ذلك. وهذا فيه إشكال حيث يُوهِم ظاهر الآيات بالتناقض، فكيف يمكن إزالته والتوفيق أو الجمع بينها؟

لأهل العلم في إزالة التناقض والتوفيق والجمع بينها وجوه منها:[4]

---

1 – نفسه، 4/11-12.

2 – النساء: 56.

3 – أبو حيان، البحر المحيط، 1/529.

4 – اختار أبو حيان الوجه الرابع واستبعد الأول والثالث، وقال عنهما: "وهذا كله بعيد عن مدلول الكلام ووضعه العربي، وعجمة في اللسان يتبعها استعجام المعنى"، بينما لم يرد عنده ذكر للوجه الثاني. [أبو حيّان، البحر المحيط، 1/528؛ وذكر الوجه الأول والثاني والرابع ابن العدوي، التسهيل لعلوم التنـــزيل، 2/227، 355].

الأول: أن يتزل هذا على الاختصاص، فيُخص كل واحد بمعنى صلته، أي أنّه ليس من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وليس من كاتمي الشهادة أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وليس من المكذبين أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وليس من المفترين أظلم ممن أفترى على الله كذبا ليضل النّاس، وكذلك في باقيها، فإذا تخصصت الصلات زال التناقض.

الثاني: أن المراد تبشيع وتقبيح هذه الأفعال، وتحريم فاعليها.

الثالث: التخصيص يكون بالنسبة إلى السبق، فلمّا لم يسبقهم أحد إلى مثله، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم، وهذا يؤول معناه إلى السبق في المانعية، أو الافترائية أو غيرها مما سبق التطرق إليه.

الرابع: أنهم في الظلم جميعا سواء، فهم في أعلى درجة من الظلم، فلا أحد منهم أسوأ من الآخر، بمعنى أنّ مانع مساجد الله من أن يُذكر فيها اسمه، الساعي في خرابها على درجة من الظلم تساوي من كتم شهادة عنده من الله، ومن افترى على الله الكذب، ومن كذّب بآياته، وكذا في سائرها.

فهذا نفي للأظلمية، ونفيها لا يستدعي نفي الظالمية؛ لأنّ نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق. وإذا لم يدل على نفي الظالمية لم يكن تناقضاً، لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية. ولا إشكال في ذلك. ولا يقال: إن من منع مساجد الله، و لم يفتر على الله الكذب، أقلّ ظلماً ممن جمع بينهما، فلا يكون مساوياً في الأظلمية؛ لأن هذه الآيات كلّها في الكفار، فهم متساوون في الأظلمية، وإن اختلفت طرقها. فكلها صائرة إلى الكفر، فهو شيء واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراد من اتصّف به، وإنما تكمن الزيادة في الظلم بمقارنتهم بعصاة المؤمنين فنقول: الكافر أظلم من المؤمن، ولا أحد أظلم من الكافر. ومعناه: أنّ ظلم الكافر يزيد على ظلم غيره.[1]

وخالف ابن عاشور إذ يرى أنّ من جمع بين الأمرين هو أشد ظلما، ولكنه لمّا كان لا يخلو عن الانتساب إلى الفريق الأظلم وجامع لخصلتين أو أكثر لم يخرج من كونه من الفريق الذي هو أظلم الناس، وهذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[2] فلا شكّ أنّ الجامع بين الخصال الثّلاث هو أظلم من كلّ من انفرد بخصلة منها، وذلك يوجب له زيادة في الأظلميّة، لأنّ كلّ شدّة وصف قابلة للزّيادة.[3]

[1]- أبو حيان، البحر المحيط، 527/1.

[2]- الأنعام: 93.

[3]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 113/8/4.

والخلاصة أنّ هذه الصور الخمسة، صيغت صياغة واحدة، فهي تشترك في صيغة الأفضلية التي تفيد أكثر ظلما، مما يدل على أنها أعظم صور الظلم، وأبشع الجرائم البشرية؛ إذ تؤدي إلى قلب الحقائق التي تقوم عليها الحياة والكون، وتنشر الأوهام والتصورات الباطلة، وتعمل على ترسيخها في العقول، ونشر الفساد والظلم بأنواعه المختلفة، وتحارب الأمن والطمأنينة والاستقرار.

المطلب الرابع: ظلم الكفر

قال تعالى:

1- ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

2- ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[2]

3- ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾[3]

4- ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[4]

[1]- البقرة: 254.

[2]- الأعراف: 9.

[3]- العنكبوت: 47.

[4]- العنكبوت: 48.

5- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]

6- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.[2]

7- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[3]

8- ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.[4]

جاء في هذه الآيات القرآنية التعبير عن الكفر بلفظ الظلم، وأخبر الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5] عن الكفار بأنهم ظالمون، فدل بذلك على أنَّ كلَّ كافر ظالم وأنّ الكفر نوع من أنواع الظلم، بل هو من بين أعظم أنواعه، لأنَّ الكفار تناهوا في الظلم وبلغوا فيه مبلغا عظيما، لذلك حصرت الآية الظلم فيهم، وقصرته عليهم، وكأنَّهم وحدهم دون غيرهم يستحقون الوصف بالظلم، وكل ظلم غير ظلمهم ضعيف لا يعتد به، وذلك تشنيعا لحالهم كما أفادت الجملة المعرفة الطرفين.[6]

وعن عطاء بن دينار[7] قال: {الحَمْدُ لله الذِّي قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: "وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ"}.[8]

قال أبو حيَّان:[1] "ولو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم، وهو من يضع الشيء في غير موضعه بالكفر، فلم يكن ليخلص من الكفر كلّ عاص إلا من عصمه الله من العصيان".[2]



1 - النمل: 14.

2 - الأنعام: 33.

3 - الأنفال: 54.

4 - الجاثية: 24.

5 - البقرة: 254.

6 - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 19/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 16/3/2.

7 - عطاء بن دينار الهذلي مولاهم المصري. يكنى أبا طلحة، من كبار أتباع التابعين. من رجال الحديث، له كتاب في التفسير يرويه عن ابن جبير. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 184/1، برقم (235/4)].

8 - أخرجه الطبري، جامع البيان، 385/5، برقم (5762)؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ص485، برقم (2567).

والمراد أنّه لو نزلت الآية وفق هذا النظم لحكمت على جميع الظالمين بالكفر سواء كان الظلم عقديا أو اجتماعيا، ولهلك النّاس قاطبة؛ لأنه لا يكاد ينجو إنسان من الظلم سواء تعلق بالنفس أو بالغير، إذ سائر المعاصي وإن هانت تُعد ظلما. وهو ما فهمه الصحابة ﷺ من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[3] إذ جاء لفظ الظلم هنا عاما يتناول سائر المعاصي لولا المخصص الثابت في المأثور.

فلفظا الظلم يطلق أحيانا في القرآن الكريم على الكفر، ولكن الظلم في جملة معانيه شر من الكفر في جملة معانيه لأنّ الظلم لم يستعمل في القرآن في معنى محمود قط، بينما استعمل الكفر في القرآن في معنى غير مذموم، وهو المعنى اللغوي الذي يدور حول الستر والتغطية، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[4] فسمى الكفار باسم الزُرَّاع؛ لأنَّهم يكفرون الحب بالتراب ويغطونه ستر الكفار لحق الله تعالى.[5]

الفرع الأول: تعريف الكفر في اللغة والشرع

أولا: تعريفه في اللغة

الكفر أصله في اللغة من الستر والتغطية، ومنه وصف كل من الليل والزارع بالكافر، فالأول لستره الأشياء بظلمته، والثاني لستره البذر بالتراب.[6]

ثانيا: تعريفه في الشرع

قال الراغب: "الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها".[7]

قال الكفوي: "الكفر لغة، الستر، وشريعة: عدم الإيمان عما من شأنه".[8]

---

[1] – هو: إمام النحاة، أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي الظاهري، الشافعي المذهب، المولود سنة (654هـ) والمتوفى سنة (745هـ)، خرج من الأندلس سنة (679هـ) ومعه جماعة من أعلام الأندلس. ألّف تآليف حسنة منها: "البرهان في تناسب سور القرآن" "ملاك التأويل" وغيرهما. [محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، 212/1/1، برقم (742)].

[2] – أبو حيان، البحر المحيط، 286/2.

[3] – الأنعام: 82.

[4] – الحديد: 20.

[5] – محمد رشيد رضا، المنار، 20/3.

[6] – الفيومي، المصباح المنير، ص318.

[7] – الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص485.

[8] – الكفوي، الكليات، ص763.

فالتعريفان يتقاربان في المعنى، وإن اعتمد الثاني في بيان معنى الكفر على ضده، وهو الإيمان لأنّ الأمور تتميز بضدها. أما مدار الثاني فعلى الجحود.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي للكفر واضحة، إذ لا يخرج الكفر في الشرع عن معنى الستر، إذ الكافر يستر الحق بجحوده. فهو مستمد من المعنى اللغوي.

الفرع الثاني: أنواع ظلم الكفر

ذكر البغوي[1] أن الكفر على أربعة أنحاء: "كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق".[2]

أولا: كفر الإنكار أو الإلحاد

نقل القرآن الكريم على لسان الكفار قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [3] الذّي يدل على أنّ الظالمين الذِين ظلموا بهذا الكفر لا يعرفون الله ولا يعترفون به ولا يؤمنون بالحياة الأخروية ولا بالعقاب والحساب. فالحياة عندهم هي الحياة الدنيوية لا غير، تتعاقب عليها الأجيال، كلما مات جيل خلفه آخر. فالحياة والموت بالنسبة إليهم ينحصران في هذا العالم المعبر عنه عندهم بالدهر، فوحده المتصرف الباقي.

[1] – هو: الحسين بن مسعود بن محمد أبو محمد البغوي، الفقيه الشافعي، يعرف بابن الفراء ويلقب بمحيي السنة وركن الدين. كان إماما في التفسير والحديث والفقه، جليلا ورعا زاهدا. له من التصانيف "معالم التنـــزل" "المصابيح" وغيرهما. مات في شوال سنة (516هـ). [الداوودي، طبقات المفسرين، 1/161-162].

[2] – أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنـــزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، (1417 هـ /1997 م)، 1/64.

[3] – الجاثية: 24.

وهذا النوع من الكفر سمّاه البغوي كفر الإنكار، وعرّفه بقوله: "أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به".[1] ويعرف هذا النوع من ظلم الكفر بكفر الإلحاد.

وهو قليل في الكفار بالنسبة لغيره من الأنواع، لقيام الحجة على النّاس بإرسال الرسل كما أشار إليه ابن قيم.[2]

ثانيا: كفر الجحود

قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [3] وقال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾[4] وقال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[5] وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[6] وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.[7]

وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.[8]

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[9]

تدل هذه الآيات على أنّ كفر الجحود نوع من أنواع الظلم بالكفر، ولهذا يسمى هذا النوع بكفر الجحود.

وقد قال البغوي في تعريفه: "كفر الجحود هو: أن يعرف الله تعالى بقلبه ولا يقر بلسانه".[10] ومثّل له بكفر إبليس وكفر اليهود.

وقال ابن عطية: "حقيقته في كلام العرب الإنكار بعد معرفة وهو ضد الإقرار، ومعناه على تأويل من رأى الآية في المعاندين مترتب على حقيقته".[1] ونسب هذا القول إلى قَتادة لما أثر عنه أنّه أنّه قال: {إِنَّمَا يَكُونُ الجُحُودُ بَعْدَ المَعْرِفَة}.[2]

---

1 – البغوي، معالم التنـــزيل، 64/1.

2 – ابن قيم، مدارج السالكين، 377/1.

3 – الأعراف: 9.

4 – العنكبوت: 47.

5 – العنكبوت: 48.

6 – النمل: 14.

7 – البقرة: 89.

8 – الأنعام: 33.

9 – الأنفال: 54.

10 – البغوي، معالم التنـــزيل، 64/1.

والجحود قد يكون للألوهية أو للنبوة أو لشيء مما جاء به النبي ﷺ وعلم من الدين بالضرورة إجماعا.[3] ولذلك قسّم ابن قيم كفر الجحود إلى نوعين:[4]

كفر مطلق: وهو أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

وكفر مقيد: وهو أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرا أخبر الله به، عمدا أو تقديما لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

ظلم الجحود ليس عن نقص الحجة أو عدم وضوح الدليل، إنّما ناجم عن التصلب والتوغل في الظلم والرسوخ فيه لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[5] أي وما يجحد بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحد نعمنا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على علم منه، ويستر الحق بالباطل عنادا ومكابرة لنا.[6] لأن هذه الحجج والأدلة واضحة يلزم كل مفطور ومبصر الإيمان بها، والتسليم بأنها حق من عند الله تعالى.

فالتعريف في ﴿الظَّالِمُونَ﴾ للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعرّف، أي إلا المتوغلون في الظلم الراسخون فيه.[7]

وعدَّ البغوي كفر إبليس من هذا النوع.[8]

وهذا "محل نظر؛ فإن إبليس أقر بلسانه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[9] وهذا اعتراف منه بالربوبية، وبتوفي الله للأنفس، وبالبعث ويوم القيامة، فدل على أن كفر إبليس ليس عن جحود؛ لأن الجاحد مكذب بلسانه؛ وإنما كفره ناتج عن إباء واستكبار مع التصديق".[10]

---

1 – ابن عطية، المحرر الوجيز، 286/2.

2 – الطبري، جامع البيان، 50/20.

3 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 20/3.

4 – نفسه، 379/1.

5 – العنكبوت: 48.

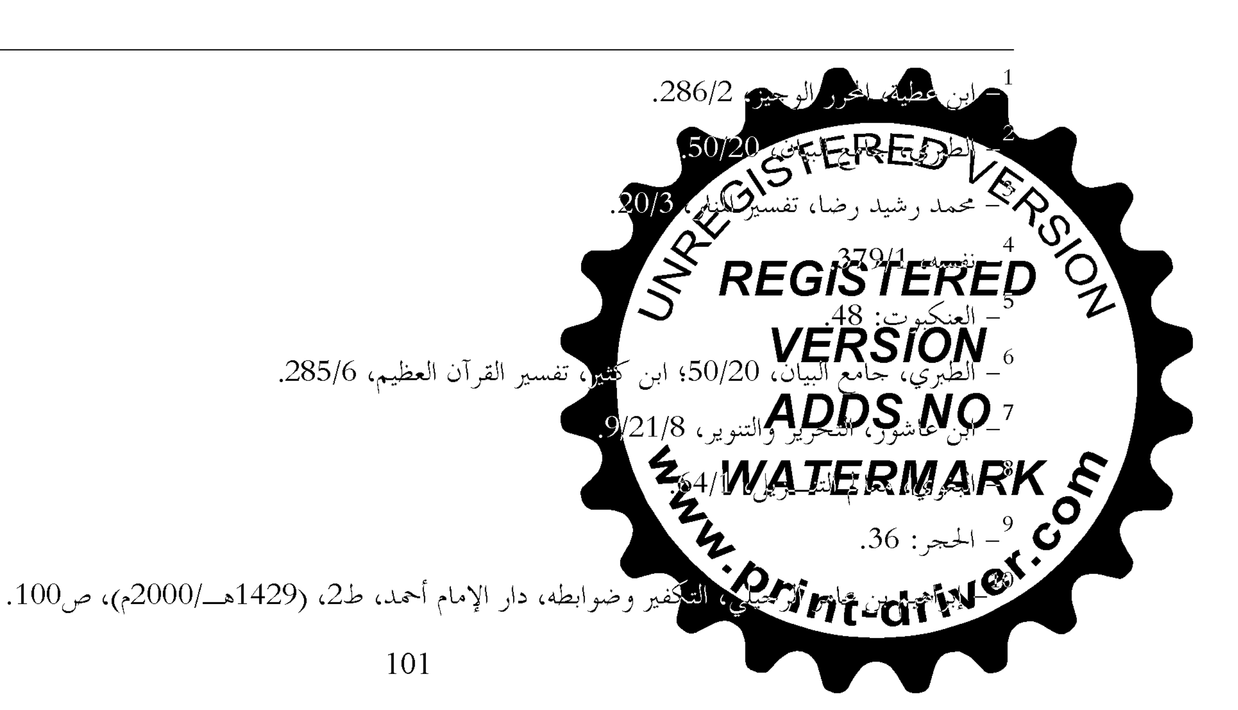
6 – الطبري، جامع البيان، 50/20؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 285/6.

7 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 9/21/8.

8 – البغوي، معالم التنزيل، 64/1.

9 – الحجر: 36.

10 – إبراهيم بن عامر الرحيلي، التكفير وضوابطه، دار الإمام أحمد، ط2، (1429هـ/2000م)، ص100.



ولذا عدَّه ابن قيم من هذا النوع؛ فقال: "وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس. فإنَّه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار. وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار".[1]

ومن قبيل الظلم بكفر الجحود كفر ثمود قوم صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.[2] فرغم أنَّ الله عز وجل آتى ثمود الناقة آية بيِّنة دالة على وحدانيته وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها إلا أنَّهم ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي:كفروا[3]، وجحدوا بها أنَّها من عند الله كما قال: قال: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [4] أي: بما كانوا بحجج الله وأدلته التي منها الناقة يجحدون، فلا يقرّون بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها.[5] وقال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [6] فقد ظلمت ثمود ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وظلمهم عبارة عن كفرهم بربهم ﴿إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي جحدوه بعد أن جاءهم الآية المبصرة.[7]

وهذا كفر فرعون وقومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[8] فهم كفروا بالآيات وأنكروها في الظاهر، وقد استيقنت أنفسهم في الباطن أنها من عند الله، وكابروا، فحطوها عن رتبتها العالية، وسموها سحرا؛ فوضعوها بذلك في غير موضعها ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، إمّا في موضع الحال؛ أي ظالمين عالين.[9] ولا " ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بيِّنات من عند الله تعالى، ثم كابر بتسميتها سحرا بيِّنا".[10] وإمّا مفعولان من أجلها، أي: لظلمهم وعلوهم، فيكون الحامل لهم على الجحود مع استيقان أنها آيات

---

[1] – ابن قيم، مدارج السالكين، 378/1.

[2] – الإسراء: 59.

[3] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 91/5.

[4] – الأعراف: 9.

[5] – الطبري، جامع البيان، 315/12.

[6] – هود: 67-68.

[7] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 385/1.

[8] – النمل: 14.

[9] – أبو حيان، البحر الوسيط، 57/7.

[10] – الرازي، التفسير الكبير، 158/24.



من عند الله، هو الظلم والعلو، لا نقص الدليل وعدم ظهوره ووضوحه؛ لأن هؤلاء الظالمين تيقنوا من صدق موسى عليه السلام وصدق رسالته.[1] نظير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾.[2]

عَالِينَ﴾.[2]

لقد ظلموا بالآيات أيُّ ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا[3]وظلموا في تكذيبهم الرسول لأنهم ألصقوا به ما ليس بحق فظلموه حقه.[4] فظلموا بذلك حق المولى سبحانه وتعالى كما ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذه العاقبة المتمثلة في العذاب الدنيوي الذي لحق بهم بسبب ظلمهم، وإغراقهم على الوجه الهائل الذي هو عبرة للعالمين، وإن لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيها بين كل بادٍ وحاضر، وهلاكهم في الآجل بعذاب دائم لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. وهذه سنة الله في الظالمين الذين يجحدون بما جاءهم به الأنبياء من الآيات.[5] قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [6] أي: "كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله، من تكذيبهم رسلَ الله والجحود لآياته".[7]

وهو كفر اليهود لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [8] وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [9] حيث يخبر المولى سبحانه وتعالى أنّ اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد أن عرفوا الحق، وثبت عندهم صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وتقرر عندهم أنّ "ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا

---

[1]– أبو حيان، البحر المحيط، 7/57؛ عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د ط، 10/19/3866.

[2]– المؤمنون: 46.

[3]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 5/72.

[4]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/19/232.

[5]– الطبري، جامع البيان، 19/437؛ أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 5/72.

[6]– الأنفال: 54.

[7]– الطبري، جامع البيان، 14/21.

[8]– البقرة: 89.

[9]– البقرة: 146.

أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقا منهم -وهم أكثرهم- الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون".[1]

والسياق يتحدث عن انقسام اليهود إزاء آيات القرآن الكريم إلى صنفين، أحدهما يؤمن بها، والثاني يجحدها رغم أنه يعرف أنّ محمدًا نبيٌّ، والقرآن حقّ، ومع ذلك عدل عن الحديث عنهم إلى تذييل الآية بحكم عام يتناول هذا الصنف كما يتناول جميع الظالمين بالكفر، الذين دفعهم التوغل في الظلم وعدم الإنصاف إلى اتباع الهوى رغم وضوح الحق، فكفروا كفر من عرف الحق من الباطل ولكن جحده عنادا واستكبارا.

وهذا النوع من الكفر هو الغالب على كفر أعدا الرسل،[2] كما حكى ذلك القرآن الكريم عن قوم النبي ﷺ: **﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**.[3]

حيث ورد في سبب نزول هذه الآية عدة روايات، منها ما نقله الطبري عن السدي قال: {الْتَقَى الأَخْنَسْ بنُ شُرَيْق وَأَبُو جَهْل بنُ هِشَام، فَقَالَ الأَخْنَس لأَبِي جَهْل: يَا أَبَا الحَكَم أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَد أَصَادِقٍ هُوَ أَمْ كَاذِب؟ فَإِنَهُ لَيْسَ هَاهُنَا مَنْ يَسْمَعُ كَلَامَكَ غَيْرِي، فَقَالَ أَبُو جَهْل: وَاللهِ إِنَّ مُحَمَدًا لَصَادِقٌ وَمَا كَذَبَ مُحَمَدٌ قَط، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ بَنُو قُصَي بِاللِّوَاء وَالسِّقَايَة وَالحِجَابَة وَالنَدْوَة وَالنُبُوَة، فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْش؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الآيَة}.[4]

وروي عن علي ﷺ:[5] {أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾**}.[6]

---

[1]- السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 72/1.

[2]- ابن قيم، مدارج السالكين، 378/1.

[3]- الأنعام، [illegible]

[4]- الطبري، جامع البيان، 333/11؛ الواحدي، أسباب النـــزول، ص177-178.

[5]- هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين وأبو السبطين. هو أول هاشمي ولد بين هاشميين وأول خليفة من بني هاشم. وهو أول من أسلم على قول الكثير من العلماء، هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وكل المشاهد مع الرسول ﷺ. آخاه الرسول ﷺ مرتين وقال له :{أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة}. [ابن الأثير، أسد الغابة، 16/4-40]

[6]- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة الأنعام، ص851، برقم (3074) وبنحوه من طريق ناجية بن كعب أيضا وقال فيه "هذا أصح"؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنعام، 375/2، برقم (3290) من طريق علي ﷺ.

واستبعد ابن عاشور كون هذه الرواية سببا لنزول الآية إلا أن يكون أبو جهل قال ذلك استهزاءً.[1]

وأيا كان سبب النـــزول، فإن الآية تدل على أنّ الذين ظلموا بالكفر ينكرون الحق بعد معرفته، بما في ذلك الطائفة التي تحدثت عنها الروايات الواردة في مناسبات النزول بالأسماء؛ لأنَّ الآية ذيلت بحكم عام يشمل الظالمين بالجحود للحق عموما؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فهذا شأن الظالمين بالكفر مع أنبياء الله ورسله لأنَّ الظلم طبع متأصل فيهم، غالب عليهم.

ووضع لفظ الظالمين موضع الضمير رغم أن الظاهر يقتضيه، للدلالة على أنهم ظلموا بجحدهم لآيات الله، وإنكار نبوة النبي ﷺ بالدعوى التي لا تعضدها حجة؛ إذ معجزاته وآياته نيرة واضحة، يلزم كل عاقل ومفطور الإقرار بها أو جحدوا بها لتمرنهم على الظلم الذي استقر في نفوسهم، وتمكن منهم.[2] ففيه إذاً ذم لهم وإعلام بأنّ من طبيعة الظالمين الجحد بالحجج والأدلة الواضحة، فسجل بذلك عليهم أن الظلم سجيتهم.[3]

فيطلق الظلم على كفر خاص وهو كفر الجحود، أي كفر من عرف الله واستيقن به، وعرف الحق من الباطل ولكنه جحده لحظ من حظوظ النفس العاجلة.

ثالثا: كفر الإباء و الاستكبار أو العناد

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[4] وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾[5] وقال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[6]

فهذه الآيات تبيّن أنّ الاستكبار كان الباعث الذي دفع إبليس إلى ظلم الكفر، وذلك بالامتناع عن الامتثال لأمر الله ﷻ رغم اعترافه به إلا أنّه تعظّم وتكبّر على طاعته، وأنكر استحقاق آدم للسجود.

---

[1] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 3/7/200.

[2] – أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق عمر الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، (1423هـ/2002م)، 2/251-252؛ اطفيش، تيسير التفسير، 4/261؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 5/93.

[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 3/7/199.

[4] – البقرة: 34.

[5] – طه: 116.

[6] – ص: 73-74.

والمراد بالإباء الامتناع من فعل أو تلقيه. والاستكبار شدة الكبر والسين والتاء فيه إما للعدِّ أي عد نفسه كبيراً، وإما للمبالغة في الاتصاف بالكبر. ومن لطائف اللغة العربية أن هذه المادة لم تجئ منها إلا بصيغة الاستفعال أو التفعل إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلباً الكبر أو متكلفاً له وما هو بكبير حقا.[1]

وقد أصرّ إبليس على هذا الموقف كما دلت عليه آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[2] وقوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[3]

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.[4] ولهذا يسمى هذا النوع من ظلم الكفر بكفر الإباء والاستكبار أو العناد نسبة إلى الباعث عليه.

وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنّه "تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأوامر الله ونواهيه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق. وكان ممن كفر وجحد نعم الله تكبرا عن الإذعان لأوامر الله، اليهودُ وأحبارُهم الذين استكبروا عن الإقرار بنبوّة النبي ﷺ والإذعان لطاعته، بَغْيًا منهم له وحسدًا رغم أنهم كانوا بصِفته عارفين".[5]

عارفين".[5]

قال البغوي في تعريفه: "وكفر العناد هو: أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به، ككفر أبي طالب".[6]

وفي معناه كفر الاستكبار في تقسيم ابن قيم حيث قال: "وأما كفر الإباء والاستكبار: نحو كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكبارا".[7]

ولا ظلم أشنع من ظلم من عرف الحق وتبين له وجه الصواب ثم رفض الخضوع له.



[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/2/424.
[2] - الأعراف: 12.
[3] - الحجر: 32-33.
[4] - الإسراء: 61.
[5] - الطبري، جامع البيان، 1/510.
[6] - البغوي، معالم التنـــزيل، 1/164.
[7] - ابن قيم، مدارج السالكين، 1/378.

أما كفر النِّفاق فآثاره تتجاوز في الخطورة آثار الكفر؛ لذلك تم إفراده بمطلب مستقل سيأتي لاحقا إن شاء الله.

الفرع الثالث: سبب تسمية الكفر ظلما

لقد وصف القرآن الكريم الكافرين بالظلم، بل إنه من أعظم أنواع الظلم، والكفار من أعظم الظالمين لأنهم ظلموا "الحق فأنكروه، وظلموا أنفسهم فأوردوها موارد الهلاك، وظلموا الناس فصدوهم عن الهدى وفتنوهم عن الإيمان، وموهوا عليهم الطريق، وحرموهم الخير الذي لا خير مثله، خير السلم والرّحمة والطمأنينة والصلاح واليقين".[1]

فالكفر ظلم لحقوق كثيرة، فهو ظلم في حق الله تعالى، وظلم للنفس بتعريضها للعذاب والهلاك، وظلم للرسل بالتكذيب، وظلم للنّاس، وظلم للحقائق التي تحكم العالم.

والكافر يظلم نفسه قبل أن يظلم غيره، بجحوده وستره للحقيقة الكبرى التي يقوم عليها هذا الكون، والاستكبار عنها واتباع الاعتقادات الباطلة، والتصورات الخاطئة التي تؤدي إلى الوقوع في ظلمات الضلال والهلاك، وشأن العاقل أن لا يؤذي نفسه لأنَّ الإنسان مجبول على حب الخير للنفس والحرص على ما يجلب لها السعادة، وكراهية الشر واجتناب الأذى.

ولهذا جاء في زهرة التفاسير: "إنَّ الكافرين ليس ظلمهم فقط لغيرهم، بل ظلموا أنفسهم، لأنهم طمسوا قلوبهم، وجعلوا أنفسهم في شدة وبلاء، وحرموها من سعادة الإيمان وبرد اليقين ونور الحق، ورضوان الله ونعمته".[2]

وظلم الكفر قد لا يتوقف عند ظلم النفس بل قد يستتبع فنونا وأنواعا أخرى من الظلم، تؤدي إلى ظهور الفساد في الأرض، كالسعي في صد النَّاس عن سبيل الله، ومحاربة الحق وأهله، والاعتداء على حقوق الإنسانية في الأديان والأنفس والأموال والأعراض والعقول.

ومن واجب البشرية الأخذ على أيدي هؤلاء الظالمين، ومحاربة ظلمهم منعا لاستشرائه وانتقال عدواه، لأن الإنسان إما أن يؤثر أو يتأثر، وهذا ما دعا إليه في الظلال فقال: "إن الذين يحاربون حقيقة الإيمان أن تستقر في القلوب، ويحاربون منهج الإيمان أن يستقر في الحياة، ويحاربون شريعة الإيمان أن تستقر في المجتمع.. إنهم أعدى أعداء البشرية وأظلم الظالمين لها. ومن واجب

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/3/285-286.

[2] – أبو زهرة، زهرة التفاسير، 1/929.

البشرية -لو رشدت- أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن هذا الظلم الذي يزاولونه، وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال".[1]

فظلم الكفر منشأ لأنواع الظلم المختلفة، لأن الكافر لا رادع لديه يصده عن ارتكاب الظلم، وإن وجد فإنَّه عادة ما يكون ضعيفا، لضعف المصدر الذي يستمد منه معايير الصلاح والفساد، لأنّ هذه المعايير من وضع البشر، ومن صفة البشر النقص. لذلك لا يمكن أن يكون القانون حارسا أمينا ورقيبا دائما في غياب الإيمان بالله ﷻ.



1 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/3/285-286.

المطلب الخامس: ظلم النفاق

إنّ النّفاق ظلم، بدليل وصف المنافقين به في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.[1]

وهذا الوصف عام يتناول جميع أصناف الظالمين، ويندرج فيه ابتداءً المنافقون، ومن يسمع ويقبل كلامهم، ومن يؤدي إليهم أخبار المؤمنين وأسرارهم.

ولا يخفى على الله ﷻ شيء من حال هؤلاء المنافقين الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بسبب تدنيسها بالكفر والنفاق؛ فأوردوها موارد الهلاك، وظلموا غيرهم بسبب أنهم سعوا في إلقاء غيرهم في وجوه الآفات والمخالفات،[2] وظلموا ربهم لا ظلم القوة، ولكن ظلم الحق؛ لأنّهم لم يقوموا بحق الله تعالى، فوضعوا الكفر والإيمان في غير موضعهما؛ فكانوا في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.[3]

وقد أظهرت الآية المنافقين بوصف الظلم بدل الإضمار الذي هو الأصل، إشارة إلى أنّ النفاق ظلم، وأنّه الوصف الذي أوجب لهم الشقاء بمنعهم عن موطن الخير، وتعميماً للحكم بالعلم بهم وبمن سمع لهم بأنّه ظالم.[4]

ففي هذا التذييل "إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر، وليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به، وليعلموا أنّ الاستماع لهم هو ضرب من الظلم".[5]



---

1 - التوبة: 45-47.

2 - الرازي، التفسير الكبير، 67/16.

3 - النساء: 145.

4 - البقاعي، نظم الدرر، [illegible]29/3.

5 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 218/10/5.

كما وصفهم الله ﷻ بوصف الظلم في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[1] أي ظلم النفاق.[2] ولم يكتف بذلك بل جعله قاصرا عليهم؛ تشنيعا لظلمهم، وكأنهم وحدهم الظالمون دون سائر الظالمين، وذلك لشدة ظلمهم بحيث لا يكاد يعتد بظلم غيرهم في جانب ظلمهم.

وهذا النوع من النِّفاق ظلم اعتقادي؛ لأنّ المنافقين يظهرون الإيمان والطاعة ويبطنون الكفر والعصيان، حيث يقولون قولا بألسنتهم، ويخالفونه بأعمالهم؛ فيقولون ما لا يفعلون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [3] وقال: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. [4]

الفرع الأول: النفاق لغة واصطلاحا

النِّفاق في اللغة: هو إخفاء شيء وإغماضه.[5]

وقد اختلف في أصله، فقيل: مأخوذ من النَّفق وهو السَّرَب في الأَرض. وقيل هو من نَافِقَاء اليربوع، وهو موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أتي من قبل القاصعاء- وهو أحد جحري اليربوع- ضرب النافقاء برأسه فخرج. ومنه اشتقاق المُنافق في الدين. والنِّفاق بالكسر فعل المنافِق، وهو الدخول في الإسلام من وَجْه والخروُج عنه من آخر، وهو اسم إسلاميّ لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يَسْتُرُ كُفْره ويظهر إيمانَه.[6]

"وصدق علماء اللغة عندما شبهوا أساليب المنافقين بجحر الضب. فجحر الضب طريق في باطن الأرض خفي مظلم كثير الالتواءات. وأساليب المنافقين خفية مظلمة ليس فيها وضوح ولا صراحة".[7]

والنِّفاق شرعا: إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب.[1]

---

[1] – النور: 50.

[2] – هود بن محكم الهواري، تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق وتعليق بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، (1990م)، 188/3.

[3] – التوبة: 45.

[4] – النور: 47.

[5] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 454/5.

[6] – ابن منظور، لسان العرب، 357/10.

[7] – عبد الرحمن الدوسري، النفاق: آثاره ومفاهيمه، مكتبة دار الأرقم للنشر والتوزيع، الكويت ط2، (1402هـ/1982م)، ص10[illegible]

قال ابن كثير: "هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب".[2]

ويبدو أنه لا يوجد هناك نفاق عملي لأنّ النفاق يتعلق بجانب الله ﷻ. أمّا حديث النبي ﷺ: {آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ}،[3] فما ورد فيه، فهو عبارة عن علامات على النفاق، ولا يمكن أن يكون كل من فيه هذه الآيات منافقا، إنما هي خصال للمنافق قد نجدها في غيره.

الفرع الثاني: صور ظلم المنافقين

إنّ مرض قلوب الظالمين بالنفاق هو السبب الرئيسي الذي يقف وراء كل السلوكات، وصور الظلم المختلفة، والممارسات المنحرفة الصادرة عن المنافقين، كما يشير إلى ذلك قوله ﷻ:
﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4]
وأصل المرَض: السَّقم، ويقال في الأجساد والأديان.[5] والمراد بالمرض هنا النفاق،[6] والشك والشبهات، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، كالكفر والنّفاق، والشكوك والبدع، ومرض الشهوات المردية، كالفواحش.[7]

---

[1]- الجرجاني، التعريفات، ص192.

[2]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 176/1. [ويسمى النفاق الاعتقادي أيضا بالنّفاق الأكبر أو كفر النّفاق، أمّا النفاق العملي فيسمى بالنّفاق الأصغر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 387/1-388].

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ص14، برقم (33)، وفي كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، ص475، برقم (2682)، وفي كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ص492، برقم (2749)، وفي كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ص1138، برقم (6095)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ص57، برقم (58)؛ والترمذي في سننه، كتاب الإيمان عن الرسول، باب ما جاء في علامة المنافق، ص744، برقم (2636)، وقال:"هذا حديث صحيح"؛ وأحمد في مسنده، 314/14، برقم (8685)، قال المحقق: "إسناده صحيح".

[4]- النور: 50.

[5]- الطبري، جامع البيان، 278/1.

[6]- الرازي، التفسير الكبير، 20/24؛ الشوكاني، فتح القدير، 54/1.

[7]- السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 42/1.

وقد قدم الخبر على المبتدأ ليفيد أن هذا المرض المتمثل في ظلم النِّفاق استقر في قلوبهم وتعلق بها، وتمكن منها تمكناً شديداً. وأخرج القلب عن صحته وسلامته؛ قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.[1]

فمرض القلوب هنا "عام في الحسي والمعنوي ففي قلوبهم مرض الشكوك، والشبهات المفسد لعقيدتهم وأخلاقهم، وفيها أمراض حسية من الغل والحقد والحسد الملتهب والغيظ المستمر ونحوه مما يسرع في هلاكهم بأحداث أمراض فاتكة يشهد لها المنقول والمحسوس من تقرير الأطباء".[2]

وقد ذكرت النصوص القرآنية سبعة وعشرين مرضا من أمراض القلب المعنوية وهي: الرين والزيغ والطبع والصرف والضيق والحرج والختم والإقفال والإشراب والرعب والقساوة والإصرار وعدم التطهير والنفور والاشمئزاز والإنكار والشكوك والعمى والإبعاد بصيغة اللعن والتأبي والحمية والبغضاء والغفلة والغمرة واللهو والارتياب والنفاق. وكل هذه تغلب عليه وتجلب له أمراضا حسية مهلكة لصاحبه.[3]

ولا مانع عند بعضهم من حمل المرض أيضاً على حقيقته الذي هو الظلمة.[4] وهو قريب من من الصواب لأن جميع أسباب النِّفاق ناشئة عن الظلمات الراسخة في قلوب المنافقين، من ظلمات الشبهات والشهوات التي تجتمع فتكون ظلمات بعضها فوق بعض.[5] ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.[6] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[7] وقوله: وقوله: ﴿والذين كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النور إِلَى الظلمات﴾.[8]

فهذا المرض تأصّل في قلوبهم، التي تعد محل الإدراك، وأداة من أدوات الفهم، ووسيلة من وسائله؛ فأقعدها عن أداء وظيفتها، ومنعها من إدراك الفضائل كما يمنع المرض الأبدان من التصرف الكامل بحيث أصبحت دون فائدة؛ لأنّ "المرض صفة توجب وقوع الضرر في الأفعال



[1] – البقرة: 10.

[2] – الدوسري، النفاق، ص14.

[3] – أبو حيان، البحر المحيط، 188/1.

[4] – الألوسي، روح المعاني، 151/1/1.

[5] – الدوسري، النفاق، ص16-17.

[6] – البقرة: 17.

[7] – النور: 40.

[8] – البقرة: 257.

الصادرة عن موضع تلك الصفة. ولما كان الأثر الخاص بالقلب إنما معرفة الله تعالى وطاعته وعبوديته، فإذا وقع في القلب من الصفات ما صار مانعا من هذه الآثار كانت تلك الصفات أمراضا للقلب".[1]

وقد أدّى تمكن المرض من قلوبهم إلى توالده وسيطرته، فانعكس ذلك على أفعالهم وسلوكاتهم، لأن المرض "ينشئ المرض والانحراف يبدأ يسيرا يسيرا ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد، سنة لا تتخلف، سنة الله في الأشياء والأوضاع وفي المشاعر والسلوك".[2] قال تعالى: **﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾**. وزيادة مرضهم تحصل بعدة أمور:[3]

أحدها: زيادة المرض بزيادة ما ينـــزل الله ﷻ من تفضيحهم وتقبيح سلوكهم.

والثاني: هو سنة الله في كون المرض إذا لم يعالج يزداد ويجلب مرضا آخرا، والمرض المعنوي أفظع زيادة في الفتك من المرض الحسي، فإنّ الشبهات في القلوب يجر بعضها بعضا حتى تورث القلق والاضطراب والحقد.

والثالث: زيادة المرض بتكاليف الله ﷻ المتجددة وفعلهم لها مع كفرهم بها، كما قال جلّ ثناؤه في تنـــزيله: **﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾**.[4]

واستفحال المرض وتأصله في القلوب يؤدي إلى ظهور أعراضه في عدة أشكال وصور، منها:

أولا: التخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله بغير عذر

من صور ظلم المنافقين وعلاماتهم التي يُعرفون بها تخلّفهم عن الجهاد في سبيل الله، فهل كل من تخلّف عن الجهاد في سبيل الله وبغير عذر هو منافق، بمعنى أنه كافر في حقيقته، لكن يظهر لنا [illegible] الأعذار المقبولة والغير المقبولة؟

[1] – الرازي، التفسير الكبير، 58/2.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 43/1/1.

[3] – الدوسري، النفاق، ص12-13.

[4] – التوبة، 124-125.

وعلى هذا الأساس تطرح المسألة في ميدان أوسع، وهو الوضع الذي تعيشه الأمة إزاء أفغانستان، العراق، لبنان، غزة. فقد تعرضت هذه المناطق الأربع من ديار الإسلام إلى اعتداء وهتك من طرف الكفار، وقد اعتبر فيه المسلمون أحيانا طرفا في الاعتداء كما هو الحال في أفغانستان؟

لا شك أنّ النص الذي يتحدث فيه القرآن هنا، هو وصف لحال الله أعلم بها ويعرف المؤمن من المنافق، كما يعرف تقدير الأعذار، وعليها يحاسب يوم القيامة. فما هي المعايير التي جاء بها النص للاعتماد عليها لإصدار حكم بهذا الخصوص؟

هذا ما أعلم الله ﷻ به نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.[1] إذ بيّن أنّ انتفاء إيمان المنافقين بالله واليوم الآخر وحيرتهم وترددهم، هو ما دفعهم إلى استئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروجَ معه حين استنفروا، بالمعاذير الكاذبة، والتماسهم لمختلف الأعذار والحيل من أجل التخلف عن الجهاد في سبيل الله؛ لأنّهم يرون الجهاد بالمال مَغْرَمًا يُفوت عليهم بعض منافعهم به، ولا يرجون عليه ثوابا كما يرجو المؤمنون، ويرون الجهاد بالنفس آلاما ومتاعب وتعرضا للقتل الذي ليس بعده حياة عندهم.[2]

وعزم الظالمين بالنِّفاق على التخلف عن الجهاد، وبطلان أعذارهم، ظاهر؛ لأنهم لا يستعدون للخروج، وإن قدروا عليه، وامتلكوا عدته ووسائله من السلاح والزاد والراحلة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

وهذه مشيئة الله ﷻ لما يعلمه من طبيعة المنافقين الظالمين، ونواياهم السيئة التي تتربص بالمؤمنين؛ إذ في خروجهم إلحاق الخطر بالمؤمنين وإثارة الفتن في صفوفهم، وبث سموم التخذيل فيهم، وإعاقة انتصارهم. ولو خرجوا معهم ما زادوهم قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى. لاسيما أنّ في المؤمنين من يسمع لهم. لذلك ثبّطهم الله ﷻ بما أحدث في قلوبهم من

1- التوبة: 45-46.

2- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 546/10.

الخواطر والمخاوف والفشل، وبما ألقى في أجسامهم من الكسل، وهذا من مقتضى سنته في تأثير النفاق،[1] قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾.

فظلموا بتخلفهم مع الضعفاء من العجزة والنساء والأطفال والمرضى الذين لا يستطيعون الانبعاث للجهاد. وهو المكان اللائق بالمنافقين الظالمين، أصحاب الهِمم الواهية والقلوب المرتابة الحائرة والنفوس الخاوية من اليقين. وكان ذلك خيراً للإسلام وللمسلمين؛[2] قال تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

وفي هذا القيل أربعة وجوه: "أحدها: أنه تمثيل لداعية القعود التي هي أثر التثبيط، وفي معناه أنه أمر قدري تكويني لا خطاب كلامي، والثاني: أنه قول الشيطان بالوسوسة. والثالث: أنه قول بعضهم لبعض. والرابع: أنه حكاية لإذن الرسول ﷺ لهم، وأنه قاله بعبارة تدل على السخط لا على الرضاء".[3]

فالتخلف عن الجهاد بأعذار كاذبة، وبسبب تفضيل الدنيا على الآخرة، والتعلق بالمال والأهل من صور ظلم النفاق. هذه الصورة التي يتخذها المنافقون ستارا لإخفاء الظلم، كشفها الله ﷻ وأعلم بها المؤمنين من خلال القرآن الكريم، وجعلها علامة من العلامات التي يعرفون بها في كل زمان ومكان؛ للاحتراس من مكائدهم ودفع ظلمهم.

ثانيا: الارتياب في الدين

إنّ الحديث عن الارتياب يسوق ولا شك، من أجل أن يكون المنهج علميا، إلى الحديث عن الشّك المنهجي. فهل كل ارتياب يمكن أن يكون صفة للمنافق الظالم؟ وماذا يمكن القول أمام تساؤل أولي العزم من الرّسل، كتساؤل أب الأنبياء: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.[4]

إذاً هناك ريب منهجي يرجو صاحبه الوقوف على الحقيقة، وهناك ريب متمكن من القلب، وهو الريب الذي يتحدث عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

[1] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 548/12؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 374/2.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1663/10/3.

[3] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 548/10.

[4] – البقرة: 260.

﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1] وقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾.[2] وهو الصفة اللاصقة في الطبع البشري الظالم المنافق؛ فينبغي النظر إلى الارتياب هنا على أنه صفة ذاتية لا صفة عارضة.

يتبين من الآيتين أن الارتياب والحيرة في الدين استحوذ على قلوب الظالمين بالنفاق؛ فشكّوا فيما أنزل الله، من حقيقة وحدانيته، وارتابوا بالوعد الحق والبعث بعد الموت، وثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه، وإن كان ظاهرهم الإيمان والإذعان إلا أنّهم في الشك يتحيّرون، وفي ظلمة الحيرة يتردّدون، لا يعرفون حقًّا من باطل، ولا يدرون أين يتجهون فيعملون على بصيرة.[3]

فحياتهم قلق واضطراب، تذبذب وتردد، لا هم مع المؤمنين ولا مع الكافرين، قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.[4] يعيشون بوجهين؛ وجه الإيمان ويتعاملون به مع المسلمين رجاء جلب المنافع في حال ظهور الإسلام، ووجه الكفر ينقلبون به إلى أهل ملتهم حفاظا على أهوائهم، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[5]

وقد شبّههم النبي ﷺ بالشاة العائرة بين الغنمين؛ فقال: {مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً}.[6]

---

[1]– التوبة: 45.

[2]– النور: 50.

[3]– الطبري، جامع البيان، 275/14.

[4]– النساء: 143.

[5]– النساء: 141.

[6]– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، دون عنوان الباب، مرة بنفس اللفظ، ومرة بلفظ "تكر في هذه مرة وفي هذه مرة"، ص1337، برقم (2784)، وما بعده؛ وأخرجه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن سنان النسائي، سنن النسائي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ/1999م)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب مثل المنافق، ص720، برقم (5039)، مع زيادة لفظ: {لاَ تَدْرِي أَيُّهَا تَتْبَعْ}، كلاهما من طريق نافع عن ابن عمر؛ وأبو محمد عبد الله بن الفضل بن بهرام الدارمي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الدّارَاني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، (1421هـ/2000م)، المقدمة، باب من رخص في الحديث إذا أصاب المعنى، 327/1، برقم (327)، من طريق عبيد بن عمير بلفظ: {مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ بَيْنَ الرَبَضَيْن أَوْ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ}؛ وأحمد في مسنده، 9/433-434، برقم (5610).

وعبّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للدلالة على تجدّد نفي إيمانهم، وبصيغة الماضي في قوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه؛ فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.[1]

فالارتياب مرض أصاب قلوبهم واستقر فيها، حتى ورّثهم الاضطراب والقلق، وأصَّل لظلم النِّفاق وزاده استشراءً، وهم يعتقدون أنهم بذلك يحققون مآربهم ومطامعهم الدنيئة دون أن يعلم أحد بحقيقتهم، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.[2] ففي قلوبهم شك فزادهم الله فوق شكهم شكا؛ فكان الجزاء من جنس العمل.

ثالثا: كراهة ظهور الإسلام

ومن صور ظلم النفاق، كراهة ظهور الإسلام وانتصار أهله، والفرح بخذلانهم وهزيمتهم أمام أعدائهم. إن انتصر أهل الحق وأصابهم عافية ونصر، ساء الظالمين بالنفاق ذلك وغمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله ﷻ وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم.[3] قال تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[4]

فالمنافقون الظالمون يتبجحون بأخذهم الحيطة والحذر، الذي أثمر في نظرهم نجاتهم وسلامتهم من ذلك البلاء الذي أصاب المؤمنين. ذلك أنّهم يأخذون بظواهر الأمور، ويحسبون البلاء شراً في كل حال. رغم أنّ الله يمحص صفوف المؤمنين بالشدائد والابتلاءات، إعدادا لهم للنصر الذي كتبه لهم، ووعدهم به في النهاية؛ لأن الله ﷻ وحده الناصر المعين الذي ينبغي التوكل عليه.[5]

رابعا: إثارة الفتن



[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 213/10/5.

[2] - البقرة: 10.

[3] - ابن قيم، مدارج السالكين، 396/1؛ الحكمي، الظلم وأثره، ص256-257.

[4] - التوبة: 50-51.

[5] - البغوي، معالم التنزيل، 57/4؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 339/1؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 1665/10/3.

إنّ السعي لإشعال نار الفتن والاختلاف في صفوف المسلمين، ونشر الفرقة بينهم، والكيد لتشتيت شملهم، صورة من صور ظلم النفاق كما أخبرنا بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.[1]

والقلوب "الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل. وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين".[2]

بهذا فضح الله ﷻ هؤلاء الظالمين، وحذر منهم من خلال كشف الستار عن نواياهم السيئة إزاء المؤمنين، ووسائلهم التي تهدف إلى إلحاق الضرر والفساد بالمؤمنين، لئلا يصلوا إلى مرادهم، حيث يتتبعون العورات وينتظرون الزلاّت؛ ليجدوا منها مدخلاً إلى بلبلة أفكار المؤمنين، وإثارة العداوة بينهم؛ ونشر الإشاعات الكاذبة في أوساطهم، وبث الأقوال الخبيثة في صفوفهم، والتشكيك في صحة عقائدهم، والتخويف من قوة أعدائهم، وغير ذلك من أساليب المكر والخداع، والتخذيل والتفشيل، التي يحسنها المنافقون الظالمون في كل زمان ومكان.[3]

ويعينهم على ظلمهم وإفسادهم طائفة من المؤمنين الظالمين، وهم ضعاف الإيمان ممن يسمع كلام المنافقين الظالمين، ويَستحسن حديثهم، ويتأثر بمكائدهم ويطيعهم؛ أو من ينقل لهم الأخبار والأسرار.[4]

ولا يخفى شيء من أحوال الظالمين المنافقين ولا من أحوال السمَّاعين لهم، ولا من صور ظلمهم على الله ﷻ فيجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. فأظهرهم بوصف الظلم عوضا عن الإضمار؛ لتسجيل الظلم عليهم والتشديد في الوعيد والإشعار بترتبه على الظلم. ويجوز أن يراد بالظالمين الجنس ويدخل المذكورون دخولاً أولياً، والمراد منهم إمّا القاعدون أو هم السمّاعون.[5]

---

[1] – التوبة: 47.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1663/10/3.

[3] – أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م)، 80/2.

[4] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 160/4.

[5] – الألوسي، روح المعاني، 304/10/5.

فإثارة الفتن والإسراع في الوقيعة بين المؤمنين، وبث روح الاختلاف بينهم، وخلق الأحقاد والضغائن في أوساطهم، ديدن أهل الظلم من المنافقين في كل زمان ومكان. لذلك ذكر الله ﷻ أوصافهم وبيّنها للمؤمنين؛ تحذيرًا منهم ومن ظلمهم.

خامسا: الإعراض عن الاحتكام إلى ما أنزل الله

إنّ الإعراض عن الاحتكام إلى ما أنزل الله، وذلك في الخصومات والقضايا التي يكون فيها الحق على المنافقين، صورة من صور ظلمهم، فهم لا يذعنون لحكم الله إلا إذا كانوا مظلومين، وكان الحق لهم؛ لقوله تعالى: **﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾**.[1] وهذه الآية كقوله: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾**.[2]

وقد ورد في سبب نزولها ثلاث روايات:

الأولى: أنّها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف[3] لأن الحق إذا كان متوجهاً على المنافق حاكم إلى غير رسول الله ﷺ ليسقط عنه، وإذا كان له حاكم إليه ليستوفيه منه.[4]

الثانية: أنها نزلت في المغيرة بن وائل من بني أمية، كان بينه وبين علي كرم الله وجهه خصومة في ماء وأرض؛ فامتنع المغيرة أن يحاكم علياً إلى رسول ﷺ وقال: إنه يبغضني.[5]

---

[1] - النور: 48-49.

[2] - النساء: 60-61.

[3] - هو: كعب بن الأشرف، شاعر، كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية، أكثر من هجاء النبي ﷺ وأصحابه فانتدب خمسة من الأنصار إليه فقتلوه. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 104/1، برقم (225/5)].

[4] - الماوردي، النكت والعيون: تفسير الماوردي، مراجعة وتعليق بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 115/4؛ ابن الجوزي، زاد المسير، 54/6؛ الخازن، لباب التأويل في معاني التنـــزيل، 393/1؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 269/18/8.

[5] - الماوردي، النكت والعيون، 115/4؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 269/18/8.

الثالثة: "إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة، أو منازعة على عهد رسول ﷺ فإذا دعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض وقال: انطلق إلى فلان".[1]

وأيًّا كان سبب نزول هذه الآية، فإنّ إعراض المنافقين الظالمين عن الاحتكام إلى ما أنزل الله في قضية من قضايا دنياهم، إذا كان الحق عليهم، صفة من صفاقم، وصورة من صور ظلمهم في كل زمان ومكان؛ لأنّ الحق يخالف أهواءهم. ويدخل في ذلك من نزلت فيهم الآية ممن ذُكر في سبب النـــزول دخولا أوليا.

إنّ المنافقين الظالمين يقدمون الهوى على ما أنزل الله ﷻ، فيسعون وراء أحكام الجاهلية، ويفضلون الاحتكام إلى القوانين غير الشرعية، على الاحتكام إلى شرع الله؛ لعلمهم أنهم ظالمون وأنّ الحق عليهم، وأنّ حكم الله لا يظلم، ولا ينحرف مع الهوى، ولا يتأثر بالمودة والشنآن، ولا يحكم إلا بما يطابق الواقع. وأمّا إن كانوا مظلومين، ولهم الحق في الخصومة التي بينهم وبين غيرهم؛ فإنّهم ينقادون لحكم الله ورسوله ﷺ طائعين، وليس ذلك لأجل أنّه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، لعلمهم أنّ الشرع يقضي بينهم بالحق، وسوف يأخذون حقهم وافياً من غير ظلم.[2]

فالاحتكام إلى الشرع عند موافقة الأهواء، والإعراض عنه عند مخالفتها ظلم، وهو صفة من صفات المنافقين الظالمين؛ الذين تقودهم الأهواء؛ لأنّ العدل يقتضي الاحتكام إلى الشرع، في جميع الأحوال سواء كان الإنسان ظالما أو مظلوما.

والإعراض عن الاحتكام إلى الشرع، إذا كان الإنسان ظالما، والإذعان له، إذا كان مظلوما، ويرجو تحقيق مصلحة من وراء ذلك؛ لثقته في عدالة الشارع، صورة من صور ظلم المنافقين الذين لا يقتصر وجودهم على عصر التنـــزيل. فهم يدورون حيث تدور المصلحة الشخصية لا المصلحة الشرعية.

وهذا الكلام يدفع إلى طرح ثنائية الاحتكام إلى القانون، والاحتكام إلى الشرع في قضايانا المعاصرة، إذ كثيرا ما نجد الإنسان يلجأ إلى الشرع، إذا وجد فيه حلاً لمشكلته، ويفر منه إلى القانون [illegible] الحل، فتحوّل القانون إلى ما يشبه المذهب الفقهي على الرغم من أن الفقه،

1 - أخرجه ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، ص2622، برقم (1473)، ورقم (1474)؛ عبد الرّحمن جلال الدّين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ط.ت)، 213/6.

2 - السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص571؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 581/3.

وإن اختلفت الآراء فيه، في بعض قضاياه، فذلك لتعدد الأدلة وعمل كل إمام بترجيح دليل. ودونك مثلا المشكلات التي يطرحها قانون الأسرة.

سادسا: الخوف من حيف الله ورسوله ﷺ

يؤدي ظلم النّفاق عند أهله إلى الخوف من حيف الله ورسوله ﷺ عليهم؛ لأنهم لما كانوا أهل ظلم ظنوا بمن هو أهل الإنصاف أنه ظالم، فهم يقيسون غيرهم على أنفسهم؛[1] قال تعالى: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [2] فهم يخافون أن يكون حكم الله عليهم ظالما جائرا. وهذا طعن في الحكم وفي الحاكم. ولكن حكم الله لا يظلم أحدا لمصلحة أحد؛ لاستواء الجميع عنده. فهو الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً، عدالته مطلقة لا يطيقها تشريع غير تشريعه، ولا يحققها حكم غير حكمه، بخلاف أحكام البشر فهي مظنة الظلم؛ لأنهم لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى حماية أنفسهم ومصالحهم، أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة.[3]

فحكم الله لا يظلم بل المعرضون عن التحاكم إلى ما أنزل الله هم الظالمون الذين يسعون من أجل الظلم، ويطمحون إلى تعميمه وسيادته. لذلك يأبون المحاكمة إلى ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فعين سبب إعراضهم بعد إبطال سببية جميع ما تقدم، وهو أنّ الظلم طبيعتهم وديدنهم، فهم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم.[4]

واسم الإشارة يفيد تحقيق اتصافهم بالظلم،[5] وكمالهم فيه، وجمعهم لتلك الأوصاف؛ لأن قلوبهم مطبوعة على المرض والرّيب، لا أن فيها نوعاً واحداً منه. وليسوا يخافون الظلم، بل هو مرادهم.[6] كما يفيد هذا الاسم الذي يستخدم للبعيد الدلالة على بغضهم وبعد منزلتهم عن الله ﷻ. وجاء بضمير الفصل الذي يوحي بعدم وجود ظالم غيرهم؛ لعظم ظلمهم.



1 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/18/273.

2 – النور: 50.

3 – نفسه.

4 – الألوسي، روح المعاني، 9/18/387.

5 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/18/273.

6 – البقاعي، نظم الدرر، 5/276؛ الألوسي، روح المعاني، 9/18/387.

المبحث الثاني: الظلم الاجتماعي

النوع الثاني للظلم ذو طابع اجتماعي، ويختص بظلم الناس بعضهم لبعض فرادى أو جماعات، شعوبا أو قبائل؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[2]

فتشير هاتان الآيتان إلى نوع من أنواع الظلم، وهو الظلم الاجتماعي، الذي يقع بين الناس، حيث يظلم بعضهم بعضا، فتخول للمظلوم الاقتصاص من الظالم، وتشرّع له حق الانتصار منه دون أن يقف في طريقه أحد، بل وتوجب الوقوف في طريق الذين يظلمون الناس، ويجورون في الأرض بغير حق؛ لأن الأرض لا تصلح، وفيها ظالم لا يقوم الناس لمنعه من ظلمه.[3]

1- الشورى: 40.

2- الشورى: 42.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، 3167/25/5.

والآية الأولى تشير إلى أنّ مجال الظلم الاجتماعي واسع جدا يشمل جميع السيئات التي يقترفها الإنسان في حق أخيه الإنسان، ولكن مرجعها إلى ثلاثة مواقع بيّنها النبي ﷺ في قوله: {فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا}.[1] فيقع هذا الظلم على الدماء والأموال والأعراض. ففي الدماء القتل فما دونه كالاعتداء على الإنسان بالجرح. وفي الأموال مثل ادعاء الظالم ما ليس له أو إنكار ما كان عليه، أو أخذ ما ليس له. فهذا ظلم للأموال، وفي الأعراض يحتمل أن يراد بها السمعة، فيتعدى عليه بالغيبة التي يشوّه بها سمعته أو نحوها، ويحتمل أن يراد بها الزنا وما دونه، والكل محرم.[2] .

ويشهد لهذا أيضا الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: {لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ}.[3]

حيث يؤكد ما ورد في الحديث السابق، من أن الظلم الاجتماعي لا يخرج عن إيذاء الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

أما من حيث الكيفية فهو نوعان "تفريط في الحق، وتعد للحد. فالأول: ترك ما يجب للغير مثل ترك قضاء الديون، وسائر الأمانات، وغيرها من الأموال. والثاني: الاعتداء عليه، مثل القتل، وأخذ المال، وكلاهما ظلم".[4]

---

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، ص21، برقم (67)، وفي كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ص304-305، برقم (1739) ورقم (1741) ورقم (1742)، وفي كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ص797، برقم (4403) ورقم (4406)، وفي كتاب الأضاحي، باب من قال الأضحى يوم النحر، ص1055، برقم (5550)، وفي كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ إِلَى قَوْلِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ص1129، برقم (6043)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ص564-565، برقم (1218)، وفي كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ص823، برقم (1679)، وأبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ، 585/1-588، برقم (1905).

[2]- محمد بن صالح العثيمين، شرح العقيدة الواسطية، طبعة ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، (د.ط.ت)، 366/2.

[3]- أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ص1239، برقم (2564)؛ والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، ص569، برقم (1932)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"؛ وأحمد في مسنده، 159/13، برقم (7728)، 466/13-467، برقم (8103)، 338/14-339، برقم (8722).

[4]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 183/28.

فالظلم الاجتماعي إذن يقع على الدماء والأموال والأعراض، سواء بمنع ما يجب للناس من حقوق، أو العدوان عليهم. ولا تكاد تخرج مظالم العباد عن هذه الأمور التي يعد الحفاظ عليها من مقاصد الشريعة.

والظلم الاجتماعي بأنواعه المختلفة، يفضي بالظالم إلى الإفلاس من الحسنات يوم القيامة، وينتهي به إلى الهلاك في النار، ما لم يتحلل من مظالم الناس في الدنيا؛ لأن القصاص يوم القيامة بالحسنات والسيئات، لا بالدرهم والدينار، لما روى عن النبي ﷺ قال: {أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ}.[1]

فبيّن النبي ﷺ أن الظلم الاجتماعي يقع على الأعراض بالشتم والقذف، وعلى الأموال بأكلها ظلما، وعلى الدماء بالسفك أو الضرب. وهو كفيل بإفناء حسنات الإنسان يوم القيامة، وإفلاسه، والزج به في النار إن لم تف حسناته بتسديد ما عليه من مظالم الناس؛ ليصبح الإنسان بذلك ظالما لنفسه ولغيره؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.[2] فعدّ ظلم الزوجات الذي هو من الظلم الاجتماعي ظلما للنفس، ولقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام بعد وقوعه في القتل خطأ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[3]

فأدرك موسى عليه السلام أنّ القتل قبل أن يكون ظلم للنّاس فإنه ظلم للنفس، ومن شأن العاقل ألاّ يؤذي نفسه بإيقاعها في الظلم الذي يوردها موارد الهلاك؛ لذلك سارع عليه السلام إلى معالجة ما

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، ص1245-1246، برقم (2581)؛ والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، ص622، برقم (2426)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[2]- البقرة: 231.

[3]- القصص: 16.

وقع فيه من الظلم بالاستغفار. فظلم الناس بالقتل من الموبقات المهلكات يوم القيامة، وقد عدّه صاحب كتاب الكبائر الكبيرة الثانية.[1]

فالظلم الاجتماعي إذاً "إمّا أن يكون مع حق الله تعالى كقتل النفس أو مفردا كالدّين الذي ثبت برضا صاحبه".[2]

وقد حذّر المولى ﷻ منه تحذيرا شديدا فقال في الحديث القدسي: {يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا}.[3]

أي أنه تعالى "حرّم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره، مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقا".[4] سواء تعلق الظلم بالدماء أم الأموال أم الأعراض.

فدل الحديث على أن الظلم كما حرّمه المولى ﷻ على نفسه حرّمه على عباده، والحديث وعيد شديد للظالمين؛ "فإنه سبحانه حرّم على عباده المحرمات، ونهاهم عن المنهيات، ولم يذكر في شيء منها ما ذكره في تحريم الظلم من إخبارهم أولا: بأنه حرّم الظلم على نفسه، ثم إخبارهم ثانيا بأنه بينهم محرما؛ فإن في هذا من تقريع الظلمة وتوبيخهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه، وذلك لما علمه ﷻ في سابق علمه من كثرة الظلمة في عباده، وندور العادلين منهم، وهذا يعلمه كل من له إطلاع على أخبار العالم".[5]

---

[1] - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، كتاب الكبائر وتبيين المحارم، تحقيق محي الدين مستوي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط4، (1998م)، ص40.

[2] - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 20/79-80.

[3] - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، من طريق أبي ذر الغفاري ﷺ، ص1244، برقم (2577).

[4] - محمد متولي الشعراوي، مكارم الأخلاق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، (1426هـ/2005م)، ص284.

[5] - محمد علي الشوكاني، نثر الجوهر على حديث أبي ذر، تحقيق أحمد بن محمد بن حسن المصلحي، دار الأندلس الخضراء للنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2000م)، ص75.

المطلب الأول: ظلم الدماء

نظرا لخطورة ظلم الدماء على عمارة الأرض، واستقرار الحياة، وهدم الحضارات. اهتم الشارع بهذا الموضوع، وعالجه في مواضع عديدة من القرآن والسنة، وبيّن أن الظلم يقع على الدماء، كما يقع على الأموال والأعراض لقوله ﷺ: {فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ}.[1]

فحذّر النبي ﷺ من الوقوع في ظلم الدماء أشد التحذير، والظلم في الدماء يكون بالقتل فما دونه، من بتر الأعضاء وإتلافها تعديا، كما يكون بالجرح[2] أيضا ظلما. لا بقصد الاستطباب والعلاج، الذي يفرض على الطبيب أحيانا قطع العضو أو استئصاله تماما، كما يحدث في بعض الأمراض المستعصية، ولا فرق في ذلك بين دم المسلم والكافر، فالإنسان مكرم لإنسانيته، وإن كانت حرمة المؤمن أعظم.

وظلم الدماء أشد أنواع الظلم الاجتماعي؛ لذلك فهو أول المظالم التي يتم القضاء فيها يوم القيامة لقوله ﷺ: {أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ}.[3] وأعظم صور ظلم الدماء، ظلم الأنفس بالقتل سواء للغير أو للنفس _الانتحار_ ثم تليه صور التعذيب المختلفة التي قد تؤدي إلى إتلاف عضو من الأعضاء وفق هذا التفصيل.

الفرع الأول: الظلم بالقتل

---

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ص304، برقم (1739)، بهذا اللفظ من طريق ابن عباس رضي الله عنه، وذكر له شاهدان أحدهما من طريق أبي بكرة رضي الله عنه، ص304، برقم (1741)، والثاني من طريق ابن عمر رضي الله عنه، ص305، برقم (1742)، وكتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات :11]، ص1129، برقم (6043)، من طريق ابن عمر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ص825، برقم (1679)، من طريق أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

[2] - ابن العثيمين، العقيدة الواسطية، 366/2.

[3] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، ص1267، برقم (6864)؛ ومسلم في صحيحه، في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة وإنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ص822، برقم (1678)؛ والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، ص583، برقم (3995)، ورقم (3996)، ورقم (3997)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلما، 873/2، برقم (2615)، ورقم (2617)؛ وأحمد في مسنده، 192/6، برقم (3674)، 261/7، برقم (4213).

إن قتل النفوس بغير حق، أعظم ظلم اجتماعي، وأشده إثما، وأغلظه جميعا عند البشرية جمعاء، منذ عهد آدم ﷺ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالقرآن الكريم يحدثنا عن أول جريمة قتل وقعت ظلما على وجه الأرض، وكيف أن القاتل والمقتول، كانا يعدان القتل ظلما يستوجب النار يوم القيامة. ويصور لنا الظالم، وهو يجر نفسه إلى اقتراف هذا الظلم رغم الإنكار والتحرج، كما يصور لنا المظلوم، وهو يحاول دفع الظلم بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

ورغم أن هابيل سمع تهديد أخيه قابيل له بالقتل ظلما، إلا أنه رفض مقابلة الظلم بالظلم؛ لأن التقوى وخشية الله تمنعه من أن يكون من الظالمين، فآثر الصبر على الظلم والثواء في النار، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: {إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قَالَ فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ}.[2]

وبذل هابيل وسعه في ردع أخيه عن ظلم القتل، مذكرا إياه بأن مآل الظالمين إلى النار، إلا أن قابيل أصر على تنفيذ ظلمه، فأصبح من الخاسرين لقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[3] فكان أول من وقع في ظلم الدماء على وجه الأرض، فسنّه للظالمين بعده، فهو يحمل وزره، ونصيبا من أوزارهم؛ لما ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ عنه قال: قال رسول

---

1 – المائدة: 27-29.

2 – أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفهما، ص1308، برقم (7083)؛ ومسلم في صحيحه، بهذا اللفظ، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، من طريق أبي بكرة الثقفيﷺ، ص1377، برقم (2888)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الفتن والملاحم، باب في النهي عن القتال في الفتنة، 504/2، برقم (4268)؛ والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب تحريم القتل، ص599، برقم (4120)، ورقم (4121)، ورقم (4122)، ورقم (4123)؛ وأحمد في مسنده، 361/32، برقم (19590)، و452/32، برقم (19676) من طريق أبي موسى الأشعريﷺ و87/34، برقم (20439)، و119/34، برقم (20472)، و149/34، برقم (20518)، و150/34، برقم (20519) من طريق أَبِي بَكْرَةَ ﷺ.

3 – المائدة: 30.

الله ﷺ: {لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ}.[1]

فقتل النفوس من أعظم أنواع الظلم الاجتماعي؛ لأن الناظر في هذا العالم يهتدي إلى أن الله أوجد الإنسان ليعمر به الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2] والقتل هدم لما أراد الله بناءه،[3] وزعزعة لما يرجى من هدوء الحياة واستقرارها، وسلب للحياة التي وهبها الله للإنسان، وتيتيم للأطفال، وترميل للنساء، وحرمان للأهل، وإضاعة للحقوق، وقطع للأعمال، وإغلاق لباب التوبة والوصية.[4]

ولذا فإن القتل ظلما، من أكبر الكبائر بعد الظلم العقدي أو الديني، والمتمثل في الكفر؛ ومن ثمّ كان النهي عن هذا الظلم من أهم الوصايا التي أوصى بها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.[5]

فبيّن ﷻ أن القتل المحرم، هو القتل بالباطل والظلم، فسمى المقتول بغير حق مظلوما، مما يستلزم كون القاتل ظالما. أما القتل الغير محرم، فهو القتل بالحق والعدل، والحق بينه النبي ﷺ في قوله: {لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ}.[6] فذكر الحديث ثلاث أحوال لا يعد

---

[1]– أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ، ص223، دون رقم، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، ص599، برقم (3335)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، ص822، برقم (1677) واللفظ له؛ والترمذي في سننه، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله، ص755، برقم. (2678)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب بيان إثم من سنّ القتل، ص582، برقم (3987)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلما، 873/2، برقم (2616)؛ وأحمد في مسنده، 136/16، برقم (3630)، 170/7، برقم (4092).

[2]– هود: 61.

[3]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 92/15.

[4]– [illegible] الظلم وأثره، ص82.

[5]– الإسراء: 33.

[6]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾، ص1269، برقم (6878)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، من طريق عبد الله بن مسعود ﷺ، ص821، برقم (1676)؛ والترمذي في سننه، كتاب

فيها القتل من باب الظلم، و"في غير هذه الثلاث مما جاء في بيانات أخرى عند بعض الأئمة، ويرجع إلى إحدى هذه الثلاث، أو يقال بتقدم هذا الحصر في الورود عليها ".[1]

ولما كان النهي وحده، قد لا يكفي في منع النفس من الوقوع في الظلم، أظهرت الآية لفظ الجلالة الذي يبعث الخشية والتقوى في النفوس، ويجعل الإنسان يشعر بالرقابة الإلهية الدائمة، ويستشعر عظمته والرهبة من مخالفته، بالإقدام على القتل ظلما، فأسندت التحريم إليه؛[2] فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

والقرآن الكريم جاء ليستأصل الظلم، ويطّهر النفوس والمجتمع منه، لا أن يوجهه من طائفة إلى طائفة أخرى، لذلك ينهى عن الوقوع فيه، ولكن إن وقع فإنه يعالجه، ويعمل على استئصاله نهائيا، من خلال إخماد ثورة المظلوم، وتهدئة غضبه، وتلبية رغبته الفطرية الجامحة في الانتصار من الظالم، وذلك بتوليته على القصاص من القاتل الظالم، مع الترغيب في العفو والصفح، بلا إجبار؛ لأن الإجبار قد يدفع المظلوم إلى الاسترسال في الظلم.

ولكن كما يحمي حق المظلوم بالقصاص، فإنه أيضا يصون حق الظالم؛ فيمنع المظلوم من ظلمه عند الاقتصاص منه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾. فالولي المظلوم، مخير بين قتل القاتل الظالم والعفو على الدية أو دونها، على ألاّ يتخذ هذا الحق، وهذه السلطة ذريعة لسفك الدماء، وممارسة الظلم سواء بالتمثيل بالظالم أو قتل غيره، ممن لا علاقة لهم بالظلم، سوى أنهم من عصبة الظالم؛ لأن ذلك يؤدي إلى المضي في الثأر، وتبادل القتل، فيولد الظلم ظلما جديدا، ويتسلسل فيستشري ويستفحل.

وقد وضع القرآن حدا لذلك من خلال تشريع المساواة في القصاص؛ فأبطل بذلك الظلم في الدماء عن طريق التكايل، والمفاضلة في الجرحى والقتلى، الذي كان معروفا في الجاهلية؛ لقوله

الديات عن رسول الله، باب مَا جَاءَ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ، ص432، برقم (1406)، وكتاب الحدود عن رسول الله، باب ما جاء من شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ وَمَنْ عَادَ فِي الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ، ص445، برقم (1448)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب ما يحل به دم المسلم، ص586، برقم (4018)، وكتاب القسامة، باب القود، ص[illegible]، برقم [illegible]؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الحدود، باب لا يحل دم امرئ مسلم لا في ثلاث، 847/2، برقم (2534)؛ وأحمد في مسنده، 491/1، برقم (437)، 492/1، برقم (438)، 502/1، برقم (452)، 534/1، برقم (509) من طريق عثمان بن عفان ﷺ، 119/6-120، برقم (3621)، 431/7، برقم (4429) من طريق عبد الله بن مسعود ﷺ.

1- عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، د.ط، (1991م)، ص120-121.

2- [illegible]، ص120.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

لأن العرب كانت "تتحكم في ذلك على قدر قوة القبائل وضعفها، فرب حر كان يقتل من قبيلة فلا ترضى قبيلته بأخذ القاتل به بل تطلب به رئيسها، وأحيانا كانوا يطلبون بالواحد عشرة، وبالأنثى ذكرا، وبالعبد حرا، فإن أجيبوا وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة. وهذا إفراط وظلم عظيم".[2]

ولإيقاف نزيف هذا الظلم شرّعت التوراة من قبل المساواة في القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[3]

فبيّن ﷻ أنه من الظلم، الزيادة على المماثلة في العقوبة، سواء في القتل أو في الأعضاء المتلفة، أو في الجروح، ثم ذيّل الآية بقاعدة عامة، مفادها أن من الظلم عدم تطبيق أحكام القصاص، لا فرق في ذلك بين الظالم والمظلوم؛ لأن الظالم يتعدى بذلك على حق المظلوم ووليه، فيدفعه إلى الترصد له رغبة في الانتقام، الذي قد يجره إلى مجاوزة الحد في الثأر من الظالم. فيصير المظلوم ظالما جديدا كما سبق البيان.

ومن أبرز صور ظلم الدّماء، القتل العمد، الانتحار، الضرب.

أولا: القتل العمد

من صور القتل ظلما، قتل الأبرياء المعصومين الدّم عمدا، فهو ظلم عظيم وإثم جسيم، يجمع فيه الظالم القاتل بين الظلم في حق الله ﷻ بتجاوز حدوده التي شرعها لعباده، وظلم القتيل، وظلم أوليائه؛ لأن في "القتل ثلاثة حقوق، حق الله، وحق القتيل، وحق أوليائه. فحق أوليائه الدّية

1- البقرة: 178.

2- محمد رضا، المنار، 123/1.

3- المائدة: 45.

أو القصاص، وحق الله يسقط بالتوبة إن قبلها الله، ويبقى حق القتيل يوم القيامة، فإن شاء الله أن يرضي القتيل أرضاه عن قاتله، وإن شاء عذّب القاتل بحق القتيل".[1]

وحذّر الله ﷻ من ذلك في مواطن متعددة منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.[2]

وكل من شارك في القتل يعد ظالما، سواء كان بطريق مباشر أو غير مباشر كالأمر والإعانة والإشارة، والتسبب لقوله ﷺ: {مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}.[3] قال سفيان بن عيينة:[4] {هُوَ أَنْ يَقُولَ: أُقْ، يَعْنِي لاَ يُتِمُّ كَلِمَةَ أُقْتُلْ}.[5] ومعناه الإعانة ولو بأدنى وجوهها.

وهذا يدل على تشديد النبي ﷺ في التحذير من جرم القتل ظلما، والإعانة عليه، ولو بأدنى أوجه الإعانة، وضرب مثلا لذلك بنصف كلمة، وهي أقل ما يمكن المساهمة به في القتل نصرة للظالم؛ لأن ذلك يدفعه إلى الاسترسال في الظلم، وسفك المزيد من الدماء. وهذا من التعاون على الإثم والعدوان الذي نهى عنه المولى ﷻ بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.[6]

والنبي ﷺ يلفت الانتباه إلى قضية مهمة حول ظهور الظلم واستفحاله وكيفية استئصاله، وهي أن الظلم في الحقيقة لا يمكن أن يولد من العدم، إنما يولد في أحضان الأعوان الذين يتكفلون برعايته،

---

[1] - سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، (1405هـ/1985م)، 1147/2-1148.

[2] - النساء: 93.

[3] - أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلما، 874/2، برقم (2621)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الجراح، باب تحريم القتل من السنة، 41/8، برقم (15868)؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ضمن اسم خلف بن حوشب، 74/5.

[4] - هو سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي، من الموالي، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، له "الجامع" و"التفسير". [الزركلي، ترتيب الأعلام، 213/1، برقم (105/3)].

[5] - نسبه المنذري إلى الأصفهاني و لم أعثر عليه في حلية الأولياء ولا في غيرها من كتب السنة في حدود ما اطلعت عليه. [زكي الدّين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ضبط وتعليق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، (1388هـ/1968م)، كتاب الحدود، باب الترهيب من قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، 294/3-295].

[6] - المائدة: 2.

ويوحون إلى الظالم بما لم يوح إليه، فلا يسمع إلا بأذانهم، ولا يتحدث إلا بألسنتهم، ولا يبطش إلا بأيديهم، وما أكثرها!

وصراحة لو لم يرد في بيان عظم هذا الظلم إلا آية القتل العمد لكفت موعظة وزجرا، ففيها من الوعيد الشديد ما يزلزل النفوس، وتنفطر له الأفئدة، وعيدا بجزاء لا يقتصر على الخلود في نار جهنم، بل يتجاوز إلى غضب الرب جلّ جلاله، والطرد من رحمته. ولم تكتف الآية بهذا القدر بل توعّدت الظالم علاوة على ذلك كله بالعذاب العظيم،[1] الذي جاء نكرة في الآية لبيان مدى سخط الله تعالى وعدم رضاه عنهم، ومدى عظم هذا العذاب الذي لا يمكن أن توصف عظمته.

ثانيا: الانتحار

إنّ قتل الإنسان نفسه، والمعروف اليوم بالانتحار؛ من أفظع صور ظلم الدماء والاعتداء على النفس؛ لأنّ النفس أمانة في عنق الإنسان ينبغي عليه صيانتها، فهي من حق الله وحده فلا حق للإنسان في التصرف فيها إلا في حدود ما يرضي الله عزّ وجلّ إلاّ أنّ ضعف الوازع الديني مع وطأة خيبة الأمل، ومرارة اليأس وقساوة الظروف المعيشية التي تصارع الإنسان، قد تدفع به إلى التعدي على نفسه، اعتقادا منه أنه بذلك يضع حدا لهذه المعاناة والألم، فيرتمي في ظلمات الظلم، وعواقبه المهلكة التي تنتظر الظالمين يوم القيامة.

وقد حذّر القرآن الكريم من ذلك تحذيرا شديدا؛ لأن الله عزّ وجلّ واهب الحياة، فهي ملك له، وحده له الحق في سلبها متى شاء، وأنّى شاء، ولا يحق لأحد التصرف فيها إلا في حدود الشرع، فهي أمانة الله، لا ينبغي التفريط فيها أو إيذائها أو إتلافها؛ لقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**.[2]

فنهى عزّ وجلّ عن القتل ظلما سواء للغير أو للنفس، مستخدما الإضافة للدلالة عليهما معا، فأنزل الغير مترلة النفس؛ لتقرر معنى الأخوة البشرية؛ ولأنّ قتل الغير ظلما يستوجب القصاص من القاتل الظالم، فكأنه قتل للنفس، والعاقل لا يظلم نفسه بالقتل؛ لقوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾** ثم ذكر عزّ وجلّ المانع من هذا الظلم؛ فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾**.

وتتجلى بعض هذه الرحمة في أن الله عزّ وجلّ، يسلط على عباده أنواع البلاء، فيمنعهم ليعطيهم ويبتليهم ليعافيهم؛ لأنه أعلم بمصلحتهم، وإن كرهتها نفوسهم، فمنعهم من كثير من

---

1 – الحكمي، الظلم وأثره، ص87.

2 – النساء: 29-30.

أغراضهم وشهواتهم، من تمام رحمته بهم، ولكن الناس لجهلهم وظلمهم لا يعلمون إحسانه إليهم بامتحانهم.[1]

فإن لم يكن هذا المانع كافيا في الردع عن قتل النفس ظلما، فعند العلي القدير المزيد من الترهيب والوعيد الشديد، تنبعث منه رائحة احتراق الجلود ويلفح منه لهيب النار، وهي تلتهم الأجساد، لا يحول دونها حائل، سنة الله في الظالمين لا تحابي أحدا، ولا تتخلف أبدا.

وقد حذّر النبي ﷺ أيضا من قتل النفس ظلما تحذيرا شديدا؛ فقال: {مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا}.[2]

فهذا الحديث يفيد أن قتل النفس، مهما كانت وسيلته، يعد ظلما، يستحق صاحبها النار، لا فرق في ذلك بين التردي والسم والحديدة ونحوها من أدوات القتل.

كما يصرح بالخلود المؤبد في حق ظالم نفسه بالقتل، بل علاوة على ذلك فإنه يجتمع عليه عذابان يوم القيامة، عذاب النّار وعذاب الوسيلة التي قتل بها نفسه.

الفرع الثاني: الظلم بالضرب

ومن صور ظلم الدّماء، الاعتداء على النّاس بالضرب، سواء كان الأثر فيه ماديا أم معنويا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[3] ولفظ الاعتداء يتناول جميع ألوان الظلم بما في ذلك الضرب.

والضرب وإن كان إجراءً تأديبياً مصلحياً في بعض الأحيان، لاسيما عند استنفاذ جميع وسائل التأديب والتهذيب، مثل صنيع الأب مع أبنائه، والمربي مع تلاميذه، والزوج مع زوجته؛

---

[1] ابن قيم الجوزية، أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ط.ت)، ص208-209.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث، ص1091، برقم (5778)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، من طريق أبي هريرة ﷺ، ص73، برقم (109)، وله شاهد عنده من طريق ذكوان؛ والترمذي في سننه، كتاب الطب عن رسول الله، باب ما جاء فيمن قتل نفسه بسم أو غيره، ص596، برقم (2049)، وقال: "هذا حديث صحيح"؛ والنسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب ترك الصلاة على من قتل نفسه، ص297، برقم (1967)؛ و أحمد في مسنده، 416/12، برقم (7448)، 152/16-153، برقم (10195) من طريق أبي هريرة ﷺ.

[3] البقرة: 194.

للحفاظ على استقرار الحياة الزوجية، إن ظهر منها تعد وظلم لقداسة الرابطة الزوجية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.[1]

ورغم إباحة الشارع اللجوء إلى الضرب لتأديب الزوجة الظالمة عند تعذر منعها من التمادي في الظلم بغيرها من السبل، يحذّر في نفس الوقت من اتخاذ الضرب وسيلة لظلم الزوجة كما يحدث اليوم في كثير من الدّول لاسيما الغربية بل حتى العربية، إذ يستغل الزوج سلطته في قهر المرأة وتجريعها ألوانا مختلفة من العذاب تؤثر سلبا على استقرار الحياة الأسرية؛ فيمنع "أن يكون هذا الضرب تعذيبا للانتقام والتشفي، ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضا للقسر والإرغام".[2] وإلا أصبح الضرب صورة من صور التعذيب الجسدي، التي يتفنن الجلادون الظالمون في استحداثها واستيرادها وإتقانها.

و لم يفرق الشارع في ظلم الدماء بين الوسائل المستخدمة، فيكفي أن يأتي الظالم ذلك على وجه الظلم سواء كان بالضرب أو غيره.

وقد حذّر النبي ﷺ من ظلم الناس بالضرب أشد تحذير، وبيّن أن الضرب بغير حق ظلم يؤول بالظالم إلى القصاص منه يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: {مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ}[3] وإن كان المظلوم بالضرب غلاما للظالم لقوله ﷺ: {مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظُلْمًا أُقِيدَ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ}.[4]

فضرب النبي ﷺ مثلا بالمملوك، لأنه من أكثر الفئات تعرضا للضرب والتعذيب لضعفه واستضعافه بحكم تبعيته لسيده الذي قد يستغل حقه في التأديب إلى ممارسة الظلم عليه.

وقد وعى صحابة النبي ﷺ ذلك فامتثلوا، فعن أبي مسعود البدري[1] قال: {كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ قَالَ

---

1 – النساء: [illegible]

2 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 654/5/2.

3 – أخرجه البخاري، الأدب المفرد، باب قصاص العبد، من ضرب ضربا ظلما، ص65، برقم (186)؛ صححه محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري، مكتبة الدليل، المملكة العربية السعودية، ط4، (1418هـ/1997م)، باب قصاص العبد، 88/1؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، دمشق، ط3، (1408هـ/1988م)، 1090/1، برقم (6374)؛ وأخرجه محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، (د.ط.ت)، 467/5، برقم (2352).

4 – أخرجه أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، 378/4؛ والألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، 466/5، برقم (2352).

فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ قَالَ فَقُلْتُ لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا}.[2]

وإن اختفى الغلمان اليوم إلا أنّ حوادث الاعتداء بالضرب والتعذيب، لا تزال تطارد المجتمع البشري، لاسيما في السجون. ولم تسلم من ذلك بعض البيوت والمدارس والمؤسسات، سيان في ذلك بين الأطفال والنساء والرجال، تحت ضغط الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أفرزت صورا مختلفة للظلم منها الضرب الذي يؤدي في بعض الأحوال إلى إتلاف عضو من الأعضاء، إن لم ينته الأمر إلى القتل. وهو ما يؤكده تتبع ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة.

وما يقال عن الضرب ظلما، يقال عن أساليب التعذيب المختلفة القديمة منها والمستحدثة والمستوردة التي ينفث من خلالها الظالمون سموم ظلمهم في أجساد المستضعفين، إذلالا وتحقيرا. فيعذبوهم تعذيبا بشعا تنفطر له القلوب، وتأباه الإنسانية فضلا عن الديانات السماوية. هذا التعذيب الذي قد يؤدي بهم إلى فقدان بعض الأعضاء أو الموت ظلما. ومن صور ذلك، التعذيب الذي لحق الإخوان المسلمين والتعذيب الأمريكي للعراقيين، وما يحدث في سجن غوانتنامو.

هؤلاء الظالمون توعدهم الله بالعذاب على لسان نبيه ﷺ فعن هشام بن حكيم بن حزام[3] –رضي الله عنهما– أنه مرّ بالشام على أناس من الأنباط،[4] وقد أقيموا في الشمس، وصُب على رؤوسهم الزيت! فقال: {مَا هَذَا قِيلَ يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ فَقَالَ أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ فِي الدُّنْيَا}.[5]

---

[1]– هو: جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج الأنصاري أبو مسعود البدري، صاحب النبي ﷺ وروى عنه، شهد العقبة. روى عنه ابنه بشير وعبد الله بن يزيد الخطمي وأبو وائل وغيرهم. [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 220/7، برقم (446)].

[2]– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، ص808-809، برقم (1659)؛ والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب النهي عن ضرب الخدم وشتمهم، ص574، برقم (1953)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[3]– هو: هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي الأسدي. أمه زينب بنت العوام أخت الزبير، صحابي ابن صحابي، أسلم يوم الفتح، وهو صاحب الخبر مع عمر في حديث الأحرف السبع. عاش كالسائح ومعه نفر من أهل الشام للإصلاح. كان رجلا مهيبا، روى عن النبي ﷺ، وعنه جبير بن نفير وعروة بن الزبير وقتادة السلمي. [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 35/11، برقم (76)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 112/1، برقم (85/8)].

[4]– الأنباط: جمع (النبط) وهو: جيل من الناس كانوا ينـــزلون سواد العراق، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم. [الفيومي، المصباح المنير، ص350].

[5]– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب الوعيد الشديد لمن عذّب الناس بغير حق، ص1257-1258، برقم (2613) بهذا اللفظ؛ وأحمد في مسنده، 46/24، برقم (15330)، 51/24-52، برقم (15336)، 52/24، برقم (15337)،

وهذه الحادثة تدعو إلى التحرز من الوقوع في الظلم عند معاقبة الظالم؛ لأن بعض الإجراءات العقابية تخرج عن التأديب إلى التعذيب المنهي عنه شرعا. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أهم السبل لعلاج الظلم ودفعه.

25/174-175، برقم (15846)، مع زيادة: {وَأَمِيرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فِلَسْطِينَ قَالَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ} كلاهما من طريق هشام بن حكيم بن حزام.

المطلب الثاني: الظلم المالي

يعد الظلم المالي من الموضوعات التي أولاها القرآن الكريم عناية فائقة، وعالجه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، من خلال نصوص كفيلة بوقاية الأمم والأفراد من الوقوع في هاوية الظلم الذي يغتال النمو والتطور، ولا يخلف إلا الهلاك والدمار.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾.[1] وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[2]

وتحتل هذه الآيات التي بين أيدينا الصدارة في محاربة الظلم المالي، والتأسيس لنظام مالي عادل. ولكن قبل الغوص في معاني هذه الآيات من الجدير التعرف على ماهية المال.

والمال هو: "ما بقدره يكون قدر إقامة نظام معاش أفراد الناس في تناول الضروريات والحاجات والتحسينيات بحسب مبلغ حضارتهم حاصلا بكدح".[3]

سمي المال مالا لأن "النفوس تميل إليه ميلا عظيما، والقلوب تتعلق به تعلقا شديدا، وآية ذلك أن الطفل الذي يميز يحرص عليه غاية الحرص ويمسكه بحب وفرحة، وإذا أُخذ منه بكى وحزن".[4]

وظلم الأموال من أخطر أنواع الظلم الاجتماعي؛ لأن المال له أهمية بالغة في حياة الناس، فهو من مقومات البقاء، به تبني الأمم اقتصادها وتطور حياتها. وأبلغ دليل على ذلك التطور المذهل الذي يشهده العالم اليوم على المستوى التكنولوجي والصناعي، ولكن قد يصبح المال وسيلة للظلم والطغيان وخراب العمران، إذا جعله الإنسان همه الأوحد، وانقلب إلى غاية وصار حبه عبادة.

ولهذا كانت الوقاية من الظلم المالي محور كثير من النصوص القرآنية؛ فهو سر المبالغة في التحذير من أكل أموال الناس بالباطل، عن طريق إثارة كوامن الخوف، ونوازع الرهبة التي ترج

1 - النساء: 29-30.
2 - البقرة: 188.
3 - ابن عاشور، التحرير والتنوير 1/2/187.
4 - عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، ص30.

النفس، وتعمل على ردعها من ظلم الناس في أموالهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي لا يعتدي بعضكم على بعض عدوانا وظلما بغير حق. واختار الإضافة في لفظ "أموالكم" الذي يصدق على أكل الإنسان مال نفسه، كتعديل للنهي وبيان لحكمة الحكم، وللإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، والتنبيه على أن ظلم مال الغير، هو عين ظلم مال النفس؛ لأنه يجرئ الغير على الاعتداء على ماله وأكله ظلما عند القدرة. وهو ما يعرض سائر أموال الأمة التي هو أحد أعضائها للضياع، فيصيبه سهم من كل ظلم يقع عليها.[1]

والمراد بالباطل الظلم المؤدي إلى الضياع والخسار، وهو ما لم يكن في مقابلة شيء حقيقي، والشريعة حرمت أخذ المال دون مقابلة حقيقية يعتد بها، ورضاء من يؤخذ منه، وكذلك إنفاقه في غير وجه حقيقي.[2] ورغّبت في العمل والبحث عن أسباب الرزق وكسب المال الطيب بالطرق الشرعية.

والأكل بالباطل ظلما لأموال الناس مراتب:[3]

المرتبة الأولى: ما علمه جميع المسلمين مما هو صريح في كونه باطلا، كالغصب والسرقة والحيلة.

المرتبة الثانية: ما ألحقه الشرع بالباطل، فبين أنه من الباطل إلا أنه كان خفيا عنهم كالرّبا، لأنهم قالوا: إنما البيع مثل الرّبا، ومثل رشوة الحكام.

المرتبة الثالثة: ما استنبطه العلماء من ذلك بالنظر، وهذا مجال اجتهاد والعلماء فيه بين موسع ومضيق.

وقد جاءت الآية بنهيين:[4]

الأول: نهي عن أكل الأموال ظلما بالوجوه الغير المشروعة كالسرقة والغصب ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

الثاني: نهي عن أكل الأموال عن طريق الحكام إما باستغلال ظاهر، كشهادة الزور أو الأيمان الكاذبة أو بالصلح مع العلم بأن المقضي له ظالم، كأن يكون على رجل مال، وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه يخاصم وهو

---

1 – محمد رضا، المنار، 195/2.

2 – نفسه.

3 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 190/2/1.

4 – سعيد حوى، الأساس في التفسير، 1/434- 435.

ظالم. وإما إرشاء الحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذه الآية "أصل تشريع عظيم للأموال في الإسلام. كان أكل المال شنشنة معروفة لأهل الجاهلية، بل كان أكثر أحوالهم المالية، فإن اكتسابهم كان من الإغارة، ومن المسير، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال الأيتام واليتامى، ومن الغرر والمقامرة، ومن المراباة ونحو ذلك. وكل ذلك من الباطل الذي ليس عن طيب نفس".[1]

ولا تزال المجتمعات اليوم تعج بهذه الصور المختلفة للظلم المالي. وعموما يدخل في الظلم المالي كل طريقة أو صورة لتداول الأموال بين الناس غير مأذون فيها شرعا؛ لعموم النهي في الآية. وبتطهير المجتمعات من الظلم المالي يقدم القرآن البديل فيفتح الباب أمام تداول الأموال بالعمليات التجارية التي تقوم على التراضي بين البائع والمشتري؛ نظرا للخدمات التي تقدمها التجارة للصناعة والشعوب. فهي وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك؛ حيث تقوم بترويج البضاعة وتسويقها، وتيسير الحصول عليها. وهي خدمة للطرفين، الانتفاع عن طريقها يعتمد على المهارة والجهد، ويتعرض في الوقت ذاته للربح والخسارة.[2]

فهي الوجه الحلال لتداول الأموال والسبيل الذي يقوم عليه النظام المالي العادل في مجتمع نظيف بعيدا عن الظلم المدمر؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

ولكبح النفس البشرية من الوقوع في الظلم المالي، استخدمت الآية أسلوب إثارة مشاعر الرعب والخوف في النفس التي تتعلق فطريا بالمال تعلقا شديدا. وقامت بربطها بالجزاء والعقاب؛ فذيلت النهي والتحذير بتعقيب مفعم بالترهيب، يهز النفس هزا، يصور لهيب النار وهي تحرق الجلود وتلتهم الأجساد بلا محاباة أو تمييز بين أهل الظلم، دون أن يمنع من ذلك مانع، ولا أن يحول حائل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.[3]

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 187/2/1.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، 639/5/2.

3- النساء: 30.

سنة الله في الظالمين، لا تحابي أحدا، ولا تتخلف عن الحدوث أبدا متى توفرت الأسباب كتداول الأموال بين الناس بصور الظلم المختلفة كالربا، والسرقة، والغلول، والغصب وظلم اليتامى في أموالهم والرشوة ونحوها. وهذا تفصيل لبعضها.

الفرع الأول: ظلم الربا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.[1]

إن الربا الذي يعرف بأنه: الزيادة على رأس المال هو أبشع الطرق، وأعظم المعاملات المالية المحرمة، وأشدها ظلما لأموال الناس، وأكلها بالباطل، وأخطرها على الفرد والمجتمع.

ولا فرق في ذلك بين أنواعه، فكله شؤم وظلم، سواء كان في التفاضل بين المتماثلات، أي أن تكون الزيادة مقابل جودة السلعة، كبيع مكيال بمكيال وزيادة، مثل ما حدث مع بلال ﷺ[2] حين أتى للنبي ﷺ بتمر بَرْنِيٍّ فقال له رسول الله ﷺ: {مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: أَوَّهْ أَوَّهْ عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا لَا تَفْعَلْ وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعْ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ}.[3]

فبيّن النبي ﷺ أن هذا من ربا الفضل المنهي عنه، لما قد "يوجد من التحايل والتلبيس على بعض ضعاف العقول".[4]

وما يقال في ربا الفضل، يقال في ربا النّسيئة، وهو الزيادة مقابل تأجيل السداد. وهي صورة الظلم المالي الأكثر انتشارا في المجتمع الحديث، والطاغية على المعاملات المالية الفردية والمؤسساتية لاسيما البنكية منها؛ لأن أغلب البنوك، إن لم تكن جميعها اليوم، تعتمد سياسة النظام الربوي

---

[1] – البقرة: 278-279.

[2] – هو بلال بن رباح [illegible] مولاهم، مؤذن الرسول ﷺ وخازنه على بيت ماله، أبو عبد الله ويقال أبو عبد الرحمن، وقيل غير ذلك في كنيته وهو ابن [illegible] وهي أمه. أسلم قديما وعُذّب في الله وشهد بدرا والمشاهد كلها وسكن دمشق. روى عن النبي ﷺ [illegible] وأسامة بن زيد وكعب بن عجرة وغيرهم. استشهد يوم فتح تستر فاستشهد على بابها وقبره فيها. [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 441/1، برقم (931)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 114/1، برقم (73/2)].

[3] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئا فاسدا، ص403، برقم (2312)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، ص766، برقم (1594)؛ والنسائي في سننه، كتاب البيوع، باب بيع التمر بالتمر متفاضلا، ص655-656، برقم (4559)؛ وأحمد في مسنده، 353/8، برقم (4728).

[4] – إبراهيم محمد إبراهيم الجمل، فقه المسلم على المذاهب الأربعة، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، (1412هـ/1992م)، [illegible]

الظالم سواء في تقديم القروض مقابل فائدة شهرية أو سنوية أو في إيداع الأموال وإدارتها مقابل أرباح تحددها مسبقا على رأس المال مستغلة الحاجة الملحة للمواطنين.

والظلم في هذا النوع من الرّبا ظاهر. "لما فيه من أخذ مال الإنسان من غير عوض؛ لأن من يبيع الدرهم بدرهمين لمدة معينة طالت أو قصرت، تحصل له زيادة درهم من غير مقابل، وحرمة المال كحرمة الدم والعرض".[1]

وكل من له علاقة بهذه المعاملات المالية الربوية، يعتبر من الظالمين الآكلين للمال بالباطل، سيان في ذلك بين الأفراد والمؤسسات الربوية؛ لقوله ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ}.[2]

وظلم الأموال عن طريق الرّبا، من الأمراض التي كانت تفتك بالمجتمع الجاهلي، حيث كان مستشريا ومستفحلا. ولا يزال ينخر النظام المالي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات الحديثة. لهذا اقتضى استئصاله، وتطهير المجتمع من هذا الظلم وأهله، مجيء تشريع إلهي حكيم يحمل بين طياته، وفي جنباته عبق العدل، ونسمات العطف والرحمة، ويستجيش في القلوب مشاعر الإيمان، وتقوى الله الداعية إلى المسارعة إلى الإقلاع، والكف عن سائر العمليات الربوية الظالمة، من خلال النداء بتلك الصفة؛ صفة الإيمان الباعثة على المبادرة إلى الطاعة والامتثال، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾.

فوطأ للأمر بالكف عن الظلم المالي الربوي، بالأمر بالتقوى؛ لأنها أصل الامتثال والاجتناب، وترك الظلم الربوي من جملتها. فهي كما ورد في الظلال حارس الضمير، والضمان الكامن في الأنفس فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته، خلافا للقوانين الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية التي يسهل الاحتيال عليها.[3]

فبعد أن تهيأت النفوس، واستعدت لقبول التشريع، أمر المرابين الظالمين بالانتهاء عن ظلم المستضعفين، وأكل أموالهم بالرّبا؛ فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾. فيجعل الحاضر– زمن

---

[1] – [illegible] فقه [illegible]، 28/1–29.

[2] – خرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ص768، برقم (1597)؛ وأبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في آكل الربا وموكله، 264/2، برقم (3333)؛ والترمذي في سننه، كتاب البيوع عن رسول الله، باب ما جاء في آكل الربا، ص376، برقم (1209)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وابن ماجة في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، 764/2، برقم (2277)؛ وأحمد في مسنده، 269/6–270، برقم (3725)، 282/6، برقم (3737)، 358/6، برقم (3809). كلهم من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 331/3/1.

نزول التشريع– الحد الفاصل بين الظلم وأهله. فالقرآن يعالج الواقع الربوي، ويضع حدا له؛ فيأمر الظالمين المرابين بالتخلي عن الربا الذي لا يزال قائما، وعدم مطالبة المظلومين به. دون أن يكون لهذا التشريع أثر رجعي.

فهذا النظام المالي جاء "ليحمي طائفة من ظلم طائفة، ولم يأت هذا النظام إلا بعد أن وجدت طائفة المرابين، الذين ظلموا طائفة الفقراء المستضعفين. وحسب هؤلاء المستضعفين الذين استغلوا من المرابين أن ينصفهم القرآن، وأن ينهي قضية الربا إنهاء يعطي الذين رابوا ما سلف؛ لأنهم بنوا حياتهم على ذلك".[1]

ورغم التحذير، فإن النفوس، قد تظل تتطلع إلى هذا التعامل الربوي الظالم تحت وطأة الألفة والاعتياد، وحب المال والثراء. مما يشد النفس إلى أكل الأموال بالربا، والإحجام عن ترك هذا الظلم المالي؛ لذلك ساقت الآية ما يدعوهم إلى الانتهاء عن الظلم الربوي؛ فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لأن الإيمان الحق يرفض الظلم بأنواعه وصوره المختلفة، فلا يجتمعان معا.

ولكن قد لا يثمر هذا الحافز في النفوس، فيعجز عن منع الظالمين المرابين من ظلم الأموال وأكلها بالربا، فيتمردون على الأوامر، ويصبح من الضروري استخدام الترهيب، الذي من شأنه أن يزلزل القلوب ويرعبها، إنها الحرب من الله ورسوله يشنها على الظالمين الذين يستغلون الضعفاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، الوسيلة الكفيلة بزجر الظالمين المرابين، والقضاء على الظلم، وتطهير المال والمجتمع من المعاملات المالية الظالمة.

وكما تحمي هذه الآيات القرآنية أموال المستضعفين المظلومين، فتدعو المرابين الظالمين إلى الكف عن الظلم، وتبيّن أنه لا حق لهم في الضعف، ولا الضعفين، ولا الأضعاف المضاعفة ولا أكثر من ذلك أو أقل؛ فإنها أيضا تنصف الظالمين المرابين، وتحمي حقوقهم وأموالهم من التعرض للظلم؛ انتقاما من طرف الدائنين المظلومين، سواء بالنقصان القليل أو الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

فالعدل يقتضي اكتفاء الظالم برأس المال فقط، وبه ينصر المظلوم، ويمنع الظالم ويضع حداً لظلمه. كما يضع حدا للمظلوم لئلا يتجرأ على ظلم الظالم بدافع الانتقام.

فالشارع يعمل على إنهاء هذا النوع من الظلم على إطلاقه، فيمنع الظالم، السابق، فينهي ظلمه، ويسعف المظلوم اللاحق، فيعطيه حقه، ولا يمكّن أبدا للمظلوم أن يظلم من ظلمه، وإلا

---

1 محمد متولي الشعراوي، من وصايا القرآن الكريم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ط.ت)، ص81.

أصبح الظلم موجها كما هو الحال عند بعض النظريات التي لا تكتفي بمنع الظلم، بل تستغل من ظلم، فيظلم الذي ظلمه أولا، فتوجه الظلم من فئة قديمة إلى فئة جديدة. ويظل الظلم قائما ينخر أجساد المجتمعات، أما الشارع فنظر إلى الجميع بعين المساواة، لتشمل العدالة كل أفراد المجتمع، فتعطي لكل إنسان حقه، الظالم والمظلوم على حد سواء.[1]

فالقرآن الكريم يطهر المال والمجتمع من المعاملات المالية الربوية الظالمة، ويعمل عل استئصاله من جذوره؛ فيدعو الظالمين المرابين إلى الكف عن هذا الظلم، ويمنعهم من استغلال حاجة الفقراء المستضعفين المظلومين. فيضع حدا لظلم المرابي الظالم، وينصر المظلوم؛ وذلك بأسلوب الترغيب مرة، وبأسلوب الترهيب مرة أخرى.

الفرع الثاني: ظلم السرقة

تعد السرقة صورة من صور الظلم المالي كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2] وقوله في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.[3]

والسرقة شرعا هي: "أخذ العاقل البالغ مقدارا مخصوصا من المال خفية من حرز معلوم بدون حق ولا شبهة".[4] أي الأخذ على سبيل الاستخفاء من مال مصون محفوظ.

والسارق هو الذي "يأخذ مال غيره خفية من حرز مثله، ولا شبهة له فيه، دون طعن بسلاح أو تهديد به، فإن طعن بسلاح أو هدد به -وهو ما يعرف الآن بالسطو المسلح- فحكمه حكم قاطع الطريق الذي يسعى في الأرض فسادا".[5]

فقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ يشير إلى أن السرقة خاصة والذنوب عامة ظلم كبير، وأنَّ السارق الذي يعتدي على أموال الناس ظالم؛ لقوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام:

[1] - الشعراوي، من وصايا القرآن الكريم، ص82-83.

[2] - المائدة: 38-39.

[3] - يوسف: 75.

[4] - محمد علي الصابوني، روائع البيان: تفسير آيات الأحكام من القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 395/1.

[5] - عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 1077/6.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ والمراد بالظالمين السارقين الذين يأخذون أموال الناس خفية. وقد كانت عقوبة السرقة في دينهم استرقاق السارق من طرف صاحب المال المسروق إذا ثبتت عليه السرقة؛[1] لقولهم: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وتعدّ السرقة نوع من أنواع الظلم المالي؛ لأنّ السارق يظلم نفسه بامتهانها وتسفيهها، وإيرادها موارد العقاب من جهة، ويظلم النّاس بالاعتداء على أموالهم من جهة أخرى، ويظلم المجتمع والحياة بإيقاف حركتهما وتطورهما من جهة ثالثة. فالسرقة ترويع للآمنين، وإفساد لذات البين، واعتداء على النظام العام، واعتداء على مجهود الآخرين، وإهدار لثمرة أعمالهم. وهو ما يزهد الناس في العمل ويعوق حركتهم من أجل الكسب الحلال، ويعودهم الكسل؛ فتكثر البطالة، ويتوقف تقدم المجتمع وعمارته. وهذا إفساد في الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ وقول إخوة يوسف ﷺ نفيا لتهمة السرقة عن أنفسهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.[2] مما يدل على أن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض. ومن أبشع صور الظلم المالي، لذا تستوجب أشد أنواع العقوبات لحفظ أموال الناس وأمنهم وصيانة كرامتهم، وتقتضي معالجتها بشدة وصرامة حتى لا يعيث أهل الظلم في الأرض فساداً.

وعموما فإنّه: "يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالبا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى كشفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا".[3]

وقد جاءت الآية بالعقوبة المناسبة لعلاج ووقاية المجتمع من آثار هذا الظلم المالي ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ فربطت بالفاء بين ظلم السرقة وعقوبته المجانسة له، [illegible]المتمثلة في قطع اليد الظالمة التي ارتكبت الظلم، ثم بيّنت أنّها ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي زاجرة ورادعة ومانعة [illegible] تنكل بالظالم، لكي لا يعاود اجتراح الظلم، ولكي لا يقع في الظلم

1– السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص402.

2– يوسف: 73.

3– [illegible]، مكارم الأخلاق، ص248.

غيره، كما قال تعالى في القرية الظالمة بالاعتداء في السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.[1]

فهذه العقوبة تقيد الأيدي حتى لا ترتكب ظلم السرقة، وتحد من نشاط هؤلاء الظالمين، وتمنعهم من الاسترسال في هذا الظلم المالي، وتقتلعه من جذوره، وتقضي عليه قبل أن ينتشر ويستفحل، وتحقق للأفراد والمجتمعات الأمن والطمأنينة؛ لأن السرقة إذا فعلها الإنسان مرة تشوق إليها أخرى، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ}.[2]

فنبّه النبي ﷺ إلى أنّ الإقدام على أقل الظلم كصغائر الذنوب يولد الجرأة في النفوس لتقدم على أشد الظلم كالكبائر، ولهذا إذا سرق الظالم القليل الحقير ابتداءً، مثل البيضة والحبل، استرسل في الظلم بالسرقة إلى أن يسرق القدر الذي يقام فيه الحد؛ فتقطع يده.

وهذا ما تعكسه قصة الرجل الذي قدم للحدّ في سرقة بلغت النِّصاب، فطلب أمه، ولما جاءت دعاها لِيُقَبِّلها، فعضها عضة شديدة، ولما سُئل عن السبب قال: سرقت بيضة وأنا صغير فشجعتني وأقرتني على الجريمة حتى أفضت بي إلى ما أنا عليه الآن، وهذا جزاؤها، ولو استطعت أكثر منه لجازيتها به.[3]

والآية توجب العقوبة لكل ظالم بالسرقة توفرت فيه الشروط بغض النظر عن مكانته الاجتماعية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ فيستوي الناس أمام هذا الحد خلافا وإبطالا لما عُرف في الجاهلية من إسقاط الحدود على الشرفاء، بل إخفاء جرائمهم، وكتمانها حفاظا على مناصبهم؛ كصنيع قريش مع المخزومية السارقة، التي رفض فيها الرسول ﷺ الشفاعة، وأبى إلا أن يقطع يدها معلنا سواسية الظالمين إزاء هذه الحدود.

[1] – البقرة: 66.

[2] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب لعن السارق إذا لم يسم، ص1253، برقم (6783)، وفي باب قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، ص1255، برقم (6799)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حدّ السرقة ونصابها، ص828، برقم (1687)؛ والنسائي في سننه، كتاب قطع السارق، باب تعظيم السرقة، ص700، برقم (4875)؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الحدود، باب حد السارق، 862/2، برقم (2583).

[3] – [illegible] الظلم [illegible]، ص102.

وهو ما طلبه إخوة يوسف عليه السلام من عزيز مصر، كما نقله القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] ولكن العزيز رفض الطلب لأنه ظلم؛ فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾[2] أي: "هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل "من سرق" كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لَظَالِمُونَ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها".[3]

ولا يستحق الظالم للأموال بالسرقة شيئا من الرأفة ولا الشفقة متى ثبت ظلمه للأموال العامة أو الخاصة، والإخلال بالنظام العام، وتقررت في حقه جريمة الظلم المالي، ولم توجد شبهة تدفعها، لأن الحدود في الإسلام تدرأ بالشبهات.

وبهذا عمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4] فلم يقطع في عام الرمادة نظرا لما أصاب النـــاس مــــن الجوع والفاقة التي تفرض للفقير حقا في مال الغني، وعدّها شبهة دفع بها الحد وأسقطه.[5]

وأعداء الإنسانية اليوم يستعظمون عقوبة قطع يد الظالم للأموال بالسرقة، وغيرها من الحدود التي وضعها الشارع للوقاية من أنواع الظلم المختلفة وعلاجها، وينادون بالعطف على هؤلاء الظالمين باعتبارهم ضحايا الأمراض النفسية. وأن هذا النوع من العقوبات لا تليق بمجتمع متحضر. فهم يرحمون الظالم من المجتمع، ولا يرحمون المجتمع من الظالم الذي سلب الناس أمنهم واستقرارهم، وأقلق مضاجعهم وجعلهم مهددين بين كل لحظة ولحظة في الأنفس والأموال.[6]

---

1 – يوسف: 78.

2 – يوسف: 79.

3 – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 403.

4 – هو: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن لؤي القرشي العدوي أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين. أسلم بعد عشرون رجلا وإحدى عشرة امرأة. ولقب بالفاروق لأن الله فرّق به بين الحق والباطل. شهد بدرا وغيرها من المشاهد. طعنه أبو لؤلؤة وهو قائما يصلي سنة (24هـ)، ودامت خلافته 10 سنين و5 أشهر و21 يوما. [ابن الأثير، أسد الغابة، 4/52-78]

5 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2/6/886.

6 – الصابوني، تفسير آيات الأحكام، 1/399.

وقد أدّت هذه النداءات والنظريات إلى تشجيع الظلم بمختلف أنواعه وانتشاره، وتمادي الظالمين فيه، وظهور هيئات ومنظمات للدفاع عنهم، وتكتل الظالمين في عصابات لسفك الدماء وسلب الأموال، وممارسة الظلم المنظم؛ فانتشر الظلم واختّل الأمن، وفسدت المجتمعات.[1]

وقد انتشرت حوادث السرقة والتعدي على الأموال الخاصة والعامة في المدن والأسواق والبلدان والآفاق و لم ينج من ذلك البلد الحرام في الشهر الحرام. ووصلت في كثير من الأحيان إلى القتل وسفك الدماء، وترويع المواطنين حتى في بيوتهم، وتطورت وسائلها وطرق الاستيلاء على أموال النّاس وممتلكاتهم، والعبث بالحقوق المالية بحيل أو ثغرات قانونية؛ تلبية لأهواء الظالمين الطامعين الذين أوجدوا لها أسماء خاصة ومبررات تخول لهم ذلك. والمحاكم تعج بالمَظالِم مما يدعو إلى الخوف والقلق، ويثير الفزع والهلع، ويؤرق النفس، ويزعج الآمنين.

وأعظم من هذا ظلم الدّول القوية التي تلجأ إلى إثارة الحروب، والاعتداء على الدول الضعيفة التي تشق طريقها إلى النمو لسرقة أموالها وثرواتها التي تشكل هوية الأمة أو الدولة وتثبت انتماءها الحضاري تحت أغطية مختلفة، كاستبداد السلطة، واستفحال الإرهاب، والتمكين للديمقراطية، ورد الحقوق إلى أهلها؛ ولعلى ما يحدث في بعض الدّول العربية اليوم يعكس هذه الصورة بوضوح.

وفي تشريع عقوبة قطع يد الظالم للأموال بالسرقة، علاج لهذا النوع من الظلم وحماية للمجتمع من الظالمين، وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم؛ لأنها من وضع الحكيم الذي يتقن وضع الأمور في مواضعها فلا يشرِّع إلا ما فيه مصلحة للظالم والمظلوم والعباد جميعا، لذلك ختم الآية بتحذير المؤمنين من التفريط في إقامة هذا الحد وسائر الحدود التي قضى الله بها على الظالمين فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: شديد في انتقامه، حكيم بتشريع حدّ القطع".

ورغم قساوة العقوبة إلا أنّها كفيلة باستئصال هذا الداء من المجتمع؛ لأن ترك بتر اليد الظالمة يؤدي إلى انتقال العدوى إلى بقية أفراد المجتمع، فينتشر الظلم ويستفحل، بينما في قطعها ردع لسائر الظالمين وكف ظلمهم وتحقيق الأمن والاستقرار.

فالقرآن يعمل على إقامة مجتمع على أساس العدالة والتكافل والاستقرار، تصان فيه الدماء والأموال، ويحارب كل عوامل الطمع والظلم والاعتداء والحاجة، حتى يصبح الظلم بأنواعه في مثل هذا المجتمع العادل جريمة بشعة منكرة مجردة من البواعث والدوافع المبررة. وهنا تتجلى الحكمة الإلهية في تشريع هذه الحدود، إذ لم يشرع الحكيم إلا ما فيه المصلحة لعباده، وهذا ما يفسر

التشدد ضد الظلم والظالمين؛ لأن هذا المجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل والكسب والحلال لكل فرد وعاجز، دون حاجة إلى ممارسة الظلم، فحق على كل واحد منهم رعاية حقوق الآخرين كلها من أرواح وأموال وأعراض، ومن خرج عن هذا النظام، فهو ظالم يستحق العقوبة التي تنص عليها الشريعة.[1]

فالسرقة في نظر القرآن صورة من صور ظلم الأموال العامة والخاصة، وأكلها بالباطل، ووسيلة لنشر الفساد في الأرض، إذ تعلم النّاس الكسل والقعود عن السعي للعمل والتكسب، وتثير في النفوس الخوف والرعب على الأنفس والأموال، فيذهب الأمن والاستقرار، ويتراجع الإبداع والإتقان، ويتأخر المجتمع عن مواكبة التطور. والسرّاق ظلمة ينبغي الوقوف في وجه ظلمهم ومنعهم منه وحمايتهم والمجتمع من هذا الظلم عن طريق تطبيق حدّ القطع.

الفرع الثالث: ظلم الأموال العامة

إنّ كل ما تملكه الدولة من أموال، وكل ما أوجدته للمنفعة العامة، من مختلف المرافق والمؤسسات والشركات والمصانع والعقارات والطرق والأشجار، ووسائل الحياة المختلفة، سواء كان في عهدة أحد أو في غير عهدته هو ملك للدولة خاصة، وللنّاس عامة، وحق لهم، لا يحق لأحد أن ينفق منه ولا أن يضيعه أو يفرط فيه، ولا أن يتصرف فيه أو يمد يده إليه، إلا في حدود ما أجازه الشّرع وأباحه. فمن أخذ منه شيئا بغير حقه، أو أعطى منه شيئا في غير حله، أو عرضه للتلف أو الإسراف والتبذير كان خائنا؛[2] لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.[3]

وهذه الآية ذكر في سبب نزولها عدة روايات منها:

ما نقل عن ابن عباس ﷺ: {أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَطِيفَةٍ حَمْرَاء فُقِدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَهَا}.[4]

---

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 874/6/2.

2 - عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، ص53.

3 - آل عمران: 161.

4 - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحروف والقراءات، 426/2، برقم (3971)؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة آل عمران، ص837، برقم (3016)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"؛ وأحمد بن علي بن المثنى التميمي، مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، (1409هـ/1988م)، 327/4، برقم (2438)، 60/5، برقم (2651).

ورغم أن هذه الرواية حسنّها الترمذي[1]، إلا أن صاحب المنار[2] مال إلى ما نقله عن بعض المفسرين من كونها ضعيفة بدليل السياق الذي يتحدث كله عن واقعة أُحد، مرجحين عليها ما روي عن مقاتل:[3] {مِنْ أَنَّ الرُّمَاةَ قَالُوا حِينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ الذِّي وَضَعَهُمْ النَبِيُ ﷺ فِيهِ، نَخْشَى أَنْ يَقُولَ النَبِيُ ﷺ: مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ، وَأَنْ لاَ يَقْسِمَ الغَنَائِمَ كَمَا لَمْ يَقْسِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. فَقَالَ النَبِيُ ﷺ: أَظَنَنْتُمْ أَنَنَا نَغُلُ وَلاَ نَقْسِمُ لَكُمْ ؟}[4]

ونقل الطبري مناسبة أخرى قال: "بعث رسول الله ﷺ طلائع، فغنم ﷺ غنيمة، فقسم بين النّاس، ولم يقسم للطلائع. فلما قدمت الطلائع قالوا قسم النبي ﷺ ولم يقسم لنا فأنزل الله تعالى الآية".[5]

ورغم أنّ السياق يرجح رواية ابن عباس ﷺ إلا أنّه لا مانع من أن تكون جميعا أسبابا لنـــزولها، إذ تنـــزل الآية أحيانا لحوادث عديدة، لاسيما وأنها تتناول موضوعا واحدا وهو الغلول.

والغل عند أهل اللغة يعني أخذ الشيء خفية كالسرقة، وغلب في السرقة من الغنائم قبل القسمة، وتسمى غلولاً. والغلول من الغلل الذي يطلق على جري الماء بين الأشجار، وتسمى الخيانة غلولا؛ لأنها تجري في الملك على خفاء من غير الوجه الذي يحل.[6]

وفي لفظ "يغل" في الآية قراءتان:[7] قراءة بفتح الياء وضم الغين، تفيد تبرئة النبي ﷺ من الغل الغل والغلول، إذ لا ينبغي له أن يأخذ شيئا من الغنائم خفية، بل ليس من شأنه ولا من طبعه ولا من خلقه، فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيا لحله أو جوازه، فطبيعة النبي ﷺ الأمينة العادلة العفيفة، لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء لعصمته وعصمة الأنبياء من ذلك.

---

[1]- هو: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، الضرير، البوغي، الترمذي (أبو عيسى). محدث، حافظ، مؤرخ، فقيه. ولد في (210هـ/825م)، وتتلمذ لمحمد بن إسماعيل البخاري وشاركه فيما يرويه. ارتحل وسمع بخرسان والعراق والحرمين. توفي بترمذ في (279هـ/892م). له تصانيف عديدة منها: "الجامع الصحيح"، "العلل في الحديث". [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 270/13-277، برقم (132)؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 573/3، برقم (15087)].

[2]- محمد رشيد رضا، المنار، 175/4.

[3]- هو: مقاتل بن سليمان الأزدي، من أعلام المفسرين، كان متروك الحديث، من كتبه "التفسير الكبير". [الزركلي، ترتيب الأعلام، 195/1، برقم (281/7)].

[4]- الواحدي، أسباب النـــزول، ص108.

[5]- الواحدي، أسباب النـــزول، ص108؛ البغوي، معالم التنـــزيل، 126/2؛ الزمخشري، الكشاف، 434/1؛ الألوسي، روح المعاني، 321/4.

[6]- المنجد في اللغة، ص556.

[7]- [illegible]، 394/1.

فالسياق جاء بحكم عام ينفي عن الأنبياء -عليهم السلام- عامة إمكان أن يغلوا، أي أن يحتجزوا شيئا من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض، أو يخونوا إجمالا في شيء.[1]

أما القراءة الثانية، فهي قراءة بضم الياء "يُغل" -قراءة الإمام نافع[2] والحسن البصري[3]- على بناء الفعل لغير الفاعل، فتفيد أن المعنى، ما كان لنبي أن يُخان، أي أن تخونه أمته في المغانم، ولا أن يسرق السارقون، ويخونه العاملون، فتكون نهيا عن خيانة النبي ﷺ في شيء، وكذلك الأمراء والولاة، وإنما خص النبي ﷺ بذلك لبشاعته معه ﷺ؛ لأن المعاصي تعظم بحضرته.[4]

ويرى سيد قطب أن هذا المعنى هو الذي يتناسب مع عجز الآية،[5] بخلاف صاحب المنار الذي ذهب إلى أن هذا أضعف مما قبله.[6]

وكلا المعنيين قوي؛ لأن الأول تدّعمه أسباب النـــزول، أما الثاني فيدعوا إليه الترابط القوي بين صدر الآية وعجزها.

والآية تذيل بقاعدة عامة تحمل تحذيرا من الغلول، بل تهديدا لكل من يتجرأ عليه وعلى الأخذ من الأموال العامة، أو مد اليد إلى أملاك الدولة دون حق، والتصرف فيها وفق الأهواء. وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك في مواطن عديدة منها قوله ﷺ: {إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[7] والتخوض: التصرف في مال الأمة بغير حق، ومنه الإسراف، والتوسع في النفقات، والتحايل على ذلك، فهذا بدل سفر في مهمة لم يذهب إليه، وهذا حق

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 504/4/1.

[2]- هو: نافع بن عبد الرّحمن بن أبي نعيم الليثي، المدني. أحد القراء السبعة الأعلام، وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة ﷺ. ولد سنة (70هـ). كان عالما بوجوه القراءات والعربية، فصيحا ورعا. إماما للناس في القراءات بالمدينة المنورة، أقرأ بها أكثر من سبعين سنة. راوياه هما قالون وورش. توفي سنة (169هـ). [صابر حسن محمد أبو سليمان، النجوم الزاهرة في تراجم القراء الأربعة عشر ورواتهم وطرقهم، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط1، (1419هـ/1998م)، ص8-10، برقم (1)].

[3]- الحسن البصري هو: الحسن بن أبي يسار أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري. ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ ثم نشأ بوادي القرى، حضر الجمعة مع عثمان ﷺ وسمعه يخطب، وشهد يوم الدار وله يومئذ 10 سنوات. كان سيد أهل زمانه علما وعملا، روى عن خلق من التابعين. له كتاب "فضائل مكة". توفي في رجب سنة 110هـ. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 563/4-588، برقم (223)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 179/1، برقم (226/2)].

[4]- أبو العباس، البحر المديد، 394/1؛ محمد رشيد رضا، المنار، 175/4-176؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 504/4/1.

[5]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 504/4/1.

[6]- محمد رشيد رضا، المنار، 176/4.

[7]- رواه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾، ص561، برقم (3118)؛ وأحمد في مسنده، 299/45، برقم (27318)، كلاهما عن طريق خولة الأنصارية.

جلسات لم يحضرها، وهذا مقابل مشورة لم يؤدها، وهذه مكافأة لم يقم بحقها، وهذا عمولة لا أصل لها، وغير ذلك مما قل أو كثر يغمس في عذاب النار.[1]

الآية خصوصا والإسلام عموما لا يعرف في هذا تفاوتا ولا مفاضلة أو مجاملة، لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ دون تمييز، سواء كان سلطانه أميرا، واليا أو أي مسؤول، عاملا أو موظفا بسيطا، فكبير القوم وصغيرهم في هذا سواء لقوله ﷺ: {مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ}.[2] وكل فرد في الأمة راعي، ومن ضيّع أموال رعيته فقد غشها وظلمها.

وإن كان ظلم صاحب النفوذ والسلطة من أشد وأخطر أنواع الظلم، لأنه يجمع بين السلطة وبين المال الذي يستغله باسم المنصب والوظيفة، فيستخدم نفوذه وأعوانه، وتحايله على القانون للتصرف في أموال الأمة بغير حق، متخفيا بأسترة مختلفة لتلبية مصالحه ومصالح أعوانه، وخدمة أغراضه قبل انقضاء عهدته، بل والتوسع في ذلك إلى حد التبذير والإسراف، فلا تنقضي عهدته إلا وقد أصبح ثريا ثراء فاحشا، يمتلك قصورا وشركات، وأرصدة في البنوك العالمية، متصدرا قائمة الفضائح على صفحات الجرائد اليومية، كفضيحة بنك آل خليفة.

ما على الإنسان الواعي إلا أن "يتقي الله ربه، فلا يطمع في جمع المال من غير تمييز بين حلال وحرام، ولا يغترن بمظاهر الدنيا وزخارفها، فيجمع بين السلطة والأبهة، وبين المال الذي يستغل به وظيفته، فإن استغلال النفوذ حرام في شرع الله تعالى. وقد طبق أمير المؤمنين عمر ﷺ قانون "من أين لك هذا؟" على العمال والولاة والموظفين، وشاطرهم شطر أموالهم، وصادر بعضها الآتي من استغلال أو اعتداء، فإذا لم يردوا المظالم لأهلها في الدنيا عوقبوا عليها في الآخرة أشد العذاب".[3]

لما وجد النبي زكريا الرزق يتوالى على مريم في المحراب، ولم يعرف له مصدرا سألها: ﴿أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾ [4] أي من أين لك هذا؟ وكأنه يسألها من أي الجهات جاءك هذا تحديدا؟ ولماذا بعثوه إليك؟

---

1 – عبد [illegible] الظالمون، ص54.

2 – رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، ص86، برقم (142)؛ وفي كتاب الإمارة، باب فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ، ص909، برقم (142)؛ الدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب في العدل بين الرعية، 1842/3-1843، برقم (2838)؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، 376/10-347، برقم (4495)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، فصل في فضل الإمام العادل وما جاء في جور الولاة، 13/6، برقم (7362). كلهم من طريق مَعْقِل.

3 – وهبة الزحيلي، أخلاق المسلم علاقته بالمجتمع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، (1423هـ/2002م)، ص40.

4 – آل عمران: 37.

والسؤال فيه تشديد، وهو أصل من أصول الإدارة والحكم في الإسلام. ولو طبّق هذا الأصل لما كانت الرشوة والاختلاسات والسرقات وغيرها، ولما كان أكل السحت واستحلال الحرام.[1]

وكل ما يأخذه الإنسان من مال الأمة بغير حق يعد غلولا، وظلما للأمة في أموالها سواء قلّ أو كثر، وإن كان خيطا أو إبرة لقوله ﷺ: {إِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ فَإِنَّ الْغُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ}.[2]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ[3] قال: {كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ فِي النَّارِ فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا}.[4]

فالعباءة ثمنها زهيد، ولكن أدت بمن غلّها إلى النار، لأنه أخذها خفية من الغنائم خيانة للأمة في مالها الذي يعد أمانة، وخيانة الأمانة تؤدي إلى انتشار الفساد واستفحال الشر؛ لأن من لا يؤتمن على عباءة أو إبرة أو دينار، فكيف يؤتمن على قنطار مال؟ !

ولهذا حين حملت الغنائم إلى عمر ﷺ -بعد القادسية- وفيها تاج كسرى[1] وإيوانه لا يقومان بثمن، فنظر ﷺ إلى ما أداه الجند في غبطة وقال : "إن قوما أدّوا هذا لأميرهم لأمناء".[2]

---

[1]- عبد المنعم الحفني، موسوعة القرآن العظيم، مكتبة مدبولي، ط1، (2004م)، 2367/2.

[2]- رواه أحمد في مسنده، 387/37، برقم (22714)، 544/37-545، برقم (22795) بنفس اللفظ؛ وأبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، البحر الزخار المعروف بمسند البزّار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، موسوعة علوم القرآن، بيروت، لبنان، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، (1409هـ/1988م)، حديث عبادة بن الصامت، باب أدوا الخيط والمخيط، 155/7، برقم (2714)؛ وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، (1415هـ/1995م)، باب من اسمه إبراهيم، 45/3، برقم (2423)؛ ونور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (1414هـ/1994م)، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول، 608/5، برقم (9734)، وقال: "وفيه أم حبيبة بنت العرباض ولم أجد من وثقها ولا جرحها، وبقية رجاله ثقات".

[3]- هو: عبد الله بن عمرو بن العاص، من النساك. ولد (7ق.هـ). كان يكتب في الجاهلية ويحسن السريانية، أسلم قبل أبيه، ولما ولّي يزيد امتنع عن بيعته وانزوى بعسقلان. له 700 حديث. قال أبو هريرة ﷺ: ما أحد من أصحاب رسول الله أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ؛ فإنه كان يكتب. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 145/1، برقم (111/4)].

[4]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب القليل من الغلول، ص552، برقم (3074)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الجهاد، باب الغلول، 950/2، برقم (2849)؛ وأحمد في مسنده، 32/11، برقم (6493)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب السير، باب الغلول قليله وكثيره حرام، 171/9، برقم (18203)؛ وابن أبي شيبة المصنف، 710/7، برقم ([illegible]60).

فمن أخذ شيئا من مال الأمة قلّ أو كثر بغير حق، فإنه غلول وظلم يأتي به يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فما المقصود بذلك؟

بيّن النبي ﷺ هذا في مواطن عديدة، دلت على عدم جواز استغلال الوظائف والمناصب العامة للمنفعة الخاصة، وأن من أخذ شيئا من أموال الناس من دون حق، فضحه الله أمامهم يوم القيامة عقابا على ذنبه، إذ يأتي حاملا ظلمه على رقبته، وإن بعيرا أو بقرة أو شاة أو ذهبا وفضة أو غيره مستغيثا بالنبي ﷺ دون جدوى، كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: {قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ثُمَّ قَالَ: لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ}.[3]

ولا فرق في هذا بين ما يأخذه الإنسان بيده، وبين ما يهدى إليه من قبل العمال والموظفين، لأن النبي ﷺ وقف من هدايا الأمراء والحكام موقفا حازما لا لُبس فيه ولا غموض، حيث اعتبر ما يهدى للرؤساء والأمراء، وكل من عيّنته الدولة لرعاية مصالح الشعب غلولا ما دام لم يهد إليهم إلاّ بعد جلوسهم على مناصبهم، إلا في حالات استثنائية قليلة سنعرفها عند الحديث عن الرشوة إن شاء الله. إذ قال ﷺ لابن اللّتبية[4] الأزدي[1] الذي قلده النبي ﷺ عملا إداريا، وهو جمع الزكاة، وجاءه يقول هذا لكم،

1- هو: كسرى أبرويز ملك ساساني (590-628م). ابن هرمزد، توصل إلى العرش بمساعدة موريق الإمبراطور البيزنطي، احتل أورشليم سنة (614م). انتصر عليه هرقل، اغتيل في السجن. [معجم الأعلام، ص589].

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، 505/1/1.

3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾، ص552، برقم (3073)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، ص910، برقم (1831)؛ وأحمد في مسنده، 15/307-308، برقم (9503)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب السير، باب الغلول قليله وكثيره حرام، 172/9، برقم (18206)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 711/7، برقم (5).

4- ابن اللتبية هو: عبد الله بن أبي ليلى الأزدي الأنصاري. توفي النبي ﷺ وهو يافع. [ابن الأثير، أسد الغابة، 250/3].

وهذا أهدي إليّ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:{أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمِعَ أُذُنِي}.[2]

فالهدية إن "كانت ممن يهاديه قبل الولاية، فلا تحرم استدامتها، وإن كان لا يهدي إليه إلا بعد الولاية فإن كانت ممن لا خصومة بينه وبين أحد عنده جازت وكرهت، وإن كانت ممن بينه وبين غريم له خصومة عنده، فهي حرام".[3]

هكذا سدّ النبي ﷺ هذا الباب، لأنه يستميل النفوس، ويدعو إلى إهدار الحقوق، واستنزاف أموال النّاس ظلما.

وما يقال عمّن أخذ شيئا من أموال الأمة بغير حق، يقال عن كل "من استؤمن على مال لحفظه أو استثماره ثم خان صاحب المال أو اقتطع منه ما لا يحل له؛ سواء كان ذلك بالتحايل على صاحب المال وخداعه، أو بخيانته والكذب عليه، أو بالتفريط والتقصير. وسواء كان هذا المال من الأموال الخاصة لآحاد المسلمين أو من الأموال العامة للمسلمين، فمن استؤمن عليها وتصرف فيها حسب هواه بغير حق فهو من الظالمين، قال الله تعالـــى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [4] ومن أشد هؤلاء أمانة الوكلاء على الأموال والنظراء على الأوقاف".[5]

وقد أدّى التحذير من ظلم الأمة في أموالها، إلى تورع وتعفف كثير من أهل الصلاح عن تولي الوظائف والمناصب العامة، أو طلب الإعفاء منها مثل ما حدث مع سعد بن عبادة[6] الذي

---

[1]– الأزد: من أعظم قبائل العرب وأشهرها، تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن مالك بن كهلان وتنقسم إلى أربعة أقسام: أزد شنوءة باليمن، أزد غسان، أزد السَّراة وأزد عمان. [عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، (1418هـ/1997م)، 1/15-18].

[2]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب من لم يقبل الهدية لعلة، ص456، برقم (2596)، وبرقم (2597)، وكتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، ص1279-1280، برقم (6979)، وكتاب الأحكام، باب هدايا العمال، ص1324، برقم (7174)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ص911، برقم (1832).

[3]– حسن أيوب، السلوك الاجتماعي، ص109.

[4]– النساء: 58.

[5]– ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 4/172.

[6]– هو: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي الأنصاري، سيد الخزرج، أحد النقباء. شهد العقبة وغيرها من المشاهد واختلف في شهوده بدرا. روى عن النبي ﷺ وعنه أولاده قيس وإسحاق وسعيد، وابن عباس وابن المسيب. هاجر إلى الشام في

قلده النبي ﷺ وظيفة عامة، إذ جعله عاملا على الصدقة، كما جاء ذلك عن عدي بن عميرة الكندي[1] قال: قال رسول الله ﷺ: {قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أَسْوَدُ قَالَ مُجَالِدٌ هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا قَالَ: وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ الْآنَ مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ وَمَا نُهِيَ عَنْه انْتَهَى}.[2]

فهذا الحديث وغيره -مما سبق- أدلة على عدم جواز استغلال المناصب والوظائف، والنفوذ لخدمة المصالح الخاصة، والانتفاع بشيء من مال الأمة قليلا كان أو كثيرا؛ لأن القليل والكثير سيان في الحرمة. فأموال الأمة أمانة في أعناق الحكام والأمراء والولاة وسائر الموظفين والعمال، من القمة إلى القاعدة، لا فرق بين العامل البسيط وذوي المراكز العليا. فكل من تجرأ على الغلول، وخيانة الناس في أموالهم، فضحه الله ﷻ بها يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ولقيّ النبي ﷺ على تلك الصورة المفزعة المخجلة التي حذّره منها لقوله ﷺ:{وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.[3]

في ذلك اليوم ينال كل غال وغيره جزاء غلوله وفعله، دون ظلم، بلا زيادة ولا نقصان، فتستوفي كل نفس حقها خيرا كان أو شرا؛ قال تعالى: **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** [4] و ما يعزب عنه تعالى مثقال ذرة: **﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ**

خلافة عمر ومات بحوران. [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 412/3، برقم (383)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 111/1، برقم (85/3)].

[1]- هو: عدي بن عميرة بن فروة الحضرمي ويقال الكندي، يكنى أبا زرارة، أصله من الكوفة ثم انتقل إلى حرّان روى عن النبي ﷺ 10 أحاديث. توفي بالكوفة. [ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 396/3؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 127/1، برقم (221/4)].

[2]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ص912، برقم (1833)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في هدايا العمال، 324/3، برقم (3581) ؛ وأحمد في مسنده، 29/255-256، برقم (17717)، وقال محققه: "إسناده صحيح على شرط مسلم"؛ وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، د.ط، (1400هـ/1980م)، كتاب الزكاة، جماع أبواب ذكر السعاية على الصدقة، باب ذكر البيان أن ما كتم الساعي من قليل المال أو كثيره عن الإمام كان ما كتم غلولا، 52/4، برقم (2338).

[3]- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، ص1279-1280، برقم (6979)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 711/7، برقم [illegible].

[4]- البقرة: 281.

﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.[1]

ولقد أثمرت هذه النصوص القرآنية والنبوية في نفوس الصحابة، فكانوا يتحرجون من الغلول، خشية أن تصدق فيهم تلك النصوص، فيلقون الله ﷻ والنبي ﷺ على تلك الصورة بحمولة مفزعة مخجلة، والتي حذرهم أن يلقاهم عليها يوم القيامة. فإذا حدث أن وقع في يد أحدهم الثمين من الغنائم جاء به إلى أميرهم، وإن لم يره أحد. ويشهد لهذا ما رواه الطبري في تاريخه قال: {لَمَّا هَبطَ الْمُسْلِمُونَ الْمَدَائِن، وَجَمَعُوا الأَقْبَاض، أَقْبَلَ رَجُلٌ بِحَق مَعَهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِ الأَقْبَاضِ، فَقَالَ وَالذِّينَ مَعَهُ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَط، مَا يَعْدِلُهُ مَا عِنْدَنَا وَلاَ يُقَارِبُهُ، فَقَالُوا: هَلْ أَخَذْتَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالَ: أَمَا وَالله لَوْلاَ الله مَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ، فَعَرَفُوا أَنَّ لِلرَّجُلِ شَأْنًا، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: لاَ وَالله لاَ أُخْبِرَكُمْ لِتَحْمِدُونِي، وَلاَ غَيْرَكُمْ لِيَقْرِظُونِي! وَلَكِنِي أَحْمَدُ الله وَأَرْضَى بِثَوَابِهِ. فَاتَبَعَهُ رَجُلًا حَتى انْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَإِذَا عَامِر بنُ عَبْدِ قَيْس[2]}.[3]

فالتصرف في أموال الأمة بغير حق صورة من صور الظلم المالي التي ينبغي التحرز بشدة من الوقوع فيها، والتورع عن استغلال هذه الأموال في المصالح الخاصة سواء كان قليلا أو كثيرا؛ لأنّ التجرؤ على أخذ القليل يؤدي إلى الانغماس في سرقة الكثير.

الفرع الرابع: الغصب

الغصب لغة: أخذ الشيء ظلما، أو قهرا.[4]

أما شرعا: فهو أخذ مال متقوم محترم بلا إذن مالكه، بلا خفية، فالغصب لا يتحقق في الميتة؛ لأنها ليست بمال، وكذا في الحرّ، ولا في خمر المسلم؛ لأنها ليست بمتقومة، ولا في مال الحربي لأنه ليس بمحترم،[5] أو هو الاستيلاء على مال غيره قهرا بغير حق،[1] أو هو أخذ المال قهرا تعديا بلا بلا حرابة.[2]

---

[1] الكهف: 49.

[2] – هو: عامر بن عبد الله بن عبد قيس العنبري، تابعي، أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة، تلقن القرآن من أبي موسى الأشعري ﷺ. كان أعبد أهل زمانه وأشدهم احتهادا. توفي ببيت المقدس. [ابن الأثير، أسد الغابة، 3/88-89؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/137، برقم (3/252)].

[3] – الطبري، تاريخ الطبري، 4/16.

[4] – الفيومي، المصباح المنير، ص266.

[5] – الجرجاني، كتاب التعريفات، ص133.

ولفظ الغصب ومشتقاته لم يرد في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.[3] حيث تتحدث الآية عن ملك ظالم يستعين بقوته للاستيلاء على السفن الصالحة، واغتصابها ومصادرتها قوة وغلبة وقهرا.

والغصب صورة من صور الظلم المالي، وقد حذر منه الشارع الحكيم، لما فيه من تضييع حقوق الناس، وإهدارها وأكلها بالباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [4] وإن كان المغصوب شيئا يسيرا، لما روي عن النبي ﷺ قال: {مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ}.[5]

فضرب النبي ﷺ للسائل مثلا لأقل ما يمكن اغتصابه، وهو عود الأراك، وبيّن أنه لا يصح للمسلم أن يأخذ أي شيء من مال أخيه بغير حق مهما كان حقيرا. مقيما بهذا الحديث الدليل على تحريم اغتصاب حقوق المسلمين، وإدخال من غصب الحقوق في النار، ولو كان المغصوب شيئا قليلا، لأن القليل والكثير يستويان في الحرمة وفي الوعيد. والمغصوب قد يكون عينا أو نقدا إلا أن أعظم الغصب ظلم الأراضي.

أولا: ظلم الأرض

---

[1] – موفق الدين بن قدامة وشمس الدين بن قدامة المقدسي، المغني ويليه الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة جديدة بالأوفست بعناية جماعة من العلماء، (1403هـ/1983م)، 374/5.

[2] – هذا التعريف ينسب للمالكية، ويتبين منه أن الغصب أخص من التعدي، لأن التعدي يكون في الأموال والفروج والنفوس والأبدان. [وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، (1409هـ/1989م)، 708/5].

[3] – الكهف: 73.

[4] – النساء: 29.

[5] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة في النار، ص84، برقم (137)؛ والنسائي في سننه، كتاب آداب القضاة، باب القضاء في قليل المال وكثيره، ص768، برقم (5422)؛ وأبو عبد الرحمن شعيب بن علي بن سنان النسائي، السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1991م)، 481/3، برقم (5980)؛ والدارمي في سننه، كتاب البيوع، باب فيمن اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه، 1696/3-1697، برقم (2645)؛ وأحمد في مسنده، 576/36، برقم (22239)، من طريق أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال المحقق: "إسناده صحيح، رجاله ثقات"؛ ومالك بن أنس، الموطأ، رواية يحي بن يحي الليثي الأندلسي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، (1417هـ/1997م)، كتاب الأقضية، باب ما جاء في الحنث على منبر الرسول ﷺ، 230/2، برقم (2129).

إنّ من أشهر حالات الظلم عن طريق الغصب، والاستيلاء بالقوة والقهر على حقوق الناس ما يحدث بين أصحاب العقارات والأراضي، حيث يأكل الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، وتؤخذ أراضيهم، بعضها أو كلها، أو تغير مناراتها وتنقل حدودها، ليزيد الظالم من أرضه، وينقص من أرض جاره[1]، لاسيما وأن التجاور من أيسر السبل لتغيير حدود الأراضي ونقلها. وقد لعن النبي ﷺ الظالمين للأراضي بتغيير حدودها، واللّعن الطرد من رحمة الله؛ وذلك في قوله ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ}[2] ومنار الأرض هي المراسيم التي ترسم حدود الجار.

وقد حذّر الشارع من ظلم الأرض تحذيرا شديدا لما لها من "أهمية في حياة الناس، ولأنها تبقى أمام أعين أصحابها، وتورث جيلا بعد جيل"[3] وعدّ الغصب من أعظم درجات الظلم والغلول فقال ﷺ: {أَعْظَمُ الظُّلْمِ ذِرَاعٌ مِنْ الْأَرْضِ يَنْتَقِصُهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَيْسَتْ حَصَاةٌ مِنْ الْأَرْضِ أَخَذَهَا إِلَّا طُوِّقَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى قَعْرِ الْأَرْضِ وَلَا يَعْلَمُ قَعْرَهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا}.[4]

وقال أيضا: {أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ذِرَاعٌ مِنْ الْأَرْضِ تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا إِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ}.[5]

فهذه الأحاديث تبيّن أن ظلم الأرض أشد الظلم جرما وإثما يوم القيامة، وإن كان ما اغتصب حقيرا كالحصاة. وهي بهذا تزلزل القلوب وتثير فيها الرهبة والفزع من الغصب، وتدعو إلى تقوى الله والإمساك عن الظلم وإن قلّ؛ لشدة ما حرّم الله من مال المسلم على المسلم.

ولظالم الأرض ألوان مختلفة من العذاب، ذكرها النبي ﷺ ترهيبا من الغصب في مواطن عديدة منها:[6]

---

[1] – ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 173/4.

[2] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، ص976، برقم (1978)؛ والنسائي في سننه، كتاب الضحايا، باب من ذبح لغير الله ﷻ، ص640، برقم (4423)؛ وفي السنن الكبرى، 67/3، برقم (5411)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الغصب، باب ليس لعرق ظالم حق، 169/6-164، برقم (11735)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 236/5، برقم (5).

[3] – عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، ص45.

[4] – أخرجه أحمد في المسند، 494/28، برقم (17255)، من طريق أبي مالك الأشجعي، 334/29، برقم (17799)، 531/37، برقم (22895)، 445/37-446، برقم (22914)، من طريق أبي مالك الأشعري؛ الطبراني، المعجم الكبير، 266/10-267، برقم (10516).

[5] – أخرجه أحمد في المسند، 494/28، برقم (17255)، و334/29، برقم (17799)، و531/37، برقم (22895)، قال المحقق: "إسناده حسن في المتابعات والشواهد"؛ والطبراني، المعجم الكبير، 340/3، برقم (3463).

[6] – [illegible] عمر بازمول، الظلم وعلاجه على ضوء السنة النبوية، مجالس الهدى، ط1، (1428هـ/2007م)، ص43-44.

- الخسف به يوم القيامة لقوله ﷺ: {مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ}.[1]
- يكلف الظالم للأرض بحمل ترابها إلى المحشر لقوله ﷺ: {مَنْ أَخَذَ أَرْضًا بِغَيْرِ حَقِّهَا كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَ تُرَابَهَا إِلَى الْمَحْشَرِ}.[2]
- يطوّق الظالم للأرض بطوق لقوله ﷺ: {مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ}.[3]

وعن أبي سلمة[4] أنه كانت بينه وبين أناس خصومة في أرض، فذكر ذلك لعائشة -رضي الله عنها- فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: {مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ[5] شِبْرٍ مِنْ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ}.[6] ومعناه أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه.

وقال ابن حجر: "يحتمل أن يكون المراد بقوله: يطوقه يكلف أن يجعله له طوقا ولا يستطيع ذلك، فيعذب بذلك. ويحتمل أن يكون التطويق تطويق الإثم، والمراد به أن الظلم المذكور لازم له في عنقه لزوم الإثم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.[7] ويحتمل أن تتنوع هذه الصفات

---

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، ص430، برقم (2454) من طريق أبي سالم، وكتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، ص578، برقم (3196)؛ وأحمد في مسنده بلفظ "ظلماً"، 31/10، برقم (5740)، من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ، قال المحقق: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

[2]- أخرجه أحمد في المسند، 99/29، برقم (17558)، 110/29، برقم (17569) من طريق يعلى بن مرة الثقفي؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 235/5؛ والطبراني، المعجم الكبير، 269/22-270، برقم (690)؛ والألباني، في السلسلة الصحيحة المختصرة، 486/1، برقم (242).

[3]- أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، ص429، برقم (2452) من طريق سعيد بن زيد ﷺ؛ وأحمد في مسنده، 173/3، برقم (1628)، 183/3، برقم (1641)، 184/3، برقم (1643)، 186/3، برقم (1646) بنفس اللفظ؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الغصب، باب التشديد في غصب الأراضي وتضمينها بالغصب، 162/6، برقم (7480)؛ والطبراني، المعجم الأوسط، باب من اسمه أحمد، 363/2، برقم (2242).

[4]- أبو سلمة [illegible] عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث، الحافظ، أحد الأعلام بالمدينة. قيل اسمه عبد الله وقيل إسماعيل، ولد سنة بضع وعشرين، حدّث عن أبيه وعن عبد الله بن سلام وغيرهما، حدث عنه ابنه. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 287/4-292، برقم (108)].

[5]- قَيْد: أي قدر. [المنجد في اللغة، ص665].

[6]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، ص430، برقم (2453)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، ص757، برقم (1610). كلاهما عن محمد بن إبراهيم؛ وأحمد في مسنده، 412/40، برقم (24353)، 51/41، برقم (24504)، 237/43، برقم (26143)، 281/43، برقم (26224)، عن طريق السيدة عائشة -رضي الله عنها-.

[7]- الإسراء: 13.

لصاحب هذه الجناية أو تنقسم على أصحاب هذه الجناية فيعذب بعضهم بهذا و بعضهم بهذا بحسب قوة المفسدة و ضعفها".[1]

فغصب الأراضي والعقارات صورة من صور الظلم المالي، بل من أبشع الظلم وأعظمه. وقد توعد الشارع الحكيم ظالمها بألوان مختلفة من العذاب، وإن كان ما ظلمه شيئا يسيرا لا يتجاوز قدر شبر أو ذراع.

ثانيا: ظلم الطريق

إن ظلم الطريق من ظلم الأرض، إلا أن ضرره أشد لمساسه المصالح العامة للمسلمين. وكل من يتجرأ على غصب طريق الناس، وتغيير حدوده ليوسع من أرضه أو مزرعته أو بيته أو تحقيق منفعة أخرى، على حساب طريق الناس، وإن كان ما اقتطعه شيئا يسيرا ولو شبرا، فإنه ظالم يأت يوم القيامة، يحمل الأرض المغصوبة وما تحتها إلى قعرها على كتفه، كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ في قوله: {مَنْ أَخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ شِبْرًا جَاءَ بِهِ يَحْمِلُهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ}.[2]

وهذا ما يصدق أيضا على أسفل الطريق إلى منتهاه، لأن الحديث "دليل على أن من ملك أرضا ملك أسفله إلى منتهاها، و له أن يمنع من حفر تحتها سرباً أو بئرا ".[3]

ولا شك في أن ظالم الطريق، يستحق على ظلمه ما يستحق ظالم الأرض من الطرد من رحمة الله والغضب الإلهي لقوله ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ}[4] ولقوله ﷺ: {مَنْ اقْتَطَعَ أَرْضًا أَرْضًا ظَالِمًا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ}.[5]

وهذا ما يقتضي التورع عن ظلم الطريق، وإن كان شيئا يسيرا لا يزيد عن شبر.

الفرع الخامس: ظلم اليتامى في أموالهم

إن من الأموال التي تتيسر السبل لأكلها ظلما، أموال اليتامى، وذلك من طرف الأوصياء، إذ تستغل الوصاية كوسيلة للظلم المالي، لاسيما وأنّ هذه الفئة تفتقد إلى من يرعى مصالحها، ويقوم على حفظها، بل إن الراعي نفسه، هو الذي يعمل على هضمها. فماهي أهم الطرق التي

1 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، 125/5، شرح حديث رقم (2378).

2 - رواه الطبراني، المعجم الكبير، 241/3، برقم (3172).

3 - المنذري، الترغيب والترهيب، 15/3، هامش رقم (2).

4 - تم تخريجه في موضوع ظلم الأرض، ص163.

5 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ص84، يرقم (137)؛ وأحمد في مسنده، 154/31، برقم (18863). كلاهما من طريق وائل بن حجر رضي الله عنه.

يلجأ إليها الأوصياء لأكل أموال اليتامى ظلما؟ وماهي الإجراءات التي جاء بها القرآن لحفظ هذه الأموال من الظلم؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.[1] نزلت هذه الآية في رجل من غطفان[2] وُلِيّ مال ابن أخيه، وهو يتيم صغير، فأكله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.[3]

واليتيم في اللغة مأخوذ من يَتِمَ من باب تعِب، وقرُب، يُتما بضم الياء وفتحها، لكن اليُتم في النّاس من قِبل الأب، وجمعه أيتام ويتامى، والمؤنث يتيمة وجمعها يتامى، وفي غير النّاس من قبل الأم، فإن مات الأبوان فالصغير لطيم، وإن ماتت أمه فهو عَجِيٌّ، ودرّة يتيمة لا نظير لها، ومن هنا أطلق اليتيم على كل فرد يعز نظيره.[4]

وهو ما أشار إليه في التعريفات حيث قال أنّ اليتيم: هو "المنفرد عن الأب، لأن نفقته عليه لا على الأم، وفي البهائم: اليتيم، هو المنفرد عن الأم، لأن اللبن والأطعمة منها".[5]

وذكر ابن عاشور: "أن اليتيم اشتقاق من الانفراد، أطلقه العرب على من فقد أبوه في حال صغره كأنّه بقي منفرداً لا يجد من يدفع عنه، ولم يعتد العرب بفقد الأم في إطلاق وصف اليتيم، إذ لا يعدم الولد كافلة، ولكنه يعدم بفقد أبيه من يدافع عنه وينفقه. وقد ظهر مما راعوه في الاشتقاق أن الذي يبلغ مبلغ الرجال لا يستحق أن يسمى يتيما، إذ قد بلغ مبلغ الدفع عن نفسه، وذلك هو إطلاق الشريعة لاسم اليتيم".[6]

---

1 – النساء: 10.

2 – غطفان: بطن عظيم، كثير الشعوب والأفخاذ من العدنانية. كانت منازلهم بنجد، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية واستولت عليها قبائل طيء، وقد حاربهم الرسول ﷺ في غزوة الخندق، ثم ارتدّوا في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فبعث إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقتلهم شرّ قتلة. [عمر رضا كحالة، معجم فبائل العرب، 3/888-889].

3 – وذكر أن الرجل الذي أكل مال ابن أخيه هو: مرثد بن زيد. [الواحدي، أسباب النـــزول، ص121؛ القرطبي، الجامع، 5/53].

4 – الفيومي، المصباح المنير، ص404.

5 – الجرجاني، تعريفات، ص204.

6 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 2/4/219.

فاليتيم في الشرع من فقد أباه قبل سن الرشد؛ لقوله ﷺ: {لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ}.[1]

والآية في المنع من الظلم المالي، لفئة من الفئات الضعيفة في المجتمع، فئة في حاجة إلى تشريع إلهي لحمايتها من الظلم الذي قد تتعرض له من قبل الأوصياء، وهي فئة اليتامى.

وموضوع الآية لم يخرج عن موضوع السياق الذي وردت فيه؛ لأن ما قبلها تناول إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من هضم حق الضعيفين اليتيم والمرأة، وبيان حقوق اليتامى والزوجات ومنع ظلمهن، فمنع فيها أكل أموال اليتامى، ومنع أكل مهور النساء أو عضلهن للتمتع بأموالهن، أو تزويجهن بغير مهر. فالكلام لا يزال في حقوق اليتامى والنساء ومنع الظلم الذي كان يصيب كلا منهما.[2]

بل إن سورة النساء بأكملها تعلّمنا أن المستأمن على الأرض، ينبغي أن يتوفر على قدر من العدل والرحمة إزاء الضعفاء الذين استؤمن عليهم، فالعدل شرط الاستخلاف. ولهذا فإن السورة تتحدث عن حقوق الضعفاء في المجتمع. إنها تتحدث عن اليتامى والعبيد والخدم والورثة، والنساء، والأقليات غير المسلمة التي تعيش في كنف الإسلام، وابن السبيل والوالدين. فهي سورة الرحمة والعدل. يتكرر في كل آية من آياتها ذكر الضعفاء والرحمة بشكل دال على عظمة الإعجاز القرآني.[3]

وقد عمل القرآن الكريم على استئصال هذا النوع من الظلم، الذي كان مستشريا في البيئة الجاهلية من النفوس، في مواضع عديدة، وبأساليب مختلفة، كلها تمنع ظلم اليتامى في أموالهم، وتؤكد النهي عن أكلها بصور الظلم المختلفة، ومن أبرز هذه الصور، إعطائهم الرديء في مقابل الجيد، سواء كان عقارات أم ماشية أم أسهما أم أي نوع من أنواع المال، مما فيه الطيب والخبيث؛ أو لجوء الوصي إلى حيلة أخرى لممارسة أكل مال اليتيم ظلما، وهي ضم أموال اليتامى كلها أو

[1] - رواه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتم، 128/2، برقم (2873)، من طريق علي رضي الله عنه؛ وصححه محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1 للطبعة الجديدة، (1419هـ/1998م)، 208/2، برقم (2873).

[2] - محمد رشيد رضا، المنار، 323/4.

[3] - عمرو خالد، خواطر قرآنية: نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، (1425هـ/2004م)، ص63.

بعضها إلى أمواله؛ وقد حذّر المولى ﷻ من ذلك في قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.[1] أي إثما كبيرا.

وليست هذه الطرق الوحيدة لأكل أموال اليتامى ظلما، بل قد يلجأ بعض الأوصياء إلى حيلة أخرى لأكل أموال اليتامى ظلما، وذلك بالمسارعة إلى استهلاكها قبل بلوغهم سن الرشد؛ بإنفاقها في المنافع الخاصة، والتوسع في النفقات واللذات المختلفة إلى حد الإسراف؛ وقد نهى الشارع عن مجاوزة الحد في الأكل إلى درجة الإسراف؛ فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [2]

أما إذا كان الوصي فقيرا فقد أباح له الشارع الأكل من مال اليتيم دون مجاوزة للحد المعروف وإلا وقع في الظلم والمنكر، وهو ما يقابل المعروف والأحسن في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [3] وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وهو ما بيّنه النبي ﷺ في جوابه على الرجل الذي سأله قائلا: {إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلِي يَتِيمٌ قَالَ: فَقَالَ: كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَادِرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ [4]}.[5]

والمعروف الذي لا يعد ظلما قدّره الفقهاء بأجرة المثل، والأجرة مقابل العمل والخدمة والتدبير لا التفقد والإشراف، وإن كان الاستعفاف للغني أفضل.[6]

وما تزال أموال اليتامى تؤكل ظلما بشتى الطرق والحيل من الأوصياء، رغم الإجراءات الدقيقة التي جاءت بها النصوص القرآنية، والاحتياطات القانونية. ولعلّ من أبرز صور ظلم أموال اليتامى في هذا العصر، ما يفعله أهل الميت وأولياؤه بعد وفاته من استئجار القراء وإطعام الطعام،

---

[1] – النساء: 2.

[2] – النساء: 6.

[3] – الإسراء: 34.

[4] – متأثل: جامع. [المنجد في اللغة، ص3].

[5] – أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب مَا جَاءَ فِي مَا لِوَلِيِّ الْيَتِيمِ أَنْ يَنَالَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، 128/2، برقم (2872)؛ والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، ص538، برقم (3670)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، 907/2، برقم (2718)؛ وأحمد في مسنده، 359/11، برقم (6747)، 594/11، برقم (7022). كلهم من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

[6] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 44/5.

والإنفاق إلى حد الإسراف من أموال اليتامى الذين خلّفهم الميت وراءه، لا يملكون على ضعفهم حيلة.[1]

وقد خص من وجوه الانتفاع الأكل؛ إذ هو أقوى أحوال الاختصاص بالشيء؛ ولأنه يحرزه في داخل جسده، ولا مطمع في إرجاعه.[2]

واكتفى ﷻ بذكر الأكل، وإن كان المقصود من ذلك جميع وجوه الإتلاف؛ لأن ضرر اليتيم لا يختلف سواء أتلف ماله بالأكل، أم بطرق أخرى. وإنما ذكر الأكل وأراد به جميع التصرفات المتلفة لوجوه:[3]

أحدها: أن عامة مال اليتيم في ذلك هو الأنعام التي يؤكل لحومها ويشرب ألبانها فخرج الكلام على عادة العرب.

ثانيها: ما جرت عليه العادة من إطلاق لفظ الأكل على إنفاق المال في الوجوه المختلفة سواء كانت خيرا أو شرا.

ثالثها: أن الأكل هو معظم ما ينفق فيه المال.

ولا فرق بين أن يأكلها هو، أو أن يؤكلها غيره، كل ذلك ظلم يؤدي إلى سوء المصير. ورغم أن الأكل لا يكون إلا في البطن، إلا أنه ذكرها، إمّا[4] لفائدة التأكيد والمبالغة، وتمثيل الواقع بكمال هيئته، ونظائره في القرآن الكريم كثيرة،[5] وإمّا للإشارة إلى أنّ المظروف مالئ للظرف أي ملء بطونهم.[6]

ومن الإجراءات الصارمة والدقيقة التي جاء بها القرآن لمنع الظلم المالي عن هذه الفئة الضعيفة في المجتمع، الأمر بالمسارعة إلى تسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد بلوغهم سن الرشد. واشترط في الوصي على مال اليتيم أن يكون أمينا عليه، مجتهدا في تنميته، حريصا على حفظه؛ فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ .[7]

[1] عبد الرّحـ[illegible] يعقوب، الظالمون، ص 44.

[2] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 221/3/2.

[3] – الرازي، التفسير الكبير، 162/9.

[4] – الرازي، التفسير الكبير، 163/9؛ محمد رشيد رضا، المنار، 327/4.

[5] – آل عمران: [illegible]؛ الحج: 46؛ الأنعام: 38؛ الفتح: 11.

[6] – رشيد رضا، المنار، 327/4.

[7] – النساء: 6.

وأكد تعالى الوعيد في أكل مال اليتيم ظلما، وقد كثر الوعيد على الظالمين لأموال اليتامى؛ وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأنّ اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى.[1]

وبيّن ﷻ أن الذين يستضعفون اليتامى، ويأكلون أموالهم بغير حق ظلما وهضما، إنما يأكلون في بطونهم نارا. فما المراد بأكل النّار؟ ومتى يكون ذلك؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟.

هذا ما دفع المفسرين إلى الاختلاف في حمل الآية على الحقيقة والمجاز إلى رأيين أو فريقين:[2]

الأول: يرى أن الآية تحمل على الظاهر، وأن الآكلين لمال اليتيم على سبيل الظلم، سيأكلون النار يوم القيامة، مستأنسين بقول السدي: "إذا أكل الرجل مال اليتيم ظلما، يبعث يوم القيامة ولهب النّار يخرج من فيه ومسامعه وأذنيه وعينيه، يعرف كل من رآه أنه أكل مال اليتيم".[3]

اليتيم".[3]

كما استدلوا بما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: {لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ قَوْمًا لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الإِبِلِ، وَقَدْ وُكِّلَ بِهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشَافِرِهِمْ ثُمَ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمَ صَخْرًا مِنَ النَّارِ يَخْرُجُ مِنْ أَسَافِلِهِمْ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءَ الذِّينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمُا}.[4]

وبقوله ﷺ: {يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ تَتَأَجَجُ أَفْوَاهُهُمْ نَارًا، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾}.[5]

الثاني: أنّ الكلام على المجاز لا على الحقيقة، وأن المراد إنما يأكلون في بطونهم المال الحـــرام

---

[1] - الرازي، التفسير الكبير، 162/9.

[2] - الرازي، التفسير الكبير، 162/9-163؛ رشيد رضا، المنار، 328/4؛ عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 786/4/2.

[3] - أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تفسير السدي الكبير، جمع وتوثيق ودراسة، محمد عطا يوسف، دار الوفاء الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1، (1414هـ/1993م)، ص197.

[4] - أخرجه محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1422هـ/2002م)، 809/11، برقم (5459)، وقال: "ضعيف جدا".

[5] - أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، باب ذكر الإخبار عن وصف ما يعذب به في القيامة أكلة أموال اليتامى، 377/12، برقم (5566)، من طريق أبي برزة؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 879/1، برقم (4881)؛ أبو يعلى الموصلي، 434/13، برقم (7440).

الذي يفضي بهم إلى النّار. فأكل الحرام يستلزم النّار، وقد يطلق أحد المتلازمين على الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.[1]

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: {لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ}.[2]

أي "فاشتّد ذلك على الأوصياء القائمين بكفالتهم بل وعلى اليتامى أنفسهم، فرفع الله عنهم الحرج، وأباح لهم خلط أموالهم بأموال اليتامى مع مراعاة العدل والإنصاف".[3]

وهو اختيار الرازي لإشارته إلى الحال في الدنيا والحال في الآخرة، وعليه صاحب المنار الذي يرى أنه لا يصح الحمل على الحقيقة إلا بشرط صحة الرواية. وهذا ما يقتضي جعل فعل ﴿يَأْكُلُونَ﴾ مفيدا للاستقبال في حين الظاهر من هذا الفعل يوحي أنه للحال بقرينة عطف الفعل المستقبل عليه، وهو قوله: ﴿سَيَصْلَوْنَ﴾، وهي قرينة لفظية وحجة معنوية من حيث إنّ صلي السعير هو عبارة عن دخول النّار، وإنما يكون أكل النّار لمن يأكلها بعد دخولها لا قبل ذلك، وعلى فرض صحة الرأي الأول فإنّ لفظ الآية سيكون: "فسيأكلون نارا ويصلون سعيرا".

فالأكل عذاب باطن البدن لأن معظم إتلاف المال في الأكل، والصلي عذاب ظاهر البدن جزاء اللباس وسائر التصرفات. ولكنه لما ذكر ﴿يَأْكُلُونَ﴾ دون علامة الاستقبال، وعطف عليه ﴿سَيَصْلَوْنَ﴾ مقرونا بالسين كعلامة للاستقبال، علم أن المراد أنهم إنما يأكلون في الدنيا ما يفضي

[1] - الشورى: 40.

[2] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، 2/127-128، برقم (2871)؛ والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، ص538، برقم (3671)؛ وأحمد في مسنده، 5/140، برقم (3000)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، 6/465، برقم (12671)؛ وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، معرفة السنن والآثار، توثيق وتعليق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، القاهرة، ط1، 1412هـ/1991م، كتاب الوصايا، باب ولي اليتيم يأكل من مال اليتيم مكان قيامه عليه بالمعروف، 9/205، برقم (12887).

[3] - [illegible] الظاهر[illegible] ص33.

بهم إلى النار.[1] فقال: ﴿سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. يقال صليت اللحم إذا شويته وأصليته إذا أحرقته[2] والمراد من الآية سيدخلون النار المستعرة، يقاسون حرّها، ويشتون بحريقها؛ قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾.[3]

وقال النبي ﷺ: {أَرْبَعَ حَقٌ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُدْخِلَهُمْ الجَنَّةَ وَلاَ يُذِيقَهُمْ نَعِيمَهَا مُدْمِنُ الخَمْرِ وَآكِلُ الرِّبَا وَآكِلُ مَالِ اليَّتِيمِ بِغَيْرِ حَقٍ وَالعَاقُ لِوَالِدَيْهِ}.[4]

وقد ساقت الآية ذلك في صورة حسية مفزعة، صورة النار تلتهم البطون من الداخل، وصورة السعير تأتي على الأجساد من الخارج، إنها تشوي الجلود. صورة تكاد تراها العيون، وتخفق لها القلوب رعبا، وتقشعر منها الجلود هلعا "إن هذا المال –مال اليتيم– نار، وإنهم ليأكلون هذه النار، وإن مصيرهم لإلى النار، فهي النار تشوي البطون، وتشوي الجلود، هي النار من باطن وظاهر. هي النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود، وحتى لتكاد تراها العيون".[5]

فالقرآن يحذر تحذيرا شديدا من ظلم اليتامى في أموالهم، فيضع بهذا قاعدة أساسية كفيلة بحفظ أموال تلك الفئة المستضعفة في المجتمع قبل أن تصبح لقمة سائغة في أفواه الظالمين. فلا يسلك مسلك الدفاع عن هؤلاء الضعفاء، بل يوفر لهم الحماية اللازمة لوقايتهم، وصيانة أموالهم من شراسة الظلم وأهله. ويقيم المجتمع على أسس العدل والرحمة التي لا تدع ثغرة لظهور هذا المرض في كيانه، ولا في كيان أفراده، وسط نظيف، وجسد سليم يرفض أن يولد فيه هذا المرض ولا أن ينمو فيه. إنّه يحمل العدل والرحمة لليتامى والضعفاء؛ تمثله النبي ﷺ في حياته قولا وسلوكا في رعاية اليتامى وكفالتهم فقال: {أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ يَعْنِي السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى}.[6]

---

[1]– محمد رشيد رضا، المنار، 328/4.

[2]– الفيومي، المصباح المنير، ص207.

[3]– الليل [illegible]

[4]– أخرجه الحاكم، المستدرك، كتاب البيوع، باب وأما حديث أبي هريرة، 46/2، برقم (2315)، وقال: "هذا صحيح الإسناد [illegible] وقد اتفقا على [illegible] خثيم"؛ البيهقي، شعب الإيمان، باب في قبض اليد عن أربع حق عن الأموال المحرمة، 397/4، برقم (5530)؛ علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح وفهرسة بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، (1409هـ/1989م)، 67/16، برقم (43966).

[5]– سيد قطب، في ظلال القرآن، 588/4/1.

[6]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللّعان، ص1012، برقم (5304)، وفي كتاب الأدب، باب فضل من يعول اليتيم، ص1124، برقم (6005)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من ظلم اليتيم، 760/2، برقم (5150)؛

وحرص ﷺ على إرساء هذه القاعدة، المتعلقة بالتعامل المالي إزاء اليتامى، في نفوس المؤمنين، وتربيتهم عليها، مرغبا أحيانا كما في الحديث السابق، ومرهبا في أحيان أخرى كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة في الصحيحين عن الرسول ﷺ قال: {اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ}؛[1] فدلت بالكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر.

وقال أيضا: {أَرْبَعَ حَقٌ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُدْخِلَهُمْ الجَنَّةَ وَلاَ يُذِيقَهُمْ نَعِيمَهَا مُدْمِنُ الخَمْرِ وَآكِلُ الرِّبَا وَآكِلُ مَالِ اليَّتِيمِ بِغَيْرِ حَقٍ وَالعَاقُ لِوَالِدَيْهِ}.[2]

وقد عنى القرآن الكريم بمال اليتيم عناية شديدة، المكي والمدني منه على حد سواء. وكل هذه العناية والتشديد، والبيان المفصل، والتذكير والتحذير من الجور على أموال اليتامى الضعاف في المجتمع من أجل حماية أموال اليتامى من الظلم، وغلق الباب أمام أطماع الأوصياء الظالمين.

الفرع السادس: الرشوة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[3]

والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته، ص567، برقم (1923). كلهم من طريق سهل بن سعد. وله شاهدان أحدهما عند مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، ص1419، برقم (2983)؛ وأحمد في مسنده، 476/37، برقم (22820). كلاهما من طريق أبي هريرة، أما الشاهد الثاني فعند مالك بن أنس في الموطأ، كتاب الشعر، باب السنة في الشعر، 984/2، برقم (5)، من طريق صفوان بن سليم.

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، ص497، برقم (2766)، وكتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ص1266، برقم (6857)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ص65، برقم (87)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، 128/2-129، برقم (2874)؛ والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب اجتناب أكل مال اليتيم، ص539، برقم (3673)؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، باب ذكر الزجر عن الكبائر السبع إذ هن الموبقات، 371/12-372، برقم (5561)، من طريق أبي هريرة.

[2]- سبق تخريجه في الصفحة السابقة هذه.

[3]- البقرة: 188.

افتتحت هذه الآية بالنهي عن الظلم المالي بصفة عامة، فدلت على تحريم أكل الأموال بالطرق غير المشروعة كالسرقة والغصب وأكل مال اليتيم ظلماً، والربا والرشوة وغيرها. ثم خصّت من هذا العموم طريقة من تلك الطرق التي تستباح بها أكل الأموال ظلما؛ فقال تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تدفعوا أموالكم للحكام لتأكلوا بها فريقا من أموال الناس بالإثم، فالإدلاء بها هو دفعها لإرشاء الحكام ليقضوا للدافع بمال غيره، فهي تحريم للرشوة، وللقضاء بغير الحق، ولأكل المقضي له مالا بالباطل بسبب القضاء بالباطل".[1]

ويرى في المنار أن الآية خصت نوعا من العموم بالبيان والنهي، لشبهة فيه، تحصل لبعض الناس، إذ يعتقد أن الحاكم نائب الشارع في بيان الحق وتنفيذه، فإذا حكم لأحد بشيء ولو بغير حق، حلّ له ولا يكون من الباطل.[2]

وعزا ابن عاشور ذلك إلى شدة شناعة الصورة المذكورة، وكونها جامعة لمحرمات كثيرة، وللدلالة على أن الراشي آثم مع أنه لم يأكل مالا بل أكل غيره.[3]

والرشوة من أشهر طرق الظلم المستخدمة في الجاهلية، لاستحلال أموال الضعفاء، وأكلها بالباطل لعجزهم عن الدفاع عنها؛ لذلك تصدى الإسلام لحفظ الأموال، ومحاربة سائر الطرق غير المشروعة كالرشوة وغيرها لأكل الأموال بالباطل.

والرشوة هي "ما يعطى لإبطال حق أو لإحقاق باطل، فيعطى الراشي لينال باطلا، أو ليمنع حقا يلزمه، ويأخذ الآخذ على أداء حق يلزمه، فلا يؤديه إلا برشوة يأخذها أو على باطل يجب عليه تركه، ولا يتركه إلا بها".[4]

وجاء في النهاية: "الرِّشْوة والرُّشْوة: الوُصلة إلى الحاجة بالمصانعة. وأصله من الرشاء الذي يتوصل به إلى الماء. فالراشي من يعطي الذي يعينه على الباطل. والمرتشي الآخذ. والرائش الذي يسعى بينهما يستزيد لهذا ويستنقص لهذا ".[5]

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 191/2/1.

[2] - محمد رضا، المنار، 198/2.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 190/2/1.

[4] - أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، شرح السنة، تحقيق وتعليق: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1412هـ/1992م)، 88/10.

[5] - مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 226/2.

وقد لعنهم الله ورسوله جميعا، لما رواه عبد الله بن عمرو ﷺ قال:{لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي}.[1]

وعن ثوبان ﷺ[2] قال:{لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ يَعْنِي الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا}.[3]

واللّعن: هو الإبعاد والطرد من رحمة الله تعالى "ولا يستحق ذلك إلا مرتكب الكبيرة. وهذا دليل على أن الرشوة من الكبائر، ولما لا تكون منها، وهي إفساد للضمائر، وأخذ لحقوق الناس بغير حق، وإضرار بعباد الله، وإبعاد للمبادئ والقيم وحرب على العدل".[4]

والرشوة قد تكون مالا أو منصبا أو مصلحة أخرى من مصالح الدنيا الدنيئة.

ومن الرشوة ما يأخذه مسؤول الدولة على المواطنين بطرق غير مشروعة، سواء كان وزيرا أو واليا أو قاضيا أو مديرا أو موظفا بسيطا؛ لأن ما يأخذه موظف الدولة من المواطنين مقابل أي عمل يقوم به في مجال اختصاصه، بعد أن جعلت له الدولة راتبا ماليا، يعتبر سحتا ورشوة[5] تؤول بصاحبها إلى الهلاك لقوله ﷺ:{إِنَّ هَذَا الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلا أُرَاهُمَا إِلا مُهْلِكَاكُمْ}.[6]

---

[1]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب كراهية الرشوة، 324/2، برقم (3580)؛ والترمذي في سننه، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، ص412، برقم (1341)، وقال: "حديث حسن صحيح"؛ وابن ماجة في سننه بلفظ "لعنه الله"، كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، 775/2، برقم (2313)؛ وأحمد في مسنده، 87/11، برقم (6532)، 391/11، برقم (6778)، 392/11، برقم (6779)، قال الأرنؤوط: "إسناده قوي".

[2]- هو: ثوبان بن يجدد، مولى رسول الله ﷺ من السرات، اشتراه النبي ﷺ ثم أعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أن توفي، فخرج إلى الشام وتوفي بحمص، له 128 حديثا. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 135/1، برقم 102/2].

[3]- أخرجه أحمد في مسنده، 85/37، برقم (22399)؛ الحاكم، المستدرك، كتاب الأحكام، باب وأما حديث ثوبان، 203/4، برقم (7147)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 229/5، برقم (14)، 245/5، برقم (273)، 245/5، برقم (1).

[4]- حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط3، (1427هـ/2006م)، ص108.

[5]- الحكمي، الظلم وأثره، ص72.

[6]- أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، 117/10، برقم (10069)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، 276/7، برقم (10293)، و276/7-277، برقم (10294)، و277/7، برقم (10295)، ورقم (10296).

ولعل أشد الرشوة وزرا ما يأخذه الحكام لظلم الخصوم، وما يأخذه القضاة للقضاء بالظلم، ولهذا خصهم النبي ﷺ بلعنة الله كما ثبت عنه أنه قال: {لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ}[1] وصنّفهم إلى ثلاثة أصناف أحدهم: {رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ}.[2]

ومن الأسباب الداعية إلى الظلم في الحكم الرشوة، التي تستميل النفوس وتزيغ القلوب بل عدّها ابن مسعود رضي الله عنه كفرا فقال: {الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ كُفْرٌ، وَهِيَ بَيْنَ النَّاسِ سُحْتٌ}.[3]

والرشوة حرام بالإجماع، سواء كانت للقاضي أو لغيره. وتحرم على الآخذ والمعطي، إذا بذلت للحاكم ليحكم بالظلم، ولا فرق في إدلائها لإحقاق باطل أو إبطال حق. وتحرم على الآخذ دون المعطي، إذا كان للمعطي حق مشروع إلا أنه لا يملك سبيلا للحصول عليه إلا بالرشوة؛[4] لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[5] وإلا فهو ظالم أيضا؛ لأنه يروّج للظلم ويدفع إليه، ويساعد على نشره واستشرائه.

ويشهد لجواز دفع الرشوة من أجل دفع الظلم وإحقاق الحق، إذا انتفت السبل المشروعة ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه {أَنَّهُ لَمَا أَتَى أَرْضَ الحَبَشَة أُخِذَ بِشَيْءٍ فَتَعَلَقَ بِهِ فَأَعْطَى دِينَارِيْنِ حَتَى خَلَّى سَبِيلَهُ}.[6] وقال جماعة من التابعين:"{لا بأس أن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم}، والمصانعة إعطاء الرشوة".[7]

---

[1]- رواه الترمذي في سننه، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، ص411، برقم (1340)؛ وأحمد في مسنده، 8/15، برقم (9023)، 11/15-12، برقم (9031)؛ الطبراني، المعجم الكبير، 398/23، برقم (951).

[2]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، 322/2، برقم (3573)؛ النسائي، السنن الكبرى، 462/3، برقم (5922)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب من أفتى أو قضى بالجهل، 199/10، برقم (20954).

[3]- أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، 257/9-258، برقم (9100)؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الأحكام، باب الرشا، 361/4، برقم (7031)، وقال: "ورجاله رجال الصحيح".

[4]- محمد بن إسماعيل اليمني الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: 3 (1417هـ/ 1979م)، 66/3.

[5]- التغابن: 16.

[6]- أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب من أعطاها ليدفع بها عن نفسه أو ماله ظلما، 235/10، برقم برقم (20482)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، 233/5، برقم (254).

[7]- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 226/2.

أما إذا كان الإنسان يمتلك السبل المشروعة للوصول إلى الحق، ولو بعد جهد ومشقة، فينبغي عليه أن يتحمل ذلك، ويحارب الرشوة لدفع الظلم وسدّ أبوابها أمام الظالمين، وتطهير المجتمع قبل أن يحترق بنار الظلم.

والرشوة من صور الظلم التي انتشرت في المجتمعات الحديثة، وتأصّلت في النفوس، بحيث أصبحت اليوم تطغى على كثير من المعاملات المالية، وتكرس الفقر والبطالة، وتولّد الحقد والحسد والطبقية وتفكك الروابط الاجتماعية، وتؤدي إلى ظهور مختلف صور الظلم. ورغم حرمتها إلا أنّ الظالمين يتخذونها وسيلة للاعتداء على حقوق الضعفاء والفقراء، واغتيال آمالهم، وأكل أموال الناس بالباطل. وهذا ما يدعو الأمة إلى أن توحد الجهود لمحاربة هذا الظلم، وعلاج هذا المرض قبل استعصائه.

الفرع السابع: ظلم الأموال عن طريق الحكام

قال تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قد يتعذر التفاهم بين الخصوم في شأن الأموال، فيلجأون إلى المحاكم، لفك النـــزاع، ورد الحقوق إلى أهلها أو أكل الأموال بالباطل عن طريق التقاضي. حيث يعتمد القاضي على الظاهر، ويجتهد في الحكم مستعينا بما يملكه من الأدلة والقرائن والحجج كالشهود واليمين ونحوها. فيقضي لصالح الظالم الذي ليس له الحق، إما عمدا لدافع كالمحاباة والمحسوبية والرشوة أو غير ذلك مما يدعو إلى تقديم الظالم على المظلوم، وإما عن غير قصد، بل لبلاغة أحد الخصوم، وقدرته على المحاجحة والمغالطة في القرائن والأدلة، وقوة فصاحته، وإما لخفاء الأدلة، وغموض الظروف المحيطة بالقضية، بعد أن استنفذ الحاكم جهده في الوصول إلى الحق فيحكم بالظاهر، الذي يكون على خلاف الحقيقة؛ لذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. تحذيرا من أكل الأموال ظلما عن طريق التقاضي بشأنها أمام الحكام.

فالآية نفت الاشتباه، وبينت أن الاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم؛ لأن الحكم لا يغير الحق في نفسه، ولا يحله للمحكوم له به".[1]

والدليل من خلالها على أن قضاء القاضي لا يؤثر في تغيير حرمة أكل المال، هو ما نصت عليه من أن المال الذي يؤكل بواسطة الحكم إثم. وهذا صريح في أن قضاء المحاكم لا يحرم حلالا،

---

[1] محمد رضا، المنار، [illegible] 1992.

ولا يحل حراما، ولا ينفذ إلا ظاهرا عند جمهور الفقهاء خلافا لأبي حنيفة[1] -دون أصحابه- الذي قال بنفاذه باطنا وظاهرا.[2]

فكل من قضي له بشيء، وهو يعلم أنه لاحق له فيه، حرم عليه أخذه لقوله ﷺ: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا}.[3]

في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: اخْتَصَمَ رَجُلَانِ إِلَى النَّبِي ﷺ عَالِمٌ بِالخُصُومَةِ وَجَاهِلٌ بِهَا، فَقَضَى رَسُّولُ اللهِ ﷺ لِلْعَالِمِ، فَقَالَ مَنَ قَضَى عَلَيْهِ: يَا رَسُّولُ وَالذِّي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ إِنِي مُحِقٌ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أُعَاوِدُهُ، فَعَاوَدَهُ فَقَضَى لِلْعَالِمِ، فَقَالَ المَقْضِي عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ أَوَلًا ثُمَّ عَاوَدَهُ ثَالِثًا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: {مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِخُصُومَتِهِ فَإِنَمَا اقْتَطَعَ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَقَالَ العَالِمُ المَقْضِي لَهُ: يَا رَسُّولَ اللهِ إِنَّ الحَقَ حَقَهُ فَقَالَ ﷺ: مَنْ اقْتَطَعَ بِخُصُومَتِهِ وَجَدَ لَهُ حَقَ غَيْرِهِ فَلْيَتَبَوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ}.[4]

وروي عن ابن عباس ﷺ قال: {هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيِّنَةٌ، فَيَجْحَدُ المَالَ، وَيُخَاصِمُ إِلَىَ الحُكَامِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الحَقَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَهُ آثِمٌ آكِلُ الحَرَامِ}.[5]

وهذا ما حذّر منه أيضا بعض التابعين[6] فقالوا: {لاَ تُخَاصِمْ وَأَنْتَ تَعْلَمْ أَنَكَ ظَالِمٌ}.[7]

---

[1]- هو: الإمام، صاحب المذهب، فقيه الملّة، أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي، الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة يقال: أنه من أبناء الفرس. ولد سنة (80هـ)، روى عن عطاء بن رباح وهو أكبر شيخ له. عُني بطلب الآثار وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى. قيل أنه صلى مدة أربعين سنة صلاتي العشاء والصبح بوضوء واحد. توفي سنة (150هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 390/6-403، برقم (163)].

[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 192/2/1.

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، ص439، برقم (2458)، من طريق أم سلمة -رضي الله عنها- بهذا اللفظ، وكتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم، ص1323، برقم (7169)، وباب من قضى إليه بحق أخيه، ص1325، برقم (7181)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، ص842-843، برقم (1713)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب في قضاء القاضي إذا أخطأ، 325/2، برقم (3583)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأحكام، باب قضية الحاكم لا تحل حراما ولا تحرم حلالا، 777/2، برقم (2317)؛ ومالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق، 259/2، برقم (2103)؛.

[4]- ورد عند الرازي، التفسير الكبير، 101/5-102. و لم أعثر عليه عند غيره في حدود ما اطلعت عليه.

[5]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 521/1.

[6]- منهم: مجاهد، سعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم. [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 521/1].

[7]- أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، 321/2، برقم (1704).

أما إذا كان المحكوم له بالباطل، لا يعلم أنه أخذ ما ليس له؛ لاعتقاده أنه صاحب الحق لشبهة عرضت له، فيجوز له أن يأخذ ما حكم له الحاكم به من مال إذا قامت بينة، ويكون معذورا فيما يأكله بحكمه.[1]

إذا فالحكم بالجواز وعدمه يخضع للعلم بدليل تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ "وهو احتراس عمن يأكل معتقدا أنه حقه"[2] الذي يدل -علاوة على ما سبق- على تشنيع وتفظيع حال من يأكل أموال الناس بواسطة الحكام، وهو يعلم أنه لاحق له فيها؛ لأن المدلي بالأموال للحكام ليأكل أموال الناس عالم لا محالة بصنعه.[3]

ويدخل في هذا أيضا أكل أموال الناس، عن طريق التصريح الذي تمنحه الدولة، لبيع المحرمات كالخمور، وفتح المراقص والملاهي، رغم أن هذا التصريح لا يحلل ما حرمه الشارع، ولا يعطيه أبدا الحق في استنـــزاف أموال الناس ظلما. ومن تجرّأ على ذلك فهو آثم سيان بينه وبين من أذن له في ممارسة الظلم المالي.[4]

ويكفي للامتناع عن اقتراف هذا النوع من الظلم، أن التحذير الذي ساقته الآية ورد عقب ذكر حدود الله، والدعوة إلى تقواه. وولد في جو من الخوف والترهيب الرادع عن قربان الظلم؛ بالابتعاد عن حرمات الله جميعا.

الفرع الثامن: ظلم المال باليمين الكاذبة

نهى المولى ﷻ عن أكل الأموال بالطرق غير المشروعة كالسرقة والغصب، وشهادة الزور واليمين الكاذبة ونحوها؛ فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .[5]

نقل الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ عن المفسرين عدة وجوه، أحدها أن المراد الودائع ومالا يقوم عليه بينة، وثانيها: هو مال اليتيم يدفعون بعضه إلى الحاكم ليبقي عليهم بعضه، وثالثها: أن المراد من الحاكم شهادة الزور، ورابعها: هو أن يحلف ليذهب

[1] – الجصاص، أحكام القرآن، 254/1؛ محمد رضا، المنار، 199/2.
[2] – محمد رضا، المنار، 200/2.
[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 193/2/1.
[4] – عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، ص72.
[5] – البقرة: 188.

حقه، وخامسها: هو إرشاء الحكام. وهو المقدم عنده لقربه من الظاهر، مع أنه لا يستبعد حمل اللفظ على الكل؛ لأنها بأسرها أكل للباطل.[1]

وعموما في الآية نهيان: نهي عن أكل الأموال بالباطل، ونهي عن أكل الأموال بالباطل عن طريق الحكام. أما لفظ الإثم ففُسر بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم أن المقضي له ظلم. وكل ذلك حرام.[2] والأرجح أنه أعم من ذلك، وإن كان سبب النـــزول يعضد أكل الأموال بواسطة اليمين الكاذبة.[3]

وفي الحقيقة أكل الأموال باليمين الكاذبة، صورة من صور الظلم لأكل الأموال بالباطل، وهي من الطرق المحرمة شرعا، ولا تخرج من عموم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[4] لاسيما وأن هذه الصورة كانت من أسبـــاب نزول الآية السابقة -آية البقرة- لمـــا رويّ أنـــه:

{جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ[5] وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ[6] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي كَانَتْ لِأَبِي فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي فِي يَدِي أَزْرَعُهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْحَضْرَمِيِّ أَلَكَ بَيِّنَةٌ قَالَ: لَا قَالَ: فَلَكَ يَمِينُهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ

---

[1] – الرازي، التفسير الكبير، 101/5.

[2] – محمد [illegible] المنار، 200/2.

[3] – سعيد حوى، الأساس في التفسير، 434/1-435.

[4] النساء، 29.

[5] – حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام. وحضرموت من اليمن. فتحها الرسول ﷺ وولّى عليها رجل من رجالها: زياد بن لبيد البياضي الأنصاري وضمّ إليه كندة. [شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، (1397هـ/1977م)، 269/2-271].

[6] – كِنْدَة: قبيلة شهيرة من عرب اليمن. حكموا حضرموت. نزحوا إلى الحجاز ونجد. عرفوا بنصرانيتهم في الجاهلية. منهم كان الحارث ملك الحيرة وحجر والد امرئ القيس. إليهم ينتسب الكندي الفيلسوف. [المنجد في اللغة والأعلام، ص595].

فَانْطَلَقَ لِيَحْلِفَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَدْبَرَ: أَمَا لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ}[1] فنـــزلت.

فدل هذا الحديث بلفظ صريح على أن من صور الظلم المالي، أخذ أموال الناس باليمين الكاذبة، وتوعد كل من يتجرأ على ذلك بغضب الله وإعراضه عنه يوم القيامة.

والحلف كذبا وعمدا يعرف باليمين الغموس لأنها "تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، وقيل الأصل في ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا أن يتعاهدوا أحضروا جفنة فجعلوا فيها طيبا أو دما أو رمادا ثم يحلفون عندما يدخلون أيديهم فيها ليتم لهم بذلك المراد من تأكيد ما أرادوا. فسميت تلك اليمين إذا غدر صاحبها غموسا لكونه بالغ في نقض العهد وكأنها على هذا مأخوذة من اليد المغموسة".[2]

وتعد من الكبائر لما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال:{جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْيَمِينُ الْغَمُوسُ قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ قَالَ: الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ}.[3]

وكل من يقتطع أموال الناس عن طريق اليمين الغموس، يغمس في النار وتحرم عليه الجنة، وإن كان ما أخذه هينا وحقيرا، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلا بقضيب الأراك لقوله ﷺ:{مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ}.[4]

فثمن عود الأراك زهيد جدا، إلا أن أخذه بغير حق، يؤول بآخذه إلى النار، لأن النفس البشرية إذا تجرأت على المعصية مرة، عاودتها واسترسلت فيها بحكم العادة إلى أن تنغمس في الكبائر دون أن يشعر الإنسان بذلك التدهور من السيء إلى الأسوأ. فتنفلت النفس، ولن يتمكن

---

[1] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ص85، برقم(139)، من طريق وائل بن حجر؛ والترمذي في سننه، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب ما جاء في أن البينة على المدعي والبيان على المدعى عليه، ص412-413، برقم(1344)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الدعوى والبينات، باب من عرف له أصل ملك فهو على ملكه، 440/10، برقم (21244).

[2] – ابن حجر، فتح الباري، 555/11.

[3] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعارضين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، ص1271، برقم (6920)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الأيمان، باب ما جاء في اليمين الغموس، 62/10، برقم (19868)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في حشر الناس بعد ما يبعثون من قبورهم، 265/1-269، برقم (284).

[4] – تقدم الحديث سابقا في موضوع الغصب.

من كبح جماحها لما تحتاج إليه من الترويض على الوقوف عند حرمات الله تعالى؛ ولذلك قطع النبي ﷺ الطريق أمام الظلم القليل قبل الكثير، وبيّن أنهما يستويان في الحرمة والوعيد.

ومن صور اقتطاع أموال الناس عن طريق اليمين الكاذبة، ما تشهده الأسواق يوميا لدى الباعة. هؤلاء الذين يتخذون أيمانهم وسيلة للوصول إلى أموال الناس ظلما، فيحلفون على أن الثمن الذي يُعرض للمشتري أقل من ثمن السلعة، أو أن الربح لا يزيد عن قيمة محددة، أو أنه أعطي فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ونحو ذلك.

وقد حذّر النبي ﷺ من الحلف على السلعة كذبا، رغم أنه قد يدر أموالا طائلة إلا أنّه يمحق البركة ويذهب بها؛ لقوله ﷺ:{الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ}.[1]هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة، فهو من بين الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم، وقد أعد لهم علاوة على ذلك عذابا أليما لقوله ﷺ: {ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ}.[2] وخص بعد العصر بالحلف "لشرفه بسبب اجتماع ملائكة اللّيل والنّهار وغير ذلك".[3]

اليمين الكاذبة وسيلة لأكل أموال النّاس ظلما، هذا الظلم الذي يؤدي إلى ذهاب بركة الأموال في الدّنيا، ويوقع في غضب الله وإعراضه وعدم رضاه عن الظالم؛ لذلك ينبغي المسارعة إلى الإقلاع عن هذا الظلم.

---

[1]- أخرجه النسائي، السنن الكبرى، 6/4، برقم (6052)؛ وأحمد في مسنده، 139/12-140، برقم (7207)، و243/12، برقم (7293)، و203/15- 204، برقم (9349) بنفس اللفظ؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب البيوع، باب ذكر الزجر عن أن ينفق المرء سلعته، 271/11، برقم (4906)، من طريق أبي هريرة؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب البيوع، باب كراهية اليمين في البيع، 435/5، برقم (10409)؛ أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي الحميدي، مسند الحميدي، تحقيق حسين سليم أسد الدّاراني، دار السقا، دمشق، ط1، (1996م)، كتاب البيوع، 228/2، برقم (1060)، ورقم (1061)؛ وأبو يعلى الموصلي، المسند، 347/11، برقم (6460)، 366/11، برقم (6480)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، كتاب البيوع، باب ما نهي عنه من الحلف، 260/5، برقم (1).

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، ص413، برقم (3369)، وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ص1374، برقم (7446)، من طريق أبي هريرة بلفظ مختلف وبنفس المعنى؛ والنسائي السنن الكبرى، 492/3، برقم (6020)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب إحياء الموات، باب ما جاء في النهي عن منع فضل الماء، 251/6، برقم (11845)؛ والطبراني، المعجم الأوسط، باب من اسمه أحمد، 242/2-241، برقم (1863).

[3]- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الأحكام، باب من بايع رجلا لا يبايعه إلا للدنيا، 215/13، شرح حديث رقم (6949).



المطلب الثالث: ظلم الأعراض

يستدعي المقام، قبل الحديث عن هذا النوع من الظلم، تحديد مفهوم العرض، واستخدامه عند أهل اللغة، وأهل الاصطلاح. أما في اللغة فله عدة معاني منها:[1]

- يطلق العرض على الجسد، وعلى رائحة الجسد وغيره طيبة كانت أو خبيثة، يقال فلان طيب العرض، ومنتن العرض.
- كما يطلق أيضا على النفس، يقال أكرمت عنه عرضي، أي صنت عنه نفسي، وفلان نقي العرض، أي بريء من أن يشتم أو يعاب، وقيل العرض الحسب.

وفي الحقيقة، لا تخرج الاستعمالات الاصطلاحية، للفظ العرض عن هذه المعاني، وأذكر منها:

- الظاهر أن المراد بالأعراض، الأخلاق النفسانية.[2]

وقد يراد به العفة عن الزنا، يقال طعن في عرضه أي رماه بالزنا. وعلى العموم يطلق على موضع المدح والذّم في الإنسان[3] سواء كان في نفسه أو في سلفه أو من يلزمه أمره، وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه[4] بينما هناك من أنكر هذا، إذ يرى أن عرض الرجل نفسه وبدنه لا غير، ولا يجوز فيه معنى الآباء والأسلاف[5] مستدلا بقوله ﷺ: {فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ}.[6]

ولكن رفض صاحب شرح السنة أيضا إطلاق النفس على العرض؛ لأن ذلك يؤدي إلى التكرار، فذكر الدماء كاف، إذ المراد بها النفوس،[7] بينما صوّب ذلك صاحب النهاية الذي يرى أن هذا يدخل في المجاز، وهو من باب إطلاق المحل على الحال؛ لأن موضع العرض النفس. وكذلك بالنسبة لمن قال المراد بالعرض؛ الأخلاق. فهو من إطلاق الاسم اللازم على

---

[1]- الجوهري، تاج اللغة، 1091/3.

[2]- قاله الطيبي. [بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ضبط وتصحيح عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2001م)، 110/10].

[3]- محمد قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، ص309.

[4]- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 208/3-209.

[5]- قاله ابن قتيبة. [العيني، عمدة القارئ، 110/10].

[6]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ص17، برقم(52)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقات، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ص768، برقم (1599)؛ أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات، 263/2، برقم (3329)؛ ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب الوقوف عند الشبهات، 1318/2-1319، برقم (3984)؛ أحمد في مسنده، 289/30، برقم (18347)، 334/30-335، برقم (18384)، 371/30، برقم (18418)، كلهم من طريق النعمان بن بشير رضي الله عنه.

[7]- البغوي، شرح السنة، كتاب الحج، باب الخطبة يوم النحر، 128/4، ضمن شرحه لحديث رقم (1958).

الملزوم؛ لأن المدح نسبة الشخص إلى الأخلاق الحميدة، والذم نسبته إلى الذميمة سواء كانت فيه أو لا.[1]

وخلاصة القول في هذه المعاني أنها على قسمين:[2]

قسم واقع في رتبة الضروريات كالقذف، ولكنه راجع إلى حفظ النسب أو النسل. وقسم ليس واقعا في رتبة الضروريات كالشتم بكلمة بسيطة لا قذف فيها ونحو ذلك.

وظلم الأعراض لا يقل في شدة حرمته عن ظلم الدم والمال، لاسيما أن بعض الأصوليين[3] عدّ العرض من الضروريات، وذكره مقصدا سادسا. ولا يخفى أن النبي ﷺ قرن بين العرض والدّم والمال في الحرمة: فيما رواه عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ: إِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ثُمَّ أَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ مِرَارًا قَالَ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاللَّهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّةٌ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَالَ أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ}.[4]

فبيّن النبي ﷺ من خلال هذا الحديث أن العرض عديل الدم والمال في الحرمة لا فرق في ذلك بينهما، فيستوي ظلم الأعراض بظلم الدماء والأموال، فكلها لا تقل عن بعضها ظلما وشؤما.

---

[1] – ابن الأثير، النهاية، 209/3.

[2] – اليوبي محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة، الرياض، د.ط، (1418هـ/1998م)، ص278.

[3] – منهم الطوفي والسبكي والحلي وابن النجار وغيرهم. [اليوبي، مقاصد الشريعة، ص276].

[4] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول الرسول ﷺ ربّ مبلغ أوعى من، ص21، برقم (67)، وكتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ص304، برقم (1739)، وص305، برقم (1742)، وكتاب المغازي، باب حجة الوداع، ص797، برقم (4406)، وكتاب الأدب، باب قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات:11]، ص1129، برقم (6043)، من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ مسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ص823-824، برقم (1679)، من طريق أبي بكرة الثقفي؛ أحمد في مسنده، 252/27، برقم (16699)، 253/27، برقم (16700)، 264/34-265، برقم (20666)، واللفظ له من طريق أبي غادية.

وظلم الأعراض قد يكون بالأفعال كالزنا واللواط، وقد يكون بالأقوال كالسخرية، واللمز والتنابز والغيبة ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ .[1]

فبيّن ﷻ من خلال هذه الآية أن الجهر بالسوء من القول يعد ظلما نهى عنه بقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ﴾ وهي "صيغة نفي الإذن، والأصل فيه التحريم، وهذا المراد هنا؛ لأن ﴿لَا يُحِبُّ﴾ يفيد معنى يكره، وهو يرجع إلى معنى النهي".[2]

فالآية جاءت؛ لتطهير النفس والمجتمع، من ظلم الأعراض بالأقوال، فنهى ﷻ عن جميع الصور القولية، والمعاملات، التي من شأنها إيذاء الناس، والإضرار بهم - وهو "ما تعبر عنه المصطلحات القانونية بالسّب والقذف"-[3] وظلمهم كالسّب والشتم والتجسس، والنميمة ونحوها.

وقد قال الشوكاني[4] -رحمه الله- "اعلم أن من أقبح أنواع الظلم ما يرجع إلى الأعراض من غيبة أو نميمة أو شتم أو قذف".[5]

ورغم أن ظلم الأعراض بالأقوال، يعد أضعف أنواع الظلم وأقلها إيذاء مقارنة بظلم الأعراض بالأفعال الأشد قبحا وتحريما، إلا أنه أكثر أنواع الظلم انتشارا، إذ يتعسر التحرز منه، ويقل التحفظ فيه، لأنه سهل على اللسان، لذا لا يكاد يسلم أحد من الوقوع فيه. "و ما أكثر الظلمة في الأعراض؛ فإن الظلمة في الدماء والأموال، قليلون بالنسبة إلى من يظلم الناس في أعراضهم؛ لأن غالب الناس لا يستطيعون أن يظلموا الناس في دمائهم وأموالهم، بخلاف الظلم في الأعراض؛ فإنه لما كان مقدورا لكل أحد، تتابع فيه كثير من الناس، ووقع فيه كثير من أهل العلم والفضل، زين ذلك لهم الشيطان حتى صاروا في عداد الظلمة للدماء والأعراض بل أشر منهم مع عدم النفع لهم؛ فإن الظلمة في الدماء قد شفوا أنفسهم بالوقوع في هذه المعصية، وكذلك الظلمة في الأموال قد انتفعوا بما أخذوه من الأموال، وأما الظلمة في الأعراض، فليس لهم إلا مجرد المعصية

---

1 - النساء: 148.

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/6/3.

3 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/2/796.

4 - هو: أبو عبد الله محمد بن علي الشوكاني الصنعاني اليماني، الفقيه المجتهد، المحدث الأصولي. ولد سنة (1172هـ)، وتوفي سنة (1250هـ). له من التآليف: الأبحاث البديعة في وجوب الإجابة إلى أحكام الشريعة، إرشاد الفحول وغيرها. [عبد الله مصطفى المراغي، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ط1، (د.ت)، 3/144-145؛ البغدادي، هدية العارفين، 6/365-366].

5 - الشوكاني، نثر الجوهر، ص94.

المحصنة، والذنب العظيم، والظلم الخالي عن النفع، مع أنه أشد على الهمم الشريفة، والأنفس الكريمة من ظلم الدم والمال".[1]

وظلم الأعراض بالأقوال، عادة ما يبدأ بكلمة عابرة، لا يحسب قائلها حسابا لما وراءها، ولكن تنتهي انحلالا اجتماعيا، وفوضى أخلاقية، تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض، وتنعدم الثقة بينهم، وتشيع الاتهامات، وتكثر الشائعات، وتلوكها الألسن بلا تحرج، فينتشر هذا الظلم، الذي كثيرا ما يترك أثارا عميقة في ضمير المجتمع، ويخيّل للناس بأن الشر عمّ، ويزين لمن في نفسه استعداد للظلم، والإقدام عليه دون تقية؛ لأن الظلم أصبح ديدن المجتمع، وهم ليسوا أول الظالمين لاسيما أن طول الألفة، تذهب ببشاعة هذا الظلم، ويخف اشمئزاز النفس منه، بعد استقباحه وإنكاره بشدة.[2]

لهذا كله نهي ﷻ عن ظلم الأعراض بالأقوال، لئلا يشيع الظلم والظالمون، ولكن هذا وحده لا يكفي؛ لأن الامتناع عن الظلم يحتاج إلى خوف من الله ﷻ يظل قابعا في النفس، يصون الإنسان من الظلم؛ لذلك عقبت الآية النهي بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ وهو تحذير مفعم بالترهيب من الله ﷻ الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة من الظلم، ولا من الظالمين. فلا يدع بذلك مجالا أمام الظالم للأعراض بالأقوال، لإنكار ظلمه؛ وكيف يتجرأ على الإنكار أمام السميع لجميع الأقوال، العليم بما وراء ها من النيات!.

ولبيان ظلم الأعراض بالأفعال والأقوال، ينبغي تقديم بعض النماذج التي تحدث عنها القرآن ومنها:



الفرع الأول: صور لظلم الأعراض بالأفعال

من صور ظلم الأعراض بالأفعال التي تحدّث عنها القرآن الكريم الزنا واللّواط.

أولا: الزنا

---

[1]- نفسه، ص95.

[2]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/2/795-796.

من أعظم أنواع الظلم في الأعراض، الاعتداء عليها بجريمة الزنا، لما فيه من ظلم الأنساب بإضاعتها، والنسل بتعريضه للإهمال، والنساء بالإفساد على أزواجهن، وإلحاق العار بأوليائهن، وتعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن تزويجها، أو طلاق زوجها إياها، وما ينشأ عن ذلك من الهرج والتقاتل غيرة على الأعراض.[1]

وعلاوة على ذلك فإنّ الزنا يؤدي إلى ظهور الأمراض المعدية المستعصية كالإيدز والزهري، هذه الأمراض التي تجاوزت تهديد حياة المجتمعات بحيث أصبحت الأرقام اليوم في تزايد مستمر، وقد يدفع بعض الأبرياء ثمن أخطاء هؤلاء الظالمين سواء عن طريق الحقن أو غيرها من الوسائل التي تنقل العدوى.

وقد قال ابن تيمية: "فالزاني بامرأة أو غلام إن كان استكرهها فهذا ظلم وفاحشة وإن كانت طاوعته فهذا فاحشة وفيه ظلم أيضا للآخر؛ لأنَّه بموافقته أعان الآخر على مضرة نفسه لاسيما إن كان أحدهما هو الذي دعا الآخر إلى الفاحشة فإنَّه قد سعى في ظلمه وإضراره بل لو أمره بالمعصية التي لا حظ له فيها لكان ظالما له؛ ولهذا يحمل من أوزار الذي يضله بغير علم فكيف إذا سعى في أن ينال غرضه منه مع إضراره. ولهذا يكون دعاء الغلام إلى الفجور به أعظم ظلما من دعاء المرأة لأن المرأة لها هوى فيكون من باب المعاوضة كل منهما نال غرضه الذي هو من جنس غرض الآخر فيسقط هذا بهذا ويبقى حق الله عليهما؛ فلهذا: ليس في الزنا المحض ظلم الغير إلا أن يفسد فراشا أو نسبا أو نحو ذلك".[2]

والزاني ظالم مآله إلى الخسران إن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[3]

أي: " أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي. فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/15/90-91.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 20/79-80.

3- يوسف 23.

واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه". [1]

قال ابن عاشور: "وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي أمنه على بيته وأمنها على نفسها إذ اتخذها زوجاً وأحصنها". [2]

فبين الله ﷻ من خلال محنة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز أن الزنا ظلم، وهو من ظلم الناس في أعراضهم، علاوة على كونه ظلم للنفس بالوقوع في هذه الفاحشة العظيمة، لا يفلح صاحبه لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لذلك امتنع يوسف عليه السلام عن ممارسة هذا الظلم أشد الامتناع رغم المؤامرة التي حاكتها امرأة العزيز للإيقاع به، وما هيأته من ظروف ووسائل تؤدي إلى هتك الأستار وتدنيس الأعراض بالزنا، بحيث بلغت درجة التذلل له، والإلحاح عليه لتلبية نداء الشهوة الجامحة الظالمة، إلا أنه ازداد ترفعا عن الظلم، رافضا انتهاك عرض ربه وسيده ولي نعمته. هذا الإحسان الذي لا يستحق أن يقابل بالظلم في الأهل والعرض. وقد فرّ يوسف عليه السلام إلى الله راجيا العصمة من الظلم والظالمين.

ومن أشد أنواع الزنا ظلما، الزنا بالأقارب والخدم والجيران والأصدقاء لاسيما المحارم. فهذا النوع لا يقع إلا ممن لا كرامة له ولا خلق، ولا اعتراف بالجميل والإحسان فضلا عن الدّين. هذه النعم التي عدها القرآن على لسان يوسف عليه السلام كابحا كافيا للامتناع عن هذا الظلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾.

وهو ظلم يدل على انحراف خطير عن الفطرة والدين، وانحلال خلقي تجاوز حدود البهيمية، وأصبح اليوم الخوف من ظلم الأعراض بالزنا كابوسا يؤرق البيوت، وهاجسا يطارد الآباء والأمهات؛ لأن الجرائد تطالعنا يوميا بفضائح عن هتك أعراض المحارم والأقارب بالزنا؛ تصعق القارئ.

وإذا كان الزنا ظلما لا يفلح صاحبه في الدنيا ولا في الآخرة، فإن زنا المحارم أشد ظلما وأهله أظلم الظالمين، وعقابهم يوم القيامة أشد وأنكر؛ لقوله ﷺ في من يزني بحليلة جاره: {لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ} [3] فبيّن ﷺ أن إثم هذا الظالم لجاره في

[1] - ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص396.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 252/12/5.

[3] - أخرجه أحمد في مسنده، 277/39، برقم (23854)، من طريق المقداد بن الأسود؛ والطبراني، المعجم الأوسط، باب الميم من اسمه محمد، 254/6، برقم (6333)؛ البيهقي، شعب الإيمان، باب في إكرام الجار، 81/7، برقم (9552).

عرضه يتضاعف إلى عشرة أضعاف، فكيف إذا بمن يعتدي على أعراض محارمه كأمه أو أخته أو ابنته!!

ولهذا حذر القرآن الكريم من ظلم الأعراض بالزنا تحذيرا شديدا، بل حذّر من مجرد مقاربته، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.[1] "والقرب المنهي عنه أقل الملابسة، وهو كناية عن شدة النهي عن ملابسة الزنا"،[2] ومبالغة في التحرز؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة ظالمة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند مقاربة أسبابه ووسائله لا يكون هناك ضمان،[3] كما في قصة يوسف عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ إذا الاختلاط والاجتماع في بيت واحد، كان من أهم الوسائل والأسباب الداعية إلى المراودة.

ومن ثمّ ينهى القرآن الإنسان من الاقتراب من الوسائل والأسباب التي تدفع إلى الوقوع في ظلم الأعراض بالزنا، فيحرم الوسائل المؤدية إليه كما يحرمه اتقاءً له، قبل احتياج العلاج.[4]

والوسائل التي تفضي إلى ظلم الأعراض بالزنا كثيرة، منها ما حرمه القرآن، ومنها ما كرهه، كالاختلاط لغير ضرورة، والخلوة، ولذلك شرّع الزواج وحضّ عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.[5] وإن لم يتيسر الزواج، ففي الصبر والصوم ملاذ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.[6]

وشرّع الاستئذان قبل دخول البيوت فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[7] ونهى عن التبرج والزينة أمام غير المحارم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[8] وقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ



[1] – الإسراء: 32.

[2] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 90/15/6.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2224/15/4.

[4] – نفسه.

[5] – النور: 32.

[6] – النور: 33.

[7] – النور: 27.

[8] – النور: 31.

﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.[1] كما أمر بغض البصر وكفه؛ فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[2] ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾،[3] ويوقع أشد العقوبة على جريمة ظلم الأعراض بالزنا؛ ليكون هذا الظالم عبرة لكل من تحدثه نفسه بهذا الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.[4] إلى غير ذلك من وسائل الوقاية والعلاج لحفظ الأمة من التردي في ظلمات الظلم.

وعلّل ﷻ النهي عن ملابسة ظلم الأعراض بالزنا تعليلا مبالغا فيه من عدة جهات،[5] فوصفه بالفحش الذي يمثل الحد الأقصى في القبح والظلم؛ لأن الزنا قبيح بالفطرة، وقبحه ثابت حتى إن بعض من لا دين لهم يرفضونه، ويعاقبون عليه. أما من يجعله حقا للرجل والمرأة كما هو الحال في المجتمعات الغربية، فقد انحرف عن الفطرة السليمة.

كما أكّد القرآن قبح هذا الظلم بحرف التوكيد، وأقحم الفعل الناقص المؤذن بأن الفحش والسوء وصفان راسخان ومستقران في ظلم الأعراض بالزنا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

فالزنا صورة من صور ظلم الأعراض التي انتشرت كثيرا في هذا العصر واستفحلت، وأفرزت آثارا مدمرة على مستوى الزناة وغيرهم. حيث يدمر أسرا ويشتتها، ويهدد كيان الدول إن لم تسارع إلى محاربة هذا النوع من الظلم والأخذ على أيدي الظالمين.

ثانيا: ظلم الأعراض باللواط

من أشد أنواع الظلم وأسمجها في الأعراض الجور عليها بجريمة اللواط، فما من ظلم أظهر للعقل، وأعظم انحرافا عن سنة الفطرة، كهذا الظلم الذي تشمئز منه النفس وتأباه، ولا يخلف إلا مرضا وعارا بل دمارا على مستوى الفرد والمجتمع، ويلحق بالظالمين الأذى والعار، ويعمل على القضاء على النوع البشري، الذي يعد الحفاظ عليه من أهم مقاصد الشريعة وأحد الكليات الخمس.



---

[1] – الأحزاب: 33.

[2] – النور: 30.

[3] – النور: 31.

[4] – النور: 2

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 90/15/6.

فإن استكره أحدهما الآخر فظلمه ظاهر، وإن كان عن طواعية فقد أعان كل واحد منهما الآخر على الإضرار بنفسه وظلمها في الدنيا، بعزوفه عن الحياة الطبيعية، والتعرض للإصابة بالأمراض المختلفة وغيرها من العقوبات الدنيوية والأخروية. واللّواط أعظم ظلما من الزنا؛ لأنّ المتلوط "لا غرض له فيه إلا برغبة أو برهبة والرغبة والمال من جنس الحاجات المباحة فإذا طلب منه الفجور قد يبذله له فهذا إذا رضي الآن به من جنس ظلم المؤتي لحاجته إلى المال؛ لكن هذا الظلم في نفسه وحرمته فهو أشد".[1]

وقد عالج القرآن الكريم هذا النوع من الظلم للأعراض في مواضع عديدة، وذلك من خلال قوم لوط عليه السلام، الذين سماهم الله تعالى ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام: **﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾** [2] فقد ظلموا بممارستهم اللّواط؛ لقوله تعالى: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾**[3] وقوله: **﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾**.[4]

والفاحشة من الفحش: "و هو الكثرة والقوة في الشيء المذموم والمكروه وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة أو ينشأ عنها ضر وفساد بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولوا الأحلام، ويستحي فاعلها من الناس، ويتستر من فعلها مثل البغاء والزنا والوأد والسرقة، ثم تنهى عنها الشرائع الحقة، فالفعل يوصف بأنه فاحشة قبل ورود الشرع كأفعال أهل الجاهلية".[5]

والمراد بالفاحشة في هذه الآية اللّواط بدليل ما جاء بعدها من قوله تعالى: **﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾** . واللّواط هو "إتيان الذكور دون الإناث".[6] وسمي بهذا الاسم نسبة نسبة إلى قوم لوط عليه السلام لأنهم البيئة الأولى التي ولد فيها هذا النوع من الظلم للأعراض، ولم يكن

---

1 – ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 20/79-80.

2 – العنكبوت: 31.

3 – الأعراف: 80-81.

4 – الشعراء: 165-166.

5 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/8/82.

6 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 2/230.

معروفا ولا مألوفا عند البشرية من قبل بدليل قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ولقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

فقوم لوط عليه السلام –أي أهل سدوم[1]– هم أول من أحدث هذا الظلم اللوطي، وسنّ سنة سيئة للظالمين الفاحشين، فهم يحملون وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ولا شك أن هذه الأسبقية في ممارسة اللواط، والجرأة على فعله، ينم عن فظاعة هذا الظلم، ومصادمته للفطرة، واستقذاره من قبل العقل، ونفور الطبيعة الحيوانية منه –إذ لا يقع من البهائم– فضلا عن الطبيعة البشرية. وهي من أهم الكوابح التي من شأنها منع الإنسان من الوقوع في هذا الظلم الفاحش، الحقيق بأن يكره ويستفظع بدل الرغبة في تحصيله واشتهائه، مما يزيده قبحا لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

وقد قطع المولى سبحانه وتعالى الأعذار أمام اللائطين الظالمين فقال: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ مبينا أنه عز وجل فطر الإنسان على غريزة تمنعه من الوقوع في الظلم اللوطي، وهيأ له سبل تلبية هذه الغريزة، والحفاظ على النوع البشري، وتحقيق التوازن النفسي والجسدي بعيدا عن هذا الظلم.

ولكن اللائطين الظالمين يذرون هذه النعمة، ويلهثون وراء شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة، فقد تمكن الظلم في الشهوات منهم، وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء؛ لذلك وصفهم القرآن بالإسراف فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي مسرفون في الظلم والباطل والجرم منتقلا من بين إنكار هذا الظلم إلى تغليظ ذم اللائطين الظالمين.[2]

وكما وصف القرآن هؤلاء الظالمين بالإسراف في الظلم وصفهم بالعدوان فقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مبالغة في نسبة العدوان الذي هو الظلم إليهم، فقد تأصّل في نفوسهم، وأصبح سجية من سجاياهم وأحد مقومات حياتهم.

وللأسف الشديد فإن هذا الظلم للأعراض امتد خطره إلى المجتمعات الحديثة وأصبح يهدد الكيان البشري لا سيما عند فئة الشباب، حيث تختفي الرقابة الأسرية، وتتوفر شروط الاحتكاك

1- سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، وقيل أنها سذوم بالذال المعجمة. وهي سرّمين بلدة من أعمال حلب معروفة عامرة عندهم، وكان يضرب المثل بقاضيها لجوره. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3/200-201].

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/8/231.

دون حدود، بل تجاوز الأمر ذلك إلى الاعتداء على الأطفال، واستغلال البراءة لإرضاء نداءات الشهوة الظالمة المناقضة للفطرة؛ ليصبح عند هؤلاء الأطفال مرضا لا شفاء منه، وإدمانا لا برء منه، ينخر أجسادهم وأرواحهم، فيروج المثل الظالم.

بل إن وسائل الإعلام اليوم تطالعنا بوجود جمعيات وهيئات أُنشئت بدعوى الدفاع عن حقوق هذه الفئة المريضة من المجتمعات، والغريب أن يكون ذلك في عقر بعض الدّول العربية، والمرعب اكتساح هؤلاء الظالمين للمجتمع؛ إذ الأرقام المقدمة مرتفعة وتدعو إلى الخوف على مستقبل الدول من نزول العقاب العام لاسيما أن هؤلاء الظالمين يجاهرون بظلمهم، بل ويسعون إلى نشره من خلال الظهور على وسائل الإعلام.

وقد لعن الله ﷻ هؤلاء الظالمين فقال ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ}.[1] واللّعن الطرد من رحمة الله.

واختلف العلماء في عقوبة اللائط الظالم بين الرجم والتعزير وحدّ الزنا.[2]

وما عقاب الله عن هؤلاء اللائطين الظالمين ببعيد، سنة الله في أمثالهم لا تتخلف متى توفرت الأسباب، شأن قوم لوط عليه السلام الذين ظلموا بارتكابهم هذه الفاحشة واستمرارهم عليها، فأهلكهم الله وأهلك ديارهم وأموالهم وأولادهم بظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.[3] فهي العقوبة التي قد تنـــزل بالظالمين اللائطين في كل زمان ومكان، فالآية تحمل تحذيرا من الظلم عموما، وظلم الأعراض اللوطي خصوصا، لحماية المجتمع من هذا الظلم قبل حدوثه، ووقايته قبل علاجه.

ولا أحد يماري بعد هذا في كون اللّواط من أفظع صور الظلم للأعراض الذي يؤدي إلى عواقب وخيمة؛ لذلك ينبغي الوقوف في وجهه ومحاربته بشتى الوسائل والطرق لتطهير المجتمعات منه، ومنع خطره الزاحف.

الفرع الثاني: ظلم الأعراض بالأقوال

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحدود عن رسول الله، باب ما جاء في حد اللوطي، ص449، برقم (1460)؛ والنسائي، السنن الكبرى، 322/4، برقم (7337)؛ وأحمد في مسنده، 26/5، برقم (2816)، 83/5، برقم (2913)، 84/5، برقم (2915) بإضافة كلمة "ثلاثا"، واللفظ له، من طريق عبد الله بن العباس رضي الله عنهما؛ والحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الحدود، باب لعن الله، 507/4، برقم (8133)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في تحريم الفروج، 345/4، برقم (5373).

[2] ذهب المالكية والحنابلة إلى القول بالرجم، والحنفية إلى التعزير، أما الشافعي فنقل عنه القول بحد الزنا. [القرطبي، الجامع للأحكام القرآن، 243/7].

[3] 83-82.

إن السخرية والنبز والتنابز من أكثر صور الظلم للأعراض عن طريق الأقوال انتشارا في المجتمع. وهي من بين صور الظلم القولي، والمعاملات اللسانية التي قلما يقام لها وزن، وكثيرا ما تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها، بحيث لا يكاد الإنسان يسلم من الوقوع في هذا النوع من الظلم، الذي قد يؤدي إلى إثارة النـــزاع والخصام بين أفراد المجتمع، ويحطم أواصر الأخوة، فيزعزع الأمن والاستقرار.

وقد اهتم القرآن الكريم بحفظ الأعراض من الظلم القولي عن طريق السخرية والنبز والتنابز، فعالج هذا الموضوع في مواضع مختلفة منه لإقامة مجتمع عادل، تحفظ فيه الأعراض، وتصان من المساس بها أو الاعتداء عليها، فعمل على استئصال هذه الصور من الظلم عن طريق النهي والتحذير والتهديد؛ فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**.[1] فسمى الله ﷻ الساخر واللامز والنابز بالظالمين، مما لا يدع مجالا للشك في أن هذه الصور من الظلم العرضي المنهي عنه.

وشأن القرآن في النهي عن هذا الظلم، شأنه في سائر التكاليف الشرعية حيث يستهل النهي بنداء المؤمنين بصفة الإيمان؛ لأنه حيثية كل تكليف بعده، وأقوى الدواعي إلى الطاعة والخضوع، والكف عن هذا الظلم.

أولا: ظلم السخرية

بعد تطرية الأسماع واسترعائها، جاء النهي أولا عن ظلم الناس بالسخرية، وإبطال المعايير البشرية الظالمة التي يزن بها بعض الظالمين الناس، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾**. والسخرية "الاستهزاء والاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ".[2]

وقد تكون "بالمحاكاة بالقول أو الفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه أو على صنعته أو على قبح صورته".[3]

[1]- الحجرات: 11.

[2]- المراغي، تفسير المراغي، 9/26/132.

[3]- نفسه.

واستخدم ﷻ للنهي عن السخرية النكرة، لإفادة الشياع، وأن تصير كل جماعة منهية عنها، وجاء بلفظ قوم بدل الرجل لعدة أغراض، أولها: إفادة أن هذا الظلم من الصور الشائعة عند العرب في الجاهلية، وتوجيه النهي للأقوام استفظاعا لحالة الظلم التي كانوا عليها.[1]

وثانيها: أن السخرية لا تكون إلا بحضرة ناس، ومشهد الساخر الظالم لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله، فيشارك الظالم الساخر في ظلمه وتحمّل الوزر معه، وكذلك كل من يطرق معه هذا الظلم ويستطيبه، ويضحك به، فيؤدي ذلك وإن أوجده ظالم واحد إلى تكثر السخرة الظلمة، وانقلاب الظالم الواحد جماعة وقوما.[2]

فلفظ القوم يشير إلى أن كل من شارك الساخر الظالم، أو رضي وسكت وهو قادر على دفع هذا الظلم، يعد ظالما.

وتعليلا للنهي عن ظلم الناس بالسخرية قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ فبيّن أن الرأي السديد يقتضي ألا يسخر الإنسان من غيره، وألا يقع في أعراض الناس؛ لأن المظلوم محل السخرية، قد يكون خيرا من الساخر الظالم الذي ينهش الأعراض. إذ الإنسان لا يحكم على الناس إلا من خلال الظاهر، بينما المعتبر عند الله تعالى نقاء السرائر. فينبغي "ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال، أو ذا عاهة أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرا أو أنقى قلبا ممن هو على ضد صفته؛ فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله وعظمه".[3]

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الناس في أنفسهم، ليست هي القيم الحقيقية التي يوزن بها الناس، بل هناك قيم أخرى قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله تعالى، ويزن بها العباد؛[4] لقوله ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ}.[5]

وما يصدق على الرجال يصدق على النساء، إلا أن الله ﷻ خصّ النساء بالذكر فنهاهن عن الوقوع في هذا الظلم، رغم أن لفظ القوم يشملهن بطريق التغليب العرفي في الكلام، إما دفعا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال،[6] وإما لتأصل الاستسخار فيهن.[1] وإن كان الاحتمال

---

[1] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 247/26/10.

[2] – الزمخشري، الكشاف، 565/3؛ البقاعي، نظم الدرر، 232/7.

[3] – الزمخشري، الكشاف، 565/3؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 325/16؛ النسفي، تفسير النسفي، 585/2.

[4] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 3344/6/2.

[5] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ص1240، برقم (2564)؛ وأحمد في مسنده، 227/13، برقم (7827)، 564/16، برقم (10960). كلاهما من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[6] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 247/26/10.

الأخير بعيدا، بحكم الطبيعة البشرية التي تجمع بين الرّجال والنساء، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح. وهذا ما يؤكده الواقع.

ثانيا: ظلم اللمز

ومن صور ظلم الأعراض أيضا اللّمز؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وتسمية اللامز باسم الظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مما يدل على أنّ اللّمز ظلم يجب التخلص منه. واللّمز هو: "ذكر ما يعدّه الذاكر عيبا لأحد مواجهة، فهو المباشرة بالمكروه، فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب".[2]

وأنزلت الآية المظلوم باللمز منـــزلة نفس الظالم اللامز، إما لتقرر معنى الأخوة؛ لأن المؤمنين في التواصل والتراحم كنفس واحدة، فإذا ظلم المؤمن مؤمنا فكأنما ظلم نفسه. والعاقل لا يظلم نفسه، فلا ينبغي أن يظلم غيره؛ لأنه كنفسه. وإما لأن اللامز قد فعل ما يستحق به اللمز، فكأنما لمز نفسه ظلما، وإما أن اللامز لمز غيره ظلما، فدفع هذا الغير إلى البحث عن عيوب اللامز لرد الظلم.[3]

وفي كلمات وجيزة بليغة بلاغة لا تطال أنهى القرآن الحديث عن ظلم الأعراض باللمز، وانتقل إلى التحذير من صورة أخرى من صور الظلم التي تهتك الأعراض، وهي التنابز.

ثالثا: ظلم التنابز

إن من ظلم الناس في أعراضهم بالأقوال، التنابز بالألقاب، وهو التداعي بألقاب السوء أو النداء على الناس بألقاب يكرهونها، سواء كان أصحابها ملقبين بها أو اخترعها لهم النابز. وقد نهى القرآن عن ذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

وقد نزل هذا حين قدم النبي ﷺ المدينة، وليس من أهلها رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان النبي ﷺ إذ دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا.[4]

---

[1]- النسفي، تفسير النسفي، 585/2؛ القرطبي، الجامع، 326/16.

[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 248/26/10.

[3]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 327/16؛ البقاعي، نظم الدرر، 233/7.

[4]- الواحدي، أسباب النـــزول، ص334-335؛ السيوطي، لباب النقول في أسباب النـــزول، ص308.

فجاءت الآية ومنعت تلقيب الناس بما يكرهون؛ لأن هذه الألقاب تسبب لأصحابها الأذية.

وبينت أن ذلك من ظلم الإنسان للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

واستثنى من ذلك الألقاب القديمة، الغالبة في الاستعمال، والتي صارت كالأسماء لأصحابها وتنوسي منها قصد الذم والسب، كقول المحدثين الأعرج والأعمش والأحدب،[1] وكذلك الألقاب التي ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب.[2]

وذيّل ﷻ هذه الصور من الظلم، بتعريض قوي جامع لأنواع المذام، ويدل صراحة على أن صاحب هذه الأخلاق الذميمة، ظالم لغيره ولنفسه؛ لأنه رضي لها عقاب الآخرة، مع التمكن من الإقلاع عن ذلك الظلم بالتوبة، فكان ظلمه شديدا. لذلك جيء بصيغة تفيد قصر الظلم على الساخر واللامز والنابز، وكأنه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء.[3]

ويستخلص من هذا أن السخرية، والتنابز واللّمز هي صور لظلم النّاس في أعراضهم؛ وذلك عن طريق الأقوال، وقد نهى عنها الشارع لما تسببه من أذية للنّاس. وأنه لا يمكن التخلص من هذا الظلم إلا عن طريق التوبة.



[1]– القرطبي، الجامع، 330/16؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 249/26/10.

[2]– القرطبي، الجامع، 330/16.

[3]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 250/26/10.

الفصل الثاني: أسباب الظلم.

المبحث الأول: اتباع الهوى والظن.

المبحث الثاني: الجهل والاستكبار والترف.

المبحث الثالث: الحسد والانتقام وغياب النهي عن الظلم.

توطئة:

قال تعالى:

1- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

2- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ .[2]

3- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[3]

4- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .[4]

5- ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.[5]

6- ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[6]

تحدّث القرآن الكريم عن دوافع الظلم بجميع أنواعه وأسباب الوقوع فيه، وانتشاره، وهي كثيرة قد لا يمكن حصرها، ولكن هذه الأسباب كلها ناجمة عن الأمراض القلبية المتأصلة في القلوب المشحونة بالشبهات الناشئة عن الجهل بالدين، واتباع الظنون والقلوب المشحونة بالشهوات الناشئة عن حب الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل، نتيجة البعد عن ذكر الله ﷻ، وعدم الخوف منه، ومن هذه الأسباب ما يلي:

[1]- البقرة: 145.

[2]- يونس: 39.

[3]- النمل: 14.

[4]- القصص: 50.

[5]- الرّوم: 29.

[6]- لقمان: 11.

المبحث الأول: اتباع الهوى والظن

توصلت من خلال تتبع القرآن الكريم إلى أنّ اتباع الهوى والظن، من بين الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الوقوع في الظلم، بل والتوغل فيه، لاسيما إذا طغى تأثيرها على الإنسان، وأطلق لها العنان دون احتكام إلى شريعة أو حجة أو برهان.

المطلب الأول: اتباع الهوى

بيّن القرآن الكريم أنّ اتباع الأهواء بغير علم، من أسباب الوقوع في الظلم في كثير من المواضع منها، قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.[1]

والأهواء جمع هَوى وهو"الحُب البليغ بحيث يقتضي طلبَ حصول الشيء المحبوب ولو بحصول ضر لمحصِّله، فلذلك غلب إطلاق الهوى على حب لا يقتضيه الرشد ولا العقل، ومن ثَمّ أطلق على العشق، وشاع إطلاق الهوى في القرآن على عقيدة الضلال ومن ثم سَمَّى علماء الإسلام أهلَ العقائد المنحرفة بأهل الأهواء".[2]

وقد أعرض ﷻ عن مخاطبة الظالمين إلى الحديث عنهم، إيذاناً بتناهي الغضب للعناد بعد البيان، وأظهرهم بوصف الظلم، تعميماً وتعليقاً للحكم به.[3]

وبيّن أنّ ظلم الظالمين ليس لقصور في الأدلة، ولا عدم وضوح في الحجج، وإنما لاتباع الظالمين أهواءهم، أي ما يهوونه ويشتهونه وما تسوله لهم نفوسهم بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه، ولم يطلبوا الحق ويتفهموا دلائله، رغم أن الله ضرب الأمثال وفصّل الآيات التي تدعوا إلى الإقلاع عن الظلم، لكنهم لم ينتفعوا بذلك.[4] لقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

إنّ غفلة قلوب الظالمين عن ذكر الله، وانشغالهم بزينة الحياة الدنيا واتباعهم لأهوائهم، والإقبال على اللذات والشهوات دون قيود، حيث يفعلون ما تشتهيه نفوسهم، ويسعون في إدراكه، ويجعلونه غايتهم في الحياة، ولو كان فيه هلاكهم وخسرانهم، سبب ظلمهم واستشرائهم

1 – الروم: 29.

2 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 37/21.

3 – البقاعي، نظم الدرر، 620/5.

4 – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 640/1؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 175/4.

فيه، لذلك نهى الله ﷻ عن طاعتهم؛ لأن طاعتهم تدعو إلى الاقتداء بهم في ظلمهم. فهم قد اتخذوا إلههم هواهم، وآثروه على مولاهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [1] أي اتخذوا هواهم كإله لهم لا يخالفون له أمراً، فضاع وقتهم، وانفرط أمرهم، فخسروا الخسارة الأبدية، وعانوا الندامة السرمدية.[2] قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. [3] أي حالة تمكن الإفراط والاعتداء على الحق. لأن الفُرُط: الظلم والاعتداء. وهو مشتق من الفُروط وهو السبق؛ لأن الظلم سبْق في الشر.[4] وقيل: "من الإفراط ومجاوزة الحدّ، إذ كان القوم قد قالوا نحن أشراف مُضر، إن أسلمنا أسلم النّاس، وكان هذا من التكبر والإفراط في القول"[5] أي المبالغة في الظلم.

وتقييد اتباع الهوى بأنه بغير علم تشنيع لهذا الاتباع، فإنّه اتباع شهوة مع جهالة، وهو إشارة إلى بعدهم في الضلال؛ لأنّ الجاهل يهيم على وجهه بلا مرجح غير الميل كالبهيمة لا يرده شيء، وأما العالم فربما ردّه علمه؛ لأنّه إذا اتبع الهوى كان متحرزاً من التوغل في هواه لعلمه بفساده.[6]

واتباع الهوى بغير علم يفضي إلى ضلال الظالمين. فلا أحد يهديهم بعد أن أضلهم الله بظلمهم حسب سنته في الإضلال، ولا طريق لهداية من أضل اللّه؛ لأنه ليس أحد معارضا لله أو منازعا له في ملكه. وما لهم من ناصرين، لمّا تركوا الله تركهم الله، ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئاً فلا ناصر لهم.[7] فرغم قيام الحجة والدليل على صحة هذا الدين، وفساد ما عليه الظالمون، من غير من غير شبهة لهم في ذلك، إلا أنّ اتباع الهوى كان من بين الأسباب في استمرارهم على الظلم.

---

[1] الجاثية: 23.

[2] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 358/25/10.

[3] – الكهف: 28-29.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 306/15/6.

[5] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 392/10.

[6] – البقاعي، نظم الدرر، 620/5؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 88/21/8.

[7] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 640/1.

إنّ حجة هذا الدّين واضحة، والحق في هذا القرآن بيّن، وما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده. وإنهما لطريقان لا ثالث لهما: إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى، وعندئذ لا بد من الإقلاع عن الظلم. وإما مماراة في الحق واتباع للهوى فهو الظلم. والذين يصرّون على الظلم لا حجة لهم ولا معذرة، متبعون للهوى، معرضون عن الحق الواضح؛[1] لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

وهذا ما جعلهم أضل النّاس، إذ لا أحد أشد ضلالاً من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله؛ لأنّ الهوى لا يصيب المقاصد الصالحة، خلافا لهدى الله، المعصوم من الخلل والخطأ؛ لوروده من العالم بكل شيء.[3] لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

ووجه كونهم أشد النّاس ضلالاً "أن الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة أو الخطر أو الهلاك بالكلية، على حسب تفاوت شدة الضلال. واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضرّ بدون تحديد ولا انحصار. فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال، فصاحبه أشد الضالين ضلالاً ".[4]

وسُنَّة الله تعالى في أشد الضالين ضلالاً، أولئك الظالمون الذين أكثروا من الظلم، وتوغّلوا فيه عقيدة بالشرك وعملاً بالمعاصي، حتى أصبح الظلم قوام قوميتهم، هي حرمانهم من الهداية، عقابا لهم على ظلمهم، فلا يهتدون أبداً.[5] لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

والمراد بالظالمين: "الكاملون في الظلم، وهو ظلم الأنفس وظلم الناس، وأعظمه الإشراك وإتيان الفواحش والعدوان، فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منه على ظلمهم، فهم باقون في الضلال يتخبطون فيه، فهم أضل الضالين، وهم مع ذلك متفاوتون في انتفاء هدى الله عنهم على تفاوتهم في التصلب في ظلمهم".[6]



[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2699/20/5.

[2] – القصص: 50.

[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 141/20/8.

[4] – نفسه.

[5] – أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 71/4.

[6] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 141/20/8.

إن هذا النص ليقطع الطريق على الظالمين، المعتذرين بعدم فهم القرآن وإحاطة العلم بهذا الدين؛ لأنّه واضح بذاته، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه، ولا يكذب به إلا متجن يظلم نفسه، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله.[1]

وقد أعلم الله ﷻ النبي ﷺ بأنّ اتباع الأهواء، هو السبب الذي دفع الظالمين من أهل الكتاب، بعد قيام الحجة والبرهان إلى الإعراض عن الحق واتباع الباطل، والاستمرار في الظلم، وقطع الأمل في إقلاعهم عنه؛ لأنّ ظلمهم ليس عن شبهة حتى تزيله الحجة، ولكنه مكابرة وعناد فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم. فهذا دأبهم وطبيعتهم. وحذر من اتباع أهوائهم أو الإصغاء والرّكون إلى شيء من ذلك، في شأن القبلة وغيرها. وجاء بتهديد ووعيد لكل من يتجرأ على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [2]. أي: "داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم، من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق".[3]

وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظلماً متوقعاً فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي ﷺ وخوطب به تعظيماً للأمر.[4]

وعلّل النهي عن اتباع أهواء الظالمين بأنهم لا ينفعون في جلب رضوان الله ﷻ ولا في دفع عقابه ورد غضبه؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .[5]

فشريعة الله المستقيمة واحدة، وهي التي تستحق الاتباع، وعدم الانحراف عنها إلى أهواء الظالمين، المتقلبة النابعة عن الجهل، هذه الأهواء التي ينبغي تركها كلها؛ لأنّ أصحابها لا يملكون لأنفسهم فضلا عن أتباعهم نفعا ولا ضرا، فلا ينبغي موالاتهم، وهم يتساندون ويتناصرون فيما بينهم في الدنيا، أما في الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة. ولا أمل في ميلهم عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه، والله ولي المتقين يخرجهم من الظلمات إلى النور.[6]

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2700/20/5.

[2] – البقرة: 145.

[3] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، 72/1.

[4] – ابن عطية، المحرر الوجيز، 18/2.

[5] – الجاثية: 18-19.

[6] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 3229/25/5.

وقد حذّر المولى ﷻ من اتباع الهوى والخضوع للشهوات، والميل مع نزعات النفس الأمارة بالسوء؛ لأنها تقود إلى الظلم، وتمنع من العدل؛ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.[1]

واتباع الأهواء يفضي إلى الثواء في الجحيم، فهي مستقر الظالمين ومأواهم، بخلاف الإعراض عنها وعدم الاستجابة لنداء الشهوات المحرمة فإنه يقود إلى الجنة دار السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[2]

والخلاصة أنّ انقياد الإنسان لأهواء النفس، واتباع ذلك بلا وازع أو ضابط، سبب للوقوع في الظلم، وسلوك سبيل الظالمين، والانزلاق في ظلام عواقبه المدمرة. ولا نجاة ولا سلامة من عواقبه إلا بجعل هوى النفس تبعا لأوامر المولى ﷻ ونواهيه.

المطلب الثاني: اتباع الظن

تلتفت الآية من خطاب الظالمين، إلى الحديث عنهم بصيغة الغائب، فتتناول سببا آخرا من أسباب الظلم، وهو اتباع الظن؛ فيقول تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.[3]

1- النساء: 135.

2- النازعات: 37-41.

3- النجم: 22-23.

والمراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم لا إلى التعليل تبعا لرأي أكثر المفسرين.[1]

والظنّ في اصطلاح القرآن، هو: "الاعتقاد المخطئ عن غير دليل، الّذي يحسبه صاحبه حقّا وصحيحاً، قال تعالى: ﴿وما يتّبع أكثرهم إلاّ ظنّاً إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً﴾[2] ومنه قول النّبي ﷺ: {إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ}[3] وليس هو الظنّ الّذي اصطلح عليه فقهاؤنا في الأمور التّشريعية، فإنَّهم أرادوا به العلم الرّاجح في النّظر، مع احتمال الخطأ احتمالاً مرجوحاً، لتعسّر اليقين في الأدلّة التّكليفيّة".[4]

وفي هذا بيان لموقف الأكثرية من الحق، في مجال استخدام العقل كآلة للوصول إليه، وأن الأغلبية من الخلق تبني أحكامها في قضية كبرى، هي قضية العقيدة على مجرد الظنّ، وهذه المسألة لا يصلح فيها منهج الشك بل تستوجب اليقين، واليقين مجاله في المنهج النقلي، أمّا الشك فإنه لا يتجاوز كونه مرحلة في التفكير للوصول إلى الحقيقة.[5]

أي: ما يتبع هؤلاء الظالمون في ظلمهم العظيم، بعبادتهم لتلك الآلهة الباطلة، إلا الظنون الكاذبة والشكوك الباطلة التي لا تقوم على الحجة والعلم واليقين، بل تقوم على الاعتقاد الفاسد، كتقليد الآباء دون تفكر أو تدبر، اعتقادا منهم أنهم لا يكونون على باطل في اعتقادهم، ولا ضلال

---

[1]- الرازي، التفسير الكبير، 133/13.

[2]- يونس: 36.

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ص492، دون رقم، وفي كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، ص983، برقم (5143)، وكتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ص1133، برقم (6064)، وباب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ص1133، برقم (6066)، وفي كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض، ص1244، برقم (6724)؛ مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ص1239، برقم (2563)؛ أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الظن، 697/2، برقم (4917)؛ الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في ظن السوء، ص582-583، برقم (1993)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ أحمد في مسنده، 291/12، برقم (7337)، 247/13-248، برقم (7858)، 476/13، برقم (8118)، 199/14، برقم (8504)، 60/16، برقم (10001)، 99/16-100، برقم (10078)، 177/16، برقم (10251)، 243/16، برقم (10374)، 325/16، برقم (10553)، 411/16، برقم (10701)، 557/16، برقم (10949)؛ مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في المهاجرة، 494/2، برقم (2640). كلهم من طريق أبي هريرة ﷺ.

[4]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 26/8/4.

[5]- أحمد رحماني، الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية: دراسة في التفسير الموضوعي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، (1425هـ/2005م)، ص225-226.

في أعمالهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُـمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [1] وإلاّ ما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء، المحجوبة عن الحق.

واتباع الظالمين للظن والهوى، بعد مجيء الهدى من المولى ﷻ يدل على فظاعة ما هم عليه، ويقطع العذر أمامهم، ولا يترك لهم فرصة للتعلل؛ أو حجة يتعلقون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُـمْ مِنْ رَبِّهِـمُ الْهُدَى﴾ .

"ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر. ولن يجدي هدى؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل. إنما هي الهوى الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد! وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل!". [2]

والخلاصة أنّ اتباع الظنون الكاذبة والشكوك الباطلة التي لا تستند على الحجة، ولا تقوم على النظر والتدبر ولا على العلم واليقين، ولا تستنير بنور الكتاب والسنة، ولا تهتدي بهدي الله تؤدي إلى الوقوع في دائرة الظلم، سواء في الاعتقادات والتصورات أو المعاملات بين النّاس. لذلك دعا القرآن الكريم إلى اجتناب الظن فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْـمٌ﴾. [3] ذلك لما يترتب عنه من فساد في العقائد وشبكة العلاقات الاجتماعية.

المبحث الثاني: الجهل والاستكبار والترف

إنّ الجهل والاستكبار والترف من بين الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الظلم، فالجهل بأنواعه المختلفة سواء لأمور العقيدة والشريعة، أو للقوانين التي تنظم الدّول أو السنن التي تحكم الكون والحياة يؤدي كثيرا إلى رؤية الخطأ صوابا والعكس، فيقع الجاهل في الظلم بأنواعه المختلفة سواء على المستوى الشخصي أو الأسري أو الاجتماعي، والاعتداء على الحقوق العامة والخاصة، المادية والمعنوية والأشد منه الإصرار عليه فيجلب الهلاك والدّمار.

وكما يدفع الجهل بصاحبه إلى الوقوع في الظلم كذلك يفعل الاستكبار الذي يدفع صاحبه إلى الإعراض عن الحق رغم ظهوره، والإصرار على الظلم حفاظا على المصالح الدنيوية التي لا تنتهي ولا تعرف حدودا، وكذا اتباع الترف دون قيود شرعية والإسراف في تلبية الأهواء والرغبات.

1- يونس: 66.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، 6/27/3409.

3- الحجرات: 12.

المطلب الأول: الجهل

ومن أسباب الظلم التي تحدّث عنها القرآن الكريم -أيضا- جهل الظالم؛ لأنّ الجهل عدو الإنسان، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.[1]

فقد سيطرت الأوهام على الظالمين، وتحكمت فيهم الأهواء والتقليد، فأمعنوا في الضلال وظلم الحق، بعبادة ما لم تنزل به حجة من عند الله ترشدهم إلى عبادته. ولا برهان عقلي يسوغ ذلك، بل إن البرهان العقلي يؤدي إلى نقيضه؛ لأن القانون العقلي يوجب أن يكون المعبود أعظم من العابد ؟!.[2]

"وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال".[3]

وكما أدى بهم الجهل إلى عبادة ما اختلقوه، أدى بهم إلى تكذيب القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.[4]

فجهل الظالمين بحقيقة القرآن، وعدم تحصّيلهم لما فيه من الهدى ودين الحق، وعدم فهمهم لمراميه، ولما فيه من القيم العالية، وجمال الأداء، ودقة الإعجاز، من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب، وعدم معرفتهم بما يحمله لهم من سبل تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية، دفعتهم إلى المسارعة في اتهامه بالكذب، لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾.

وذلك قبل أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما احتواه من الأدلة والبراهين الدّالة على هدايته، وقبل أن يأتهم تأويله. والتأويل هو: ما توعدهم به من حلول العذاب والنكال.[5] أو ما يؤول إليه، من وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلية، المصدقة له بالفعل.[1] لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

[1]- الحج: 71.

[2]- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 9/5026-5027.

[3]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 5/453.

[4]- يونس: 39.

[5]- السعدي، تفسير الكريم الرحمن، 1/364.

وهذا "يوضّح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد، ستفسرها الأحداث، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية، ثم يأت الزمن ليؤكد هذه القضية، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء".[2]

إذا فالجهل بالقرآن من بين الأسباب الداعية إلى الوقوع في الظلم والاستشراء فيه، وفهم الناس للقرآن حق فهمه، ومعرفة ما فيه من الهدى، وما يحمله لهم من الخير والسعادة، والإحاطة بذلك علما، من أقوى الأسباب الداعية إلى الإذعان له والتصديق به، والعمل بما فيه، والاحتراس من الظلم أو الإقلاع عنه.

أمّا الإصرار على الظلم مع الجهل، وقبول الأشياء أو ردِّها، قبل إحاطة العلم بها، وعدم السعي لمعرفة حقائقها، والتقاعس عن التثبت في شأنها، فيدل على قصر نظرة الظالم، وشناعة ظلمه، بحيث لا يخفى ذلك على العقلاء.

والجهل من بين الأسباب التي أدت إلى وقوع الأمم السابقة في الظلم؛ فأفضى بهم إلى الاستئصال والإهلاك الذي لم يبق منهم أحدا، عن طريق الخسف أو الغرق، أو الصيحة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وهذا التذييل دعوة للاعتبار من مآل الظالمين الغابرين، من أجل اتقاء الظلم أو الإقلاع عنه.

فجهل الظالمين بحقيقة القرآن، وعدم معرفتهم لما فيه من الهدى، وما ينطوي عليه من سبل تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، وعدم فقههم لمراميه وما يحمله من القيم العليا، والوعد على العدل والوعيد على الظلم، من بين الأسباب الداعية إلى الوقوع في الظلم بأنواعه المختلفة.



---

[1]– المراغي، تفسير المراغي، 11/108.

[2]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، 10/5942.

المطلب الثاني: الاستكبار

تحدّث القرآن عن الاستكبار، على أنه سبب من أسباب الظلم والاستمرار فيه، وأول من استكبر عن أمر الله وعبادته حسدا وتجبرا، هو إبليس لعنه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .[1] فإبليس ظلم برفض السجود بسبب الاستكبار.

وبه اقتدى الظالمون من بعده منهم المشركين، الذين بيّن الله ﷻ حالهم، وما كانوا عليه من الاستكبار والعجب بالنفس، والتجبر والعناد، الذي كان يدفعهم إلى الكفر بالقرآن والإصرار على الباطل، ويصدهم عن قبول الحق، رغم علمهم بصحته.

لذلك أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يُذّكِر المشركين الظالمين بإيمان العقلاء من أهل الكتاب بهذا الدين، ولعلهم عن طريق هذا التذكير يقلعون عن ظلمهم وعنادهم، واستكبارهم؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

---

[1]- البقرة: 34.

[2]- الأحقاف: 10.

ونقل في سبب نزول هذه الآية عن سعد بن أبي وقاص[1] قال: {مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سلاَمٍ،[2] وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾}.[3] وعليه الجمهور، أمّا البعض فيرى أنّ الشاهد هو موسى بن عمران.[4] والبعض الآخر يرى أنّه لا يقصد شخصاً معيناً بل المراد منه البشارة بمحمد ﷺ في التوراة وبمَقدمِه ورسالته.[5]

والمعنى: أخبروني أيها المشركون الظالمون عن حالكم إن ثبت أن القرآن من عند الله، بسبب عجز الخلق عن معارضته، ثم جحدتم وكذبتم به، مع أن شاهدا من علماء بني إسرائيل الذين تثقون بشهادتهم قد شهد بإعجازه، وعلى وجود مثل معاني القرآن المصدقة له في التوراة من الدعوة إلى التوحيد وأصول الفضائل، فصدّق به، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به وظلمتم. والله تعالى لا يهدي القوم الذين من شأنهم استحباب الظلم على العدل، والعمى على الهدى.[6]

ولا أحد أظلم ممن دعاه استكباره وتعنته وتعاظمه إلى ادعاء النبوة، أو ادعاء القدرة على قول ما يماثل القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو

---

[1]– هو: سعد بن مالك بن أبي وقاص عبد مناف القرشي الزهري، يكنى أبا إسحاق، أمه حمنة بنت سفيان بن أمية. أسلم بعد ستة وقيل بعد أربعة وعمره 17 سنة. هو أحد الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة، أحد العشرة المبشرين بالجنة، والستة أصحاب الشورى. شهد بدرا وأحدا. أول من رمى بسهم في سبيل الله. [ابن الأثير، أسد الغابة، 2/290-293؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/136، برقم (3/87)].

[2]– هو: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري، كان حليفا لهم من بني قينقاع، وهو من ولد يوسف بن يعقوب –عليهما السلام–، وكان اسمه في الجاهلية الحصين فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله، كان إسلامه حين قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرا، روى عنه ابناه يوسف ومحمد، وأنس بن مالك. له 25 حديثا. توفي سنة (43هـ). [ابن الأثير، أسد الغابة، 3/176-177؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/129، برقم (4/90)].

[3]– أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام ﷺ، ص 688، برقم (3812)، وكتاب الأدب، باب من أثنى على أخيه بما يعلم، ص1132، دون رقم؛ ومسلم في صحيحه، كتاب من فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن سلام ﷺ، ص1205-1206، برقم (2483)، بلفظ آخر؛ والنسائي، السنن الكبرى، 5/70، برقم (8252).

[4]– الشنقيطي، أضواء البيان، 7/404-405.

[5]– الرازي، التفسير الكبير، 27/10.

[6]– طنطاوي، التفسير الوسيط، 13/20/26؛ الزحيلي، التفسير الوجيز، 26/504.

أَيدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.[1]

والاستكبار من بين الأسباب التي حملت بعض الأمم الغابرة، التي عتت وتجبرت وأعجبت بقوتها ومالها وسلطانها، على الظلم والإصرار عليه؛ فكان مصيرها الهلاك والدمار في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة كعاد، وفرعون وجنوده. فأمّا عاد فقال تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.[2]

وهذا الاستكبار فيه "وجهان الأول: إظهار النخوة والكبر، وعدم الالتفات إلى الغير، والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم".[3]

فعاد قوم هود عليه السلام وقعوا في الظلم بسبب استكبارهم الناشئ عن اغترارهم بقوة أجسامهم وشدة بطشهم، حيث أورثهم هذا الاستكبار الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود عليه السلام بإنكار ما هم عليه من الظلم، عظم عليهم ذلك، لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم، فكذّبوا رسولهم ولم يتفكروا في خالقهم الذي أمدهم بهذه القوة وتلك البسطة في الجسم، وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الظالمون. الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم. كأنّهم لم يعلموا أنّ الله المحيط بكل شيء قدرة وعلماً والذي خلقهم، ولم يكونوا شيئاً أشد منهم قوة، لأنّ من علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلاً انقاد له فيما ينفعه ولا يضره. وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، وأصروا على الظلم بل والتعدي على معجزة رسولهم وهي الناقة، فقتلوها. فأهلكهم الله بما لا يترقب النّاس الهلاك به، ولا يؤبه به، وهو ريح شديدة قوية؛ باردة مزعجة الصوت، في أيام نحس، واستمر هذا النحس ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[4] حتى أبادهم عن آخرهم، ليريهم أنّ الله شديد القوة، وأنّه

[1]- الأنعام: 93.

[2]- فصلت: 15-16.

[3]- الرازي، التفسير الكبير، 27/97.

[4]- الحاقة: 7.

يضع القوة في شيء هين مثل الريح، ليكون عذابا وهوانا وخزيا، تحقيرا ومعاملة لهم بنقيض مقصودهم، فاتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة.[1]

قال الرازي: "واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق، فقوله: ﴿اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق، وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مضاد للتعظيم للخالق، وإذا كان الأمر كذلك، فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى، فلهذا المعنى سلّط الله العذاب عليهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾".[2]

إنّه الاستئصال المناسب للظالمين الذين يتباهون بقوتهم أمام قوة الله ﷻ، والمصرع اللائق بالمستكبرين المختالين على العباد.

وأمّا فرعون وجنوده، فلما توهموا عدم الرجوع إلى الله، استكبروا في الأرض بغير الحق، قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [3] والاستكبار: أشد من الكبر، أي تكبّر تكبراً شديداً إذ طمع في الوصول إلى الرب العظيم وصول الغالب أو القرين. واستكبار فرعون هو الأصل، واستكبار جنوده تبع لاستكباره؛ لأنهم يتّبعونه ويتلقون ما يمليه عليهم من العقائد.[4]

فهم "رأوا كل من سواهم حقيرا بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمة والكبرياء إلا لأنفسهم، فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد".[5]

لقد غرقوا في نشوة مالهم وثرائهم وحكومتهم وسلطانهم وشوكتهم وفخامتهم فاعتبروا أنفسهم فوق العبودية لله، ومن ثم لم يذعنوا له طائعين، بل استكبروا وتعالوا، وعاندوا ورفضوا التسليم، وطغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد وظلم العباد.

---

[1] الطبري، جامع البيان، 444/21؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 169/7؛ البقاعي، نظم الدرر، 562/6؛ مجدي محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، إشراف مصطفى محمد الشكعة، تقديم علي جمعة مفتي الديار المصرية، دار السلام، مصر، ط2، (1428هـ /2007 م)، ص453.

[2] – الرازي، التفسير الكبير، 97/27.

[3] – القصص: 39-40.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 124/20/8.

[5] – الألوسي، روح المعاني، 290/20/10.

فالاستكبار حمل فرعون وأتباعه الظالمين على الإعراض عن الحق، والتكذيب والإنكار مع العلم بأن الآيات حق من عند الله، فعاندوها وكابروها؛ لأنّ الظلم سجية من سجاياهم، فهم ظالمون مستكبرون؛[2] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[3]

فقد علا فرعون في الأرض وتجبّر وتكبّر وظلم وبغى وتجاوز وضعه الحقيقي ومقامه الأصلي، مقام العبودية لله، ولبس ثوب التألّه والتحرر المطلق وصار عاليا مسيطرا لا خاضعا مذعنا. رغم أن حق العلو والكبرياء في هذا الكون لله رب العالمين وحده، أما فرعون وجنوده فقد نالوا سلطة قليلة جدا في رقعة ضئيلة من الأرض واعتبروا أنفسهم وحدهم الكبراء والعالين.[4]

ولكن استكبار فرعون وجنوده، واستكبار غيرهم لا يكون إلا بغير الحق؛ لأن الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده وهو المتكبر على الحقيقة أي المتبالغ -المتناهي- في كبرياء الشأن.[5]

و"المتكبر" اسم من أسماء الله الحسنى، والكبر والكبرياء هو صفة من صفاته جلّ شأنه، ولا تليق هذه الصفة إلا له، أي الذي لا يليق التكبر إلا لعظمته. فهو المستحق لذلك وحده، لأنه العزيز الخالق لكل شيء، القاهر لكل الأقوياء.[6] كما جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه {الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ}.[7] وقال تعالى عن ذاته المقدسة: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[8] أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه.[9] فكل مستكبرٍ سوى الله تعالى فاستكباره، ظلم لأنه استكبار بغير الحق.

---

[1]- أبو الأعلى المودودي، فرعون في القرآن، ترجمة وتعريب محمد إدريس، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط.ت)، ص33.

[2]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 181/6؛ المودودي، فرعون في القرآن، ص128.

[3]- النمل: 13-14.

[4]- أبو الأعلى المودودي، فرعون في القرآن، ص129-137.

[5]- الزمخشري، الكشاف، 415/3.

[6]- الجزيري، الموسوعة الجامعة، 1598/3.

[7]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، 456/2-457، برقم (4090)؛ ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، 1397/2، برقم (4174)؛ أحمد في مسنده، 337/12، برقم (7382) من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[8]- الجاثية: 37.

[9]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 273/7.

وقد أدى استكبار فرعون وجنوده، مع إنكارهم للبعث بعد الموت، وحسابهم يوم القيامة إلى الظلم الذي قادهم إلى الهلاك، وحلول العقاب بهم، حيث أغرقهم، ولم يبق منهم أحدا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وهو من الكلام المفخم الذي يدل على عظمة الله تعالى وكبرياء سلطانه؛ فقد شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم وإن كانوا كثيرين بما يطرح، كحصيات أخذها آخذ في كفه فطرحهن في البحر.[1]

فكان مصيرهم الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة؛ ليرى العاقل كيف كان عاقبة ظلمهم، بإهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في لحظة واحدة. قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فترك هؤلاء الظالمين المستكبرين الذين عتوا وتجبروا، وأعجبوا بقوتهم ومالهم، فظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته، وظلموا أتباع الحق بإيذائهم واستعبادهم، عبرة للآخرين.

لقد كان الملأ المستكبرون من الأقوام، المغرورون بالرياسة والمال والجاه، يظلمون، لأنهم يرون في اتباعهم للأنبياء غضا من عظمتهم، وخفضا من علو رياستهم، ووقوفا مع الدهماء من الفقراء والضعفاء، وجعلهم مثلهم مرؤوسين لهم،[2] كما جاء في التنـــزيل على لسان ملإ فرعون جوابا لموسى وهارون–عليهما السلام– بقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.[3]

ومن هذا أيضا ما حكاه القرآن عن قوم شعيب الذين ظلموا واستكبروا فاستضعفوه وهددوه بالرجم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.[4]

وهذه سيرة الظالمين المستكبرين مع الأنبياء ودعاة الإصلاح وكل من يرشد الشعوب إلى مقاومة الظلم والاستبداد في كل زمان ومكان.

فالشعور بالعظمة، والإعجاب بالمال والثراء والسلطان، تجعل الإنسان يرى نفسه فوق العبودية لله ﷻ، وتدفعه إلى التجبر، والتعالي عن طاعته، ورفض الخضوع لأوامره ونواهيه، رغم

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، 415/3.

[2]– مجدي عاشور، السنن الإلهية، ص 455.

[3]– يونس: 78.

[4]– هود: 91.

الاستيقان بالحق في قرارة النفس؛ لأنّ المستكبر يرى في اتباع الحق غضا من عظمته، وخفضا لمترلته ومكانته ونزولا بها إلى مترلة سواد الأمة من الفقراء والضعفاء.

المطلب الثالث: الترف

قد يكون اتباع الترف والتنعم من الصحة والمال، والملك والسلطان، والمراكز الأدبية والاجتماعية، والأهل والولد، والعشيرة والوجاهة، واستمرار ذلك من غير ضر أو بأس من بين الأسباب المؤدية إلى الظلم، والبواعث التي توقع فيه.[1] قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [2] فعادة المترفين المسارعة إلى الظلم بتكذيب الأنبياء والرسل، ورفض الحق الذي أرسلوا به؛ احتجاجا بكثرة الأموال، وسعة الجاه والسلطان، وقوة النفوذ، وكثرة الأتباع.

لذلك فإنّ "أغلب من ازدادت قوته ومنعته من الدول والأفراد، وكثر ماله، ورأى عظم جاهه ومكانته، وشعر بالصحة والعافية، عادة ما يسيطر على نفسه الغرور، فيرتكب المظالم، وتدفعه نفسه الأمارة بالسوء إلى الظلم. ولا يسلم من ذلك إلا من رحم الله فاعتصم بالإيمان والتقوى، وأدرك واجب شكر النعمة، وخاف عواقب كفرها".[3]

وقد ذكر الله ﷻ في كتابه عددا من النماذج للملوك والأفراد والأقوام المترفين الذين قادهم الترف إلى الظلم، والانغماس فيه، فساق نموذجا لملك دفعه الملك إلى الظلم، وهو ذلك الذي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ، حيث انتهى به دوام الترف والنعمة والعافية إلى ادعاء القدرة على الإحياء والإماتة، فقد بقي ملكا معافى مدة طويلة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[4]

فهذا الملك الظالم، إنما ظلم وتعنّت بسبب نعمة السلطان، الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر، لولا أن الملك يُطغي ويُبطر من لا يُقدِّرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام. ومن ثمّ يضعون الظلم في موضع الشكر؛ ويَضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين! ومن الشنيع

[1] - محمد نوح، آفات على الطريق، دار الوفاء، مصر، ط1، (1419هـ/1999م)، 187/5.

[2] - سبأ: 34-36.

[3] - الحزيمي، الموسوعة الجامعة، 1182/3.

[4] - البقرة: 258.

والفظيع، أن يأتي الحجاج والظلم بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه، دون أن يستمد قانونه من الله.[1]

وإذا كان الترف أدّى بالملك الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربه إلى الوقوع في الظلم بادعاء القدرة على الإحياء والإماتة؛ فإنه دفع فرعون مصر إلى أعظم الظلم، وهو إدعاء الربوبية، قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.[2] حيث جمع فرعون قومه فنادى فيهم متبجحا بجاهه وسلطانه وزخرفه وزينته، مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها، وبجريان الأنهار من تحت قصوره؛ قاصدا بذلك أن يبيّن فضله على موسى عليه السلام، إذ هو ملك مصر وصاحب الأنهار، وموسى عليه السلام -بزعم فرعون- ضعيف حقير لا سلطان له، ولا حليّ ولا زي أهل الشرف، ولا ملائكة يمشون معه ويعينونه على من خالفه؛ ليكون ذلك أهيب في القلوب، وأنّه لو كان إله موسى حقا كما يزعم لما تركه هكذا. ثم خلص فرعون بمنطقه هذا إلى القول لقومه بأنه هو خير من موسى عليه السلام، زاعما أنّه رب الناس.[3]

وهذا وجه آخر من وجوه الترف الذي كان السبب في ظلم جماعي، حيث قاد قرية سبأ بأكملها إلى السقوط في هاوية الظلم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.[4]

فإنعام الله على سبأ بالنعم العظيمة، وهي جنتان: جنة عن يمين الوادي وأخرى عن شماله كلها فواكه وخضر، تسقى بماء سد مأرب، ونعمة البلدة الكريمة التربة، الحسنة الهواء، ونعمة

---

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 297/3/1.

[2] – الزخرف: 51-54.

[3] – الزمخشري، الكشاف، 258/4؛ ابن عطية، المحرر الوجيز، 236/13؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 98/16-100؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 23[illegible]/7.

[4] – سبأ: 15-19.

الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات؛ كان سببا في ظلمهم، لأنّ الله أمرهم بالأكل من الأرزاق الكريمة والثمار الطيبة، وشكره على هذا العطاء والإنعام؛ ليزيدهم من فضله وإحسانه، ولكن لما أصيبوا بالترف أَبْطَرَتْهم هذه النعم فكفروها وأعرضوا عن شكر الله وطاعته، فانتقم الله من هؤلاء الظالمين وسلبهم نعمته، وأرسل عليهم السيل الجارف، الذي اجتاح أراضيهم، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم، ومزّقهم شر ممزق. وبدلهم بالجنان اليانعة التي كانوا يعيشون فيها، بساتين ثمارها مرة لا تؤكل، جزاء لهم بسبب جحودهم وبطرهم و إعراضهم عن أمر الله وعدم شكرهم كما هي سنته في عباده.[1]

وهذا وجه آخر من أوجه أسباب الترف، نصّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾.[2] فصاحب الجنتين فرد، أدّى به البطر بنعمة الله عليه إلى الوقوع في أفحش الظلم؛ لأنه كفر بنِعَم ربه رغم تقلبه فيها. وهذا شأن المغرورين، يعجبون بما أوتوا ويفتخرون به، وتزيدهم شهوات الدنيا وزينتها بطرا وظلما وفسادًا في الأرض.

ولئن اختلفت وجوه أسباب الترف في هذه النماذج وتنوع المترفون بين الحكام والأفراد والجماعات إلاّ أنّ النتائج كانت واحدة؛ وهي الوقوع في الظلم الذي ساقهم إلى الهلاك جميعا.

وعامة القرون الماضية من الذين ظلموا أنفسهم اتَّبعوا ما أترفوا ومُتِّعوا فيه من لذات الدنيا ونعيمها، وانغمسوا في نعمة الله تعالى دون تأدية شكرها والاعتراف بفضل الله عليهم فيها، وكانوا مجرمين ظالمين باتباعهم ما تنعموا فيه، فحقَّ عليهم العذاب؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.[3]

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال والراحة، فينعمون بالدعة والسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الظلم، وتستهتر بالقيم والمبادئ والمقدسات، وتلغ في الأعراض والحرمات، كما يتّضح ذلك في المعارضين للرسل المكذبين بهم.[4]

[1]- طنطاوي، التفسير الوسيط، 166/22/11؛ أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 314/4.

[2]- الكهف: 35-36.

[3]- هود: 116.

[4]- مجدي عاشور، السنن الإلهية، ص459.

وهؤلاء المترفون إذا لم يجدوا من يرشدهم أو يأخذ بأيديهم، عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخسوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة، وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها.[1]

لذلك فهو عامل من أقوى وأسرع وأخبث عوامل الظلم التي تؤدي إلى التفتت الاجتماعي؛ لأنّ الانغماس في مراتع الشهوات وإشباع الغرائز يميت الشعور بالنخوة، ويقتل الإحساس بالعزة والغيرة، ويجعل الرذائل من مألوفات الحياة، بل ميدانا للتنافس الظالم، فلا يهتم أحد بإنكارها، وتصبح الفضائل الخلقية والقيم الروحية غرائب في نظر هذا المجتمع المنحل، وعندئذ تحل بهذا المجتمع عوامل الفناء.[2]

فاتباع الترف والتفنن في أنواعه تنشأ عنه كثرة الحاجات والشهوات واللذات، فإذا لم تخضع لضابط شرعي، فإنّ الاهتمامات تتجه إلى إشباعها بشتى الوسائل بغض النظر عن مشروعيتها، فتمتد الأيدي إلى المحرمات، ويكثر الإسراف وتنتشر الرذائل والفسق، ويتجرأ المترفون سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الحكام والشعوب على أنواع الظلم المختلفة، والنتائج واحدة؛ وهي حلول العقاب والهلاك كما تجلى من خلال النماذج التي جاءت في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الحسد والانتقام وغياب النهي عن الظلم

إنّ الحسد والانتقام من الظالمين، وغياب النهي عن الظلم من الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الظلم؛ لأن الحاسد يتمنى زوال النّعم عن أهلها، وهو ما قد يدفعه إلى السعي من أجل تحقيق ذلك ظلما، كما أن السعي إلى الانتقام تحت وطأة الغضب، قد تفضي إلى ارتكاب الظلم بتجاوز المماثلة. أما السكوت عنه فيساهم بدوره في انتشار الظلم وتكريسه. وهو ما سيتضح من خلال هذا التفصيل.

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/15/2217.

[2]- محمد صادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، (1397هـ/1977م)، ص38-39.

المطلب الأول: الحسد

ومن أسباب الظلم عدم الخوف من الله والحسد، وهو ما تترجمه قصة قابيل وهابيل، هذان السببان اللذان دفعا قابيل إلى قتل هابيل ظلما؛ لقبول قربان أخيه دون قربانه، ويتضح ذلك أكثر من رد هابيل عليه حين هدده قابيل بالقتل ظلما، رافضا رد الظلم، مثيرا في نفس أخيه مشاعر الإيمان والخوف من الله ﷻ ومن عقابه في الآخرة، معللا امتناعه عن رد الظلم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾.[1]

فعدم الخوف من الله ﷻ وعدم مراقبته الدائمة واستشعار عظمته، ونسيان الآخرة وما فيها من عقاب وحساب، أو ضعف الوازع الديني يدفع الإنسان إلى الظلم؛ فيستحل الحرام، ويستسيغ ظلم الناس، والاعتداء عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

المطلب الثاني: الانتقام

إن من أسباب الوقوع في الظلم والعدوان، الإسراف في ردّ الظلم للدفاع عن النفس، وذلك في حال الانتقام من الظالم تحت وطأة الغضب والغيظ؛ أو تعذر القصاص وردّ الظلم بالمثل أحيانا؛ فيؤدي إلى عقوبته بأكثر مما عوقب به، ومن هنا ينشأ ظلم جديد، فيصبح الظالم مظلوما والمظلوم ظالما، فيولد

[1] [illegible] 27-29

الظلم بعضه بعضا، ويتسلسل؛[1] لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾.[2]

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.[4] فأباح ﷻ القصاص من الظالم بشرط عدم الإسراف، وذلك بمجاوزة الحدّ، وهو المثل وإلاّ أدى إلى نشأة ظلم جديد.

والمقصود بالظالمين المبتدئين بالمعصية أو المجاوزين الحد في الانتقام؛ لذلك ختم الآية بهذا التذييل الذي يشمل التحذير من الظلم ابتداء، والتحذير من مجاوزة المماثلة في العقوبة، فنهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأنّ التجاوز يؤدي إلى وقوع المظلوم في الظلم. ورغّب في العفو رغم تشريع رد الظلم والانتصار من الظالم؛ لأنّ العفو يضمن تفادي ظلم جديد متوقع حصوله من المظلوم، الذي قد يصير ظالما جديدا.

المطلب الثالث: غياب النهي عن الظلم

إن ترك التناهي عن الظلم والإنكار على الظالمين يساهم في انتشار الظلم واستفحاله؛ ذلك أن في الإنسان تسلطا واستبدادا، وميلا إلى جمع الثروة، وتولي المناصب والمراكز، حيث يبذل في سبيل تحصيلها وسعه ويسلك جميع السبل، المشروعة وغير المشروعة، للوصول إلى إرضاء طموحاته، التي تنتهي به غالبا إلى الظلم، ولا يقف عند ذلك الحد بل يستشري فيه، ويتجبر

1– ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية ، ص248.

2– الإسراء: 33.

3– النمل: 126.

4– الشورى: 40.

ويفسد في الأرض، ويجد له أعوانا على ظلمه، يظلمون الناس ويفسدون في الأرض مثله؛ لأنهم يعلمون بأنه ظالم وهم سنده في ظلمه، وهكذا يقع التسلط، ويسود الظلم ويعم عموم الناس؛ لأنهم أصبحوا مسيَّرين من ظلمة لا من ظالم واحد، وهذا ما لم يواجه إنكارا من المجتمع ومن ولاة الأمور بالأساليب المناسبة، والوسائل الملائمة؛ قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.[1]

قال ابن عاشور: "وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أو النّفَر القليل، فإذا لم يجدوا من يغيِّر عليهم تزايدوا فيها؛ ففشت واتّبع فيها الدّهماءُ بعضهم بعضاً حتّى تعمّ، ويُنسى كونها مناكرَ فلا يَهتدي النّاس إلى الإقلاع عنها، والتّوبةِ منها فتصيبهم لعنة الله".[2]

وقد روى ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: {إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا}.[3]

فالحديث يبيّن أنّ ترك إنكار الظلم والتناهي عنه أو عدم المواظبة على ذلك يؤدي إلى اعتياده، حيث تألفه النفس بدل النفور منه، فتركن إلى الظالمين، وتؤاكلهم، وتشاركهم في ظلمهم، وتسترسل في ذلك؛ لأنّ الإنسان اجتماعي بطبعه يحب مجالسة الناس ويكره العزلة، فهو إما أن يؤثر أو يتأثر بالمحيط

---

[1] المائدة: 78-81.

[2] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 3/6/293.

[3] - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، 2/524-525، برقم (4336)؛ الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب من سورة المائدة، ص847، برقم (3056)، من طريق عَلِيِّ بْنِ بَذِيمَةَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، كما أخرجه في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب من سورة المائدة، ص847، برقم (3057)؛ ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 2/1327-1328، برقم (4006)، كلاهما عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِيّ، عن سفيان، عن علي بن بَذيمة، عن أبي عبيدة مرسلا.

الذي يعيش فيه، فإذا كان هذا المحيط ظالما جائرا، ولا يؤخذ فيه على أيدي الظالمين، فإن كل من يعيش فيه سيستسيغ الظلم.

وقد نقل عن أبي بكر ﷺ[1] أنّه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2] وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يقول: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ}.[3] مما يدل على أن السكوت عن الظلم، ظلم يؤدي إلى عموم العقاب.

والإجماعُ على أن: "النهي عن المنكرِ واجبٌ لمن أطاقه، ونهى بمعروفٍ، أي: برفقٍ، وقَولٍ معروفٍ، وأمْنِ الضرر عليه، وعلى المؤمنين، فإن تعذّر على أحَدٍ النهيُ؛ لشيءٍ من هذه الوجوه، ففرضٌ عليه الإنكارُ بقلبه، وألاّ يخالطَ ذا المنكرِ، وقال حُذّاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهَى العُصاةُ بعضُهم بعضاً".[4]

ولهذا فإنّ ترك التناهي عن الظلم وعدم الإنكار على الظالمين، من أهم أسباب الظلم وانتشاره في كيان الأفراد والأمم، لأنّه يهيئ البيئة المناسبة لولادته واحتضانه؛ لينتشر ويستفحل حتى يشيع، وتتمالأ الأمة عليه، فلا يولد في الظلم من يعرف غيره؛ لقوله ﷺ : {لَا يَلْبَثُ الْجَوْرُ بَعْدِي إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَطْلُعَ فَكُلَّمَا طَلَعَ مِنْ الْجَوْرِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنْ الْعَدْلِ مِثْلُهُ حَتَّى يُولَدَ فِي الْجَوْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ ثُمَّ يَأْتِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْعَدْلِ فَكُلَّمَا جَاءَ مِنْ الْعَدْلِ شَيْءٌ ذَهَبَ مِنْ الْجَوْرِ مِثْلُهُ حَتَّى يُولَدَ فِي الْعَدْلِ مَنْ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ}.[5]

---

[1]- هو: أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، اسمه عبد الله –ويقال عتيق– بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن لؤي القرشي التيمي ﷺ. روى عنه خلق من الصحابة وقدماء التابعين. كان أول من آمن من الرجال، وكان أحب الرّجال على الرسول ﷺ. دامت خلافته سنتين وأشهر، وتوفي عن ثلاث وستين سنة. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، سير الخلفاء الراشدين، سيرة أبو بكر الصديق، ص7-67].

[2]- المائدة: 105.

[3]- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، 525/2، برقم (4338)؛ والترمذي في السنن، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ص629-630، برقم (2173)، وعقّب عليه بقوله: "هذا حديث صحيح" من حديث أبي بكر الصديق ﷺ؛ والنسائي، السنن الكبرى، 339/9، برقم (11157)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 1327/2، برقم (4005)؛ وأحمد في مسنده، 208/1، برقم (30) من طريق أبي بكر الصديق ﷺ.

[4]- الثعالبي، الجواهر الحسان، 446/1.

[5]- أخرجه أحمد في المسند، 422/33-423، برقم (20308). من حديث معقل بن يسار مرفوعا بهذا اللفظ.

فالإنسان ابن بيئته، فإذا كانت هذه البيئة ظالمة، ويسودها الجور والتعسف، ولا يؤخذ فيها على أيدي الظالمين ولا يحاسبون، فإنّ الظلم سيستشري، وكل من يعيش في هذه البيئة سيستحل الظلم. ويصبح عقابهم وشيكا.

الفصل الثالث: آثار الظلم وعواقبه.

المبحث الأول: ذهاب الأمن ونزول القحط.

المبحث الثاني: الحرمان من الهداية والفلاح.

المبحث الثالث: هلاك دولة الظلم.

توطئة:

تحدّث القرآن الكريم عن الظلم وآثاره السيئة وعواقبه الوخيمة، سواء على مستوى الأفراد أم الأمم، في الدنيا أو في الآخرة، سيان في ذلك بين الظلم العقدي والظلم الاجتماعي. فبيّن أنّه بجميع أنواعه لا يترك وراءه إلا الفساد والخراب والدّمار؛ لذلك جاء الحديث عن استئصال القرى الظالمة في كثير من المواطن كعاقبة من عواقب الظلم، ومن أهم هذه الآثار والعواقب.



المبحث الأول: ذهاب الأمن ونزول القحط

إنّ ذهاب الأمن ونزول الجدب، من أعظم الآثار التي تترتب عن الظلم، بأنواعه المختلفة، فتؤدي إلى زعزعة الاستقرار النفسي والاجتماعي؛ لأنّ الأمن والخصب من النِّعم الأساسية التي بها قوام الحياة، وضمان استمرارها وتطورها. فبالأمن والخصب ترخص الأقوات، ويطمئن الناس. فتتسع الحركة والنشاط على جميع المستويات؛ العلمية والتجارية والعمرانية وغيرها، وتستقر الحياة، فلا يتطلع الناس إلى الارتحال.

قال ابن عاشور: "فإنّ أمن البلاد والسبُلِ يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبالَ على ما ينفع والثروةَ فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأولى، وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة".[1]

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، 715/2/1.

ولهذا كانت محور دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأهل مكة كما نقلها إلينا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.[1] وهذا ما سيتضح أكثر من خلال هذين المطلبين:

المطلب الأول: ذهاب الأمن النفسي والاستقرار الاجتماعي

يولّد الظلم الخوف في النفوس، فيعيش الناس القلق والاضطراب الدائم، وعدم الاستقرار والطمأنينة، خوفا منهم على مقومات الحياة، فيرتجفون من كل حركة ومن كل صوت، بل حتى من هواجسهم وخيالاتهم، ويترقبون الاعتداءات والمكاره في كل وقت، فتنعدم الثقة بين الناس، ويسود الشعور بالخوف من بعضهم البعض دون تمييز؛ لاعتقاد الظلم في الجميع، فلا يشعرون بالسعادة ولا بالراحة، ولا يهنأون بالعيش ولا يأمنون على أنفسهم ولا على عقولهم ولا على أعراضهم وأموالهم. بل ينتشر الخوف على هذه الضروريات الأساسية في حياة الإنسان، ويسيطر على كل من يعيش في هذا الجو. ويظل هذا الخطر يهدد كيان الأفراد والدّول.[2]

فيبقى الناس على حذر في المعاملات، فلا يتعاملون إلا اضطرارا، مما يؤدي إلى كساد في اقتصاد الأمة، وركود في تجارتها، وتمزق في بنيتها الاجتماعية. ويظل الخوف من الظلم والظالمين يهدد الناس بخسران أرزاقهم، وطردهم من أعمالهم ووظائفهم، وحرمانهم من أسباب الرزق والمعاش.

ولا ينجو من الشعور بالخوف والاضطراب والقلق الدائم الظالم نفسُه، بسبب الحرص على الدنيا طلبا للزيادة أبدا من جهة، وخوفا من انتقام المظلوم أو انتقام الله عز وجل من جهة أخرى، وبدل أن يكون ذلك دافعا له ليقلع عن الظلم يصير داعيا للاستشراء فيه، فيزيد من حرصه وقوى بطشه وأدوات ظلمه ويطور وسائله لاسيما إذا كان دولة قوية أو حاكما أو مسؤولا، فإنه يزيد من أعوانه وجنده ويعيش بين الحراس والأبواب الموصدة، ويتمادى في الظلم بل ويشجع الناس عليه، ويقهر أهل الخير والصلاح حتى يسود الظلم وينتشر؛ فتختل بذلك موازين الخير والشر عند الناس لاسيما العامة بل ويساعده في ذلك بعض الخاصة، ممن لهم زاد قليل في العلم بكتاب الله وسنته. ويدّعي أنه يفعل كل ذلك من أجل تحقيق الأمن، رغم أنّ ذلك لا يزيد القلوب إلا خوفا على خوف؛ لأن العدل هو الذي يحقق الأمن لا الظلم.

---

[1]- البقرة: 126.

[2]- عبد الحميد البلالي، وقفات تربوية، 4/212-213.

وزيادة الحراس لتحقيق الأمن يكلف خزينة الدولة مصاريف جديدة، وهو ما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار الاجتماعي ويؤثر سلبا على التجارة والاقتصاد؛ فيثير الشعوب ضد الحكام.

ويشهد لهذا في العصر الحاضر واقع الدول الظالمة كالولايات المتحدة الأمريكية في العراق "واليهود في إسرائيل لم يهدأ لهم بال رغم غلبتهم العسكرية وقدرتهم التكنولوجية، فهم يعيشون في قلق دائم وخوف من مستقبل مجهول، وما ذلك إلا نتيجة ظلمهم باغتصاب الأرض وتهجير أهلها وغير ذلك من سائر ألوان الظلم والعدوان".[1]

فما من أمة ينتشر فيها الظلم، من الشرك فما دونه إلا ويختل أمنها، ويسود الخوف أهلها؛ الخوف من ضياع أموالها وممتلكاتها، والخوف من ردود أفعال المستضعفين، كالغزو الفكري على حضارة الأمة وأخلاقها، وتعزيز الفرقة بين أبنائها، وتكريس الفقر والتخلف على بلدانها، وإثارة الحروب والفتن. وهذا ما يجعل أهلها في خوف دائم على مستقبل الأمة، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.[2]

وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.[3]

وقد دلّت هذه الآية على أنّ أهل الظلم العظيم يعيشون الخوف والاضطراب والقلق، بينما يعيش الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بالظلم العظيم-الشرك- الأمن والسلام والطمأنينة؛ لكن هل هذا الأمن أمن كامل؟

قال ابن العثيمين:[4] "إذا كان الإيمان كاملا لم يخالطه معصية، فالأمن أمن مطلق أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق الإيمان غير كامل فله مطلق الأمن أي: أمن ناقص.

---

[1] – جعفر الشيرازي، "الظلم والظالمون: المعايير والعواقب"، النبأ، العدد: 37، (جمادى الثانية 1420هـ)، ص6-7.

[2] – الحوالي، الموسوعة الجامعة، 670/2.

[3] – الأنعام: 82.

[4] – هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي، ولد في عنيزة في (27 رمضان 1347هـ). يُعد عبد الرّحمن بن ناصر السعدي شيخه الأول، حيث لازمه وقرأ عليه العلوم الشرعية، والنحو والصرف. كما يعتبر عبد العزيز بن باز شيخه الثاني لاسيما في الحديث. درّس بكليتي الشريعة وأصول الدين بالقصيم، وكان عضوا في هيئة كبار العلماء بالسعودية، عرف بنشاطه الكبير في الدعوة إلى الله. له مؤلفات كثيرة منها: "أصول التفسير"، "شرح الواسطية". توفي سنة (1421هـ). [محمد بن صالح العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأخيرة، (1413هـ)، "ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ العثيمين"، 13/9/1]

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة آمن من الخلود في النار وغير آمن من العذاب بل هو تحت المشيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [1] وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأمن والهداية يكونان في الدنيا والآخرة". [2]

فمن سَلِم إذًا من الظلم بأنواعه، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن سَلِم من الظلم العظيم ولم يسلم من بقية أنواع الظلم، كالظلم الاجتماعي، كان له الأمن والاهتداء مطلقا، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه. [3]

فالظلم العظيم يفرز الخوف في النفوس، نتيجة طغيان الاعتقادات الفاسدة، وسيطرة الخرافات والأباطيل على العقول، دون الاستناد في ذلك إلى دليل. لذلك يحيا الظالم الأعظم مضطرِب النَّفس متحيّراً في أمر الشركاء وقوتهم وقدرتهم؛ فيظل يطارده هاجس الخوف من الآلهة والكهنة والأولياء، ومن الأوهام التي ينشرها عبدتهم وأتباعهم ويروجونها بين الناس. هذه الخرافات والأباطيل التي يتوارثها الأجيال ويقدسونها إلى أن تصبح بمرور الوقت من المسلمات التي لا تقبل النقاش، فيتوارثون معها الخوف والاضطراب؛ فيروج في المجتمع الظلم ويكثر الظلمة، وينتشر في هذا الجو التشاؤم والقلق والرعب، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾. [4]

فهم يرتكنون إلى ضعف؛ وهم أبداً في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان. وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل. وكم من مرة وقف الباطل مدججاً بالسلاح أمام الحق الأعزل. ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب، ويرتجف من كل حركة وكل صوت. فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل؛ ولو كانت له الحشود وكان للحق القلة تصديقاً لوعد الله الصادق. [5]

فإذا انتشر الظلم وساد في أمة من الأمم، فإنّها تفقد الأمن والسلام والدّعة وهدوء البال، ويستولي على أهلها الخوف والقلق والفزع، ويئنون تحت وطأة الجوع والفقر، ويحيون حياة النكد والضنك، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

[1] – النساء: 116.

[2] – محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، (1418هـ)، 71/1.

[3] – ابن تيمية، مجموع فتاوى، 81/7.

[4] – آل عمران: 151.

[5] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 492/4/1.

رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[1] وقد بيّنت الآية أن ظلم هذه القرية لم يقتصر على الظلم العقدي، المتمثل في تكذيب الرسول الذي بعث منهم وإليهم، بل أضافوا إلى ذلك ظلما من نوع آخر، وهو كفران النعمة ليصبح الظلم ظلمان؛ لذلك عاقبهم الله بالخوف والجوع وأذاقهم مرارهما.

وقد جعل الجوع والخوف وكأنّهما لباس يلبسه الظالمون؛ وذلك بأن أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة، تجعل الناظر إليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع، وفزع شديد. إذ شدة الجوع تترك على البشرة شحوبا، وعلى الجلد هزالا، وشدة الخوف تجعل الجسم كله يرتعش؛ فيبدو كل منهما كثوب يرتديه الجائع والخائف، ويحس أثره ولذعه وتغلغله في النفوس إحساسا عميقا. وقد أدخلهما تحت حاسة التذوق؛ لأنها أقوى الحواس.[2] وأعمقها أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد.

وهذا بعد أن كانت تلك القرية تمتلك مقومات الحياة وأسباب الراحة الداعية إلى الشكر بدل الظلم والكفر؛ من التمتع بنعمة الأمن والسلامة من تسلط الأعداء والقتال والسبي، ونعمة الاطمئنان على الصحة، وسعة العيش؛ إذ كان يأتيها رزقها وافرًا سهلا هنيئًا من سائر البلدان.[3]

فالأمن والصحة والكفاية من أعظم نعم الله تعالى على البلاد والعباد، وسر سعادة الحياة واستقرارها. وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: {مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سَرْبِهِ،[4] عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا}.[5]

---

[1] – النحل: 112-113.

[2] – الشعراوي، تفسير الشعراوي، 8253/13؛ طنطاوي، التفسير الوسيط، 8/14/202-203.

[3] – المراغي، تفسير المراغي، 14/150؛ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 8251/13.

[4] السرب: النفس والمنهج. قال ابن دَرَسْتَوَيْه: "وإنما المعنى آمن في أهله وماله وولده ولو أمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يقل هو آمن في سِرْبِه". وقيل السرب هنا القلب. أي: آمن القلب. [ابن منظور، لسان العرب، 462/1].

[5] – أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة، 445/2-446، برقم (671)، من طريق أم الدرداء؛ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، عبده علي الكوشك، دار الثقافة العربية، دمشق، ط1، (1412هـ/1992م)، كتاب الزهد، 177/8-178، برقم (2503)؛ الطبراني، المعجم الأوسط، باب الألف، باب من اسمه أحمد، 230/2، برقم (1828)؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، 294/7، برقم (10362).

ومن الأمم التي أدى بها الإصرار على الظلم إلى الخوف والجوع، بعد أن كانت آمنة مطمئنة على قوتها مشركو قريش، الذين قال تعالى فيهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.[1] حيث طاردهم الخوف في صراعهم مع المؤمنين في مواطن كثيرة، كان آخره في فتح مكة، حين دخلها المؤمنون آمنين مطمئنين منتصرين، فأيقنوا عندئذٍ أنه لا آمان لهم ولا طمأنينة إلا بالدخول في دين الله، فدخلوه أفواجا آمنين.

وقد ضرب الله تعالى تلك القرية مثلا لأهل مكة، ولغيرهم من الأمم التي أنعم الله تعالى عليها بنعمة الأمن والرزق الوفير الواسع؛ تحذيرا لها من الوقوع في الظلم الذي وقعت فيه هذه القرية، لئلا يصيبهم ما أصابها من العقاب بالجوع والخوف.

ولا يزال الخوف والاضطراب والجوع يطارد اليوم الكثير من الدول؛ نتيجة استفحال الظلم في البر والبحر، وتعزيزه بمختلف الوسائل. وهو ما تؤكده الإحصائيات المذهلة لحوادث الظلم والاعتداء على الأديان والأنفس والأموال والأعراض، باسم القوانين والأنظمة البشرية التي تبيح للظالمين القتل والسجن والتشريد، ونشر الفواحش والرذائل، والترويج للرّبا بأشكاله المختلفة، وفتح الأبواب للخمور والمخدرات التي تفسد العقول، والنفوس والأموال والأعراض والأديان، وتهدم الأسر والمجتمعات تحت أغطية وأسماء مختلفة، كحماية الحريات ونحوها.

ومع ذلك فإن أغلب الدول التي تدّعي أنها تنشد الأمن والرخاء والاستقرار لا تسعى في الواقع لتحقيق ذلك، بل كثيرا ما تصطدم بالسبل التي توصلها إلى الخوف والهلاك والدمار، وتعمل عن جهل جاهدة على سدّ كل السبل التي تؤدي إلى الأمن والاطمئنان والاستقرار، وتضع العوائق أمام دعاته وتحاربهم وتستهزئ بهم وتقتلهم وتصد من أراد أن يستجيب لهم. وقصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم الظالمين، وتاريخ الدعاة إلى الله مع الأجيال المتلاحقة، وما يحدث اليوم على الساحة الدولية خير شاهد على ذلك.[2]

أما الأمن والاستقرار الذي تدعيه بعض الدول الظالمة، فإنّه أمْنٌ زائف فرض بالقوانين. فالقوانين لا يمكنها القضاء على الخوف والقلق وفرض الأمن والسلام، وإن استطاعت أن تفرضه ظاهرا، لأنّ الخائف من القانون في الحقيقة يصبح أظلم الظالمين إذا أَمِنَ من الناحية القانونية بخلاف الخوف من الله فإنّه مصدر الأمن والسلام الحقيقي؛ لأنه يظل قابعا في القلب حارسا لصاحبه.[3]

1- قريش: 3-4.

2- عبد الله قادري الأهدل، كتاب أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع، ص17-18.

3- [illegible] الجليل، وقفات تربوية، 214/4.

فالخوف والاضطراب وفقدان الأمن والجوع من أخطر آثار الظلم التي تهدد كيان الإنسان، وتعرض الدول والمجتمعات للهلاك والدمار.

المطلب الثاني: نزول الجدب والقحط

ومن آثار الظلم نزول الجدب والقحط، وذلك بقلة أو احتباس الأمطار التي تؤدي إلى الجفاف ونقص الثمار وقلة الغِلاَّت والإنتاج؛ فيترتب عن ذلك غلاء الأسعار وارتفاعها؛ فتتدهور القدرة الشرائية بحيث يعجز الناس عن اقتناء الضروريات والحاجيات فضلا عن الكماليات؛ فيتدنى المستوى المعيشي لعامة فئات المجتمع؛ فترزح تحت وطأة الفقر والجوع وآلام الأمراض الفتاكة، وتنتشر الرذائل والآفات الاجتماعية المختلفة، وفي الأثر: {إِذَا لُبِّسَ المِكْيَال حُبِسَ القَطر}[1] أي المطر، {إِذَا تَظَالَمَ النَّاسُ، وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنا، وَقَعَ الطَاعُون، وَإِذَا كَثُرَ الكَذِبُ كَثُرَ الهَرَج}.[2]

وآثار الظلم لا يقتصر ضررها على الظالم بل تتجاوزه إلى غيره، فيعم الجميع بما في ذلك الحيوانات، لما روي عن أبي سلمة قال: {سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَة رَجُلاً وَهُوَ يَقُول: إِنَ الظَالِمَ لاَ يَضُرُ إِلاَ نَفْسِهِ، قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: بَلَى، وَاللهِ إِنَ الحَبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا هزَالاً بِظُلْمِ الظَالِمِ}.[3]

والأثر يشير إلى أن الجوع الذي يُعد أثرا من آثار الظلم، لا يقتصر وباله على الظالم، بل يعم الجميع؛ فتتأذى بسبب ظلمه حتى الحيوانات.

[1] – أخرجه أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل السامري المعروف بالخرائطي، مساوئ الأخلاق، تحقيق مصطفى عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، (1413هـ/1993م)، باب ما جاء في الزنا من التغليظ، ص226، رقم (221)؛ والحاكم، المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، باب أما حديث أبي عوانة، 4/673-674، برقم (8601) بلفظ: {إذا بخس الميزان حبس القطر وإذا كثر الزنا كثر القتل ووقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج} من طريق عبد الله.

[2] – نفسه.

[3] – أخرجه الطبري، جامع البيان، 231/17؛ البيهقي، شعب الإيمان، باب في طاعة أولي الأمر، 54/6، برقم (7479).

وهذا ما يجلب إلى الدولة أو الأمة أنظار الأعداء ويجعلها مطمعا لهم؛ فتعاني ويلات الحروب، كالذي يقع اليوم في كثير من المجتمعات التي ينتشر فيها الظلم، وكالذي حصل لكثير من الأقوام الظالمة البائدة.

هذه الآثار التي ظهرت عند أهل مكة حيث أخذهم الله ﷻ بعد خروج المؤمنين منها فأصابهم بسبع سنين من القحط، وبارك لأهل المدينة وأغناهم بعد الإنذار والبشارة بذلك [1] في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءَامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات مِّنَ السماء والأرض ولكن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [2]

فدلت هذه الآية على أن من آثار الظلم بالكفر وسائر المعاصي عموما، الجدب والقحط وذهاب الخيرات، وارتفاع جميع البركات، والمقصود بالبركات "بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة، وذلك لأن السماء تجري مجرى الأب، والأرض تجري مجرى الأم، ومنها يحصل جميع المنافع والخيرات بخلق الله تعالى وتدبيره". [3]

وهو ما يؤكده قوله تعالى في شأن اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[4] فاليهود لما أصرّوا على الظلم بالإعراض عن العمل بما في التوراة والإنجيل، وتكذيب محمد ﷺ أصابهم القحط والشدة، وبلغوا إلى حيث قالوا: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾[5] فبيّن الله تعالى أنهم لو تركوا ذلك الظلم لانقلب الأمر وحصل الخصب والسعة.[6] ولأنزل الله عليهم من السماء قَطْرَها، فأنبتت لهم به الأرض حبها ونباتها، فأخرج ثمارَها. ولأكلوا من برَكة ما تحت أقدامِهم من الأرض، وذلك ما تخرجه الأرض من حَبِّها ونباتها وثمارِها، وسائرِ ما يؤكل مما تخرجه الأرض. [7]

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، 21/9.

[2] – الأعراف: 96.

[3] – الرازي، التفسير الكبير، 151/14.

[4] – المائدة: 66.

[5] – المائدة: 64.

[6] – الرازي، التفسير الكبير، 40/12.

[7] – الطبري، جامع البيان، 463/10.

فالآية دليل على أن من آثار الطاعة والاستقامة تيسير سبل المعيشة، وحصول الرّخاء وبسط النعمة واستدرار الأرزاق، وبلوغ الحياة الطيبة القائمة على الاستقرار والأمان؛ لأن قوله تعالى: ﴿لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يوحي ببسط النّعم عليهم، وكثرتها مع سهولة الوصول إليها دون الحاجة إلى بذل الجهد والمشقة والعناء، أو الاضطرار إلى السفر والترحال، وترك الأهل والولد. فهم يتقلبون في النعم، تغمرهم من جميع الجهات، فبدل السعي إليها سعت الآلاء إليهم حتى أصبحت بين أيديهم.

ولهذا يُعد الاستغفار والتوبة من الظلم وسيلة لدفع القحط والجفاف واستجلاب الخيرات وسعة الأرزاق؛ وهو ما أرشد نوح عليه السلام قومه إليه؛ فقال تعالى على لسانه: ﴿استغفروا ربَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[1] حيث تبيّن لهم أن الاستغفار كفيل بتحقيق الحياة الطيبة التي تجمع بين المال والبنين، والأنهار والجنان.

وتابعه على ذلك هود عليه السلام حيث قال القرآن على لسانه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.[2] وروى الطبري: {خَرَجَ عُمَر بنُ الخَطَاب رضي الله عنه يَسْتَسقِي، فَمَا زَادَ عَلَى الاسْتِغْفَارِ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ، فَقَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الَمطَرَ بَمجَادِيحِ[3] السَّمَاءِ التِّي يَسْتَنْـــزِلُ بِهَا الَمطَرُ، ثُمَ قَرَأَ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ وَقَرَأَ الآيَةَ التِّي فِي سُورَةِ هُود حَتَى بَلَغَ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾}.[4]

وقبل أهل مكة عاقب الله الكثير من الأمم بالجدب والقحط، بسبب الإصرار على الظلم كآل فرعون، وكان الغرض دفعهم إلى الإقلاع عن الظلم والعناد والاستكبار تحت وطأة الشدة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

[1] - نوح: 10-12.

[2] - هود: 52.

[3] - مجاديح السماء: أنواؤها التي ترسل الأمطار.واحدها "مِجْدَح" يقال: أرسلت السماء مجاديح الغيث.[المنجد في اللغة، ص81].

[4] - أخرجه الطبري، جامع البيان، 633/23؛ وعبد الرزاق، المصنف، 87/3، برقم (4902).

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.[1] والسنين في الآية جمع سنة، والسَّنَةُ في كلام العرب: الجَدْب والقَحط، يقال أصابتهم سنَةٌ أي جدبٌ وقحط.[2] وهي سِني الجوع بسبب قلة الزروع.[3] وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ دعا على مشركي قريش بالقحط والجفاف؛ فقال: {اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ[4] وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ}.[5]

فالله ﷻ ابتلى فرعون وأتباعه من أهل مصر في عهده بالجَدْبِ والقحطِ، ونقص الثمرات وغلاء الأسعار وضيق المعيشة. وذلك من آثار ظلمه وطغيانه؛ لأنّ قوته المالية والجندية منهم، وهذا فضلا عن متابعتهم له في الظلم العقدي بالكفر والشرك وسائر أنواع الظلم، رغم أن الله خلقهم أحراراً؛ وأكرمهم بالعقل والفطرة التي تكره الظلم والطغيان، فكان حقا عليهم ألا يقبلوا اتباعه في ظلمه، واستعباده لهم، وجعلهم آلة لظلمه وطغيانه، لاسيما بعد بعثة موسى ﷺ ووصول دعوته إليهم، ورؤيتهم لما أيّده الله به من الآيات.[6]

فآثار الظلم لا تقتصر على الظالم بل تتجاوزه إلى أعوانه، وجنده، بل تعم الجميع بسكوتهم عن الظلم وعدم الإنكار. وسيتضح ذلك أكثر عند الحديث عن دور النهي عن الظلم في وقاية الأمم من عواقبه الوخيمة.

---

[1] – الأعراف: 130.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، 47/2؛ الفيومي، المصباح المنير، ص176.

[3] – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 460/3.

[4] – مُضر: قبيلة عظيمة من العدنانية، كانت ديارهم حيز الحرم على السروات وما دونها من الغور. امتدت ديارها بالقرب من شرقي الفرات نحو حرّان. كانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر بني عدنان، وكانت لهم رياسة مكة. [عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، 1107/3].

[5] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب يهوي بالتكبير حين يسجد، ص142، برقم (804)، وفي كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، ص526، برقم (2932)، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:7]، ص612، برقم (3386)، وفي كتاب التفسير، باب ليس لك من الأمر شيء، ص829، برقم (4560)، وفي باب قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 99]، ص838، برقم (4598)، وفي كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، ص1155، برقم (6200)، وفي كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، ص1189، برقم (6393)، وفي كتاب الإكراه، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]، ص1282، برقم (6940)، واللفظ له؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، ص302-303، برقم (675)؛ وأحمد في مسنده، 470/2، برقم (502)، ورقم (521)، 280/1، برقم (441). كلهم من طريق أبي هريرة ﷺ.

[6] – محمد رشيد رضا، المنار، 85/9-86.

وإنّما أخذهم الله بالجَدب والقحط، وضيق المعيشة وانتقاص الثمرات، لعلهم يتّعظون بأن ما أصابهم هو من آثار ظلمهم وإصرارهم عليه وإعانتهم لفرعون عليه، فيدفعهم ذلك إلى الإقلاع عمَّا هم فيه من الظلم؛ لأنّ الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب، وترغب في الضراعة إلى الله، وتدعو إلى محاسبة النفس على الخطايا فتحملها على ترك الظلم بأنواعه.[1]

ومع ذلك لم ينتبه آل فرعون إلى أنّ الجدب والقحط ونقص الثمرات في مصر التي كانت تفيض بالخصب والعطاء أثر من آثار ظلم أهلها وإصرارهم عليه. لذلك تمادوا في الظلم ولَجُوا فيه؛ فكانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء وسعة الرزق حسبوها حقاً طبيعياً لهم! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوه ظلما إلى شؤم موسى عليه السلام ومن معه عليهم.[2]

ولا تقتصر آثار الظلم على الجدب والقحط بل يفضي إلى حلول مصائب مختلفة في الدنيا من أوجاع وأسقام وفقر وذهاب الأموال والأولاد وغيرها، وهو العذاب الذي توعّد الله عز وجل به الظالمين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[3]

قال ابن سعدي:[4] "لما ذكر الله عذاب الظالمين في القيامة أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر".[5]

وقد أشار النبي ﷺ إلى بعض هذه المصائب التي تعد من آثار أنواع الظلم المختلفة في قوله: {يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ

---

[1] - الزمخشري، الكشاف، 493/2؛ محمد رشيد رضا، المنار، 85/9-86؛ المراغي، تفسير المراغي، 41/1.

[2] - سيد قطب، في ظلال القرآن، 1357/9/3.

[3] - الطور: 47.

[4] - هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي الناصري التميمي الحنبلي. ولد في عُنَيزة بالقصيم سنة (1307هـ). توفيت والدته وهو في الرابعة، ثم والده وهو في الثانية عشرة، فكفلته زوجة والده، أدخلته مدرسة تحفيظ القرآن، فحفظه وهو في الرابعة عشرة، اشتغل بالعلوم الشرعية، وجلس للتدريس، توفي في سنة (1376هـ). من مؤلفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. [فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، (1418هـ/1997م)، 148/1-150].

[5] - السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص818.

بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ}.[1] حيث يؤكد أنَّ الأمراض المعدية والأوجاع، والأدواء المستعصية التي لم تكن معروفة عند الأسلاف، والقحط والجفاف وتسليط الظالمين بعضهم على بعض، وتسليط الأعداء على العباد والبلاد، وجعل بأس المسلمين بينهم، تعد كلُّها من آثار انتشار الظلم واستشرائه كما نص على ذلك هذا الحديث، وإن كان بعضها من آثار الظلم للأعراض وبعضها من آثار الظلم في المعاملات التجارية، والبعض الآخر من آثار الظلم السياسي والحكم الجائر.

المبحث الثاني: الحرمان من الهداية والفلاح

قال تعالى:

[1] – أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، 1332/2-1333، برقم (4019)؛ والحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، باب أما حديث أبي عوانة، 712/4-713، برقم (8688) من طريق أبي معبد حفص بن غيلان عن عطاء بن أبي رباح به وقال: "صحيح الإسناد"؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، 351/7-352، برقم (10550)؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، 167/1، برقم (106).

1- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

2- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

3- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[3]

4- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[4]

5- ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.[5]

6- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[6]

7- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[7]

[1] – البقرة: 258.

[2] – آل عمران: 86.

[3] – المائدة: 51.

[4] – الأنعام: 144.

[5] – إبراهيم: 27.

[6] – القصص: 50.

[7] – الأحقاف: 10.

علاوة على ذهاب الأمن ونزول القحط؛ فإن الحرمان من الهداية والفلاح أيضا، من أهم آثار الظلم، التي ينبغي العمل على توقيها. فما المقصود بالهداية والفلاح؟ وما هما الهداية والفلاح المنفيان عن الظالمين؟ هذه أهم التساؤلات التي سيحاول هذا المبحث الإجابة عنها، وذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول: حرمان الظالمين من الهداية

إنّ الظلم سبب لحرمان الظالمين من الهداية الإلهية، حيث يذرهم في ظلمهم يعمهون؛ كما أخبرنا القرآن بذلك في قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[1] وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**.[2]

وظاهر هذه الآيات التي ذيّلت بقوله: **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** وبقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** أن من كفر، ومن ارتّد عن الإسلام، ومن افترى على الله كذبا ليضلَّ النَّاس بغير علم، واليهود والنَّصارى ومن يتولّهم، ومن كفر بالقرآن كلهم ظالمون لا يهديهم الله.

وقد استخدم ﷻ الإظهار عوض الإضمار؛ فقال: **﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** بدل "لَا يَهْدِيهم" تعميماً وتعليقا للحكم بوصف الظلم بحيث يتناول جميع الظالمين بما في ذلك من ذكر في هذه الآيات، ويدخل فيه الأظلمون بطريق الأولى.[3] وعبّر عنهم بالقوم إشارة إلى أن الظلم كان شأنهم وقوام قوميتهم.[4]

وإذا كان الله ﷻ لا يهدي الظالمين، فكيف بمن اتصف بالزيادة في الظلم وهم الأظلمون! الذين صاروا بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النّظر في حالهم بسبب رسوخ الظلم في نفوسهم بل أصبح يغريهم بالازدياد والتملّي منه والاستشراء فيه والمواظبة عليه حتى صار فيهم ملكة وسجية يتعذّر الإقلاع عنها.[5]

[1] – البقرة: 258؛ آل عمران: 86؛ التوبة: 19، 109؛ الصف: 7؛ الجمعة: 5.

[2] – المائدة: 51؛ الأنعام: 144؛ القصص: 50؛ الأحقاف: 10.

[3] – البقاعي، نظم الدرر، 73/2.

[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 141/20/8.

[5] – نفسه، 135/8/4-136.

والهداية على التحقيق هي: "الدلالة الموصلة إلى المطلوب".[1] أمّا في الشرع فهي نوعان:[2] هداية دلالة وهداية معونة.

هداية الدلالة: وهي الإرشاد إلى ما يرضي الله من فعل الخير، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة والفوز والفلاح، ويقابلها الضلالة.

وهداية الدلالة مما تفضل الله به، ومنحه للناس جميعا، لا فرق في ذلك بين الظالمين وغيرهم. فالله ﷻ هدى كل عباده هداية دلالة، أي دلهم على طريق الخير وبينه لهم، وترك لهم حرية الأخذ به، كما قال في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[3] أي أرشدناهم إلى طريق الخير والشر فاستحبوا طريق الظلم الذي عبّر عنه بالعمى.

وهذه الهداية هي أساس البلاغ عن الله ﷻ ولذلك أثبتها للنبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[4]

وهداية المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير للمؤمنين دون الظالمين. وهي التي أمرنا الله بطلبها في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذه الهداية خاصة به ﷻ لم يمنحها أحدا من خلقه، ومن ثمّ نفاها عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[5] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[6] وأثبتها لنفسه في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.[7]

فالذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله ﷻ عليه، ويحببهم في الإيمان والتقوى والطاعة، ويزيدهم تقوى وحبا في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.[8]

---

[1] – المراغي، تفسير المراغي، 34/1.

[2] – المراغي، تفسير المراغي، 1/34-36؛ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1/84-86.

[3] – فصلت: 17.

[4] – الشورى: 52.

[5] – القصص: 56.

[6] – البقرة: 272.

[7] – الأنعام: 89.

[8] – محمد: 17.

أمّا الظالمون فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم، ويتركهم في ظلمات ظلمهم يتخبطون، لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً بسبب ظلمهم وطغيانهم؛ لأنّ الظلم حائل بين الظالمين وبين التنازل إلى التأمّل، وإعمال النظر فيما فيه النفع؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوهم وغرورهم، فهم محرومون من هداية الله في المعونة والتوفيق.[1]

ولكن هل يُحمل نفي هداية الله في المعونة والتوفيق عن الظالمين على العموم فيصدق الحكم على جميع الظالمين أم يحمل على الخصوص؟ وهل يراد بالنفي الإطلاق في المدة أم التقييد بوقت محدد؟ وكيف نفسر إقلاع بعض الظالمين والأظلمين عن ظلمهم وتوبتهم واهتدائهم؟

يرى أبو بكر الجزائري[2] أن نفي هداية الله في المعونة والتوفيق عن الظالمين يُحمل على الخصوص لا على العموم، ويراد به الإطلاق -أي التأبيد- لا التقييد بوقت محدد؛ فيقول: "هذا بيان لسنة الله تعالى في الظالمين الذين أكثروا من الظلم وتوغّلوا فيه عقيدة بالشرك وعملاً بالمعاصي فإنه يحرمهم الهداية فلا يهتدون أبداً".[3]

ولكن الواقع يؤكد إيمان واهتداء كثير من الظالمين والأظلمين، وإقلاعهم عن الظلم بل توبتهم عنه رغم أنهم أكثروا منه، واستشروا فيه بأنواعه، لاسيما الظلم الأعظم، كما هو الشأن عند بعض رؤساء الظلم، فكيف نبرر ذلك؟

وهو ما جعل ابن عاشور يرى أن ذلك ليس على التأبيد، وإنْ حَمَلَ العموم على الخصوص؛ فقال: "والمراد بالظالمين: الكاملون في الظلم... فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منه على ظلمهم، فهم باقون في الضلال يتخبطون فيه، فهم أضل الضالين، وهم مع ذلك متفاوتون في انتفاء هدى الله عنهم على تفاوتهم في التصلب في ظلمهم؛ فقد يستمر أحدهم زماناً على ضلاله ثم يقدر الله له الهدى فيخلق في قلبه الإيمان. ولأجل هذا التفاوت في قابلية الإقلاع عن الضلال استمرت دعوة النبي ﷺ إياهم للإيمان في عموم المدعوين إذ لا يعلم إلا الله مدى تفاوت

---

[1] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 34/3/2؛ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 85/1.

[2] - أبو بكر الجزائري هو: جابر بن موسى، مفسر داعية معاصر، ولد في (1340هـ/1921م) بالجنوب الجزائري. من أسرة معروفة بالصلاح. من أشهر شيوخه: الطيب العقبي أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين، هاجر إلى الحجاز، ولازم في المدينة المنورة حلقات الكثير من المشايخ منهم: خطيب المسجد النبوي عبد العزيز بن صالح. انتسب إلى كلية الشريعة بالرياض ونال شهادة الليسانس في (1381هـ/1961م) وحصل على إجازة للتدريس بالمسجد النبوي، حيث لا يزال إلى وقتنا الحالي، وتتضمن دروسه التفسير، وتذاع بإذاعة القرآن الكريم من السعودية. تأثر من الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ فأصدر فيها صحيفتين: الداعي، واللواء، وله العديد من المؤلفات منها: منهاج المسلم، رسائل الجزائري. [محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، ط4، (1992م)، 27/1؛ ابن طهروني (اتصل به شخصيا)، التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، 201/1- 203].

[3] - أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 81/4.

الناس في الاستعداد لقبول الهدى، فالهدى المنفي عن أن يتعلق بهم هنا هو الهدى التكويني. وأما الهدى بمعنى الإرشاد فهو من عموم الدعوة".[1]

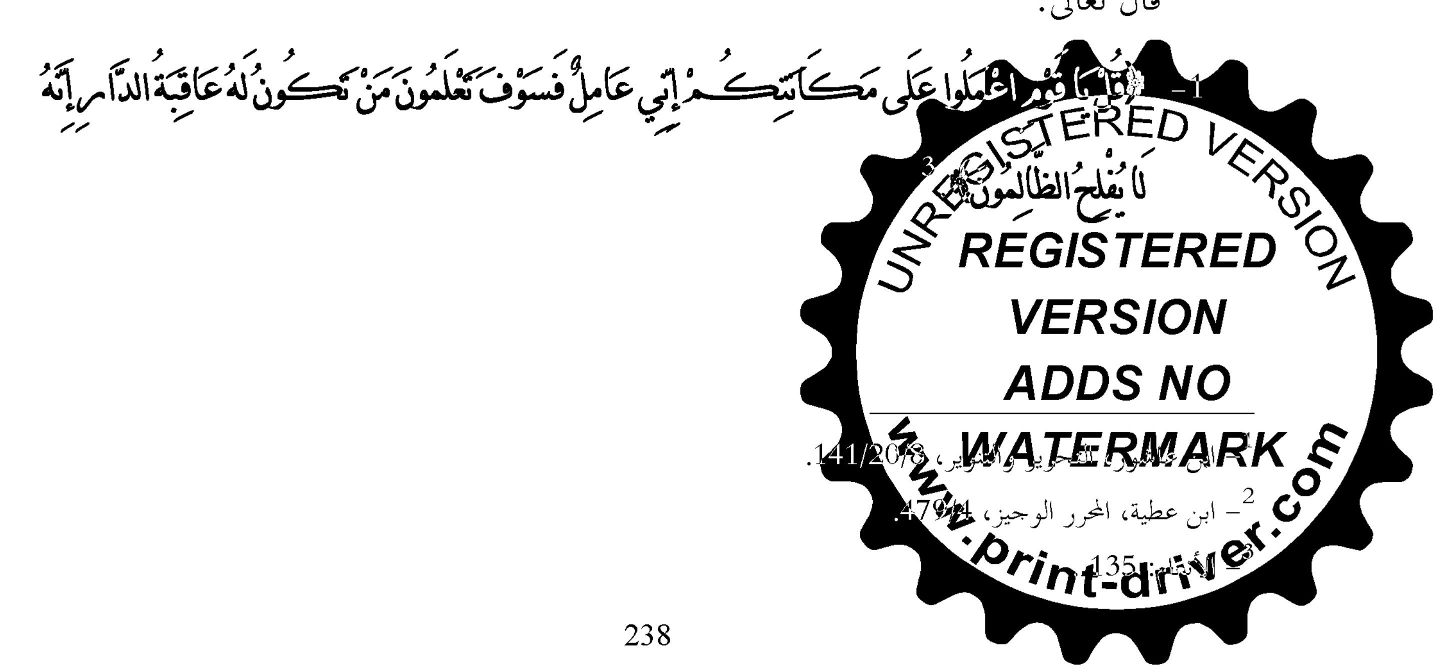
وحمله أيضا ابن عطية على الخصوص، ولكنه يرى أن الخصوص قد يتعلق بفئة معينة من الظالمين، وهم الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ولا يهتدون، وقد يتعلق بزمن الظلم، أي أن الله لا يهدي الظالمين ما داموا مقيمين على الظلم، فأما إذا أقلعوا عن الظلم وتابوا منه، فقد هداهم الله ووفقهم لذلك؛ فقال: "عموم فإما أن يُراد به الخصوص فيمن سبق في علم الله أن لا يؤمن ولا يهتدي وإما أن يراد به تخصيص مدة الظلم والتلبس بفعله، فإن الظلم لا هدى فيه، والظالم من حيث هو ظالم فليس بمهديّ في ظلمه".[2]

فمن آثار الظلم إذن حرمان هداية المعونة والتوفيق. وهذا ما يقتضي الاحتراس والابتعاد عن الظلم بجميع أنواعه حتى يرزقنا الله ﷻ هذه الهداية ويوفّقنا للرشد وإصابة الحق والثبات عليه.

المطلب الثاني: حرمان الظالمين من الفلاح

قال تعالى:

1- ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3]



1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 141/20/8.

2- ابن عطية، المحرر الوجيز، 479/4.

3- الأنعام: 135.

2- ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[1]

3- ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.[2]

4- ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[3]

5- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[4]

6- ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.[5]

7- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾.[6]

من عواقب الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[7] والفلاح: الفوز وصلاح الحال، وقد نفاه عن الظالمين؛ فعمّ كلّ فلاح في الدنيا والآخرة، والفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل، وهو سبب فلاح الآخرة المتمثل في الفوز بِالنّجاة من عذابِ النَّارِ، والفوز بنعيمِ الجنَّةِ يومَ الحسابِ.[8] ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا



---

1 – القصص: 37.

2 – طه: 111.

3 – يوسف: 23.

4 – الأنعام: 21.

5 – الأعراف: 8-9.

6 – الشورى: 45.

7 – الأنعام: 21؛ الأنعام: 135؛ يوسف: 23؛ القصص: 37.

8 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 247/1/1، 172/7/3.

﴿أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.[1] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.[2]

وقد صدر خبر خسران الظالمين بضمير الشأن مع إنّ؛ لإفادة الاهتمام بهذا الخبر؛ وليقع في نفس السامع موقع الرسوخ.[3]

والتعبير بالوصف يشير إلى أن الظلم هو سبب الخسران، وأن الخذلان والحرمان من الفلاح سنة الله الجارية في جميع الظالمين، فكلّهم مخذولون لا يفلحون، ولا يفوزون بخير ولا ينتصرون، ولا يظفرون بمطلوب، ولا تصلح أحوالهم، ولا ينجون من محذور-ومن المحذور العذاب الدنيوي- لا في الدنيا ولا في الآخرة.[4] وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

هكذا يقرر الله ﷻ "الحقيقة الكلية؛ ويصف الحصيلة النهائية للظلم والظالمين، فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر، في الأمد القريب، فلاحاً ونجاحاً. فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار".[5]

فما يتمتع به الظالمون في الدنيا من الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، والرخاء وسعة الرزق، والسلطة وتتابع النِّعم عليهم، ليس دليلا على رضا الله ﷻ عنهم، ولا كرامة منه لهم، لأنه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل هو إمهال واستدراج وإملاء لهم؛ ليزدادوا انغماسا في الظلم واستشراءً وتماديا فيه حتى ينتهوا إلى ما يسوؤهم. فكلّ ظالم وإن تمتّع في الدنيا بما تمتّع به فنهايته إلى الخسران، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.[6]

1- الأعراف: 9.

2- الشورى: 45.

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 172/7/3.

4- المراغي، تفسير المراغي، 40/8؛ محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِيّ العَلَويّ الهَرَرِيّ الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2001م)، 193/21؛ أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2684/5؛ عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، (1417هـ/1996م)، ص119.

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1063/7/2.

6- الأنعام: 44.

إذًا وإن بدا الظلم قويا غالبا فائزا فإلى حين، والعاقبة للعادلين المنصفين المقيمين للحق، وهؤلاء هم رسل الله وأتباعهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2] وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.[3] فالظالمون لا يفوزون في نهايتهم، وإن فازوا في بعض الأمور العرضية.[4]

ولفظ الظلم في الآيات السابقة التي ذيلت بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ جاء بيانا للحالات التي عنيت بها الآيات بحسب ما يقتضي السياق، فهو لفظ عام يشمل جميع أنواع الظلم؛ العقدي والاجتماعي مما يدل على أن الخسران وعدم الفلاح مآل جميع الظالمين على اختلافهم في أنواع الظلم الذي ارتكبوه.

وهو ما يؤكده الرجوع إلى الآيات التي ذيلت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث نجد أنّ من الظالمين الذين لا يفلحون الكفّار، والكفر نوع من أنواع الظلم العقدي، فيشمل الحكم ابتداءً الظالمين بالكفر من قوم النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[5] وهو خطاب من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ أن يقول لأولئك الظالمين تهديدا ووعيدا: استمروا على ظلمكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقتي، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له عاقبة الدار.

والعاقبة حقيقتها ما يتعقب الشيء من خير أو شر، لكنها لا يُراد بها إلا الحسنى حتى تكون له، وأما عاقبة السوء فهي عليه لا له.[6]

والمراد بالدار الدنيا، وعاقبتها "الراحة والسكن والاستقرار مع الأمن والطمأنينة والسرور والظفر بجميع المطالب في الحالة التي تكون آخر الحالات من الإنسان"[1] وأن "يختم للعبد بالرّحمة والرضوان

---

[1] - غافر: 51-52.

[2] - الصافات: 171-173.

[3] - المجادلة: 21.

[4] - المراغي، تفسير المراغي، 40/8؛ أبو زهرة، زهرة التفاسير، 2684/5؛ عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص119.

[5] - الأنعام: 135.

[6] - البقاعي، نظم الدرر، 489/5.

وتلقي الملائكة بالبشرى والغفران"[2] ودخول الجنّة، لأنّها "خُلقت ممرًا إلى الآخرة ومزرعةً لها، والمقصود منها بالذات هو الثواب، وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيأتيهم، فالعاقبة المطلقة الأصلية للدنيا، هي العاقبة المحمودة دون المذمومة، ولا اعتداد بعاقبة السوء، ويكون العقاب إنما قصد بالتبعية"؛[3] لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.[4]

وهي لا تكون إلا لرسوله ﷺ وأتباعه المؤمنين كما وعد الله تعالى ووقع ما وعد؛ فنصر رسوله ﷺ وأصحابه على الظالمين بالكفر في الدنيا، فآل أمر البلاد العربية من اليمن[5] إلى حدود الشام[6] إليهم، وصارت الكلمة لهم، أما في الدار الآخرة، فقد أشار ﷺ أنّ النّعيم المقيم يكون للمؤمنين، والجحيم يكون للكافرين، وإذا صدق وعده في الدنيا صدق في الآخرة.[7]

وكما نصرهم نصر من بعدهم على من ظلمهم من أهل الشرق والغرب، فلما ظلموا لم تبق لهم ميزة عن غيرهم تمكنهم من الفوز والفلاح. ولا عجب بعد هذا أن يتغلب عليهم غيرهم، لأن الله إنما وعدهم نصره إذا اجتنبوا سبل الظلم والضلال، وسلكوا سبيل الحق والعدل[8] كما قال: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.[9]

وقد يبلغ الظلم العقدي ذروته بادعاء الألوهية فلا يفلح صاحبه كفرعون الظالم العاتي المستكبر الذي لم يقتصر على نوع من أنواع الظلم بل جمع بين عدة أنواع. هذا الحاكم الظالم الذي استعبد أتباعه رغم أنّه دُعي إلى الإيمان بالله، وأُتي بالمعجزات، ولكن ادعى الألوهية، ونسب

---

[1] – نفسه.

[2] – النسفي، تفسير النسفي، 266/2.

[3] – الأُرَمِيّ، تفسير حدائق الروح والريحان، 192/21-193.

[4] – الرعد: 22-23.

[5] – اليمن: سميت بذلك لتيامن الناس إليها، حدودها بين عمان إلى نجران ويلتوي على بحر العرب إلى عدن. سميت الخضراء لكثرة أشجارها وثمورها، والبحر محيط بها من المشرق إلى الجنوب فراجعا إلى المغرب، يفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب نجد [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 447/5-449].

[6] – الشام: حدها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وعرضها من جبلي طيء من نحو القبلة على بحر الروم. قيل سميت الشام لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات، وقيل سميت بسام بن نوح عليه السلام لكونه أول من نزلها. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 311/3-313].

[7] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 120/8؛ المراغي، تفسير المراغي، 40/8؛ زيدان، السنن الإلهية، ص118-119.

[8] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 120/8-121؛ المراغي، تفسير المراغي، 40/8-41.

[9] – إبراهيم: 13-14.

موسى عليه السلام إلى السحر ظلما؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[1]

وحاصل كلام موسى عليه السلام الذي جاء في سياق التهديد للظالمين: ربي أعلم بمن جاء بالضلال ظلماً وعدواناً، فيكون مخذولاً لكونه ظالماً ساحراً مفترياً على الله، وأعلم بحال من أَهَّلَه للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعني نفسه، ولو كان كما تزعمون ظالما لما أَهَّلَه لذلك لأنّه لا يرسل الظالمين؛ ولكن اكتفى بتصوير حال نفسه تشويقاً إلى اتباعه.[2]

وفي هذا الأسلوب من أدب الخطاب في الحجاج والمناظرة ما لا يخفى، فهو لم يؤكد أن خصمه ظالم كما لم ينسب الظلم إلى نفسه بل ردده بينهما، وهو يعلم أنه لأيّهما، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبي ﷺ للمشركين الظالمين بقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.[3] ثُمّ بيّن بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الظالم؛[4] فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

ووضع الظلم موضع الكفر لأنه أعم منه وهو أكثر فائدة لأنه إذا لم يفلح الظالم فكيف يفلح الكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم؟[5]

وكما وضع الظلم موضع الكفر وضعه موضع الزنا؛ فقال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.[6] للدلالة على أن الزنا صورة من صور الظلم، وهو ظلم للأعراض، وأن الظالم للأعراض بالزنا لا يفلح ولا يفوز لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لذلك جعل يوسف عليه السلام صيانة نفسه عن الظلم–ففيه ظلم لنفسه وظلم وخيانة لسيده– الذي لا يفلح من تعاطاه من الموانع له من هذا الفعل علاوة على تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه وائتمنه على بيته وعرضه.[7]

---

[1] القصص: 37.

[2] – النسفي، تفسير النسفي، 265/2؛ البقاعي، نظم الدرر، 490/5.

[3] – سبأ: 24.

[4] – الأرمي، تفسير حدائق الروح والريحان، 194/21.

[5] – المراغي، تفسير المراغي، 40/8؛ زيدان، السنن الإلهية، ص118-119.

[6] – يوسف: 23.

[7] – السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص396.

وإذا كان الظالمون جميعا، على اختلاف أنواع ظلمهم، بين العقدي والاجتماعي، لا يفوزون، ولا يظفرون بمطالبهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينجون من مكروه، ونهايتهم الخذلان والخسران بسبب الظلم إذا لم يتوبوا منه، فكيف يفلح من اتصف بالزيادة في الظلم، بل بلغ ظلمه النهاية، وهو الأظلم ؟!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1]

أي: لا يُفْلح الظَّالِمُونَ مطلقاً فضلا عن الأظلمين؛ لأنّ نفي الفلاح عن الظالمين يدخل فيه الأظلمون من باب أولى، والأظلمون هم الذين بلغوا الغاية القاصية من الظلم، كالذين تتحدث عنهم الآية ممن افترى الكذب على الله بتحريف كتبه ونسبة ما لم يقله إليه إضلالاً لعباده أو كذب بآياته التي جاء بها رسله- عليهم السلام- كالقرآن وغيره من المعجزات، فأولئك لا أحد أظلم منهم، فهم غير مفلحين.

والخلاصة أنّ الفلاح المنفي عن الظالمين، يقصد به الفلاح الدنيوي والأخروي، إذ لا يظفر الظالمون لا بالراحة ولا بالأمن ولا بالاستقرار، وإن جمعت لهم الدنيا بحذافيرها، بل إنّ ذلك يزيد من شقائهم، وقلقهم الدائم خوفا على ذهابها، وحسرة على ما فات منها. وإذا ماتوا خسروا الدّنيا التي تُعد ممرا إلى الآخرة، وخسروا أنفسهم وأهليهم بدخولهم النار.

[1] الأنعام: 21

المبحث الثالث: سقوط دولة الظلم

قال تعالى:

1- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.[1]

2- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.[2]

3- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.[3]

---

[1]- يونس: 13.

[2]- هود: 100-102.

[3]- هود: 117.

4- ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.[1]

5- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.[2]

6- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.[3]

7- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[4]

8- ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.[5]

9- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾.[6]

مما يلفت الانتباه مجيء آيات كثيرة في القرآن الكريم تربط الإهلاك وسقوط الدول بالظلم، إذ عادة ما تأتي هذه الحقيقة، كتذييل لقصص القرآن الكريم المتعلق بالقرى المندثرة، وتأتي في شكل قواعد كلية؛ فتجعل الهلاك قاصرا على أهل الظلم دون غيرهم. مما يدل على أن الظلم هو سبب الهلاك.

ولهذا استعمل القرآن ظرف "لما" الذي يفيد تعليل وقوع هلاك القرى بوقوع سببه وهو الظلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [2] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ

[1] - الكهف: 59.
[2] - الأنبياء: 11-15.
[3] - القصص: 58.
[4] - العنكبوت: 40.
[5] - القصص: 59.
[6] - الأنعام: 47.

﴿قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[3] فلفظ "لمّا" جاء في هاتين الآيتين ليبيّن أنّ الظلم هو سبب الإهلاك. وهذا الظلم نوعان: (**الأول**) ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسق والفجور والخروج عن طاعة الله والتظالم فيما بينهم. (**والثاني**) ظلم الحكام لهم على نحو يهدر حقوقهم، ويذهب بعزتهم، ويعودهم على حياة الذل والمهانة، مما يجعل الدولة ضعيفة غير صالحة للبقاء فيسهل على الأعداء الاستيلاء عليها واستعبادها فيكون هذا محقا لها وفناءً لشخصيتها".[4]

فتفشي الظلم واستفحاله يؤدي إلى هلاك الدول بسقوطها، أو استئصالها وتدميرها. فإهلاك الله القرى والدّول بالظلم نوعان:[5]

أحدهما: هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري، وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الدّول، وسبب لاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاءً مؤقتا، إن كان إفساد الظلم لها عارضا لم يجهز على استعدادها للحياة، واستعادتها للاستقلال، أو دائما إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.[6]

ثانيها: عذاب الاستئصال للأقوام التي عاندت الرسل رغم مجيء الآيات الدالة على صدقهم؛ لتمرن أولئك الأقوام على الظلم واطمئنانهم به، وارتباط لذاتهم ومصالحهم من الجاه والرياسة والسياسة بأعمالهم الإجرامية من ظلم وفسق وفجور.

والملفت للانتباه أن القرآن لم يستخدم لفظ "الدّولة" ولا لفظ "الأمة" في التعبير عن الظالمين المهلكين. ففي جميع الآيات التي بين أيدينا عبّر القرآن بلفظ القرية في الغالب وأحيانا بلفظ "القوم" ولعل في هذا إشارة إلى أن الظلم لا يستأصل الدول إن لم تكن ظالمة بأكملها بل يقتصر على القرية الظالمة منها، إلا إذا عمّ.

المطلب الأول: ضعف دولة الظلم

1 – أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 200/4؛ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 315/11.

2 – الكهف: 59.

3 – يونس: 13.

4 – عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص120.

5 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 315/11-316.

6 – الأنبياء: 11.

من آثار الظلم وإفرازاته ضعف الدول الظالمة اقتصاديا وعمرانيا وعسكريا وعلميا؛ لأنّ الظلم مُعوق للعمل النافع مُعطل لإيجابية الإنسان، يُعلّم الناس القعود عن السعي في التكسب، والعزوف عن العمل والإنتاج، والتقاعس عن حسن الأداء والعطاء، والزهد في الإتقان والإبداع؛ لانقطاع آمالهم في نيل حقوقهم والحصول عليها؛ فتكثر بذلك الاتكالية، واستغلال الفئات الضعيفة من قبل الظلمة وأعوانهم معتمدين على نفوذهم؛ فتخور العزائم، وتتراجع المواهب، وتنتشر الرداءة والغش، والبطالة والتسول، والأمراض المستعصية، والآفات الاجتماعية المختلفة. ويسعى النّاس لاسيما أصحاب الكفاءات بشتى الطرق والوسائل المشروعة وغير المشروعة إلى الهجرة، وترك الديار والأوطان ولو كلّفهم ذلك حياتَهم؛ بحثا عن الحياة الطيبة المستقرة، من الأمن والصحة والكفاية في غيرها من الدول. وهو ما تؤكده الإحصائيات والأنباء اليومية.

ولهذا قال ابن خلدون:[1] "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أنَّ غايتَها ومصيرَها انتهابُها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالُهم في اكتسابها وتحصيلِها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباضُ الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمرانُ وَوُفُورُهُ ونَفَاقُ[2] أسواقِه إنَّما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال وابْذَعَرَّ[3] النّاس في الأفاق لطلب الرزق فَخَفَّ ساكنُ القُطْرِ، وخلت ديارُه، وخَرَبَت أمصارُهُ، واختل باختلاله حالُ الدولة والسلطان، لِمَا أنها صُورَةٌ للعمران تَفْسُدُ بِفَسَادِ مَادَّتِهَا ضَرُورَةً".[4]

---

[1] – هو: أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-1332م/808هـ-1406م)، الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري المالكي، عالم، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. ولد بتونس ونشأ بها وطلب العلم، ورحل إلى غرناطة وبجاية واعتقل، وتنقلت به الأحوال إلى أن رجع إلى تونس فأكرمه سلطانها، فسعوا به عند السلطان، ففر إلى الشرق، وولي قضاء المالكية بالقاهرة مرارا وتوفي بها فجأة لأربع بقين من شهر رمضان، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر. من مؤلفاته: تاريخ ابن خلدون، لباب المحصل في أصول الدين. [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 189/5؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 498/1، برقم (330/3)].

[2] – النفاق ضد الكساد. [ابن منظور، لسان العرب، 357/10].

[3] – ابذعر الناس تفرقوا. [ابن منظور، لسان العرب، 51/4].

[4] – عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، (1421هـ/ 2001م)، ص353-354.

فكل هذا يؤثر في قوة الدولة على مختلف المستويات، ويقلل مواردها المالية التي تساهم في بنائها وتطويرها وإعداد قوتها في مختلف المجالات، مما يجعل الدولة ضعيفة – وإن بقيت قوية طاغية على مواطنيها الضعفاء المظلومين – ويفتح الباب أمام مطامع أعدائها من الدول القوية للهجوم عليها والاستيلاء على خيراتها أو إلحاق الأذى والضرر بها مما يعجل في ضعفها وسقوطها وخرابها.[1] كما قال تعالى عن ديار ثمود الذين أهلكهم بالصيحة بسبب ظلمهم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[2] وخاوية أي فارغة لا ساكن فيها، ولا أحد يجيء إليها، فكان المآل الهلاك والبوار، فإن المكان الخالي من السكان مآله البعد أو بمعنى السقوط والتهدم.[3]

وقد أشار القرطبي إلى أثر الظلم في خراب الدول؛ فقال: "فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة".[4]

وقال الألوسي:[5] "وفي هذه الآية على ما قيل دلالة على الظلم يكون سبباً لخراب الدور. وروي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله تعالى أن الظلم يخرب البيوت وتلا هذه الآية، وفي التوراة ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك، قيل وهو إشارة إلى هلاك الظالم إذ خراب بيته متعقب هلاكه، ولا يخفى أن كون الظلم بمعنى الجور والتعدي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار، وكونه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك. نعم لا يبعد أن يكون على الكفرة يوم تخرب فيه بيوتهم إن شاء الله تعالى".[6]

ولئن كان الألوسي يتحدث عن البيوت وخرابها، فإنه يقصد منها خراب الدول والعمران، ويفرق هنا بين آثار الظلم العقدي وغيره من أنواع الظلم الأخرى التي تقع على العباد، فيشير إلى حقيقة هامة، وهي أن الظلم العقدي كالشرك والنفاق لا يؤدي إلى خراب البيوت، بينما يفضي ما يقع منه على الناس كالظلم الاجتماعي والمالي أو الاقتصادي إلى الهلاك والدمار. وهو ما يدل على أن الدولة تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، كما نقل ذلك ابن تيمية فقال: "قيل: إن الله يقيم

---

[1] – عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، ص125.

[2] – النمل: 52.

[3] – أبو زهرة، زهرة التفاسير، 5464/10.

[4] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 334/9.

[5] – هو: محمود بن عبد الله بن محمود الحسيني الألوسي، شهاب الدّين، شيخ علماء العراق في عصره ومن المجددين المجتهدين الكبار، محدث، فقيه، مفسر، أديب، لغوي، تقلد الإفتاء ببغداد. توفي سنة (1270هـ). [عادل نويهض، معجم المفسرين، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، (1406هـ/1986م)، 665/2؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 687/2، برقم (176/7)].

[6] – الألوسي، روح المعاني، 209/19/10.

الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام".[1]

وهو أحد المعاني الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.[2] أي بشرك وأهلها لا يتظالمون فيما بينهم.

ومن أشد الظُّلاَمَاتِ وأعظمِها في إفساد العمران وتخريب الأوطان، تكليفُ الناس بالأعمال في غير شأنهم وتسخيرهم بغير حق. واغتصاب قيمة عملهم ذلك، وهو مُتَمَوَّلُهُم؛ فيدخل عليهم الضرر، ويذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشُهم بالجملة. وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العِمَارَة، وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى إلى انتقاض العمران وتخريبه. وعائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض.[3]

أمّا عدم وقوع الخراب اليوم في كثير من الدول التي ينتشر فيها الظلم؛ فيعود إلى التناسب بين الظلم وأحوال هذه الدول، فهذه الدول كبيرة وعمرانها كثير وأحوالها متسعة بما لا ينحصر، لذلك كان وقوع النقص فيها بالاعتداء والظلم يسيراً؛ لأن النقص في العمران إنما يقع بالتدريج. فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في الدول لم يظهر أثره إلا بعد حين. وإن كان حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه، ووباله عائد على الدول.[4]

فانتشار الظلم على مستوى الأفراد والدول من أعظم أسباب ضعف وتأخر الدول العربية والإسلامية وخسارتِها، وتسلط أعدائها من اليهود والصليبيين عليها. وإن لم تسارع إلى علاجه فإنه سيؤول بها إلى السقوط والانهيار.

وهذا شأن الظلم حين يظهر في كيان الدول فإنه ينخر جسدها ويستفحل تدريجيا إلى أن تضعف وتسقط نهائيا.



[1] – ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 146/28.

[2] – هود: 117.

[3] – ابن خلدون، المقدمة، ص354.

[4] – نفسه.

المطلب الثاني: استئصال دولة الظلم

قد تصل عواقب الظلم الوخيمة إلى استئصال القرى والدّول الظالمة وإفنائها، وهو ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] كناية عن استئصال الجميع؛ لأن المستأصل يبدأ بالأول إلى أن يبلغ الدابر. واستخدمت الآية لفظ القوم الذي يدل على أن الظلم لم يقتصر ارتكابه على فرد أو طائفة معينة بل كان عادة القوم وقوام قوميتهم وصفة لهم جميعهم. لقد انتشر وعمّ، و لم يجد من يدفعه ويمنعه، ويأخذ على أيدي الظالمين حتى استفحل بحيث لا يمكن استئصاله إلا عن طريق الإفناء العام للظالمين عن آخرهم؛ لتطهير وجه الأرض من ظلمهم.

وهذا ما حدث مع كثير من القرى كقوم نوح وهود وصالح وقوم لوط -عليهم السلام- والفراعنة وغيرهم ممن أفضى بهم الإصرار على الظلم إلى الاستئصال. وهو ما جاء صريحا في اعتراف الظالمين حين آتاهم بأس الله وعذابه، وهم في وقت الراحة والدّعة، إذ أدركوا بعد فوات الأوان أن استشراءهم في الظلم جعل الظلم طبعا لهم حتى بلغ بهم إلى هذه العاقبة الوخيمة، وجرّ إليهم الحسرة والندم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .[2]

فالتمادي في الظلم دمّر حضارتهم وقصورهم رغم قوتهم وثرائهم وازدهارهم، وما كان لهم من الرخاء والمتاع والتمكين في الأرض؛ فترك قراهم خرابا، خالية من كل مظاهر الحياة؛ كما تفيد ذلك جملة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الواقعة حالا من القرى في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [3] وقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.[4]

[1]- الأنعام: 45.

[2]- الأعراف: 4-5.

[3]- الحج: 45.

[4]- هود: 100.

فمن هذه القرى ما لا تزال آثارها تشهد بما بلغ أهلها من القوة والعمران، كالأهرام وأبي الهول بمصر بلد فرعون، ومثل آثار نِينَوَى[1] بلد قوم يونس، وأنطاكية[2] قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء[3] بلد قوم تُبّع، وبقايا عاد في الأحقاف وبقايا ثمود في الحِجر.[4] ومنها ما صار خرابا متداعيا كالزرع المحصود اجتث من فوق الأرض،كما حل بقوم نوح وقوم لوط.[5]

فكلها انتهى بها الظلم إلى الفناء وإن اختلفت طرق الاستئصال؛ ومن هذه الطرق الرمي بالحجارة كقوم لوط، والأخذ بالصيحة الشديدة التي تزلزل الأرض كقوم ثمود، والخسف كقارون والإغراق كقوم نوح وفرعون، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾**.[6]

فهل كانت هذه الطرق ناشئة عن طبيعة هذه المناطق؟ هل هي مناطق بركانية أو زلزالية أو رملية متحركة؟

فالإصرار على الظلم دمّر جميع القرى الظالمة، وآباد الظالمين عن آخرهم، وإن اختلفت طرق التدمير والاستئصال إلا أنّ مصير الظالمين كافة كان واحدا رغم البون في الزمان والمكان. وهو ما يدل على تكرر هذه النماذج والنتائج كلما توفرت الشروط.

الفرع الأول: الاستئصال سنة الله في الظالمين

---

[1] – نِينَوَى: بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو: وهي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل. وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نِينَوَى منها كربلاء التي قُتل بها الحسين رضي الله عنه. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 339/5].

[2] – أنطاكية: قصبة العواصم، من الثغور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة. أول من بناها أنطيغونيا في السنة السادسة من موت الإسكندر، وأول من سكنها أنطاكية بنت الروم بن اليقن بن حام بن سيدنا نوح عليه السلام. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 266/1-270].

[3] – صنعاء: منسوبة إلى جودة الصنعة في ذاتها، وهي موضعان: أحدهما في اليمن وهي العظمى، وأخرى قرية بالغوطة من دمشق. أما الأولى فكان اسمها أزال وهي الأصل. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 425/3-431].

[4] – والحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام بشمال الجزيرة العربية. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 221/2؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، ص90].

[5] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1927/12/4؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 158/12/5.

[6] – العنكبوت: 40.

فالاستئصال سنة الله في الظلم والظالمين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [1] وهذا الخبر من الله ﷻ يدل على أن عذاب الله لا يقتصر على من تقدم من القرى والدّول الظالمة، بل أخذ الله للظالمين عند استحقاقهم له في المستقبل سيكون على نحو أخذه لها في الماضي، هذه سنته تعالى في أخذ سائر الظالمين سنة واحدة. فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر على أولئك الظلمة البائدين، بل كل من سلك سبيلهم وشاركهم في أفعالهم التي أدّت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في العقوبة الأليمة الشديدة الموجعة دون هوادة ولا رحمة ولا محاباة.[2]

وفي ترتب الاستئصال على الظلم إنذار شديد للظالمين؛ ولذلك قال الزمخشري:[3] "وهذا تحذير من وخامة عاقبه الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه. فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر إلى التوبة ولا يغتر بالإمهال".[4] وهو يشير إلى ما ورد من رواية أبي موسى[5] أن رسول الله ﷺ قال: {إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ }.[6]

وفذلكة، فإن الإصرار على الظلم يؤدي حتما إلى استئصال الظالمين دولا وأفرادا. وهذه سنة من سنن الله التي لا تتغير ولا تبدل.

الفرع الثاني: إنذار الظالمين قبل استئصالهم

---

[1]- هود: 102.

[2]- الطبري، جامع البيان، 474/15؛ الزمخشري، الكشاف، 474/2؛ الرازي، التفسير الكبير، 47/18؛ محمد رشيد رضا، المنار، 247/12؛ زيدان، السنن الإلهية، ص121-122.

[3]- هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة، أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي، النحوي، اللغوي، المعتزلي، المفسر، يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا. ولد سنة (467هـ) بزمخشر قرية من قرى خوارزم. كان متقنا في كل علم، معتزليا قويا في مذهبه، حنفيا، علامة في الأدب والنحو له التصانيف البديعة منها: "الكشاف"، "الفائق" وغيرها. مات سنة (538هـ). [الداوودي، طبقات المفسرين، 314/2-316؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 364/1، برقم (178/7)].

[4]- الزمخشري، الكشاف، 427/2.

[5]- أبو موسى الأشعري هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن الأشعر، صاحب رسول الله ﷺ. ولد بزبيد باليمن، أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة. وليّ البصرة في عهد عمر رضي الله عنه. [ابن الأثير، أسد الغابة، 245/3-246؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 130/1، برقم (114/4)].

[6]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾، ص861، برقم (4686)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص1246، برقم (2583)، كلاهما من طريق أبي موسى رضي الله عنه.

ولا يُعدّ استئصال الله ﷻ للظالمين ظلما لهم؛ بل جزاء لهم على ظلمهم؛ لأنهم هم الذين جرّوا العقوبة لأنفسهم بسبب اجتراحهم الظلم، وإيغالهم فيه واستمرارهم عليه؛ اغترارا بالحياة الدنيا؛ لذلك نفى المولى ﷻ الظلم عن نفسه، ونسبه إليهم؛ فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [1] وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. [2]

قال ابن عاشور: "وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها. والاستدراك ناشيء عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم". [3]

فالاستئصال مرتبط بالظلم، فهو سبب له، فالله ﷻ لا يستأصل أهل القرى إلا بعد تحقق سببه وهو الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾. [4] ولقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [5] ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. [6] تنــزيهًا لذاته عن الظلم، أي: "وما كان ربك، يا محمد، ليهلك القرى، التي أهلكها، التي قَصَّ عليك نبأها، ظُلمًا وأهلها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربّهم ظلمًا، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وركوبهم السيئات". [7]

فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه، لا لأنه لا يقدر عليه، إنما لأنه لا ينبغي له أن يظلم؛ لأن الظلم يعنى أخذ حق الغير، والله سبحانه مالك كل شيء، فلماذا يظلم إذن. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [8] بصيغة المبالغة ظلاّم، ولم يقل ظالم، لماذا؟ لأن الله تعالى إن أباح لنفسه سبحانه الظلم، فسيأتي على قدر قوته تعالى، فلا يقال له ظالم إنما ظلاّم، وتعالى الله عن هذا علوا كبيرا. [9]

---

[1] – هود: 101.
[2] – العنكبوت: 40.
[3] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 20/252.
[4] – القصص: 59.
[5] – الأنعام: 47.
[6] – هود: 117.
[7] – الطبري، جامع البيان، 15/530.
[8] – فصلت: 46.
[9] – الشعراوي، تفسير الشعراوي، 18/ 11172.

وقد بيّن المولى ﷻ أنه لا يكفي وجود السبب للاستئصال بل لابد من توفر شرطه، وهو الإنذار عن طريق الأنبياء والرسل ولو لم ينذرهم لكان ظلماً لهم، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [2] وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[3] ولكن تمادوا في ظلم أنفسهم رغم أن الله ﷻ أنذرهم عاقبة ظلمهم، وما يحل بهم من عذاب عن طريق الأنبياء والرسل–عليهم السلام– وما جاءوا به من الآيات الدّالة على صدقهم، والتي ترشد إلى طريق الهداية والنجاة، وتحذّر من طريق الضلال والخسران، وتدعو إلى إنكار الظلم.

وقد اعترف الظالمون بظلمهم حين أحسوا بالهلاك كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.[4]

فالله ﷻ يستأصل القرى والدّول المسترسِلَ أهلُها في الظلم، ولكن بعد أن يرسل إليهم رسلاً منذرين، ليُحَمِّلهم تبعَة استئصالهم، ولئلا يحتجوا بعدم الإنباء والإعذار إليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾[5] أي من قبل محمّد ﷺ أومن قبل القرآن.[6]

فإذا أصّر الظالمون على الظلم بعد إنذارهم عن طريق الرّسل وبعد إمهالهم، وعجز المصلحون عن الأخذ على أيدي الظالمين، والقضاء على الظلم؛ فإن استئصال الظالمين، وفق سنة الله تعالى التي لا تتخلف عبر الزمان، يصبح العلاج الأمثل لتطهير الأرض من الظلم، وتحقيق الأمن والسلام والطمأنينة

---

[1] – الأنعام: 131.

[2] – الشعراء: 208–209.

[3] – القصص: 59.

[4] – الأنبياء: 12–15.

[5] – طه: 134.

[6] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/8/81.

للناس. ويجعل الله ﷻ من عقابهم هذا عبرة لذوي العقول والبصائر تدعوهم إلى اجتناب الظلم والحذر منه، والمسارعة إلى الإقلاع عنه توقيا للعذاب.

والخلاصة أن الله ﷻ لا يستأصل الظالمين ولا يعاقبهم إلا بعد أن ينذرهم عن طريق إرسال الأنبياء والرسل والآيات البينات التي تدعو الظالمين إلى الإقلاع عن الظلم، وتحذرهم من عواقبه الوخيمة، وتبيّن لهم خطورة آثاره على الأفراد والمجتمعات والدّول في الدنيا والآخرة.

الفرع الثالث: استئصال الأمم بالظلم له أجل محدود

وإهلاك الأمم الظالمة واستئصالها بسبب الظلم له موعد محدد، ووقت معلوم قدّره الله ﷻ بناء على وقت ظهور الظلم ونوعه ومدى انتشاره، هذا إلى جانب ما يكون فيها من عوامل البقاء الأخرى كإنكار الظلم والعدل أو من عوامل الفناء. وتبعا لتلك العوامل تختلف مواعيد الاستئصال باختلاف أحوال الأمم. فإذا حان الموعد وبلغت الأجل هلكت في الحال دون أن تتقدم أو تتأخر عن الوقت المحدد ولو لحظة؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.[1]

الفرع الرابع: إمهال الظالمين وتأخير عقابهم

من سنن الله ﷻ أنه يمهل الظالمين ويؤخر عقابهم؛ فيقدم لهم فرصة للإقلاع عن الظلم والتوبة منه، والرجوع عنه؛ فيقطع عنهم كل سبل الاحتجاج لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[2] وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾[3] وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.[4]

فيخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بسبب ما اجترحوه من ظلم ومعاصٍ لاستأصلهم جميعا، ولاستأصل جميع دواب الأرض تبعًا لاستئصال بني آدم، ولكنه ﷻ فضلا منه وكرما يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة، إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم، فإذا جاء

1- الكهف: 59.

2- إبراهيم: 42.

3- الكهف: 58.

4- النحل: 61.

الوقت الذي وُقِّت لهلاكهم- هذا الوقت لا يعلمه إلا الله- لا يَسْتَأْخِرُونَ عن الهلاك ساعة فيمهلون وَلا يَسْتَقْدِمُونَ له حتى يستوفُوا آجالهم.[1]

فهل يمكن أن يخرج الإنسان عن السنن؟ هل الهلاك إذا نزل يميز بين الظالمين وغيرهم؟ إن العقاب إذا حلّ فإنه يعم الظالمين والصالحين، فلا يميز بل يأخذ الجميع كما أخبر بذلك القرآن في مواطن عدة. وهو ما سأتطرق إليه بالتفصيل في عنصر إنكار الظلم.

وقال القرطبي: "فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة".[2] واستدل بالحديث الذي رواه عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: {إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ}.[3] فقيد الهلاك بهلاك التعذيب والسُخط لإخراج غيرِ الظالمين؛ لأن ما حصل لهم كان بطريق الإثابة ورفع الدرجة لا بطريق التعذيب.

فالآية تشير إلى أنه لا يكاد ينجو من الظلم أحد، وإن نجا من أعظم أنواعه، وهو الظلم العقدي فقلما ينجو من أدناها؛ لأنّ سائر المعاصي التي يقع فيها النّاس سوا كانت كبيرة أو صغيرة تعد ظلما لولا رحمة الله بعباده، وتفضله عليهم بالإمهال وتأجيل عقابهم لتمكينهم من الإقلاع عن الظلم والتوبة منه.

الفرع الخامس: تسليط الظالم على الظالم

إذا انتشر الظلم وساد، وضيعت الحقوق الدينية والاجتماعية والسياسية، وتمادى الناس في الظلم، وكثر التظالم والظالمون، وغاب إنكار الظلم أو قلّ بحيث لا يؤثر في الظالمين؛ فإنّ الله ﷻ يقيض للظالمين ظلمة على شاكلتهم بل أشد ظلما وتعسفا منهم يسلطهم عليهم؛ فيسومونهم ألوان الظلم والعذاب والذل والهوان، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من الحقوق؛ جزاء من الله وعقابا لهم على ظلمهم، وهذه سنة الله في الظلم والظالمين؛ لأن لفظ كذلك يفيد إطراد هذه السنة. ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[4] أي: "كما ولينا هؤلاء

---

[1] - الطبري، جامع البيان، 230/17؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 578/4.

[2] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 120/10.

[3] - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، ص1373، برقم(2879)؛ وأحمد في مسنده 39/9، برقم (4985)، من طريق عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

[4] - الأنعام: 129.

الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغْوَتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم".[1]

والآية وإن ذُكرت في معرض ذم المشركين في اتباعهم لإغواء الشياطين فإنَّها تشمل بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أنَّ الله يسلط على الظالم من يظلمه. وقد تأوّلها على ذلك عبد الله بن الزُبير[2] أيَّام دَعوته بمكّة فإنَّه لَمَّا بلغه أنّ عبد الملك بن مروان[3] قَتَل عَمْراً بنَ سعيد الأشدقَ[4] بعد أن خرج عَمرو عليه، صَعِد المنبر فقال: "ألاَ إنّ ابن الزّرقاء- يعني عبدَ الملك بن مروان؛ لأنّ مروان كان يلقّب بالأزرق وبالزرقاء لأنّه أزرق العينين- قد قَتل لَطِيم الشّيطان وتلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾".[5]

ومن أجل ذلك قيل: إنْ لم يُقلع الظّالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر.[6]

وذهب الرازي إلى أن "الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم"[7] مدعما ذلك بقوله ﷺ: {كَمَا تَكُونُوا يُولَّى عَلَيْكُم}.[1]

1- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 340/3.

2- هو: عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد، ابن عمة رسول الله ﷺ. كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة، مسنده نحو 33 حديثا. روى عن أبيه وجده لأمه الصديق وأمه أسماء. وروى عنه أخوه عروة وابناه عامر وعباد. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 363/3-380، برقم (53)].

3- هو: عبد الملك بن مروان، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ فقيها واسع العلم، متعبدا، ناسكا فلما ملك ظهر بمظهر القوة، فكان جبارا، مهابا. أخباره وآثاره كثيرة. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 160/1، برقم (165/4)].

4- هو: عمرو بن سعيد بن العاص الأموي الأشدق، أمير من الخطباء البلغاء. سمي الأشدق لفصاحته. كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد. حدث بينه وبين عبد الملك بن مروان خلاف طويل حول ولاية العهد، وظل عبد الملك يتربص به حتى تمكن منه فقتله سنة (70هـ). [الزركلي، ترتيب الأعلام، 150/1، برقم (78/5)].

5- وردت هذه الرواية عند كل من: ابن عطية، المحرر الوجيز، 351/5؛ أبو حيان، البحر المحيط، 225/4؛ الثعالبي، الجواهر الحسان، 514/1؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 74/8/4.

6- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 74/8/4. [قال الذهبي في العبر في خبر من عبر، باب سنة سبعين: "وفيها أعاد ابن الزبير مصعبا على العراق وعزل ابنه حمزة بن عبد الله. فقصد هو وعبد الملك كل منهما الآخر. ثم فصل بينهما الشتاء. فتوثب على دمشق في غيبة عبد الملك عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وأراد الخلافة. فجاء عبد الملك وجرى بينهما قتال، وحصار ثم نزل إليه بالأمان.

وفيها كان بين الأزارقة وبين المهلب حرب شديد ودام القتال أشهرا. سنة سبعين فيها غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق وذبحه صبراً، بعد أن آمنه وحلف له وجعله ولي عهده من بعده"، 13/1].

7- الرازي، التفسير الكبير، 159/13.

أي أنّ الرعية إن ظلمت ظلم الحكام والولاة، وإن عدلت عدلوا، وإن مَنعت الحقوق، مُنعت من حقوقها، فالولاة والحكام يأخذون صورة أعمال الرعية. وقد كان الصحابة خيار الأمة؛ فجاء ولاقم على شاكلتهم، وحين فسد الناس وظلموا ظلم الحكام.

ويرى القرطبي أنه يستوي في هذه العاقبة جميع أنواع الظلمة فيقول في معنى الآية: "نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله. وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالما آخر. ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم".[2] مستأنسا بما رواه ابن مسعود ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ: {مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سَلَطَهُ اللهُ عَلَيْهِ}.[3]

وهذا ما يؤكده الواقع اليوم، حيث يتناصر الظالمون، ويتكتلون أفرادا ودولا، ويتنافسون في الظلم، ويتفننون في أساليبه، ويساند بعضهم بعضا في الاعتداء على الأديان والدماء والأموال والأعراض والحريات، إذا كانت المصالح مشتركة، أما إذا اختلفت فيتصارعون ويتنازعون حولها بشراسة حتى يتغلب الأظلم منهم على الظالم؛ فيذيقه ألوانا شتى من العقاب والذل والهوان أفضلها الموت إلى أن تدور الدائرة عليه أو يتوب من ظلمه؛ لذلك يقال: "الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به، وينتقم منه".[4]

ويشهد له في أيامنا هذه تكتل الصهيونية والمسيحية وغيرها من الملل الأخرى لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية –على اختلاف فيما بينها- ضد الإسلام والمسلمين لاستئصال الدين الإسلامي بكل قيمه وموازينه، وإذلال المسلمين وإخضاعهم من أجل استساغة الظلم مع بشاعته؛ لأن الإسلام خطر على الظلم وأهله.

---

[1] – أخرجه البيهقي، شعب الإيمان، باب في طاعة أولي الأمر، 22/6-23، برقم (7391)، من طريق يحيى بن هاشم، عن يونس بن أبي إسحق عن أبيه بلفظ: {كما تكونوا كذلك يؤمر عليكم} وقال: "هذا منقطع وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف"؛ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، (1408هـ/1988م)، 147/1، برقم (427)، 126/2، برقم (1997)، 312/2، برقم (2790)، في كلام الحسن في حديث: {كما تكونوا يولى عليكم}؛ البرهان فوري، كنز العمال، 89/6، برقم (14972).

[2] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 85/7.

[3] – أخرجه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، (1415هـ/1995م)، في ترجمة: عبد الباقي بن أحمد، 4/34، برقم (3663) من طريق الحسن بن علي بن زكريا، عن سعيد بن عبد الجبار الكرابيسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود مرفوعا. قال ابن كثير: "وهذا حديث غريب، رجاله ثقات، وعاصم فيه كلام يسير". [ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 339/3، هامش رقم (7)].

[4] – الشنقاوي، مكارم الأخلاق، ص264.

وعليه فلا ينبغي الاغترار بولاية الظالم، كما أنه لا ينبغي أن يظن الظالم أنه نال ما وصل إليه بذكائه أو بقوته، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة بدليل: أنّه ساعة يريد الله ﷻ أن ينتقم من هذا الظالم فهو بجلاله ينـــزع المهابة من قلوب أعوانه؛ ليصبحوا أعداءً له بدلا من الدفاع عنه.[1]

ولذلك قال ابن عاشور: "المقصود من الآية الاعتبار والموعظة، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين وتوخّي الأتباع صلاح المتبوعين، وبيان سنة من سنن الله في العالمين".[2]

فارتكاب الظلم قد يؤدي إلى عقاب الظالم بتسليط ظالم آخر عليه يهدر حقوقه ويعتدي عليه في نفسه أو دينه أو ماله أو عرضه؛ لينتقم منه الله ﷻ في الدنيا قبل الآخرة.

المطلب الثالث: نماذج لاستئصال الدول الظالمة

أخبر سبحانه عن كثرة القرى التي استأصلها، والحضارات التي دمرها، بسبب إصرار أهلها على الظلم، فكان العقاب جماعيا شاملا لكل الظالمين تطهيرا للأرض من الظلم والظالمين، لقوله تعالى: **﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾**[3] ولقوله: **﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾**.[4] أي أنّ الله ﷻ أخذ الكثير من القرى وهي منغمسة في الظلم متمادية فيه؛ ولذلك استحقت الهلاك كما سيتضح من خلال هذه النماذج.

ولا شك أنّ الآية بنصها على العلاقة الوثيقة بين التولية والكسب، إنما تشير إلى أنّ الكسب بمعناه العام، بما في ذلك تعطيل الطاقات البشرية. ويدل على ذلك تولية الاستعمار الأوروبي على العالم

---

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 75/8/4.

[2]- الشعراوي، مكارم الأخلاق، ص264.

[3]- الأعراف: 4-5.

[4]- الحج: 45.

الإسلامي في العصور الغابرة، على الرغم من أنّ العالم الإسلامي كان أفضل حالا، من جهة المعتقد على الأقل من العالم الغربي.

إنّ ذلك يدل فيما يدل على أنّ مسألة الكسب مطلقة، ومن الخطأ أن يحصرها المفسرون في كسب السيئات؛ لأنهم بذلك يخرجون المسألة عن السنن الاجتماعية، في الوقت الذي تنص فيه الآيات الأخرى على أنّ السنن لا تتبدل ولا تتغير. بل إنني قد أذهب إلى أبعد من ذلك لأقول إنّ حالة البطالة وتعطيل الطاقات، أكثر تأثيرا وأكثر جلبا للقوى المتحركة الفاعلة؛ لتتسلط على الأمم التي فشت فيها البطالة أكثر من اكتساب السيئات بالمفهوم الذي عالجه المفسرون.

الفرع الأول: قوم نوح عليه السلام نموذج لاستئصال الظلم الشامل

قوم نوح عليه السلام أول الظالمين الذين استأصلهم الله عز وجل وأقدم الحضارات البشرية التي اندثرت بسبب الإصرار على الظلم فيما يذكره القرآن، بل كانوا أشد ظلما لأنفسهم، وأعظم كفرا بربهم من الأمم الظالمة المهلكة من بعدهم وأشدّ طغيانا وتجاوزاً في الظلم وعلواً وإسرافاً في المعاصي، وتمرّدا على أوامر الله عز وجل ونواهيه، قال تعالى: **﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾**.[1] والظالم "واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد، فالطاغي أدخل في الظلم، فهو كالمغاير والمخالف، فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير".[2]

وفسّر قتادة هذه الأظلمية والنهاية في الطغيان بقوله: "لم يكن قبيل من الناس هم أظلم وأطغى من قوم نوح، دعاهم نبيّ الله عليه السلام نوح ألف سنة إلا خمسين عاما، كلما هلك قرن ونشأ قرن دعاهم نبيّ الله حتى ذكر لنا أن الرجل كان يأخذ بيد ابنه فيمشي به، فيقول: يا بنيّ إن أبي قد مشى بي إلى هذا، وأنا مثلك يومئذ تتابُعا في الضلالة، وتكذيبا بأمر الله"[3] فيموت الكبير على الظلم والطغيان، وينشأ الصغير على وصية أبيه[4] إصرارًا على الظلم والطغيان طيلة تسعة قرون ونصف رغم ما بذله نوح عليه السلام إلا أن ذلك لم يؤثر فيهم شيئا، ولم يمنعهم من الاستمرار في الظلم؛



[1]- النجم: 50-52.

[2]- الرازي، التفسير الكبير، 22/29.

[3]- الطبري، جامع البيان، 22/553-554.

[4]- الألوسي، روح المعاني، 14/27/69.

فخصهم القرآن بالذكر لذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]

بينما فرّق الرازي بين سبب وصف قوم نوح بوصفي الأظلمية والمبالغة في الطغيان؛ فأرجع وصفَهم بالأظلمية إلى الأسبقية والتقدم في الظلم لأن البادئ أظلم، مدعما ذلك بقوله ﷺ: {وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا}[2] وأرجع وَصْفهم بالمبالغة في الطغيان إلى الإصرار على الظلم أمدا طويلا، رغم ما سمعوا من المواعظ والزواجر حتى يئس نبيهم من إقلاعهم عن الظلم؛ فدعا عليهم بالهلاك، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم.

وهو ما جاء صريحا في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[3] فقد استخدم نوح عليه السلام جميع الوسائل لردع قومه عن الظلم والطغيان، دعاهم ليلا ونهارا، سرا وجهرا، ترغيبا وترهيبا، غير أن ذلك ما زادهم إلا استشراءً وتماديا في الظلم والطغيان والاستكبار.

وبعد أن استنفذ جميع الوسائل والأساليب يئس من توبتهم من الظلم؛ فدعا عليهم بزيادة الضلال والهلاك والإفناء، قال تعالى على لسانه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[4]

---

[1] - العنكبوت: 14-15.

[2] - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة، ص453، برقم (1017)؛ والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، ص375-376، برقم (2556)؛ وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، 74/1، برقم (203)، بنفس اللفظ؛ وأحمد، 494/31-495، برقم (19156)، 509/31-510، برقم (19174)، 536/31-537، برقم (19200)، 537/31-538، برقم (19202)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، 293/4-294، برقم (7741)؛ وابن أبي شيبة، المصنف، 3/3-4، برقم(8)، كلهم من طريق جرير بن عبد الله؛ وأخرجه أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، تحقيق وتخريج وتعليق حبيب الرحمن الأعظمي، (د.ط.ت)، باب من سن سنه وآذى السلف، 466/11، برقم (21024)، من طريق طاووس.

[3] - نوح: 5-9.

[4] - نوح: 24.

وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.[1]

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [2] تخويف الظالم بالاستئصال، ولكن قد يقال قوم نوح عليه السلام كانوا في غاية الظلم والطغيان، فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم، وبما أنّ الظالم لم يبالغ في الظلم فلا يهلك، ولو كان مقصودا بالتخويف لقال أهلكوا لأنهم ظلمة؛ فيخاف كل ظالم وإلا فما الفائدة في قوله: ﴿أَظْلَمَ﴾؟ نقول: المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة.[3]

إذًا فقد استأصلهم الله عز وجل وهم متلبسون بالظلم تلبسا ثابتا متمادون فيه، لم يستمعوا إلى داعي الحق هذه المدة المتمادية، مما يدل على أن الله تعالى لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لَعَذَّب من ظلم وتاب، فإن الظلم وُجِد منه، وإنما يُعذب على الإصرار على الظلم.[4] وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.[5] أي في حال ظلمهم، مما يدل على أن الإقلاع عن الظلم والتوبة تدفع العقاب. والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء ويحيط به على كثرة وشدة وغلبة من السيل والريح والظلام والموت والطاعون والمجاعة وقد غلب على طوفان الماء.[6]

ولم تثمر ألف سنة إلا خمسين عاماً غير قليل ممن آمن مع نوح عليه السلام وجرف الطوفان الكثرة العظمى وهم ظالمون؛ بكفرهم وجحودهم وإعراضهم عن الدعوة المديدة، ونجا العدد القليل من المؤمنين، وهم أصحاب السفينة. وبقيت حادثة الطوفان والسفينة تحذّر الخلف من الإصرار على الظلم على مدار القرون.[7]

---

[1] – نوح: 26-27.

[2] – النجم: 52.

[3] – الرازي، التفسير الكبير، 22/29؛ ابن عادل، اللباب، 18/221-222.

[4] – الرازي، التفسير الكبير، 38/25.

[5] – العنكبوت: 14.

[6] – حقي البرسوي، تفسير روح البيان، 455/6.

[7] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2728/20/5.

والخلاصة أن الله ﷻ أمهل قوم نوح ؈ على ظلمهم قرونا طويلة ظل خلالها بينهم يدعوهم إلى الإقلاع عن الظلم، ولكنهم لجّو في الظلم، واستكبروا عن دعوة بينهم، وبالغوا في ذلك؛ فكان سببا لاستئصالهم فلم تفدهم أعمارهم ولا قوتهم في النجاة من العقاب، فكيف بمن دونهم ممن جاء بعدهم؟!

الفرع الثاني: عاد قوم هود ؈ نموذج للاستئصال بالظلم الاجتماعي

ومن الأمم الظالمة التي أهلكها الله ﷻ بعد قوم نوح ؈ عاد قوم هود ؈[1] لقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.[2] عاد التي لم يخلق مثلها في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.[3] وأُريد بالخلق خلق أجسادهم فقد رُوي أنهم كانوا طِوالاً شداداً أقوياء، وكانوا أهل عقل وتدبير، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد، ثم فسدت طباعهم بالترف فبطروا النعمة"[4] قال تعالى على لسان لسان نبيهم هود ؈: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾.[5]

وبذلك انصرفت هممهم عن عبادة الله وحده، الذي خلقهم وأعْمَرهم في الأرض، وزادهم قوة على الأمم، وعن التفكر في الآخرة والعمل لها، والنظرِ في العاقبة إلى الانشغال بالدنيا، والتعاظم والتفاخر واللهو واللعب[6] والبطش بالناس بطش الجبارين؛ فكان ذلك ظلمهم علاوة على على الظلم العقدي رغم تحذيرات نبيهم هود ؈ التي نقلها القرآن في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.[7]

---

[1]– عاد قوم هود ؈ استخلفهم الله ﷻ لعمارة الأرض بعد قوم نوح ؈. وقد كانوا يسكنون بالأحقاف، وهي كثبان الرمال، وهي الآن جزء من شبه الجزيرة العربية، بين حضرموت واليمن، وبها قبر هود ؈، ويسمى اليوم بصحراء الربع الخالي، وكان في الماضي، خصبا غنيا بالمياه والنبات. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 115/1؛ شوقي أبو خليل، أطلس القرآن: أماكن، أقوام، أعلام، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، (1423هـ/2003م)، ص29].

[2]– الأعراف: 69.

[3]– الفجر: 6-8.

[4]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 319/30/12.

[5]– الأعراف: 69.

[6]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 165/19/8.

[7]– الشعراء: 128-129.

وهذا ما يدل على "أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشئونه بوساطتها من البيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء... هم عتاة غلاظ، يتجبرون حين يبطشون؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش. شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون".[1]

فكانت النعمة سببا في إصرارهم عامة على الظلم بدل توبتهم منه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.[2]

بسبب ذلك استأصلهم الله استئصالا كليا، ودمّرهم عن آخرهم، حيث أرسل عليهم الريح الشديدة العاصفة المدمرة، في سَبْع لَيَالٍ وثمانية أيام سوء شديد، سخّرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [3] وقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.[4] فلما سلّط الله تعالى عليهم الريح "طمها بالرمل. وهي إلى الآن تحت تلك الأحقاف، جعلها الله تعالى عبرة للناظرين، وخبرة للغابرين"[5] كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[6]

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 5/19/2609-2610.
[2]- فصلت: 15.
[3]- فصلت: 16.
[4]- الحاقة: 6-8.
[5]- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص66.
[6]- الروم: 9.

فعاد ما ظلمها الله ﷻ باستئصالها، ولكن ظلمت نفسها لأنها فعلت ما جرّه إليها، وهو الظلم بسبب كفران نعمة الله، والبطش بالناس بطش الجبارين، نشرا للفساد؛ فتحققت النتيجة الحتمية التي تقتضيها السنة الإلهية في استئصال الظالمين رغم أنها كانت من أقوى الأمم في زمانها، إنّ الظلم دمّر حضارتها التي كانت من أغنى وأقوى الحضارات في عصرها.

الفرع الثالث: ثمود قوم صالح عليه السلام نموذج للاستئصال بظلم الناقة

وكما كان الظلم سببا في استئصال عاد، كان سببا في استئصال ثمود التي استخلفها الله بعد عاد في أرض الْحِجْرِ فورثت كل ما كان لعاد من قوة وغنى وتمكن، فكانت أقوى الأمم في عصرها، وأكثرها غنى وحضارة، لاسيما في مجال العمران، الذي تجاوز تشييد القصور في السهول إلى نحت البيوت في الجبال، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى على لسان نبيهم صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [1] ولا تزال آثارهم في الجبال، باقية ما بقيت الجبال، شاهدة على التطور العمراني الذي كان غالبا على حضارتهم، وسعة معيشتهم، حيث كانوا يقيمون في قصورهم شتاء، ويصعدون إلى بيوتهم الجبلية صيفا.[2]

ورغم تذكير نبيهم لهم بنعم الله الداعية لهم إلى ترك الظلم، والإفساد في الأرض إلا أنهم عبدوا النعمة وكفروا بالمنعم، وتوغّلوا في الظلم، وتجاوزوا الحد في الاستكبار عن الانقياد لأمر الله والاعتداء على حرماته، بفعلهم ما لم يكن لهم فعله، من عقر ناقة الله التي أعطوها آية على صدق نبيهم صالح عليه السلام وكفرهم بالله؛ قال تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾[3] أي: "فكان بها ظلمهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها"[4] فلم يتبّعوا الحق بسببها، فكان هذا الظلم سببا في في استحقاقهم للاستئصال الذي نزل بهم بعد توعدهم به بثلاثة أيام، لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.[5] ولقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ

---

[1] – الأعراف: 74.

[2] – عبد الحميد محمود طهماز، أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، ط1، (1412هـ/ 1992م)، ص79-80؛ الجزائري، أيسر التفاسير، 195/8.

[3] – الإسراء: 59.

[4] – الطبري، جامع البيان، 478/17.

[5] – هود: 65.

رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.[1]

وقد وصف الله ﷻ العذاب الذي أخذ ثمود في هذه الآية بأنه رجفة وفي أخرى بأنه ﴿صَيْحَةً﴾[2] وفي ثالثة بأنه ﴿صَاعِقَةً﴾[3] وفي رابعة بأنه ﴿طَاغِيَةِ﴾[4] والأصل في عذابهم الصاعقة لأنها تشمل الجميع فإن الصاعقة هي "الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد وهذه الأشياء تأثيرات منها".[5]

ولهذا قال ابن عاشور: "والرّجفة: اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرّياح العاصفة والصّواعق، وتكون من أسباب أرضيّة كالزلازل، فالرّجفة اسم للحالة الحاصلة، وقد سمّاها في سورة هود بالصّيْحة، فعلمنا أنّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضَهم وأهلكتهم صَعِقين، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية".[6]

إذًا استأصل الله هؤلاء الظالمين بصيحة من فوقهم أرجفت الأرض، وهزتها من تحتهم هزّا عنيفا اضطربت له القلوب والنفوس من شدتها، وفارقت أرواحهم أبدانهم؛ فأصبحوا في ديارهم هَلْكى هامدين لا حراك بهم، ودمّرت قصورهم ومساكنهم وسائر عمرانهم، وتركت ديارهم خرابا ودمارا، ونجّى الله نبيه صالحا ومن معه من المؤمنين.[7] قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[8] وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[9] أي: وأصاب الذين

1 – الأعراف: 77-78.
2 – المؤمنون: 41.
3 – فصلت: 13.
4 – الحاقة: 5.
5 – الراغب، غريب مفردات القرآن، 81/1.
6 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 227/8/4.
7 – الطبري، جامع البيان، 32/19؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 474/5؛ الشنقيطي، أضواء البيان، ص2243.
8 – المؤمنون: 41.
9 – هود: 66-68.

فعلوا ما لم يكن لهم فعله من عقر ناقة الله وكفرهم به الصيحة؛ فأصبحوا في ديارهم قد جثمتهم المنايا، وتركتهم خمودًا بأفنيتهم كأن لم يعيشوا فيها، ولم يعمروا بها.[1]

وعدل عن المضمر إلى المظهر، وعبّر عن ثمود بالذين ظلموا تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بأنّ الظلم سبب استئصالهم.[2]

ويرى ابن عاشور أنّ ظلمهم الذي كان سببا في نزول العذاب بهم يتمثل في الظلم العقدي، وهو ظلم الشرك.[3] ولكن الظاهر أن الشرك لم يفض بهم وحده إلى الاستئصال، بل ضمّوا إليه ظلم الناقة بعقرها استكبارا عن الاستسلام لأوامر الله؛ لأن الشرك عادة يستتبع أنواعا أخرى من الظلم.

وهكذا أدّى الظلم بثمود إلى الهلاك، فترك ديارها العامرة بلاقع، وأبقى مساكنهم قفارا موحشة بعدهم، وسقطت حضارتهم ولم يبق منها إلا القصور المنحوتة في صخور الجبال، تدعو إلى الاحتراس من الظلم والإقلاع عنه؛ قال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**.[4]

وعندما مرَّ النبي ﷺ بديارهم قال: {لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا}.[5]

فالنبي ﷺ أسرع في ترك مساكن الظالمين وراءه، وحثّ المارين بديارهم ومواطنهم وآثارهم عموما على البكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، خوفا من الله ﷻ وخشية أن يترل بالمارين ما حلّ بالظالمين.

وصنيع النبي ﷺ يدل على أنه ينبغي المسارعة في ترك آثار الظالمين وعدم إطالة المقام فيها، ولعل السبب في ذلك أن الألفة والاعتياد تولد الغفلة عن الاعتبار والاتعاظ.

---

[1] - الطبري، جامع البيان، 380/15-381.

[2] - أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 330/3؛ الألوسي، روح المعاني، 289/12/6؛ ابن عاشور، التحرير، 114/12/5.

[3] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 114/12/5.

[4] - النمل: 50-52.

[5] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: **﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾**، ص611، برقم (3381)، بلفظ: {أن يصيبكم ما أصابهم ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ}، وكتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، ص802، برقم (4419)، ص803، برقم (4420)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، بَاب لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ص7577، برقم (2980)، واللفظ له.

وهكذا استأصل الله ﷻ ثمودا، رغم قوة حضارتها، بسبب إصرارهم على الظلم رغم ظهور الحق، حيث كان آخر ظلمهم الاعتداء على الناقة التي حملت إليهم الخير في الدنيا والآخرة. إلاّ أنهم أنكروا نعمة الله وكفروها، ولم يبق أمل في تركهم الظلم؛ لذلك استأصلهم عن آخرهم.

الفرع الرابع: قوم لوط عليه السلام نموذج لاستئصال ظلم الأعراض

والإصرار على الظلم هو السبب الذي أدّى إلى هلاك قوم لوط الذين كانوا يقيمون في أرض فلسطين في منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط[1] قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[2] أي تمكن الظلم منهم نتيجة التمادي فيه حتى قطع الأمل في إقلاعهم عنه وتوبتهم منه.

هذا الظلم الذي كشف عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [3] وهو أن قوم لوط انغمسوا علاوة على الظلم العقدي في نوع آخر من أنواع الظلم ابتكروه، إذ لم تعرفه الأمم السابقة الظالمة قبلهم، وهو الظلم للأعراض عن طريق الاعتداء على الفطرة البشرية والخروج عن سننها حتى غلب عليهم واستعبدهم وسدّ كل منافذ الخير فيهم.

وقد انتشر هذا الظلم المخالف للفطرة عند قوم لوط واستشرى حتى عمّ جميع البيوت والأسر إلا بيت لوط عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [4] رغم الجهود التي بذلها لوط عليه السلام في سبيل إصلاح حياتهم الاجتماعية ودفع فسادهم الأخلاقي، وإيقاظهم من سكرتهم، وتطهيرهم من هذا الظلم الذي تغلغل في نفوسهم وخالط أرواحهم.

هذا المجتمع الذي أثّر عليه الانحراف عن الفطرة حتى اختلت عنده الموازين، وانعكست القيم، فأصبحت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصارت العفة جريمة يعاقب عليها صاحبها بالطرد. ولما وصل المجتمع إلى هذا المستوى من الظلم والانحلال فلا علاج له إلا الاستئصال؛ لذلك

[1]- بحيرة لوط: تقع أقصى جنوب البحر الميت حيث سدوم وعمورة اللتان دمرتا بزلزال جعل عالي البلاد سافلها، ولم تصب صوغر بضرر حيث التجأ قوم لوط عليه السلام إليها. [شوقي أبو خليل، أطلس القرآن، ص61].

[2]- العنكبوت: 31.

[3]- الأعراف: 80-81.

[4]- الذاريات: 35-36.

استأصلهم الله ﷻ بمطر من حجارة[1] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.[2] وهذه "صورة التدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها [القرية]سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان بل أحط".[3] وهذه سنته تعالى في كل من عمل عملهم ووقع في مثل ظلمهم.

فأدى جمع قوم لوط عليه السلام بين الظلم العقدي والظلم للأعراض عن طريق الخروج عن الفطرة إلى إهلاكهم واستئصالهم. وكان ذلك وقت الصبح، وهو وقت الدعة والهدوء؛ ليكون العذاب أشد ألمًا.

والخلاصة أن هذا النوع من الظلم، وإن كان أول ظهوره عند قوم لوط عليه السلام، إلا أنه تمكن من التسلل إلى المجتمعات المعاصرة، وأصبح خطرا يهدد استمرار الوجود البشري، ويطارد جميع الفئات من الرجال والنساء والأطفال. وهو ما ينبغي أن تتفطن له الدّول لاسيما المسلمون اليوم، ويوحدوا الجهود لوقاية الأمة من آثاره المدمرة المستأصلة.

الفرع الخامس: قوم شعيب عليه السلام نموذج لاستئصال الظلم المالي

وإن كان الظلم هو السبب الذي أدى بقوم شعيب عليه السلام أيضا إلى الهلاك إلا أن الظلم الذي انتشر عندهم، واستفحل يختلف عن الظلم الذي أدى إلى استئصال الظالمين قبلهم، هذا بغض النظر عن الظلم العقدي الذي يعد طبيعتهم جميعا، فقوم شعيب عليه السلام اتخذوا الظلم المالي وسيلة لزيادة ثرواتهم وأكل أموال الناس بالباطل، فقد عاشوا بمدين[4] التي تعد آنذاك ملتقى التجار ورجال الأعمال المتنقلين بين شمال الجزيرة وجنوبها، لوقوعها على طرق التجارة، فمارسوا التجارة، ودفعهم الطمع والجشع إلى الظلم المالي عن طريق الغش في المعاملات، والاحتيال في المبادلات التجارية والتلاعب بالمكاييل والموازين، وقطع الطرق على المسافرين والقوافل المارة ببلادهم لفرض الضرائب وما يتناوبون من المعاملات الجائرة.[5] حتى صار ذلك طبعهم وسجيتهم. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ

---

[1] – طهماز، أسباب هلاك الأمم، ص86.

[2] – هود: 82-83.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/1915/12.

[4] – تقع مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استسقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب عليه السلام. [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5/77-78].

[5] – طهماز، أسباب هلاك الأمم وسقوطها، ص88.

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.[1]

وقد حاول شعيب عليه السلام محاربة هذا النوع من الظلم المالي، الذي ظل ينخر كيان المجتمع، ويهدده بالهلاك والفناء؛ فدعا إلى حفظ الحقوق المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وإصلاح أنماط التعامل والكسب، ونهى عن كل وسائل الظلم في المعاملات المالية كالاحتيال والخداع والاعتداء على حقوق الضعفاء والغرباء، وأكل أموالهم بالباطل، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[2] وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [3]

وحاول حملهم على ترك الظلم من خلال دعوتهم إلى الاعتبار من عواقب الأمم الظالمة المندثرة المستأصلة. ولكن لم يلق إنكاره للظلم إلا تهديدا بطرده وإبعاده عن بلده؛ ليضمن الظالمون الحفاظ على مصالحهم عن طريق استمرار الظلم.

وحين تعذّر على الظالمين ذلك، التفتوا إلى اضطهاد الضعفاء من أتباعه، وتهديدهم بطردهم من أعمالهم ووظائفهم، وحرماهم من أسباب الرزق والمعاش، كما يفعل الظالمون في كل عصر، ولكن الظلم لا يدوم، والله سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وكذلك فعل بهم فأخذهم العذاب الذي عبّر عنه القرآن مرة بالصيحة؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ

1- المطففين: 1-5.

2- الأعراف: 85-86.

3- هود: 84-86.

(94) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[1] ومرة بالرجفة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2] لأن الصيحة ترتجف لها الأرض وتتزلزل زلزالا شديدا. هذه الصيحة أخذهم كما أخذت ثمود الظالمين، وتركتهم جثثا هامدة لا حراك فيها ولا حياة، كأنهم ما عاشوا قبل ذلك في مدين ولا عمروها، سنة الله التي لا تحابي الظالمين، استأصلت مجتمع الظلم المالي: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.[3]

فالظلم في المعاملات المالية، وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على حقوق الضعفاء واستغلال حاجاتهم للاستيلاء على أموالهم بالطرق غير المشروعة يؤدي إلى الهلاك عاجلا أو آجلا. وهذا ما يقتضي الحفاظ على الحقوق المالية، ومحاربة كل سبل الاعتداء على الأموال العامة والخاصة لضمان بقاء الدّول واستمرار حياتها.

الفرع السادس: فرعون وقومه نموذج لاستئصال الظلم الاستبدادي

لقد كان الظلم طبعا لقوم فرعون حتى عرفوا واشتهروا به، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[4] حيث استحضرهم الله ﷻ بوصفهم بالقوم الظالمين إيماء إلى أنهم عرفوا واشتهروا بالظلم وأنه علة الإرسال. وأكده من خلال تكرير لفظة ﴿قَوْمَ﴾ فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين. والظلم يعم أنواعه، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناسَ حقوقهم، إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم.[5]

وقد أدّى بهم الإصرار على الظلم إلى الاستئصال، شأن جميع الأمم المهلكة التي كان الظلم جبلة وطبعاً لها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.[6]

[1] – هود: 94-95.

[2] – العنكبوت: 36-37.

[3] – الأحزاب: 62.

[4] – الشعراء: 10-11.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير 8/19/103-104.

[6] – الأعراف: 103.

وقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[1] والمراد منه أنهم كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاش.[2]

وقد خصهم القرآن الكريم من بين الأمم الظالمة بالذكر لا على سبيل إحصاء الأمم التي أفضى بها الظلم إلى الهلاك، بل لتجسيد نوع آخر من أنواع الظلم والظلمة، ويتعلق بحكم البلاد وسياستها، وذلك من خلال شخص فرعون الذي كان حاكما على أهل مصر. وهذا النموذج لم تعرفه الأمم الأخرى الظالمة المهلكة التي سبق الحديث عنها، وهو ظلم الراعي للرعية، حيث يصوّر نموذجا للحاكم الظالم المستبد الذي بلغ به الظلم والاستبداد إلى درجة التطاول على الله ﷻ وبلغ به الاغترار بالجاه والافتتان بالمال، والافتخار بالملك والسلطان، مبلغا فاق أهل الظلم العظيم الذين يتخذون شركاءَ لله؛ لأنه ادعى الألوهية والربوبية من دون الله؛ فكان ذلك أشنع الظلم وأفظعه، كما نقله القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [3] وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [4] وقال: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [5]

ففرعون كان أشد الحكام ظلما واستبدادا، وأعظمهم غرورا وبطرا واستكبارا، وأكثرهم استهانة بقومه واحتقارا لعقولهم وكيانهم[6] كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [7] وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [8] وهذا شأن شأن الحاكم الظالم يعجب برأيه، ويفرضه على الرعية.



[1] – الأنفال: 54.

[2] – الرازي، التفسير الكبير 145/15.

[3] – القصص: 38.

[4] – النازعات: 24.

[5] – الزخرف: 51.

[6] – طنطاوي، التفسير الوسيط 111/25/13.

[7] – الزخرف: 54.

[8] – غافر: 29.

وعلاوة على ذلك ساس رعيته بجميع أنواع الاستبداد، وأهدر حقوقها، وذهب بعزتها وعَوَّدَها على حياة الذُّل والمهانة، بالاستعباد والاعتداء على الأنفس بالقتل والتعذيب، والاعتداء على الأعراض واستغلال الجهود، واستخدام المستضعفين في أخس الصنائع والحرف، وتسخّيرهم في الأعمال الشاقة، رغم ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات الداعية إلى ترك هذا الظلم لولا العناد والاستكبار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [1] فقد جمع هذا الحاكم الظالم المستبد بين عدة صفات تؤدي إلى مفاسد عظيمة وهي:[2]

الأولى: التكبر والتجبّر، وهو مفسدة نفسية عظيمة، يتولد منها احتقار النّاس، والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم، وبث العداوة بينهم، وعدم الاهتمام برعاية مصالحهم أو دفع الضر عنهم، وابتزاز منافعهم لنفسه، وتسخير من استطاع منهم لخدمة أغراضه، ومعاملتهم بالغلظة. وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطش الحاكم، فهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجُماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها.

الثانية: اعتماد سياسة فَرِّق تَسُدْ حيث جعل الرعية شيعاً وفرّقهم طوائف؛ لتفترق كلمتهم؛ فلا يتمالؤوا عليه، وذلك فساد في الرعية؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، وتطاول الحاشية على غيرها، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، عن طريق النميمة والوشايات الكاذبة مما يؤدي إلى الفتنة.

الثالثة : استضعاف طائفة من رعيته؛ وجعلها محقرة مهضومة الحقوق.

الرابعة: ذبح الذكور من أطفال بني إسرائيل للحفاظ على نفوذه.

الخامسة: استبقاء حياة الإناث من الأطفال، وعبّر عنهن بالنساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن للاعتداء على أعراضهن. فانقلب بذلك الاستحياء إلى مفسدة بمنـــزلة ذبح الأبناء، إذ كل ذلك ظلم واعتداء على الحق.

والرّاعي لا يمكن أن يكـــون ظالما ما لم يجد من يعينه على الظلم، ويزينه له ويحرضه عليه، كما حدث من ملأ فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي

[1] – القصص: 4.

[2] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 68/20/8.

﴿الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.[1] والرعية التي تترك الحاكم وبطانته يتمادون في الظلم ويعيثون في الأرض فساداً لا تستحق الحياة؛ لذلك استأصلهم الله ﷻ عن طريق الإغراق، وعبّر عن ذلك بطريقة توحي بعظمة الله ﷻ وحقارتهم وهوانهم؛ فقال تعالى:﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [2] لأنه كان يتطاول بالأنهار فجعل هلاكه في جنسها.[3]

وضاع اقتدار فرعون على الظلم، وأخذهم الله أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت وتركهم عبرة لمن خلفهم.

وقد رفع الله عذاب الاستئصال بعد بعثة الرسول ﷺ ولكن بقيت صور أخرى تختلف عن صور العذاب والعقاب الذي حلّ بقوم نوح وهود وصالح -عليهم السّلام- والذين من بعدهم من الظالمين، كأنواع العذاب التي مرّ ذكرها، كالقحط والجدب والمجاعات والزلازل والفيضانات والأعاصير والكوارث الطبيعية المختلفة، والحروب المدمرة وتسلط الأعداء وقهرهم، والفرقة والاختلاف وكون بأس المسلمين بينهم. وقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنّه قَالَ:{سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا}.[4]
هذا فضلا عن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والانحلال الخلقي الذي يكاد يصبغ الحياة كلّها

---

[1] - الأعراف: 127.

[2] - القصص: 39-40.

[3] - الشنقيطي، أضواء البيان، 365/4.

[4] - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ص1379، برقم (2890)، من طريق سعد بن أبي وقاص؛ والترمذي في سننه، كتاب الفتن عن رسول الله، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثا في أمته، ص631، برقم (2180)، مع اختلاف في المطلوب الثاني وهو عنده: {وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا}، وقَالَ: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ"؛ والنسائي في سننه، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب إحياء الليل، ص254، برقم (1640)، مع اختلاف في المطلوب الأول وهو عنده: {سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لَا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا}، وكلاهما من طريق خَبَّابِ بن الأرت بن جندلة؛ وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، 1303/2، برقم (3951)، من طريق مُعَاذ بن جَبَل مع اختلاف في المطلوب الأول وهو عنده: {سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ}، وأحمد في مسنده، 141/3-142، برقم (1574)، من طريق أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص ﷺ.

بالنكد والقلق والشقاء رغم حياة الرفاهية التي وفرها التطور المذهل الذي تشهده البشرية اليوم في مختلف الميادين.[1]

فحكم الدّول وسياستها سياسة ظالمة، بالاستهانة بالشعوب وإذلالها، واستغلال جهودها وتسخيرها لخدمة المصالح والأغراض الخاصة، والاستخفاف بحقوقها، واستضعافها عن طريق بث الرّعب في النفوس ، وعدم الاهتمام برعاية مصالحها، ودفع الضر عنها يؤدي إلى فساد الشعوب وضعف ولائهم لأوطانهم وتخليهم عن خدمتها، فتضعف الدّول تدريجيا إلى أن تسقط وتنهار. وقد ينتهي بها الضعف إلى السقوط والانهيار.



1 سيد قطب، في ظلال القرآن، 1021/7/2.

الفصل الرابع: سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج.

المبحث الأول: تجنب الركون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم.

المبحث الثاني: الانتصار والعفو عند المقدرة.

المبحث الثالث: الدعاء والاعتبار.

المبحث الرابع: التوبة من الظلم وإنكار حصوله.

توطئة:

تناول الفصل السابق أهم الآثار الناجمة عن الظلم، وتبيّن بعد تتبعها من خلال القرآن الكريم أنّها تتنوع وتختلف، ولكن كلها تعمل على زعزعة الاستقرار النفسي والاجتماعي، وتدمر الأفراد، وتضعّف الدّول، وترمي بها في أحضان التخلف والكوارث الطبيعية المختلفة، إن لم تنته بها إلى سقوطها وانهيارها أو استئصالها من الوجود، فضلا عما ينتظر الظالمين من العقاب الأخروي.

وهو ما فرض بقوة بذل الجهد للبحث عن سبل حماية الأفراد والدّول من هذه الآثار، والكشف عن أهم طرق العلاج، وبيان موقفنا من الظلم، ماذا يكون وكيف ينبغي أن يكون؛ سواء بالنسبة للمظلوم أو بالنسبة للظالم أو بالنسبة لبقية النّاس، وذلك من خلال تتبعها في القرآن الكريم. وهو ما رجوت بلوغه من خلال هذا الفصل الذي تضمّن أربعة مباحث.

المبحث الأول: تجنب الركون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم

يمثل تجنب الرّكون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم، أحد السبل التي تحدّث عنها القرآن الكريم للوقاية من الظلم وعلاجه، ومنع الظالمين من التمادي فيه أو نشره وتعميمه. وهو ما يؤكده الواقع.

فما المقصود بالرّكون؟ وما هي صوره؟ ومتى تجتنب مجالس الظالمين؟ أيكون ذلك على الإطلاق أم التقييد؟ وما هي أوجه الإعانة المنهي عنها؟ وكيف تعد وسيلة للوقاية من الظلم وعلاجه؟ وما هي الأساليب التي سلكها القرآن لتحقيق ذلك؟

هذه أهم التساؤلات التي سيتولى هذا المبحث محاولة الإجابة عنها عبر ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: تجنب الرّكون إلى الظالمين

إنّ تجنب الرّكون إلى الذّين ظلموا من أنجع الوسائل والأساليب التي جاء بها القرآن الكريم للوقاية من الظلم وعلاجه، لمنع استشرائه وانتشاره، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ .[1]

والرّكون هو الميل اليسير إلى الشيء، والنهي عن الرّكون إلى الظالمين يتناول الانحطاط في هوى الذين ظلموا، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم ومداهنتهم، والرِّضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومدّ العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم.[2] ومجاملتهم، وإعانتهم على الظلم، وتزينه لهم وللنّاس.[3]

ويظهر جلّيا من خلال هذا أنّ للركون إلى الذين ظلموا صوراً متعددة، بعضها أشد ضرراً من بعض، ويرى الشعراوي أن أدناها مرتبة عدم منع الظالم من ظلم غيره، وأعلاها أن يجد من يزيّن له ظلمه، ويزيّن هذا الظلم للناس؛ لأن التزيين يساعد على نشره.[4]

وفي الحقيقة استعراض واقع الظلم في العالم، يبيّن أنّ تجنب الرّكون إلى الظالمين بصوره المختلفة من أهم وسائل وسبل الوقاية من الظلم، ومنع شيوعه؛ لأن الرّكون إلى الظالمين، يدفع إلى الوقوع في الظلم على اختلاف صوره ومراتبه، ويمد الظالمين بالقوة المادية والمعنوية، والمناصرة اللازمة لارتكاب الظلم وتبريره والاستمرار فيه. ولهذا يظل الظالم -مهما كانت صفته- يبحث عن حليف يقويه وينصره على ممارسة الظلم.

[1]- هود: 113.

[2]- الزمخشري، الكشاف، 2/296.

[3]- الشعراوي، من وصايا القرآن الكريم، ص365.

[4]- الشعراوي، مكارم الأخلاق، ص262.

وهذه آفة الدّول والأفراد، وما يحدث اليوم على المستوى الدّولي أكبر شاهد على ذلك، وإلاّ كيف تمكنت إسرائيل من اجتياح غزة وتبديد ثرواتها، وإبادة سكانها، ولا يزال ظلمها وأحلافها يطارد دولا أخرى من خلال شراء صمت وتأييد بعض الدّول العربية بل ركونها بصوره المختلفة.

ولهذا تعالت بعض الأصوات الغيورة على هذا الدّين تدعو إلى مقاطعة الظالمين ومنتجاتهم ومجالسهم واجتماعاتهم وتحالفاتهم؛ ردعاً لهم ودفعاً لظلمهم ومنعاً لاستشرائه.

فمقاطعة الظالمين والابتعاد عنهم، وتجنب الرّكون إليهم عموماً يجعلهم يشعرون بالضعف والعجز، وأن المعرض عنهم يأوي إلى ركن شديد حصين، يثق بقدرته على الظالمين؛ فيتزلزل الظالم في نفسه حاسباً حساب تلك القوة. وفي هذا إضعاف لقوته، وإشعاره بالعزلة التي لعلها تردعه عن ظلمه.[1]

ولهذا جاء القرآن بالتحذير الشديد من الرّكون إلى الظالمين، كإجراء وقائي من الظلم، وعلاج يمنع استفحاله. هذا الإجراء الذي دعا إليه من خلال إثارة مشاعر الإيمان، وإلهاب القلوب، ودَفَع إلى اتخاذه عن طريق الترهيب والوعيد الشديد الذي تلفح منه حرارة نار جهنم تلتهم الأجساد، وينبعث من أتونها أنين يستغيث دون أن يجد له منقذاً أو نصيراً؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾؛ لأنّ الرّكون إلى الظالمين ظلم، والله ﷻ لا ينصر الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[2] وقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.[3] سيّان في ذلك بين جميع صور الرّكون.

المطلب الثاني: هجر مجالس الظالمين

إنّ من السبل التي جاء بها القرآن لعلاج الظلم بل والوقاية منه، هجر مجالس الظالمين، والإعراض عن شهود مظالمهم بمختلف أنواعها، سواء كانت عقدية أو اجتماعية إلاّ بغرض إنكار الظلم والعمل على دفعه ورفع المظالم، ووعظ الظالم وتذكيره؛ لأن مجالسة الذين ظلموا من غير داعٍ شرعي منهي

[1]- الشعراوي، مكارم الأخلاق، ص262؛ الشعراوي، من وصايا القرآن، ص365.

[2]- البقرة: 270؛ آل عمران: 192؛ المائدة: 72.

[3]- الشورى: 8.

عنها.[1] وقد خصّها القرآن بالنهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[2]

وإن كانت هذه الآية أمراً للرسول ﷺ بألاّ يجلس في مجالس الظالمين بالشرك متى رآهم يخوضون في آيات الله، ويذكرون دينه بغير توقير والمسارعة إلى ترك هذه المجالس –لو أنساه الشيطان– بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه، إلا أنها يمكن في حدود النص أن تكون أمراً لمن وراءه من المسلمين.[3]

فالنصوص القرآنية تضع بين أيدينا وسيلة كفيلة بالوقاية من الظلم قبل وقوعه، وعلاجه قبل استشرائه، فتأمر بالإعراض عن مجالس الظالمين في حال خوضهم في آيات الله، واتخاذ دينه هزؤا ولعبا ولهوا. وخصت الآية النهي عن مجالسة فئة من أهل الظلم، وهم المشركون؛ لأن الشرك أفظع أنواع الظلم، وأعظمها على الإطلاق، وإن كانت جميع أنواع الظلم فظيعة، لا ينبغي الإقبال عليها، ولا الجلوس إلى أهلها، لاسيما حال خوضهم في مستنقع الظلم بمظالم الأقوال أو الأفعال أو غيرها.

وإذا حدث أن جلس الإنسان ناسياً، أو جلس راغباً، ولكن تبيّن له وقوع الظلم في المجلس، فإنه ينبغي عليه الإسراع إلى القيام، ومغادرة المجلس، إن كان لا يستطيع إنكار ما يسمع ويرى من الظلم، سواء كان الظَلَمة من الكفار أو المسلمين، كما قال ابن خويز منداد:[4] "من خاض في آيات الله تركت مجالسته مؤمنا كان أو كافراً".[5]

وإن كان هذا يليق كحل فردي بالنسبة للمجالس غير الرّسمية، إلاّ أنه لا يليق بمن يمثل فكرة أمة أو فكرة دولة أو فكرة حزب في المجالس الرّسمية التي لها تأثير على المستوى الشعبي أو الدولي، كالمجلس البلدي والوطني، ومجلس جامعة الدّول العربية، وغيرها من المجالس التي تُتخذ فيها القرارات والمواقف الكبرى؛ لأن انسحابه ليس أقل ضرراً من مسألة التولي يوم الزحف إذ هي كبيرة من الكبائر.

ومجالس الظالمين قلّما تخلو من الظلم –إن لم تكن المجالس عموماً– وأشده الاستهزاء بمبادئ الإسلام وشرائعه، والسخرية من نبيه ﷺ واستصغار شأن القرآن؛ إذلالاً للمسلمين، وإهانة لكرامتهم، وهذا ما تجرأ عليه بعض الظالمين من أهل الكفر باسم حرية الرأي في الأيام الفارطة،

[1] – الألوسي، روح المعاني، 154/12.

[2] – الأنعام: 68.

[3] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1127/7/2.

[4] – هو أبو عبد الله محمد بن خويز منداد المالكي، الإمام العالم المتكلم الفقيه الأصولي. أخذ عن أبي بكر الأبهري وغيره، ألّف كتابا كبيرا في الخلاف، وكتابا في أصول الفقه وكتابا في أحكام القرآن. ولم أقف على تاريخ وفاته. [محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، 103/1، برقم (265)].

[5] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13/7.

وأحدث زوبعة في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة -المختلفة- وأثار حفيظة الكثير من المسلمين الغيورين على هذا الدّين، ونهضوا للدّفاع عنه.

بالإضافة إلى ما يحدث في هذه المجالس من الطعن في كل ما جاء به الإسلام، كالنظر والحديث عن مكارم الأخلاق، وعفة المرأة وحجابها، وقواعد الحياة الزوجية على أنها تخلّف، وأغلال تقيد المرأة والرجل، وغير ذلك من صور الظلم العقدي والاجتماعي، التي لا تنجو منها أحيانا بعض مجالس الظالمين من المسلمين.

ومن جرّب هذه المجالس، وكان مؤمنا صالحاً؛ فإنه لا بد وجد نفرة شديدة منها، ووجد ظلمة تغشى تفكير الظالمين وحديثهم، وفرّ في النهاية من مجالسهم كما يفرّ السليم من الأجرب.[1] وقاية لنفسه من الوقوع في الظلم.

ولا أحد يُماري في تأثير الجليس على مجالسه لاسيما إذا كان المجالس يفتقر إلى الحصانة الدينية، وكان الجليس صاحب سلطة ونفوذ ومال أو نحوها حيث تزداد درجة التأثر، كلما كان المُجالس بحاجة إلى جليسه.[2] وهذا ما نبّه إليه النبي ﷺ فقال: {الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ}.[3]

ولهذا أمرنا ﷻ بالإعراض عن مجالس الظالمين، كإجراء وقائي من الظلم وانتشاره؛ لأن مجالسة الظالمين، إذا كان الجالس لا يملك مؤهلات إنكار الظلم، والتأثير في الظالم بالتذكير والوعظ والزجر، ولا يقدر على دفعه، ويَلُوذ بالصمت، فإنّ هذه المجالسة تؤدي إلى شهود الظلم، ومعايشته، واستئناس ذلك تدريجيا، لاسيما مع كثرة المجالسة والمواظبة على المخالطة التي تولد في النفس الألفة، فتستسيغ الظلم بمرور الوقت، فتتقهقر تدريجيا، من إقرار الظلم بالصمت، إلى التفاعل وإعانة الظالم على الظلم، ليصبح الجالس إلى مجالس الظالمين في النهاية من جنود الظلمة وأعوانهم.

وبهذا يتبيّن أن مجالسة الظالمين، تفتح أبواباً واسعة أمام الظلم واستشرائه؛ لذلك حدّد ﷻ حدود هذه المجالسة التي لا تتجاوز غرض الموعظة والتذكير، وتصويب المنحرف من الآراء والأفعال ونحوها، وعموما جلب المصالح ودرء المفاسد. ويستثنى من النهي عن الرّكون إليهم ومجالستهم

[1] - حسن أيوب، السلوك الاجتماعي، ص369.

[2] - ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 239/4.

[3] - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ص675، برقم (4833)؛ والترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، ص681، برقم (2373)، وقال: "هذا حديث حسن غريب"؛ وأحمد في مسنده، 142/14، برقم (8417)، واللفظ له، كلهم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه؛ والطيالسي في مسنده، 299/4، برقم (2696).

والدخول عليهم وجود المبرر الشرعي الذي يبيح ذلك؛ لقول الإمام الرازي: "فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الرّكون"[1] إليهم. لقول الألوسي في المجالسة المنهى عنها: "ومجالستهم من غير داع شرعي".[2] ومعنى ذلك جواز مخالطتهم ومجالستهم لداعٍ شرعي.

أما المجالسة، والتزام الصمت إزاء مظالم الأقوال والأفعال، فمحظورة لأنها في أحسن الأحوال؛ إقرار للباطل والظلم، وشهادة ضد الحق، وتلبيس على الناس،[3] خاصة إذا كان الظالم صاحب نفوذ، والمجالس ممن يعتبر عند العامة من علماء الدّين، ثم يظل لاصقاً ملازماً له في نفاق ورياء ونقص لدينه، وضياع لشرفه، حتى يضيع كرامة العلم، ويصير ذيلاً لمن لا يصلح أن يكون شعرة في جسد رجل صالح[4] وقطبا تدور عليه رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليه إلى باطلهم، وسُلماً يصعدون فيه إلى ضلالهم، وباباً يدخلون منه الشك على العلماء، ويقتادون به قلوب الجهلاء؛[5] لما نُقل عن السلف "ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً"،[6] أي أميرًا. فقد كانوا يسمون الأمير عاملاً. وهذا إذا كان العامل ظالماً.[7]

ولكن الله ﷻ أوصد هذه الأبواب، وأغلقها في وجه الظلم قبل أن تفتح، بالتحذير من مجالسة الظالمين لاسيما في حال ظلمهم، كإجراء احتياطي ووقائي من استشراء الظلم، واستفحال هذا المرض الخبيث، وبلسم لعلاج الظلم الواقع، يردع الظالم عن ظلمه عن طريق هجره واعتزاله، وتحرّي مجالس الصالحين، وأهل الخير وصحبتهم وزيارتهم، والتقرب بمجالستهم ومخالطتهم إلى الله ﷻ.

هذا الاعتزال الذي لا شك في أنه سيشعر الظالم بالوحدة والعجز والضعف عن ارتكاب الظلم؛ لأن الظلم لا يقع إلاّ بسكوت أهل الحق عنه وإقرارهم له وإعانتهم عليه. وهو ما يحفز الظالمين ويدفعهم إلى التمادي في الظلم والإيغال فيه.

فالوحدة تدعو إلى مراجعة النفس، ومحاسبتها التي قد تثمر الكف عن الظلم مهما كان نوعه. ولذلك أمر ﷻ بهجر الزوجة الظالمة بالنشوز، وهجر النبي ﷺ أولئك الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لمدة محدودة تأديباً لهم.



---

1 - الرازي، التفسير الكبير، 38/18.

2 - الألوسي، روح المعاني، 154/12.

3 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 1130/7/2-1131.

4 - حسن أيوب، السلوك الاجتماعي، ص369.

5 - الزمخشري، الكشاف، 266/2.

6 - نفسه.

7 - سعيد حوى، الأساس، 2612/5.

فالآية كما قال ابن عاشور: "أصل في سدّ ذرائع الفساد المحققة والمظنونة".[1] فيُعنى القرآن بالوقاية قبل العلاج، ويهيئ "الجو الطاهر النظيف الذي يعين الظالم على التخلص من ظلمه، بل توقيه والاحتراز منه".[2]

فالحضور في مجالس الظالمين ينبغي أن يكون القصد منه الأخذ على أيديهم، ومنعهم من التمادي في الظلم أو على الأقل التخفيف منه، أما إذا كان الحضور لا يحقق مصلحة ولا يدفع مضرة شرعية؛ فيتعين هجرها ومقاطعتها والإعراض عن شهود ما يقع فيها من المظالم؛ لأن ذلك في حد ذاته يعد إقرارا للظلم وإعانة للظالمين فضلا عن كون الحضور مع عدم القدرة على الإنكار والتأثير في الظالمين يؤدي إلى التأثر بهم تدريجيا واعتياد الظلم واستئناسه ثم ممارسته.

المطلب الثالث: النهي عن إعانة الظالمين

إذا كان النهي عن مجالسة الظالمين من بين سبل الوقاية من الظلم وشيوعه بل وعلاجه، فإن النهي عن إعانة الظالمين على ظلمهم من أهم هذه السبل؛ لأنّ الإعانة من أكثر الصور المؤدية إلى انتشار الظلم واستشرائه.

فالإعانة بأي شكل من الأشكال لا تجوز، سواء كانت مادية أو معنوية لاسيما إذا كان الظالم حاكماً، أو صاحب سلطة ونفوذ؛ لأن هؤلاء لا يرتكبون المظالم إلا بأعوانهم وأتباعهم وجنودهم.

والواقع أن المسلمين عموماً إلا القليل منهم يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم، وكثير منهم لا يرون تناقضاً بين معونة الظالم، وبين الالتزام بأحكام الإسلام. وبعضهم

---

[1] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 178/12/5.

[2] – محمد نوح، آفات على الطريق، 200/5.

يصلي ويصوم بل ويبني المساجد وهو من أكثر الناس عوناً للحاكم الظالم، وتنفيذاً لأوامره الجائرة.[1]

فالظالم لا يسمع إلاّ بأذان الأعوان، ولا يرى إلا بأعينهم، ولا يبطش إلا بأيديهم، ولا يفكر إلا بعقولهم. فهم البيئة العفنة التي يشب فيها الظلم، ويترعرع ويستوي ويبلغ أشده؛ فيعمّ ويتفانون في خدمته، وخدمة ظلمه، وموافقته والتملق له، ولا يتأخرون عن بذل الدّماء والأموال والأعراض، ولا يكترثون لاجتراح مختلف أنواع الظلم، والتعدي على حقوق الأبرياء، بل يتنافسون في ذلك طلباً للقرب من الظالم.

ولا يزال أعوان الظالم؛ شياطين مجلسه يزينون له ما يحبه ويهواه، حتى يراه حسناً مقبولاً، فيدفعونه بهذا التزيين إلى الثبات على ظلمه إن كان متردداً فيه، والاستمرار عليه إن كان متلبسًا به وبفعله، ليزدادوا عنده حظوة ومكانة، شأن الملأ من قوم فرعون؛[2] لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.[3]

هكذا يتحسس الأعوان ما يهواه الظالم وما يراه، فيشيرون عليه بما يوافق هواه، ويزينونه للناس "وقد لا يجهلون أن ما يقومون به ظلم، لكن حب الدنيا والعيش في أجواء الظلم وأهله يروض النفوس ويخدرها حتى لا تعرف معروفا، ولا تنكر منكرا إلا ما أشربت من هواها، وهذا شأن الفتن التي أخبر النبي ﷺ أنها تعرض على القلوب كالحصير عودا عودا".[4]

وقد نقل القرطبي أن عطاء بن أبي رباح قال: {لاَ يَحِلُ لِأَحَدٍ أَنْ يُعِينَ ظَالِمًا وَلاَ يَكْتُب لَهُ وَلاَ يَصْحَبْه، وَأَنَهُ إِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ صَارَ مُعِينًا لِلْظَالِمِينَ}.[5] بل ظالما لأن أعوان الظلمة، ظلمة مثلهم، كما أخبرنا المولى سبحانه وتعالى عن جنود فرعون في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.[6] فسمى ﷻ فرعون وأعوانه جميعا ظالمين، أدى بهم هذا الظلم إلى الاستئصال والهلاك.

[1] - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ص365.

[2] - نفسه، ص50، ص380.

[3] - الأعراف: 127.

[4] - [illegible]، وقفات تربوية، 241/4.

[5] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 263/13.

[6] - القصص: 40.

ولهذا سوّى أهل العلم بين الظالم والمعين له على ظلمه، والمحب له في الإثم، فعن ميمون بن مهران[1] أنه قال: {الظَّالِمُ وَالْمُعِينُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْمُحِبُّ لَهُ سَوَاء}.[2]

ذكر ابن عطية وهو يفسر قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾[3] أنّ أهل العلم احتجوا بهذه الآية في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم.[4]

وأعوان الظلمة تبرأ منهم النبي ﷺ في قوله: {يَا كَعْبَ بْنِ عُجْرَةَ[5] أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ قَالَ وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ قَالَ أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي}.[6] فتبرأ ﷺ من أعوان الظلمة، وأخبر أنهم لا يردون عليه الحوض.

ولا فرق بين إعانة الظالم على ظلمه، وبين إعانته على ترقيته أو بقائه في مركزه الذي يمكنه من ارتكاب الظلم والتمادي فيه، سواء كانت الإعانة مادية أو معنوية، كالظهور معه أمام الناس، وتزيين ظلمه لهم، والتصويت عليه، والسعي وراء إنجاح برنامجه، و جمع الأصوات له مثل ما يحدث

---

[1] – ميمون بن مهران هو: الإمام الحجة، عالم الجزيرة ومفتيها، أبو أيوب الجزري الرقي، أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ فيها. حدّث عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس رضي الله عنه روى عنه ابنه عمرو. قيل أن مولده عام موت علي رضي الله عنه (40هـ)، وتوفي سنة (117هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 5/71-78، برقم (28)، الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/181، برقم (7/342)].

[2] – حسن أخرجه الخرائطي، مساوئ الأخلاق، ص249، برقم (623).

[3] – القصص

[4] – ابن عطية، المحرر الوجيز، 4/281.

[5] – هو كعب بن عجرة بن أمية بن عدّي بن عبيد بن الحارث بن قضاعة حليف الأنصار. يكنى أبا محمد. نزل الكوفة ومات بالمدينة سنة (51هـ) عن نحو 75 سنة. روى عنه أهل المدينة والكوفة. [ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3/1321، برقم (2197)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/133، برقم (5/227)].

[6] – أخرجه أحمد في مسنده، 23/425، برقم (15284) من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم؛ والحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، باب أعاذك الله يا كعب من إمارة السفهاء، 4/585، برقم (8371)؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، 5/9، برقم (1723)، من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ والبيهقي، شعب الإيمان، باب في مباعدة الكفار والمفسدين، 7/46-47، برقم (9399).

في بعض المواعيد الانتخابية، والدعاء له بالبقاء لقوله ﷺ: {مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَ أَنْ يَعْصِي اللهَ فِي أَرْضِهِ}.[1]

بل إن سفيان الثوري[2] -رحمه الله- ذهب إلى أن الظالم لا يعان على بقائه في الحياة فضلا عن بقائه في مركزه، حيث سُئل عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت.[3]

والظاهر أن الثوري يقصد الحاكم الظالم، فمن الأولى تغليظ النهي عن معونته؛ لأن في معونته استمرار ظلمه وإيذائه للناس.[4]

وإذا كان لأعوان الظالم هذا الدور في اجتراح الظلم، ونشره وتعميمه، وتهيئة البيئة العفنة، والجو الذي يعين على نمو الظلم واستشرائه، فإنه لا أحد يشك في أن الإمساك عن إعانة الظالم على ظلمه، من أفضل السبل و أحسن الوسائل لتهيئة البيئة الطاهرة، والجو النظيف الذي لا يدع مجالا لظهور الظلم وانتشاره؛ لأن الابتعاد عن الظالم، والإمساك عن إعانته ومشاركته في ظلمه، يشعره بالضعف والعجز عن ممارسة الظلم، ويكبحه عن التمادي فيه، بل وقد يدعوه إلى الإقلاع عنه فيتقي الظلم.

---

[1] - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في مباعدة الكفار والمفسدين، 7/53-54، برقم (9432)، من قول الحسن البصري؛ ومحمد طاهر بن علي الهندي الفتني، تذكرة الموضوعات وفي ذيلها قانون الموضوعات والضعفاء للفتني، 1/183، وهو من قول الحسن البصري، وذكره أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، من قول سفيان الثوري، الجزء التاسع، باب بسم الله الرحمن الرحيم، 7/46.

[2] - هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، شيخ الإسلام وإمام الحفاظ، وسيد العلماء العاملين في زمنه، ومصنف كتاب الجامع. ولد سنة (97هـ)، كان والده من ثقات الكوفيين. توفي في البصرة مستخفيا من المهدي سنة (126هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/229-280، برقم (82)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/198، برقم (3/104)].

[3] - الزمخشري، الكشاف، 2/296.

[4] - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ص368-369.

المبحث الثاني: الانتصار والعفو عند المقدرة

فكما أناط القرآن الكريم مسؤولية الوقاية من الظلم وعلاجه على الأمة وعلى الظالم، فإنّه ألقى بها أيضا على عاتق المظلوم، وذلك عن طريق الانتصار من الظالم أو العفو عنه عند المقدرة. فمتى يقدم أحدهما على الآخر؟ وأيهما أفضل؟ الانتصار من الظالم أم عفو المظلوم عنه عند المقدرة؟ وهل يمكن أن يكون الانتصار من الظالم دائما وسيلة لعلاج الظلم؟

هذه الأسئلة التي سيتكفل المبحث الثاني من هذا الفصل الإجابة عنها من خلال مطلبين، خصص الأول لحق الانتصار والثاني للعفو.

المطلب الأول: حق الانتصار بعد الظلم

إن ردّ الظلم والانتصار من الظالم، وعدم الاستكانة له، ورفض الخضوع والذل، يعد من بين الإجراءات والسبل المحمودة في بعض الأحوال، بل السبيل الوحيد أحيانا لدفع الظلم، والوقاية منه قبل استشرائه. وهذا ما يؤكده استعراض واقع الظلم في العالم اليوم، واستقرائه عبر التاريخ، الذي يشير إلى أن الظلم شاع واستفحل على اختلاف أنواعه لخضوع المجتمعات والأفراد للظلم والرضا به. واللّوذ بالصمت، وعدم الانتصار من الظالمين؛ لأن الظالم إذا لم يجد رادعا يردعه عن الظلم، فإنه يتمادى فيه ويعبث في الأرض فسادا.

لذلك مدح ﷻ الانتصار من الظالمين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ

انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (41) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾.[1] فبيّنت هذه الآيات أنّ من صفات المؤمنين الانتصار من الظالم، وعدم الاستكانة للظلم.



1 الشورى: 39-42

قال القرطبي في تفسيرها أي "إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه".[1] فهي ثناء من الله عليهم لذلك. وفي صحيح البخاري:[2] {قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَخَعِي[3] كَانُوا يَكْرَهُونَ (أي الصَحَابَة) أَنْ يُسْتَذَلُّوا فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا}.[4]

وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلا منهما في موضعه محمود.[5]

فالانتصار من الظالمين محمدة دينية، إذ هو لدفع الظلم اللاحق بالمؤمنين لأجل أنهم مؤمنون. فالانتصار لأنفسهم رادع للظالم عن التوغل في الظلم لأمثالهم. وقد جاء في هذا الموضع في سياق المدح، فهو خلق أراده الله للمسلمين، بحيث لا ينبغي التردد فيه.[6]

وهذا ما يدل على أن الانتصار من الظالمين من سبل الوقاية من الظلم ودفعه لاسيما إذا كان الانتصار منهم لحفظ الدين والدفاع عنه في سبيل الله، والتمكين له، وتربية للظالمين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، وتأديب لهم للكف عن الظلم والرجوع عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.[7]

بل ذهب القرآن الكريم إلى أكثر من ذلك، فبيّن أنه لا ينبغي ترك الانتصار من الظالمين، حتى وإن كان مراعاة لقداسة الزمان أو المكان؛ لأن الفتنة عن الدين بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الوطن، ومصادرة الأموال، واستباحة الأعراض أشد قبحا من الانتصار من أهـــل الظلم بالقتل. فلا بلاء أشد على الإنسان من اضطهاده وتعذيبه على دينه؛[8] لقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

---

[1]- القرطبي، الجامع، 39/16.

[2]- هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الإمام، صاحب الصحيح والتاريخ، سمع بدمشق. قال: "ما وضعت في كتاب الصحيح من حديث إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين". توفي ليلة الفطر سنة (256هـ). [ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، [illegible] برقم (19)].

[3]- هو: إبراهيم بن مالك بن الأشتر النخعي. مالك العرب، أحد الأشراف والأبطال المذكورين. حدّث عن عمر وعن خالد بن الوليد ففقئت عينه يوم اليرموك. كان ذا فصاحة وبلاغة. من أصحاب مصعب بن الزبير. توفي حوالي سنة 71هـ [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 34/4-35، برقم (6)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 151/1، برقم (58/1)].

[4]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب الانتصار من الظالم، ص428، دون رقم.

[5]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 21/6.

[6]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 10/25/113-114.

[7]- البقرة: 190.

[8]- [illegible]، المنار، 209/2.

تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾.[1] وهذا ما قرّره قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾.[2]

وأكّد ﷻ ضرورة ردّ الظلم، وعدم الخضوع والاستسلام، منعا للفتنة في الدين، وكسرا لشوكة الظالمين، وإضعافا لهم حتى لا يتمكنوا من فتن المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، ومنعهم من إظهار دينهم أو الدعوة إليه. وحتى يكون الدين خالصا لله، لا يخشى المسلم غيره، ولا يحتاج إلى المدارة أو المداهنة أو الاستخفاء أو المحاباة في دينه؛[3] لقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.[4]

ولم يكتف ﷻ بالثناء على الانتصار من الظالمين في هذا السياق بل بيّن أن المحظور، هو عدم الانتصار من الكفار الظالمين المصرين على الظلم والفتنة إيذاء للمؤمنين؛ ولذلك صرح بالأمر بالاعتداء على الظالمين المعتدين، مع مراعاة المماثلة في الجزاء بلا حيف ولا ظلم؛[5] لقوله تعالى: ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.[6]

وكما مدح ﷻ الانتصار من الظالمين بالسيف ونحوه، مدح الانتصار منهم باللسان في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[7] إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾. حيث أثنى على الشعراء الذين يتولون الدفاع عن الدين بالشعر ضد المشركين الذين يظلمون المسلمون بالشتم، ويؤذونهم بسيئ القول، ويهجونهم بالشعر.

[1] البقرة: 191.

[2] – الحج: 39.

[3] – محمد رضا، المنار، 2/211.

[4] – البقرة: 193.

[5] – محمد رضا، المنار، 2/212.

[6] – البقرة: 194.

[7] – الشعراء: 224 – 227.

لذلك أمر النبي ﷺ حسان بن ثابت[1] بهجاء المشركين الظالمين، ودفع ظلمهم، والانتصار منهم بالشعر، فقال له: {إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ}.[2]

كما ورد أن كعب بن مالك[3] قال للنبي ﷺ: {يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الشِّعْرِ؟ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهَدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ}.[4]

ولا أحد ينكر اليوم دور الكلمة، سواء كانت مكتوبة أو مسموعة، في ظلم الشعوب وإخضاعها وإذلالها، حيث يتولى الإعلام الملوث بأنواعه المختلفة إثارة الحروب ونشر الظلم والفساد عبر العالم وتبريره؛ فيسقط المشاهد في بؤرة الرذيلة أو شهيدا في حروب لم يخضها إلا مشاهدا على حد قول الكاتبة الجزائرية[5] أحلام.[6]

ولهذا فإن امتلاك المسلمين للإعلام القوي والسيطرة عليه من أهم الوسائل التي تمكنهم من رد الظلم والوقاية منه. وهو من أهم ما ينبغي السعي وراءه لرفع الظلم بأنواعه المختلفة التي ترزح تحته الشعوب.

---

[1]- هو: حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمر بن الخزرج الأنصاري، قيل عنه أبو الحسام لمنضالته عن الرسول ﷺ ولتقطيعه أعراض المشركين. يقال له شاعر الرسول ﷺ. عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، لم يشهد مع الرسول ﷺ مشهدا. له ديوان انقرض عقبه. [ابن الأثير، أسد الغابة، 4/2-7؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 512/2-513، برقم (106)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 135/1، برقم (175/2)].

[2]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت ﷺ، ص1208، برقم (2490)، بلفظ: {إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ}؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، 722/2، برقم (5015)؛ والنسائي، السنن الكبرى، 80/5، برقم (8295)؛ وأحمد في مسنده، 617/30، برقم (18678) واللفظ له، من طريق البراء بن عازب ﷺ.

[3]- هو: كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري الخزرجي السلمي، يكنى أبا عبد الله وقيل أبا عبد الرّحمن، شهد العقبة واختلف في شهوده بدرا. حين قدم الرسول ﷺ المدينة آخ بينه وبين طلحة بن عبيد الله. جرح يوم أحد 11 جرحا. كان من شعراء الرسول ﷺ وكان من أصحاب عثمان ﷺ. له 80 حديثا وديوان. [الذهبي، أسد الغابة، 247/4-249؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 132/1، برقم (228/5)].

[4]- أخرجه أحمد في مسنده، 147/45-148، برقم (27174) من طريق كعب بن مالك الأنصاري ﷺ؛ والطبراني، المعجم الكبير، 75/19، برقم (151)، 76/19، برقم (152)، ورقم (153).

[5]- أحلام مستغانمي، "ما [illegible] أقوله لكم... من فوق الشجرة"، زهرة الخليج، العدد: 1479، الإمارات للإعلام، (28 يوليو 2007م/ 14 رجب 1428هـ)، ص208.

[6]- هي: أحلام مستغانمي، شاعرة جزائرية، من مستغانم، ولدت بتونس سنة (1953م)، عاشت مهاجرة من مكان إلى آخر. روائية ساحرة بصيغة شاعرة. تتكئ اليوم في لبنان على 25 عاما من عمر تجربتها الفكرية. تخرجت من كلية الآداب بجامعة الجزائر وحائزة على دكتوراه في علم الاجتماع من السربون. من مؤلفاتها: "الجزائر المرأة والكتابة"، "المرأة والأدب الجزائري المعاصر"، "ذاكرة الجسد". [خليل أحمد خليل، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (2001م)، ص1057-1061]

وعموما يفضل الانتصار من الظلم على العفو عنه، إذا كان الظالم "معلنا بالفجور، وقحا في الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل".[1]

واستحسن القرطبي هذا الرأي، وحمل الانتصار من الظالم على المصرّ؛ فقال: "فأما المُصرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه".[2]

وهو ما عليه الألوسي أيضا حيث قال: "والانتصار من المخاصم المصر محمود".[3]

وقد روي عن النبي ﷺ ما يدل على أن رد الظلم والانتصار للنفس يكون في بعض الأحوال مندوبا إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي والظلم وقطع مادة الأذى؛[4] ولو كان ظلم الضرة لضرتها جاز للزوج أن يمكّن المظلومة من أخذ حقها ولو كان كلاما، كما جاء من أنّ عائشة –رضي الله عنها– قالت: {مَا عَلِمْتُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيَّ زَيْنَبُ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهِيَ غَضْبَى ثُمَّ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَسْبُكَ إِذَا قَلَبَتْ بُنَيَّةُ أَبِي بَكْرٍ ذُرَيْعَتَيْهَا ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيَّ فَأَعْرَضْتُ عَنْهَا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ دُونَكِ فَانْتَصِرِي فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا وَقَدْ يَبِسَ رِيقُهَا فِي فِيهَا مَا تَرُدُّ عَلَيَّ شَيْئًا فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ}.[5]

ويرى الزمخشري أنه يحمد الانتصار من الظالم؛ لأن من أخذ حقه غير متعد لحدود الله فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم، أو رد على سفيه محاماة على عرضه، وردعا فهو مطيع، وكل مطيع فهو محمود.[6]

وعن النبي ﷺ قال: {مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ}.[7]

---

[1] – ابن العربي، أحكام القرآن، 1669/4.

[2] – القرطبي، الجامع، 39/19.

[3] – الألوسي، روح المعاني، 47/25.

[4] – القرطبي، الجامع، 41/18.

[5] – أخرجه النسائي، السنن الكبرى، 290/5، برقم (8914)، 454/6، برقم (11477).؛ أحمد في مسنده، 168/41، برقم (24620).

[6] – الزمخشري، الكشاف، 229/4.

[7] – أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، 660/2، برقم (4772)؛ والترمذي في سننه، كتاب الديات عن الرسول، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، ص437، رقم (1425)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح" واللفظ له؛ والنسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون دينه، ص596، برقم (4097)، والسنن

والمراد من "قوله: {مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ} أي عند دفعه من يريد أخذ ماله ظلما {وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ} أي في الدفع عن نفسه {وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ} أي في نصرة دين الله والذب عنه {وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ} أي في الدفع عن بضع حليلته أو قريبته {فَهُوَ شَهِيدٌ} لأن المؤمن محترم ذاتا ودما وأهلا ومالا، فإذا أريد منه شيء من ذلك جاز له الدفع عنه، فإذا قتل بسببه فهو شهيد".[1]

ويشترط في الانتصار من الظالمين مراعاة المماثلة في القصاص بلا حيف ولا ظلم، وإلا فاتت حكمة تشريع القصاص، وهي منع الظلم والعدوان وتقرير العدل.[2] كما تشير إلى ذلك الكثير من الآيات القرآنية، كقوله تعالى: **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**[3] وقوله: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾**[4] وقوله: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾**.[5]

فهذا هو "الأصل في الجزاء، مقابلة السيئة بالسيئة، كي لا يتبجح الشر ويطغى حين لا يجد رادعا يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن".[6]

لذلك حدّد الانتصار وقيّده بالمثل، بحيث يجازي المظلوم الظالم بمثل ظلمه، أي بمقداره المتعارف عليه عند الناس، ولا تكون المماثلة تامة إلا إذا كانت في الغرض والصورة، مثل القصاص من القاتل ظلما بمثل ما قتل به، وإذا تعذرت فيصار إلى المشابهة في الغرض، أي مقدار الضر، وتلك هي المقاربة كتعذر المشابهة التامة في جزاء الحروب، وفي إتلاف بعض الحواس، فيصار إلى الدّية، وإلى قيم المتلفات في المقومات.[7]

الكبرى، 311/2، (3558)؛ وأحمد في مسنده، 173/3، برقم (1628)، 182/3، برقم (1639)، 184/3، برقم (1642)، 190/3، برقم (1652)، 191/3، برقم (1653).

[1] - عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، (1404هـ/1984م)، 316/2.

[2] - محمد رضا، المنار، 213/2.

[3] - البقرة: 194.

[4] - النحل: 126.

[5] - الشورى: 40.

[6] - سيد قطب ، في ظلال القرآن، 3167/25/5.

[7] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 115/25/10.

وقد شمل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم من صلاح الأمة، ففي تخويل حق انتصار المظلوم من ظالمه، ردع للظالمين عن الإقدام عن الظلم خوفا من أن يأخذ المظلوم بحقه، فالمعتدي يحسب بذلك حسابه حين ألهم بالعدوان.[1]

وبما أن الانتصار من الظالم، قد يؤدي تحت وطأة الغضب والرغبة في الانتقام إلى تجاوز الحد في القصاص، فيتولّد عنه ظلم جديد؛ فإن القرآن عادة ما يذيل الآيات التي تبيح الانتصار من الظلم، بالتحذير والترهيب من الوقوع في ظلم جديد، وبما يدل على وجوب الوقوف عند رد المساءة والعقوبة والاعتداء بالمثل، والاقتصار على هذا الحق؛ لئلا يتسلسل الظلم نحو قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2] وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.[3] أي الظالمين والمعتدين المبتدئين والمتجاوزين الحد في المماثلة.

ولا يحق لأحد الوقوف في طريق المظلوم، ومنعه من دفع الظلم سواء كان الظلم قليلا أو كثيرا ، والانتصار من الظالم في حدود الحق المشروع له، دون مجاوزة للحد، إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم، هم الذين يظلمون الناس؛ لأن الأرض لا تصلح، وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه، ويمنعوه من ظلمه، ولا يجد من يردعه، ويقتص منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[4] "وحكم هذه الآية يشمل ظلم المشركين للمسلمين، ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضا".[5]

والمقصود أنه لا سبيل إلى لوم المسلم إذا انتصر من الكافر، بل يحمد على ذلك، ولا لوم إن انتصر المظلوم من المسلم، فالانتصار من الكافر حتم ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.[6]

[1] – نفسه، 116/25/10.

[2] – الشورى: 40.

[3] – البقرة: 190.

[4] – الشورى: 41–42.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 120/25/10.

[6] – القرطبي، الجامع، 41/16.

هكذا تتجلى أهمية الانتصار من الظالمين في دفع الظلم وعلاجه، بل والوقاية منه لاسيما المستكبرين المعاندين من أهل الكفر، والمصرين على الظلم، إلا إذا كان الانتصار من الظالم يدفعه إلى التمادي فيه، فيتعين في هذه الحال وأمثالها تركه إلى العفو.



المطلب الثاني: العفو عن الظلم عند المقدرة

قبل أن أتوغل في قضايا العفو، أود أن أتساءل بخصوص حجم القضايا التي يمكن أن نستخدم فيها سلوك العفو، إذ أنّ القضايا الفردية ذات الطابع الخلقي الفردي تختلف عن القضايا

ذات الطابع الجماعي، التي تعظم كلما عظمت الفئات المتقاطعة حتى نصل إلى الاختلاف القائم بين الدّول. ومن هنا وجب التساؤل عن حجم القضايا التي ينبغي أن نتخلق فيها بخلق العفو.

إنّ الانتصار من الظالمين في بعض الأحوال، من أعظم سبل الوقاية من الظلم ومنع انتشاره، إلاّ أنّ الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال الأخرى حيث لا يُجْدِ رد الظلم بالمثل، فيصبح ترك الانتصار مقدما والعفو مفضلا، وكظم الغيظ محمودا، كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[1] حيث رغّب ﷻ في العفو عن الظالم والصبر على الأذى والظلم "وهذا فيمن ظلمه مسلم"،[2] ولكن متى يكون العفو أفضل من الانتصار من الظالم؟

يجيب ابن العربي[3] عن هذا التساؤل محددا الحالة التي تقتضي العفو فيقول: "أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة فالعفو ها هنا أفضل".[4] ويدعمه ما ورد عند الألوسي حيث قال: "والعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود".[5]

واستحسن هذا الرأي القرطبي وأقرّه؛ فقال: "وهو محمول على الغفران عن غير المصرّ".[6]

ولم يفرّق هؤلاء المفسرون في العفو وعدمه بين القضايا الفردية، والقضايا الجماعية أو بالأحرى الدّولية، وجعلوا الاعتراف بالظلم وعدم الإصرار عليه معيارا يحتكم إليه في العفو عن الظالم.

وأشار كتاب "هذه أخلاقنا" إلى أنّ الضابط المعول عليه في الانتصار من الظالم والعفو عنه، هو مراعاة المصالح والمفاسد؛ فيقول: "وإذا توقعت أن انتصارك من أخيك المسيء إليك قد يزيد الشر، ويوغل في التمادي وتفاقم الخطب فأسدد أبواب الشيطان، وقدّر المصالح والمفاسد".[7]

---

[1] – الشورى: 43.

[2] – القرطبي، الجامع، 36/16.

[3] – ابن العربي هو العلامة الحافظ، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله الإشبيلي. ولد سنة (468هـ) ورحل مع أبيه إلى المشرق. تخرج على يد الإمام أبي حامد الغزالي. جمع وصنّف وبرع في الأدب والبلاغة. توفي بالعدوى بفاس سنة (543هـ). [أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ط.ت)، 1294/4-1298؛ محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، 136/1/1-137، برقم (408)].

[4] – ابن العربي، أحكام القرآن، 1669/4.

[5] – الألوسي، روح المعاني، 47/25.

[6] – القرطبي، الجامع، 39/16.

[7] – محمود محمد الخزندار، هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقا، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط6، (1422هـ/2001م)، ص65-70.

وهو نفس الضابط المعول عليه في العفو عن الظالمين من أهل الكفر؛ لقول ابن عاشور: "وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو المؤاخذة".[1]

فالاحتكام إلى المصالح والمفاسد، معيار عام سواء في العفو عن الظالمين من المسلمين أو من أهل الكفر، في القضايا الفردية أو الكبرى.

وقد نوّه ﷻ بالصبر على الظلم، وترك الانتصار من الظالم، باستخدام أربعة مؤكدات في الآية وهي: اللام وإن ولام الابتداء والوصف بالمصدر، وزاده تنويها باسم الإشارة؛ لأنه فضيلة، وشأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات، ولا يقدر عليها إلا أولوا العزم؛[2] لقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ونقل القرطبي أن رجلا سبّ رجلا في مجلس الحسن -رحمه الله- فكان المظلوم يكظم ويعرق، فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: {عَقِلَهَا وَاللهِ! وَفَهِمَهَا إِذْ ضَيَّعَهَا الجَاهِلُونَ}.[3]

فتورّع هذا الرجل عن سبّ ظالمه متخلقا بهذه الآية، وترك الانتصار منه خشية مجاوزة العدل والوقوع في ظلم ظالمه دون أن يشعر؛ لقوله ﷺ: {الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ}.[4]

وهذا الإمام ابن عون[5] -رحمه الله- قد ضربه بلال بن أبي بردة[1] بالسياط لأنه تزوج امرأة امرأة عربية، فجاءه قوم فقالوا له: "يا ابن عون: بلال فعل كذا، إلا أنه قال: إن الرجل يكون

---

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 123/25/10.

[2]- نفسه، 122/25/10.

[3]- القرطبي، [illegible] 44/16.

[4]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب، ص1247-1248، برقم (2587)؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب المستبان، 690/2، برقم (4894)؛ والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في الشتم، ص581، برقم (1986)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأحمد في مسنده، 138/12، برقم (7205)، 220/16، برقم (10329). كلهم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[5]- هو: عبد الله بن عون بن أرطبان، مولى مزينة، كنيته أبو عون. كان مولده سنة (66هـ). شيخ أهل البصرة وعالمهم. كان ورعا عابدا، توفي سنة (151هـ). روى عن أبي وائل والكبار، من شيوخ سفيان الثوري. [أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، مشاهير علماء الأمصار أعلام فقهاء الأقطار، تحقيق وتعليق مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1، (1411هـ/1991م)، 238/1، برقم (1185)؛ أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء،

مظلوما، فلا يزال يقول حتى يكون ظالما. ما أظن أحدا منكم أشد على بلال مني".[2] فترفّع رحمه الله عن الانتصار لنفسه من ظالمه، وقاية لنفسه من الوقوع في الظلم.

فتركُ الانتصار من الظالم يضمن سلامة المظلوم من الوقوع في ظلم الظالم، سواء بدافع الغضب والانتقام، أو لتعسر وتعذر المعاقبة بالمثل في الصورة أو الغرض، وصعوبة العدل. وهو ما قد يفضي إلى الزيادة عن العدل ومجاوزة الحد في القصاص، فيولد الظلم بعضه بعضا، ويتسلل ولا يحل ظلم أحد سواء كان مسلما أو كافرا؛ فيكون الصبر في مثل هذه الأحوال أولى وأفضل وخير للصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.[3]

ولا يكون ترك الانتصار والعفو عن الظلم سماحة وضبطا للنفس، وفضيلة إلا بعد التمكن من الظالم والقدرة على دفع الظلم، وحين يكون الصبر والسماحة استعلاءً لا استخذاء، وتجملاً لا ذُلاً. فعندئذ يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح الظالم والمظلوم سواء، حيث يشعر الظالم بأن العفو جاء سماحة، ولم يأت ضعفاً، فيخجل ويحس بأن المظلوم هو الأعلى، والمظلوم الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو، فالعفو عندئذ لكليهما؛[4] لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾.

وفي هذا إرشاد إلى ما في ترك الانتصار من الظالم والعفو عنه، من صلاح الأمة، وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ أواصر الأخوة وتقويتها.[5] كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.[6]

هذا عند المقدرة. أما عند الضعف والعجز، فلا يذكر العفو، وليس له ثمة وجود؛ لأن المظلوم مستضعف ومكره، ولا فضيلة في عفوه، وهو شر يُطمع الظالم، ويذل المظلوم، وينشر في الأرض الظلم والفساد.[1]

تهذيب محمد بن جلال الدين المكرم بن منظور، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، (1970م)، 90/1؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 196/1، برقم (111/4)].

[1] – هو [illegible] بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري واسمه أبي بردة عامر بن عبد الله بن قيس، أمير البصرة وقاضيها. كان راوية فصيحا أديبا. ثقة في الحديث، [illegible] ولاه خالد القصري القضاء سنة (109هـ)، وعزله يوسف بن عمر الثقفي سنة (125هـ) وحبسه فمات [illegible] محمود سيرته في القضاء. [ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، 242/1، برقم (1207)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 184/1، برقم (72/2)].

[2] – الذهبي، سير أعلام النبلاء، 370/6.

[3] – النحل: 126.

[4] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 3167/25/5.

[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 116/25/10.

[6] – فصلت: 34.

وأجر ترك الانتصار من الظالم لوجه الله تعالى محفوظ عنده ﷻ لا يضيع لقوله ﷻ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. وهو ما بيّنه النبي ﷺ في قوله: {وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا}.[2]

ومن جزاء العفو تكفير الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.[3] وهو ما يدل عليه أيضا حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أبو الدرداء رضي الله عنه[4] أنه قال:{مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً}.[5]

ويجعل العَفّوُ القدير ﷻ من نفسه أسوة لعباده، فيحضّهم على التخلق بخلق العفو، الذي هو من صفاته، ويحرضهم عليه بعد المقدرة، ببيان أن فيه تخلقا بالكمال؛ لأن صفات الله غاية الكمالات؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6] وقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.[7]

هكذا يوازن القرآن الكريم بين الانتصار من الظالمين وتركهم، فيجعل العفو عن الظلم في بعض المواطن وسيلة لحفظ النفوس من الضغائن والأحقاد، ووقايتها من الجور والظلم، كما يجعل الانتصار من الظلم في أحوال أخرى السبيل الأمثل لصيانة النفوس من الذل والهوان، ووقايتها من الظلم، وردع الظالم حتى لا يتمادى في الظلم.

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 3167/25/5.

[2]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ص1248، برقم (2588)؛ والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في التواضع، ص591، برقم (2034)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأحمد في مسنده، 552/14، برقم (9008)؛ مالك، الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في التعفف عن المسألة، 599/2-600، برقم (2855)، كلهم من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

[3]- المائدة: 45.

[4]- هو: أبو الدرداء عويمر بن مالك بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي. الإمام القدوة، قاضي دمشق وصاحب رسول الله ﷺ. حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشق. روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث. وهو معدود فيمن تلا عن النبي ﷺ وجمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ روى عنه أنس بن مالك وفضالة بن عبيد وابن عباس وغيرهم. له 179 حديثا. توفي حوالي سنة (32هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 335/2-354، برقم (68)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 120/1، (98/5)].

[5]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، ص1243، برقم (2572)؛ والترمذي في سننه، كتاب الديات عن رسول الله، باب ما جاء في العفو، ص429-430، برقم (1397)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب العفو في القصاص، 898/2، برقم (2693) من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه؛ وأحمد في مسنده، 274/37-275، برقم (22701)، من طريق عبادة بن الصامت. كلهم بهذا اللفظ إلا مسلم فذكره بلفظ: {مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا}.

[6]- النور: 22.

[7]- [illegible]: 149.

المبحث الثالث: أثر الدعاء والاعتبار

دعا القرآن الكريم المظلوم والأمة إلى الوقوف من الظلم موقفا إيجابيا، يمكّن من الوقاية منه، ويدفع آثاره، ويعين على علاجه قبل أن ينـــزل العقاب العام، وذلك عن طريق الدّعاء والاعتبار، ولكن الدّعاء قد يكون من أجل النجاة من الظلم والظالمين، وقد يكون انتقاما من الظالم وانتصارا منه، وطلبا للقصاص والعدل، فأيهما المقصود؟ وهل يمكن أن يكون كلاهما علاجا للظلم ووقاية منه؟ وكيف يمكن أن يكون مصير الظالمين البائدين سبيلا لعلاج الظلم والوقاية منه؟

هذا ما سنتعرف عليه ضمن هذا المبحث الثالث الذي عالجه بواسطة مطلبين؛ تطرق في الأول إلى الحديث عن أثر الدّعاء، وفي الثاني إلى الاعتبار من مآل الأمم الظالمة المستأصلة.

المطلب الأول: أثر الدعاء في دفع الظلم

إنّ التوجه إلى الله بالدعاء والتضرع إليه وطلب الإعانة والتوفيق منه للنجاة من الظلم والظالمين، سيما في مواطن الإجابة وأوقاتها من أيسر السبل للإقلاع عن الظلم، بل الوقاية منه ومن الظالمين، والنجاة من عواقبه المدمرة.

ولهذا أمر الله ﷻ النبي ﷺ بالتوجه إلى ربه وسؤاله مستعيذا أن يجعله مع القوم الظالمين؛ فقال له تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] والرسول ﷺ في منجاة أن يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب إن قدّر له أن يرى تحقيق ما يوعدون. ولكن هذا الدعاء زيادة في التوقي، وزيادة في الالتجاء إلى الله، وتعليم لمن بعد النبي ﷺ من أمته، وهو قدوتها وأسوتها أن يظلوا أبدا أيقاظا، وأن يلوذوا دائما بحمى الله، وأن يتحصنوا بالله من الظالمين عن طريق الدعاء.[2]

فالدّعاء وسيلة لرفع الظلم، ودفع الضيم والجور، والتخفيف من حدة الألم الذي يسببه ظلم الظالمين؛ لأن الدعاء في الغالب ينفس عن المظلوم، ويهدئ ثورة غضبه حتى لا يثوب إلى السيف والبطش باليد، ويسلمه إلى راحة ولذة برغم شدة وقع الظلم على النفس، ويسكب في قلوب المظلومين الأمن والطمأنينة.[3] فهو توسعة على من لا يملك نفسه عند لحاق الظلم به.[4]

لذلك أذن ﷻ للمظلوم في الدعاء على الظالم، بل والجهر بذلك؛ فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾؛[5] لأن الجهر بالدعاء سبيل للانتصار من الظلم، ورد السوء الواقع على المظلوم، والتشهير بالظلم والظالم في المجتمع، لينتصف المجتمع للمظلوم وليضرب به على يد الظالم. وليخشى الظالم عاقبة ظلمه، فيتردد في تكراره؛[6] لقوله تعالى: تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.[7] هذه السبل التي منها الدعاء.

والدّعاء على الظالم من باب القصاص والانتصار، فيحق للمظلوم الدّعاء على الظالم، ولكن إن كانت المصلحة تقتضي ترك الدّعاء؛ لكونه يؤدي إلى حصول ضرر على الظالم دون منفعة للمظلوم، فالأفضل أن يرجئ ذلك للآخرة؛ ليأخذ حقه أو يعفو مقابل أجر عظيم من الله ﷻ؛ لأنه الأفضل له.

---

[1] المؤمنون: 93-94.
[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2479/18/4.
[3] – عبد الرحمن يعقوب، الظالمون، ص167.
[4] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 7/6/3.
[5] – النساء: 148.
[6] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 796/6/2.
[7] – الشورى: 42.

والدّعاء من سبل الأنبياء والصالحين في اتقاء الظلم، والنجاة من الظالمين. ولقد نقل القرآن الكريم عنهم نماذج لذلك في مواطن كثيرة منها قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [1] وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾؛[2] أي لا تزدهم يا رب على ظلمهم وطغيانهم وعدوانهم إلا ضلالا فوق ضلالهم، وهلاكا وخسارا في الدنيا والآخرة. وذلك بعد أن يئس من إقلاعهم عن الظلم، بإخبار من الله سبحانه وتعالى[3] بقوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[4] فاستجاب الله دعاءه، ونصره على الظالمين؛ بإغراقهم بالطوفان؛ لإصرارهم على الكفر الذي هو أشد وأقبح أنواع الظلم.

والدّعاء هو نفس الوسيلة التي لجأ إليها موسى عليه السلام للنجاة من قومه الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[5] حيث فرّ إلى الله مباشرة، لاجئا إلى حماه، متطلعا إلى حمايته ورعايته، ينشد الأمن عنده، راجيا النجاة من الظلم وأهله. فيستجيب له وينجيه من الظلم والظالمين، فيوصله إلى حيث لا تمتد إليه أيادي الظلم، ويسكب في نفسه الأمن والطمأنينة على لسان ذلك الشيخ: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[6] بل علاوة على ذلك أنعم عليه بالنبوة، فجعله من المرسلين؛ لقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.[7]

واقتفى هذا الأثر على هذا السبيل من آمن من بني إسرائيل بموسى عليه السلام؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.[8] هذا الدعاء الذي يرى بعض المفسرين أن المقصود منه سؤال الله عز وجل ألاّ يجعل المؤمنين سببا لفتن الظالمين، تقديما لمصلحة الدين

---

[1] - نوح: 24.

[2] - نوح: 28.

[3] - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، قصر الكتاب، البليدة، شركة الشهاب، الجزائر، ط5، (1411هـ/1990م)، 455-454/3.

[4] - هود: 36.

[5] - القصص: 21.

[6] - القصص: 25.

[7] - الشعراء: 21.

[8] - يونس: 86-85.

على مصلحتهم. وعلى هذا فالمراد من الدعاء طلب الوقاية من ظلم الظالمين -وهم فرعون وجنوده- وعدم تمكينهم من المؤمنين، ولو لاستدراج الظالمين؛ لأن التمكين لهم يقوي شوكتهم، فيظنوا أن ظهورهم على المؤمنين دليل على أنهم على حق، والمؤمنين على باطل، فيفتتن بذلك عامة الظالمين.[1]

في حين هناك من يرى أن لفظ "الفتنة" يحتمل معنى المفتون علاوة على الفاتن. فتفيد الآية أيضا التضرع إلى الله ألاّ يجعل الظالمين سببا لفتن المؤمنين؛ بتولّيهم عن دينهم وعن اتباع نبيهم فرارا من شدة ظلم الظالمين.[2]

والواقع يثبت أن ضعف المؤمنين، وتسلط الظالمين عليهم، يجعلهم سببا لافتتان الظالمين بهم؛ باعتقادهم أنهم خير من المؤمنين، كما أنه يصير فتنة للمؤمنين، إذ قد يجعلهم يشكون في أنهم على الحق، وأن الظالمين على باطل.[3]

وقد أخبرنا المولى ﷻ -بما دعا به- موسى ﵇ على قومه الظالمين، بعد ما تبيّن له أنه لا خير فيهم؛ لتماديهم وإصرارهم على الظلم بأنواعه المختلفة في أبشع صوره؛ فقال تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾**[4] فاستجاب ﷻ الدعاء، واستأصل الظالمين منعا لاستفحال الظلم ونشر الفساد.

وكما لم يَخِب دعاء جميع هؤلاء المظلومين في نصرتهم على الظالمين، لم يخب تضرع امرأة فرعون التي لجأت إلى الله راجية النجاة من ظلم الظالمين، وفي مقدمتهم فرعون، متجردة من كل المؤثرات، متحدية كل المعوقات التي يعّج بها القصر والمجتمع، فارة من الظلم العقائدي الذي يطاردها، إلى حمى الملك العادل الذي لا يظلم عنده أحد؛ لقوله تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**.[5]

---

[1] - سيد قطب، في ظلال القرآن، 1816/11/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 263/11/5.

[2] - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 288/4؛ محمد رضا، المنار، 470/11.

[3] - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ص351-352.

[4] - يونس: 88-89.

[5] - التحريم: 11.

وخصّت فرعون بالذكر؛ لأن ظلم الحاكم أشد من ظلم غيره، لاسيما إذا كان زوجا. ولم تنسبه إلى رابطة الزوجية القائمة بينهما؛ زيادة في إنكاره، وإنكار ظلمه. دون أن تغفل عن طلب النجاة من ظلم أعوانه، بل حرصت على طلب النجاة من ظلم جميع الظالمين، فعممت بعد التخصيص، وهو غاية المراد في الوقاية من الظلم والظالمين.

وفي هذا "دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين". [1]

ورحل هؤلاء جميعا، وتركوا وراءهم هذه الأدعية، التي لا تزال تلهج بها ألسنة المظلومين وترددها، وتتضرع بها قلوبهم إلى الله طمعا في النجاة من الظلم والظالمين، وأدوية تشفي جراح المكلومين، ومطية للراغبين في الإقلاع عن الظلم والتخلص من عواقبه.

هذا صنيع الدعاء الذي دفع النبي ﷺ إلى تحذير معاذ بن جبل[2] حين بعثه إلى اليمن من الظلم، فقال له: {اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ}.[3] حيث بيّن النبي ﷺ أنّه ينبغي اتقاء دعوة المظلوم عن طريق اتقاء الظلم؛ لأنّ دعوة المظلوم وسيلة مضمونة للانتصار من الظلم، بل هي من أسرع الوسائل وأنجعها. ولم يميّز المولى ﷻ بين المؤمن والكافر؛ لقوله ﷺ: {اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ}.[4]

وقد نصر ﷻ الكثير من الصحابة، حين توجّهوا إليه بخالص الدعاء، مؤمنين بأن ثقتهم في الله لن تخيب، أمثال سعد بن أبي وقاص الذي شكاه أهل الكوفة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، حين كان سعد واليا عليهم، فأرسل عمر ﷺ بعد أن عزله رجلا يسأل عنه أهل الكوفة، فأثنوا عليه، إلى أن دخل مسجدا فقام رجل منهم فقال: {فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ قَالَ سَعْدٌ أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ وَأَطِلْ

---

[1]- النسفي، تفسير النسفي، 704/2.

[2]- هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب الأنصاري الخزرجي. يكنى أبا عبد الرحمن وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. آخى الرسول ﷺ بينه وبين ابن مسعود ﷺ. كان عمره لما أسلم 18 سنة. له 157 حديثا. كان ممن جمعوا القرآن. توفي في طاعون عمواس سنة (18هـ) وقبره ببيسان. [ابن الأثير، أسد الغابة، 376/4-378؛ المزي، تهذيب الكمال، 105/28، برقم (7048)].

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، ص264، برقم (1496)، وكتاب المظالم والغصب، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، ص429، برقم (2448)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، ص40-41، برقم (19)، كلاهما من طريق عبد الله بن عباس؛ وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، 498/1، برقم (1584)؛ والترمذي في سننه، كتاب الزكاة عن رسول الله، باب مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ أَخْذِ خِيَارِ الْمَالِ فِي الصَّدَقَةِ، ص211، برقم (624)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[4]- أخرجه أحمد في المسند، 22/20، برقم (12549)؛ وأبو الفضل، المسند الجامع، 443/3، برقم (1057)، و488/3، برقم (1092).

فَقْرَهُ وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنْ الْكِبَرِ وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ}.[1]

وكذلك نصر بالدعاء سعيد بن زيد[2] على أروى بنت أوس التي خاصمته إلى مروان بن الحكم،[3] وادّعت أنه أخذ شيئا من أرضها، فقال بعد أن قدّم البينة التي برأته: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا قَالَ فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا فَكَانَتْ قَبْرَهَا}.[4]

فتؤكد هاتان الحادثتان، استجابة الله ﷻ لدعوة المظلوم ونصرته من فوق سبع سموات على الظالم.

ولا يمكن بعد هذا الاستهانة بالدعاء وازدرائه؛ إذ تبيّن أن التضرع إلى الله، والاستعانة به وبتوفيقه، من أيسر السبل وأنجعها في اتقاء الظلم والظالمين والتخلص من آثاره المؤلمة. فهو سلاح الضعفاء الذي لا يخيب متى أطلقت سهامه. هذه السهام التي قضت على أعتى ظلمة في التاريخ، ودمرت أقواما بعد ما لجوا في الظلم، وأصّروا عليه، فما أبقت منهم إلا العظة والعبرة. فهل من معتبر مما صنع الدعاء!!

---

[1]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر، ص134، برقم (755)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب السنة في تطويل الأولين وتخفيف الآخرين، 2/94-95، برقم (2483). كلاهما من طريق جابر بن سمرة.

[2]- هو: سعيد بن زيد بن عمرو بن لؤي القرشي العدوي، هو ابن عم عمر بن الخطاب ﷺ وصهره، يكنى أبا الأعور. أسلم قديما قبل عمر بن الخطاب ﷺ وكان من المهاجرين الأولين، آخى الرسول بينه وبين أبي بن كعب. وهو من العشرة المبشرين بالجنة. روى عنه ابن عمر وأبو الطفيل. توفي بالعقيق من نواحي المدينة. [ابن الأثير، أسد الغابة، 2/306-308؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/124-144، برقم (6)].

[3]- هو: مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي. يكنى أبا القاسم وأبا الحكم. من كبار التابعين، روى عن عمر وعثمان وعلي ﷺ وعنه سهل بن سعد وسعيد بن المسيب. كان كاتب ابن عمه عثمان. كان ذا شهامة وشجاعة ومكر. هو معدود فيمن قتله النساء. [ابن الأثير، أسد الغابة، 4/348-349؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 3/476-479، برقم (102)].

[4]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، ص775-776، برقم (1610)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الغصب، باب التشديد في غصب الأراضي وتضمينها بالغصب، 6/162-163، برقم (11533).

المطلب الثاني: الاعتبار من مآل الظالمين

إن النظر في مآل الظالمين، واستحضار مصائرهم، من شأنه أن يزلزل النفوس، ويغيّر التصورات التي تؤدي بدورها إلى تحريك السلوكات؛ فتدفع بذلك الإنسان إلى الابتعاد عن الظلم وتوقيه بل والإقلاع عنه.

وعادة ما تظل هذه العواقب عالقة بالأذهان، تتذكرها النفوس وتسترجعها من حين لآخر من شدة التأثر بها، لاسيما وأنها تأتي في أسلوب قصصي، تعشقه الأذان، وتشتاق إليه النفوس، وتتحرك له العواطف؛ فتعمل على كبح النفوس من الوقوع في الظلم، وإنقاذها من براثنه.

ولهذا تذيّل الآيات، التي تتناول قصص الظالمين غالبا، بدعوة إلى النظر في عواقبهم وآثارهم، التي تنطق بالعظة والعبرة، وتدعو إلى فقه سنن الله في الظلم والظالمين، ولعل الناس يتذكرون فيعقلون ويتعظون، ويتركون الظلم ويحذرون من ارتكابه، كما يتبين ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

فالله ﷻ أنذر قوم النبي ﷺ ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا، بهذه الآية وبغيرها من الآيات المبثوثة في القرآن الكريم، كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذّبه الظالمون المعاندون في كل منهما ظانين أنه لا يقع.[2]

لذلك حملت هذه الآية في عجزها دعوة لكل عاقل للنظر نظرة تدبر وتأمل في عاقبة سائر الأمم التي ظلمت نفسها، بتكذيب رسلها، وهو تأويل وعيدهم لهم، ليعلم مصير الظالمين من بعدهم؛ لأن الأمر بالنظر في عاقبة الظالمين، مقصود منه قياس أمثالهم في التكذيب عليهم في ترقب أن يحل بهم من المصائب مثل ما حلّ بأولئك.[3]

وهذه سنّة الله في خلقه لا تتبدل ولا تتحول، فكما يفرق بين المختلفين؛ فإنه يسوي بين المتماثلين، فيحكم فيهما بأحكام متماثلة، فيسوي بين النظيرين، وإن كان بينهما فارق زمني فيفعل في الثاني الحاضر مثل ما فعل بنظيره الماضي. ولهذا أمر سبحانه بالنظر والاعتبار من عاقبة الظالمين.[4]

1- يونس: 39.

2- محمد رشيد رضا، المنار، 11/320.

3- محمد رشيد رضا، المنار، 11/320؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 5/11/173-174.

4- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 13/19.

هذه العاقبة التي بينها القرآن الكريم بإجمال في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[1] حيث كان الفناء والاستئصال مصير الأمم الظالمة، ونهايتها جميعا، دون استثناء، وإن اختلفت صور الإهلاك، إلاّ أنها كلها تنادي بالاحتراس من الظلم.

ومن عواقب الأمم الظالمة التي لها أثر كبير على النفوس في الإقلاع عن الظلم وتوقيه، عاقبة قوم نوح عليه السلام التي تحدّث عنها القرآن الكريم بالتفصيل، وتركها آية للناس، وعظة وعبرة تردع العقلاء، وتصونهم من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.[2] حيث أغرق الله عز وجل قوم نوح عليه السلام جميعا، ونجّى نوحا ومن آمن معه ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3] وترك قصة إغراقهم عظة وعبرة لمن جاء بعدهم، وتهديدا للظالمين أن يحِل بهم ما حلّ بأسلافهم؛ لأن الله يمهل الظالمين ولا يهملهم.[4]

ويرى بيوض[5] أن الآية تتجلى في نقل أخبار الطوفان، وتطايرها عبر الأجيال! ولو لم تكن إلا هذه لكفت، فالطوفان وغرق الدنيا واستواء سفينة نوح عليه السلام من أعظم الأحداث في العالم، ولا يعقل أن تمر دون أن تدوّن وتنقل من السلف إلى الخلف؛ لأن تسجيل الحوادث من طبع البشر، كما دلت عليها الآثار والحفريات التي تبقى عشرات الآلاف من السنين، ولم يذكر الله تعالى أنها آية إلا وقد قيض لها من يسجلها وينقلها بمختلف الوسائل.[6]

---

[1] - الفرقان: 40.

[2] - الفرقان: 37.

[3] - هود: 40.

[4] - ابن عطية، المحرر الوجيز، 24/12؛ الرازي، التفسير الكبير، 71/24؛ عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 3724/19/10.

[5] - بيوض هو: إبراهيم بن عمر بن بابة الملقب بيوض، عالم إباضي، مفسر، من أكابر علمائهم، يُعد من رجال الإصلاح في وقته، من أهل القرارة بالجزائر مولدا وإقامة، ولد سنة (1315هـ/1899م)، اشتغل بالتعليم الديني مدة طويلة، وشارك في النهضة الإصلاحية التي مهدت لقيام الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، توفي بمسقط رأسه سنة (1401هـ/1981م)، ومن آثاره: تفسير القرآن الكريم، اشتغل به تدريسا زهاء خمسة وأربعين عاما. [عادل نويهض، معجم المفسرين، 1/17-18].

[6] - إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن، تفسير سورتي الفرقان والشعراء، تحرير عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، (د.ط.ت)، 131/7.

ولا تتوقف العظة والعبرة على النظر في عاقبة قوم نوح عليه السلام لأن الإهلاك لا يقتصر عليهم فقط، بل هو سنة الله في الظالمين، ولهذا أعدّ لكل ظالم عذابا أليما في الدنيا والآخرة، سواء كان الظالم من قوم نوح عليه السلام أو من غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فعدل عن الحديث عن قوم نوح عليه السلام إلى تعميم الحكم ليشمل جميع الظالمين، وأطلق لفظ العذاب دون قيد ليتناول العذاب الدنيوي والأخروي معا.

ولا تختلف عاقبة قوم موسى عليه السلام في كونها زاجرة عن الظلم عن عاقبة قوم نوح عليه السلام؛ إذ أغرق هؤلاء أيضا ففعل بهم مثل ما فعل بأسلافهم؛ لاشتراكهم في الظلم جميعا، فتركهم مثلا لمن خلفهم، يحذر من الظلم أشد الحذر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾؛[1] أي فلما أسخطونا وأغضبونا بإفراطهم في المعاصي استوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نمهلهم أكثر مما أمهلناهم.[2] أي قدوة للظالمين بعدهم يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم، لإتيانهم بمثل أفعالهم.[3]

وهو ما يدعو إليه قوله تعالى أيضا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؛[4] أي فانظر أيها "السامع والتالي بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين في الأرض بالظلم، واستعباد البشر، حين جحدوا آيات الله وظلموا بها عملا بمقتضى فسادهم".[5]

وهو من أعجب العجب؛ لأنهم جعلوا سبب الهدى، وهي الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام سببا للظلم؛[6] لأن الكفر بالآيات ظلم حقيقة، إذ الظلم الاعتداء على الحق، فمن كفر كفر بالآيات والدلائل الظاهرة، فقد اعتدى على حق التأمل والنظر.[7]

وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه تعالى من عاقبة أمرهم، المتمثلة في إغراقهم، رغم أنهم أعظم أهل الأرض دولة وقوة، وجعلهم عبرة ظاهرة؛ لترك الظلم والامتناع عنه، وحجة قائمة مدة

---

1 – الزخرف: 55-56.

2 – الزمخشري، الكشاف، 259/4.

3 – الزمخشري، الكشاف، 259/4؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 232/7.

4 – الأعراف: 103.

5 – محمد رشيد رضا، المنار، 35/9.

6 – البقاعي، نظم الدرر، 78/3.

7 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، 36/9/4.

الدهر على القائلين إنما الغلبة للقوة المادية على الحق، ولاسيما المغرورين بعظمة الدول الغربية الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق.[1]

بل إن القرآن الكريم عبّر عن هذا الإغراق في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.[2] فجاء الكلام بصيغة التفخيم الدّال على عظمة الله تعالى وكبرياء سلطانه، متضمنا التشبيه الذي يدل على استحقارهم، واستقلال عددهم، وإن كانوا كثيرين، إذ شبههم بما يطرح كحصيات أخذها آخذ في كفه فطرحهن في البحر.[3]

هكذا في لحظات خاطفة، أخذ شديد ونبذ في اليم، كرمي الحجر، اليم الذي في مثله ألقي موسى عليه السلام رضيعا، فكان مأمنا وملجأ، وهو ذاته الذي ينبذ فيه الظالمون، فإذا هو مهلكة.[4]

إنها عاقبة مشهودة، معروضة للعالمين، وفيها عبرة للمعتبرين، ونذير للمكذبين، فيها يد القدرة تعصف بالظالمين في مثل لمح البصر، وفي أقل من نصف سطر، حين أصبحت القوة فتنة يعجز عن صدها الهداة. وهي المعاني التي يحتاج المظلمون إلى الاطمئنان إليها، والظالمون إلى تدبرها حيثما كان ظلم وطغيان يقف في وجه الهداية والعدالة.[5]

فلننظر في قدرة الله وعظمته وآياته، كيف كان مصير هؤلاء الظالمين، وإن طغى ظلمهم، وأعيى أمرهم، فلن نجد إلا قوما مهلكين. وأمما في المثلات تالفين. قد أوحشت منهم المنازل، وعُدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل. استأصلهم الملك الجبار في طرفة عين كأن لم يكونوا، وغابوا عن الأبصار، كأنهم قط لم يبينوا، وكان نبأهم عبرة لأولي الأبصار، تحذيرا لهم من تعقب آثار الظالمين قولا وعملا. وهذا النظر المأمور به، نظر القلوب الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئا.[6]

فهي دعوة لسائر العقلاء عبر الأزمان والأمكنة؛ لتدبر ما آل إليه أمر الظالمين على اختلاف العصور، ثم قياس أمثالهم في الظلم عليهم، ليوقنوا أن ما أصاب أولئك الظالمين، سيصيب هؤلاء، وأنا كل من عمل مثل أعمالهم سيجازى مثل جزائهم، إن عاجلا أو آجلا، دون محاباة. وأن كل

---

1 - محمد رشيد رضا، المنار، 35/9.

2 - القصص: 40.

3 - الزمخشري، الكشاف، 415/3.

4 - سيد قطب، في ظلال القرآن، 2695/20/5.

5 - نفسه، 2695/20/5-2696.

6 - البقاعي، نظم الدرر، 491/5؛ السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص251.

من سلك سبلهم، وسار على سننهم، فلا بد أن ينتهي إلى ما توصل إليه تلك السنن والسبل من الهلاك؛ لأن الإهلاك لا يقتصر على من تقدم من الظالمين، ولا يختص بهم، بل هي سنة الله في استئصال وأخذ جميع الظالمين.

إذاً فكل من شارك أولئك المتقدمين في ارتكاب ما لا ينبغي مما يصدق عليه وصف "الظلم" فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد.[1]

وهذا ما يقتضي الاعتبار بعاقبة هذه الأمم الظالمة المهلكة، والابتعاد عن أفعالها وأقوالها، اتقاء للهلاك والدّمار في الدّنيا والآخرة.

العاقبة التي تنادي بتحذير الظالمين جميعا في سائر العصور والأزمان، أن يصيبهم ما أصاب أولئك من الاستئصال، وبشارة عظيمة لكل مظلوم صابر مرابط، بالدمار والعقاب الوخيم لكل ظالم.[2]

ولا تتوقف العبرة عند مشهد الإغراق، بل علاوة على ذلك فإن الله وجّه الخطاب إلى فرعون قائلا: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.[3] حيث أخرج الله ﷻ فرعون من البحر بجسده الذي لا روح فيه، وألقاه على نجوة؛ ليكون لبني إسرائيل، ولمن بقي من قومه ممن لم يدركه الغرق، ولم يصلهم خبر هلاكه، وللأمم اللاحقة الظالمة، ليكون لهؤلاء جميعا آية تمنعهم من الاستمرار في الظلم، وعبرة لهم من الطغيان.[4]

وإذا كانت هذه نهاية فرعون وجنده الظالمين التي قصّها الله علينا، وشاهدها بنو إسرائيل، رغم عظم ملكه وكثرة أعوانه وطغيان ظلمه، فما الظن بغيره من الفراعنة الصغار ظلمة الأرض في الوقت الحاضر؟ ألا يكون ذلك عبرة لهم، فلا يجرؤوا على ما اجترأ عليه فرعون، إذا علموا بما آل إليه أمره؟[5]

والعظات والعبر كثيرة، فكم من قرية ظالمة دمرتها القدرة الإلهية في لحظة خاطفة، رغم شدة أركان بيوتها، وإحكام بنيانها، فتركتها خالية من أهلها، موحشة، شاهدة على استئصالهم بسبب ظلمهم، تعظ أصحاب العقول، وأرباب العلم، الذين يفقهون سنن الله في خلقه، كديار

1 – الرازي، التفسير الكبير، 47/18.

2 – البقاعي، نظم الدرر، 491/5.

3 – يونس: 92.

4 – الزمخشري، الكشاف، 367/2-368؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 379/8؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 294/4؛ 294/4؛ صلاح الدين أرقه دان، مختصر تفسير القاسمي: ري الغليل من محاسن التأويل، دار النفائس، (د.ط.ت)، ص219.

5 – عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، ص381.

عاد وثمود ولوط، التي كانت العرب بمكة تمر بها في رحلاتها إلى اليمن والشام وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

والإشارة إلى ديارهم لاستحضار أحوالهم، واستعظامهم بعظم ظلم الذي أدى إلى خراب بيوتهم؛ لأن خراب البيوت وخلوها من أهلها حتى لا يبقى منهم أحد، مما يعاقب به الظلمة، إذ يدل ذلك على استئصالهم، وفي التوراة "ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك" وهو إشارة إلى هلاك الظالم، إذ خراب بيته متعقب هلاكه.[2]

ومن العجائب أن يوجد من الظالمين من يعرف هذه الآثار، ويرى هذه الديار ليل نهار أو يُذكّر بها، ولكنها لا تؤثر فيه شيئا بل يستشري في ظلمه، ويمضي في طغيانه، مغترا بإملاء الله ﷻ، واستدراجه له،[3] كعرب مكة الذين كانوا يمرون بديار لوط، دون نظر ولا اعتبار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4] حيث أثبتت الاكتشافات العلمية ترجيح وجود هذه الديار في مكان بحيرة لوط بجوار البحر الميت.[5] وهي عبرة وعظة لقلوب العرب العرب الذين يرون هذه الآثار صباح مساء، ولا تستيقظ قلوبهم، ولا تسمع لحديث الديار الخاوية، ولا تخشى عاقبة كعاقبتها الحزينة.[6]

وقد ورد أن النبي ﷺ لما سار إلى غزوة تبوك مرّ بقرى ثمود، فانحنى على راحلته واستحثها وقال: {لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لئلَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ}.[7]

---

[1]- النمل 52.

[2]- أبو حيان، البحر المحيط، 82/7؛ البقاعي، نظم الدرر،434/5.

[3]- ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 237/4-238.

[4]- الصافات: 137-138.

[5]- عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 4078/20/10.

[6]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 2998/23/5.

[7]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ص611، برقم (3380)، ورقم (3381)، وفي كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، ص802، برقم (4419)، ص803، برقم (4420)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾، ص867، برقم (4702)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، ص1418، برقم (2980)؛ وأحمد في مسنده، 184/9، برقم (5225)، 322/9، برقم (5441)، 462/9، برقم (5645)، 157/10، برقم (5931)، 343/10، برقم (6211)، من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

ومعناه "أنّ الداخل في دار قوم أهلكوا بخسف أو عذاب، إذا لم يكن باكيا إما شفقة عليهم، وإما خوفا من حلول مثلها به كان قاسي القلب، قليل الخشوع، فلا يأمن إذا كان هكذا أن يصيبه ما أصابهم.

وفيه دليل أن ديار هؤلاء لا تتخذ مسكنا ووطنا؛ لأنه يكون دهره باكيا أبدا، وقد نُهي أن يدخلها إلا هكذا ".[1]

قال ابن حجر: "ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعثه على التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك. والتفكر أيضا في مقابلة أولئك نعمة الله بالكفر، وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارا بأحوالهم، فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم، وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالما فيعذب بظلمه".[2]

فإذا كان المرور على آثار الظالمين، أو رؤية ديارهم كافٍ لذوي العقول في اتقاء الظلم وتركه، فكيف بمن سكن في مساكنهم أو استخلفهم في مناصبهم وأموالهم وأزواجهم؟! ألا يكون ذلك عبرة لهم ومثلا؟! كما قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.[3]

والخطاب في هذه الآية موجّه إلى الظالمين بالشرك، بالتأنيب والتذكير بما فرط منهم في الحياة الدنيا، إذا كانت عقوبات الظالمين الغابرين، من خسف وفناء واستئصال، شاخصة أمامهم، مثلا بارزا ينطق بالعظة والعبرة، وينبئ عن مصيرهم المخزي، وكان عجيبا أن يروا مساكن الظالمين أمامهم خاوية، وهم فيها خلفاء، ومع ذلك يسيرون سيرتهم، ويتبعون آثارهم، ويقسمون ما لهم من زوال، فلم يتعظوا ولم يعتبروا، ولم يكن لهم في ذلك مزدجر.[4]

---

1 – البغوي، شرح السنة، كتاب الرّقاق، باب وعيد الظالم، 368/7، حديث رقم (4061).

2 – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، 632/1، شرح حديث رقم (427).

3 – إبراهيم: 45.

4 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2112/13/4؛ الزحيلي، التفسير المنير، 275/13.

وهذه الأمثال تتجدد في الحياة، وتقع كل حين، فكم من ظلمة يسكنون مساكن الظالمين الذين هلكوا من قبلهم، أو يشاهدون آثارهم بعد إهلاكهم، وربما يكونون قد أهلكوا على أيديهم، ثم يعيثون في الأرض فسادا وظلما، سائرين على خطى الهالكين، فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي تتحدث عن تاريخ الظالمين الهالكين، وتصور مصائرهم للناظرين، ثم يؤخذون أخذة الغابرين، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين.[1]

فما أكثر المواعظ والعبر وأقل الاتعاظ والاعتبار!! فقد تولى بعض الناس مناصب الظالمين، وجلسوا على كراسيهم وشاهدوا آثارهم، وسكنوا ديارهم في بلاد ثمود ونحوها، إلا أنهم لم يعتبروا بعدما تبين لهم ما فعل الله بهم، وبعد أن ضرب الله لهم الأمثال في القرآن للعظة والعبرة.[2]

لقد عطّلوا ما أنعم الله تعالى به عليهم من وسائل النظر والتدبر والإدراك، فاستووا في دلك بالعجموات.

والحاصل أن من أكبر الزواجر والموانع عن الظلم، عدم الغفلة عما ينتظر الظالمين من العقوبات الدنيوية والأخروية؛[3] لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[4] الدّال على أن الغفلة تمنع كثيرا من الناس عن التأمل والتفكر في آيات الله؛ فلا يتعظون ولا يعتبرون، مما يؤدي بهم إلى الاسترسال في الظلم إلى أن يحل بهم العقاب.

فالنظر إذا في عواقب الظالمين، وتدبر مصائرهم الدنيوية والأخروية والدعوة إلى ذلك من أنفع الوسائل في الوقاية من الظلم وعلاجه؛ لأنه يزجر العقلاء عن الظلم ويمنعهم من الوقوع فيه، ويحمل الظالمين على الإقلاع عنه وتركه، لاسيما إذا كانوا ممن يؤمن بالعقوبات الأخروية التي تهون عندها كل العقوبات الدنيوية -التي سبقت الإشارة إلى بعضها- والتي لا تعد في جانبها شيئا، إذا اليقين بالآخرة، وأنها الحياة الأبدية التي يجب الاستعداد لها من أنجع الوسائل التي تبعد المرء عن الظلم بشتى صوره.[5]

والخلاصة أنّ الدعوة إلى النظر الدائم في مصائر الظالمين البائدين من الدول والأفراد، واستحضارها [illegible] والتذكير بعواقبهم الدنيوية والأخروية، والتنبيه إلى عدم نسيانها والغفلة عنها

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، 4/13/2112.

2- الزحيلي، التفسير المنير، 13/280.

3- ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 4/237.

4- يونس: 92.

5- ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 4/236-238.

وذلك من خلال الوسائل التربوية والإعلامية المختلفة، من شأنه أن يقلل من الظلم ويبعث على تركه والتحلي بالحذر الدائم من الوقوع فيه.

المبحث الرابع: التوبة من الظلم وإنكار حصوله

قلّما ينجو النّاس من ارتكاب الظلم على اختلاف أنواعه وصوره؛ ولذا فتح القرآن الكريم الباب أمام الظالمين من جهة؛ ليتطهروا من الظلم ويعالجوا هذا المرض، ويعودوا إلى العدل، وذلك عن طريق التوبة مهما عظم الظلم، وتغلغل في النفس، وطال أمده.

ثم ألقى من جهة أخرى على عاتق الأمة مسؤولية محاربة الظلم في المجتمع عن طريق نصرة الظالم والمظلوم، وإعانتهما للتخلص من الظلم والقضاء عليه قبل استشرائه.

فما هي شروط هذا العلاج الذي وصفه القرآن للتخلص من هذا المرض؟ وهل هناك فرق في التوبة من الظلم العقدي والظلم الاجتماعي؟ وهل يمكن للتوبة وإنكار الظلم القضاء على الظلم نهائيا واستئصاله من جذوره؟

هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال هذا المبحث الذي جاء في مطلبين، تناول الأول: التوبة من الظلم، والثاني: إنكار حصوله.

المطلب الأول: التوبة من الظلم

إنّ الإنسان غير معصوم من الوقوع في الظلم، ولكن الوقوع فيه يستلزم المسارعة إلى التخلص منه؛ لأن الظلم مرض، والمرض ينبغي علاجه فورًا قبل أن ينتشر ويستفحل. فكيف للظالم أن يتخلص من الظلم؟

تحدّث القرآن الكريم عن التطهر من الظلم وعلاجه، بل والوقاية منه ومن استفحاله في مواطن كثيرة، أرشد من خلالها إلى أن التوبة من أهم سبله ووسائله. ومن بين هذه المواطن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[1]

والآية نزلت بعد أن قطع النبي ﷺ يد امرأة سرقت {فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكِ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أُمُّكِ}.[2]

فالسياق الذي وردت فيه هذه الآية يتحدث عن السرقة، وإمكانية التوبة منها، إلاّ أنّ الآية عدلت عن التعبير بلفظ السرقة إلى استخدام لفظ الظلم، وذلك بغرض تعميم الحكم، وبيان أن التوبة من أنجع الوسائل لعلاج جميع أنواع الظلم وصوره المختلفة، بما في ذلك السرقة التي تعد واحدة منها.[3]

و لم تكتف الآية ببيان العلاج، بل رغّبت الظالمين في التطهر من الظلم والتخلص منه، ومن آثاره عن طريق التوبة، وهي "الرجوع إلى الله بعد الإعراض عنه تعالى، والإقبال عليه بعد الإدبار، وكفى بالمعصية إعراضاً وإدباراً بل فرارًا من حظيرة قدسه وساحة رحمته".[4]

هذا العلاج الذي وصفه القرآن الحكيم للظالمين في مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.[5] فالله ﷻ يقبل توبة الظالمين، ولا يغلق أبواب رحمته في وجوههم. وهو العلاج الذي درج عليه النبي ﷺ في حياته، كما يتبين من الحديث الذي رواه أبو هريرة ؓ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: {وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً}.[6] وقوله تعالى أيضا: ﴿وَمَنْ لَمْ

---

[1] – المائدة: 39.

[2] – أخرجه أحمد في مسنده، 237/11، برقم (6657)، من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص ؓ؛ والهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 276/6؛ وأبو الفضل، المسند الجامع، 251/26، برقم (8514).

[3] – البقاعي، نظم الدرر، 454/2.

[4] – الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، 239/5.

[5] – النساء: 64.

[6] – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدّعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، ص1174، برقم (6307)؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، من سورة محمد، ص904، برقم (3272)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ والنسائي، السنن الكبرى، 114/6، برقم (10269)؛ وابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب الاستغفار، 1254/2، برقم (3816)؛ وأحمد في مسنده، 191/14، برقم (8493)، من طريق أبي هريرة ؓ.

﴿لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[1] حيث ترشد هذه النصوص إلى أن التوبة والاستغفار علاج كفيل باستئصال مرض الظلم من النفوس، والرجوع بها إلى أتم ما كانت عليه قبل الوقوع فيه، سواء بمنطوق النص أو بالمفهوم المخالف للآية الأخيرة التي أخرجت التائبين من دائرة الظلم. وهو ما جاء صريحا في رد النبي ﷺ على المرأة التي قطع يدها بعد أن سرقت كما مرّ في سبب النــزول.

وإذا كانت التوبة تخلية للنفوس، وتطهير لها من الظلم، فإن النفوس تبقى في حاجة إلى التحلية؛ لأنه لا يكفي أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد، بل عليه أن يسعى للعمل الصالح، وعلى النفس البشرية أن تتحرك؛ لأنها إذا كفّت عن الظلم ولم تتحرك للخير والصلاح بقي فيها خواء وفراغ، قد يرتد بها إلى الظلم. فأما حين تتحرك إلى الخير والصلاح؛ فإنها تأمن الارتداد والرجوع إلى الظلم؛[2] لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾[3] وقوله : ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.[4]

ويظل باب التوبة مفتوحا أمام الظالمين، لا يغلق في وجوههم، وإن طغى ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [5] وقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.[6] فسماحة هذا الدّين لا تطرد التائبين من أهل الظلم من رحمة الله؛ لأن الله ﷻ يدرك ضعف البشر الذي يدفعهم تحت وطأة الشهوات والأطماع وغيرها إلى اجتراح الظلم، لذلك يأخذ بأيديهم ويرشدهم إلى العلاج ويشجعهم عليه، كما أنه يعلم أن فيهم بجانب الضعف قوة، وبجانب النــزوات أشواقا ربانية، لذلك يعطف عليهم في لحظة الضعف، لينقذهم من ظلمات الظلم إلى نور العدل، ما داموا يذكرون الله ويستغفرونه، ولا يصّرون على الظلم، وهم يعلمون أنه ظلم؛[7] لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

---

[1] – الحجرات: 11.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 886/6/2.

[3] – المائدة: 39.

[4] – النحل: 119.

[5] – المائدة: 39.

[6] – الزمر: 53.

[7] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 477-476/4/1.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.[1]

أما الإعراض عن التوبة، والإصرار على الظلم، وإن كان صغيرا، فقد يفضي بصاحبه إلى المهالك؛ لأنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع التوبة.

وما دامت التوبة علاجا يطهر القلوب، ويشفي النفوس من داء الظلم، فينبغي ألا ييأس الظالمون من رحمة الله، وإن طال زمن الظلم، واستشرى أثره في النفس، وتأخر اللجوء إلى العلاج؛ لأن هذا العلاج ليس له وقت محدد، فالله ﷻ يقبل التوبة في أي وقت وقعت، وهذا ما يشير إليه إثبات الجار[2] في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾[3] وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[5]

فالتوبة تطهّر الظالم من ظلمه، وتدرأ عنه العذاب الأخروي دون العقاب الدنيوي، إن كان الظلم اجتماعيا أي يتعلق بحقوق الخلق، إلا بردّها لأهلها في الحياة الدنيا، وذلك رحمة من الله ورفقا بالظالم والمظلوم، وعدلاً بينهما دون أن يمنع الفعّال لما يريد عن ذلك شيء.[6] أمّا إذا كان الظلم عقديا أي يتعلق بحقوق الخلق؛ فالتوبة تدرأ عن الظالم العقاب الدنيوي والأخروي معا.

ومع ذلك فعلى الظالمين المبادرة إلى التوبة والذّكر والاستغفار من الظلم فورا؛ لأنه مرض، والمرض إذا تأخر علاجه استفحل واستعصى. فكلما كانت التوبة من الظلم أسرع، كلما كان أثره في النفس أضعف، والإقلاع عنه أيسر، ورجاء قبول التوبة أقرب، كما يبدو من توبة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

[1] – آل عمران: 135-136.
[2] – البقاعي، نظم الدّرر، 454/2.
[3] – المائدة: 39.
[4] – النحل: 118-119.
[5] – الأعراف: 153.
[6] – البقاعي، نظم الدّرر، 454/2.

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] الذي يدل على مبادرة يونس عليه السلام إلى التوبة من الظلم الذي وقع فيه، فكانت سببا في نجاته من الظلمات، واستجابة الله عز وجل لدعائه.

ورغم أن المولى سبحانه وتعالى لا يغلق أبواب الرحمة والتسامح في وجوه الظالمين؛ وإن طال أمد الظلم، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا العودة إليه متطهرين تائبين، بل يفسح لهم الطريق، ويشجعهم على سلوكه، ويبلغ التشجيع أن يجعل الله عز وجل قبول توبتهم حقا عليه سبحانه، يكتبها على نفسه فضلا منه لا زيادة وراءه لمستزيد بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.[2]

ومع ذلك فإنّه يحذر من التسويف والتأخير، فيبين حقيقة التوبة التي تعد فعلا علاجا للظلم، وهي التي تصدر من النفس، وتنم عن يقظة في الضمير، ونشأة جديدة لنفس هزها الندم من الأعماق، ورجها رجاً شديدا فتابت إلى الله. وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل. واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، والانخلاع من الظلم، ونية صادقة في سلوك طريق جديد، هو طريق العمل الصالح قبل أن تبلغ الرّوح الحلقوم، وتقف على عتبات الموت، وتلج في سكراته. فهي فرصة يمنحها الله العليم بضعف عباده الظالمين لعلاج أنفسهم والتطّهر من ظلمهم، والفرار منه إلى رحمة الله قبل أن تغلق أبواب التوبة في لحظات الصراع مع الموت؛ لأن التوبة حينئذ هي توبة المضطر الذي لا يملك متسعا لاقتراف الظلم، ولا فسحة للإقلاع عنه، ولا حظ لها في إصلاح القلب والحياة، فقد قطع الظالم كل ما بينه وبين التوبة من وشيجة.[3]

وتستوي جميع أنواع الظلم وصوره، في اقتضائها المسارعة إلى علاجها والتخلص منها بالتوبة، وإن كانت التوبة من الظلم العقدي، يشترط فيها الإقلاع فورا عن الظلم، والندم على الوقوع فيه، والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل أبداً. أما التوبة من الظلم الاجتماعي الواقع على الناس، فيشترط فيها علاوة على تلك الشروط، رد الحقوق والمظالم إلى أصحابها، أو طلب

1- الأنبياء: 87-88.

2- النساء: 17-18.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/4/603-604.

عفوهم عنها والإبراء منها.[1] تبعا لاختلاف صوره، كما سيتبين مما يلي وإن كان تفصيل ذلك موضعه كتب الفقه.

الفرع الأول: التوبة من ظلم الناس في دمائهم

وظلم الدّماء أعظمه القتل، ومع ذلك فإنه يمكن علاج هذا الظلم والتطهر منه بالتوبة، وإن كانت شاقة على الظالم؛ لأنها تتعلق بحقوق الآدميين، والإجماع منعقد على أن التوبة منها لا تصح. والذمة لا تبرأ إلا برد هذه الحقوق لأصحابها. ورد الحق في قتل النفس ظلما يكون بتسليم القاتل الظالم نفسه لأهل المظلوم بالقتل، وتخييرهم بين قتله أو العفو عنه أو أخذ الدية؛[2] لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾.[3]

أما التوبة مما هو دون القتل كالجروح، وإتلاف بعض الأعضاء، والضرب والتعذيب، فأيسر على الظالم؛ لإمكانية القصاص منه أو العفو عنه ومسامحته.[4] فإذا وضع نفسه بين يدي المظلوم ووليه، فقد تاب توبة نصوحا يتلقاها الله ﷻ بالقبول كرما منه ورحمة.

فإن أصّر الظالم على الظلم والإعراض عن التوبة، متحصنا بسلطان أو مال أو غيرهما، فإن القصاص أمامه يوم القيامة؛ لقوله تعالى تهديدا للظالمين، وتسلية للمظلومين:[5] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.[6] ولما ورد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: {وَأَمَا الظُّلْمُ الذِّي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمَ العِبَادِ فَيَقْتَصُ اللهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ}[7] حيث أخبر النبي ﷺ أن هذا النوع من الظلم لا يغفره الله، بل القصاص بين الظالم والمظلوم يوم القيامة.

---

[1] – محمد علي السايس، تفسير آيات الأحكام، خرج أحاديثه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1418هـ-1998م)، 195/2/1؛ الحكمي، الظلم وأثره على الفرد والمجتمع، ص197.

[2] – الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، 253/5-254.

[3] – الإسراء: 33.

[4] – ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 192/4.

[5] – نفسه، 195/4.

[6] – إبراهيم: 42.

[7] – أخرجه أحمد في المسند، 155/43-156، برقم (26031)، من طريق عائشة –رضي الله عنها–، بلفظ: {لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ}؛ عبد الرزاق في مصنفه، 183/11، برقم (20276)؛ أبو نعيم الأصبهاني، الحلية، 309/6، واللفظ له؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، 426/4، برقم (1927).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: {لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ}.[1]

فإذا اقتص للبهائم بعضها من بعض، وهي لا تعقل وغير مكلفة فما الحال في الآدميين وهم مكلفون ومؤاخذون بأعمالهم؟[2]

قال النووي: "القصاص من القرناء للجلحاء ليس هو من قصاص التكليف؛ إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة، والجلحاء هي الجمَّاء التي لا قرن لها".[3]

وكذلك إن تعذر القصاص والتحلل من حقوق المظلومين، فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للظالم القاتل أعمال صالحة تنقل إلى المظلوم كلها أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوّض الله المظلوم عن ظلامته بما شاء من فضله حتى يرضى عن الظالم.[4]

الفرع الثاني: التوبة من ظلم الناس في أموالهم

انعقد الإجماع على أن التوبة من ظلم الناس في أموالهم، لا تصح إلا برد الأموال إلى أصحابها المظلومين في الحياة الدنيا، ولا فرق في ذلك بين ما أخذ عن طريق السرقة والغصب والاختلاس واليمين الكاذبة والخيانة والغش والخداع والغلول والرشوة، وسائر صور الظلم المالية. هذا علاوة على الاعتراف بالظلم والندم عليه، والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة إليه أبدا. فإن تعذّر على الظالم رد المظالم إلى المظلومين لسبب خارج عن إرادته كجهله بهم أو موتهم وانقراضهم أو تغيير إقامتهم أو نحو ذلك، لم يبق أمامه إلا المطالبة يوم القيامة. لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للظالم أعمال صالحة تنقل إلى المظلوم كلها أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المظلوم بما شاء من فضله حتى يرضى عن الظالم.[5]

والقصاص بالحسنات والسيئات يوم القيامة لا بالدرهم والدينار، كما أخبرنا بدلك رسول الله ﷺ في قوله: {يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ الْعِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا قَالَ:

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص1246، برقم (2582)؛ والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، ص692، برقم (2425)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأحمد في مسنده، 43/14، برقم (8288)، 193/15، برقم (9333)، من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

2- بازمول، الظلم وعلاجه، ص29.

3- محيي الدين النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، 205/16.

4- الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، 253/5.

5- نفسه.

لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ. قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}.[1]

ولما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في حقيقة المفلس: {إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ}.[2] فبيّن النبي ﷺ أنّ القصاص بين الظالم والمظلوم يوم القيامة بالحسنات والسيئات، وذكر نماذج لذلك وهي: ظلم الأموال، والدّماء، وظلم الأنفس بالضرب.

فهذا يدعو الظالمين لحقوق الناس المالية إلى الإكثار من الحسنات في الحياة الدنيا؛ ليتسنى لهم الوفاء بها، والتخلص منها يوم القيامة.[3]

ولكن اختلف في حكم أموال المظلومين التي بأيدي الظالمين في الحياة الدنيا، بين القول بوقف التصرف فيها، ودفعها إلى الإمام لحفظها لأهلها كالأموال الضائعة أو التصدق بها على أصحابها؛ فيكون لهم الخيار يوم القيامة بين إجازتها ونيل الأجر عليها أو عدم إجازتها، فيأخذوا من حسنات الظالم بقدر أموالهم ثم يعود ثواب تلك الصدقة إليه.[4]

الفرع الثالث: التوبة من ظلم الناس في أعراضهم

إن التوبة من ظلم الناس في أعراضهم تختلف باختلاف صوره؛ لأن ظلم الأعراض قد يكون بالأقوال كالقذف والسخرية واللمز والتنابز والغيبة ونحوها، وقد يكون من مظالم الأفعال كالزنا واللواط، ولهذا تختلف في كيفية التوبة منها.

فإن كان ظلم الأعراض بالقذف، فإن التخلص منه يكون بالتوبة والإصلاح، وذلك عند المالكية والشافعية والحنابلة؛ بإكذاب الظالم نفسه في قذفه، وإصلاح ذات البين التي أفسدها بينه وبين المظلوم عن

---

[1] – أخرجه أحمد في المسند، 25/431-432، برقم (16042)، من طريق عبد الله بن أنيس؛ والبخاري، الأدب المفرد، باب المعانقة، يحشر الله العباد عراة غرلا بهما، ص337، برقم (970).

[2] – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص1245-1246، برقم (2581)؛ وأحمد في مسنده، 15/399، برقم (8029)، 14/437، برقم (8842)، من طريق أبي هريرة ﷺ؛ الألباني، السلسلة الصحيحة، 2/346، برقم (847).

[3] – ابن قيم، مدارج السالكين، 1/429-430.

[4] – [illegible]

طريق استسماحه؛[1] لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.[2]

ومقصود التوبة هنا انتفاء العار الذي ألحقه الظالم بالمظلوم؛ لأن هذه الصورة من الظلم، فيها حقان، حق لله، وهو تحريم القذف، فتوبته منه باستغفاره، واعترافه بالظلم وندمه عليه، والعزم على عدم العودة إليه أبدا. وحق للعبد وهو إلحاق العار به، فتوبته منه، بتكذيب نفسه، فالتوبة من هذا الظلم بمجموع الأمرين.[3]

أما إن كان ظلم الأعراض بالسخرية واللّمز والتنابز والغيبة ونحوها، فإن كيفية التوبة منها محل خلاف بين العلماء.[4] إذ منهم من يرى أنها لا تصح إلا بالاستحلال من المظلمة؛ لقول ﷺ: {مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ}.[5]

في حين يرى البعض الآخر أنها مظلمة، وكفارتها الاستغفار للمظلوم. بينما هناك من أنكر الاستحلال بدعوى أنها ليست مظلمة، لأنّ المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن، وإنما هي خطيئة بين الظالم وخالقه؛ بدليل أن الظالم لم يأخذ من مال المظلوم، ولا أصاب من بدنه ما ينقصه.

وقال سعيد بن المُسيب[6] بترك التحليل لمن سأله؛ لأنه تحليل لما حرّم الله، وقد انتصر القرطبي القرطبي للقول بالتحليل متمسكا بالحديث الدال على ذلك، لما في التحليل من الرّحمة، ولكونه

---

[1] - الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، 243/5.

[2] - النور: 4-5.

[3] - ابن قيم، مدارج السالكين، 324/1-326.

[4] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 337/16-339.

[5] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبيّنُ مَظْلَمَتَهُ، ص429، برقم (2449)، وكتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، ص1212، برقم (6534)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الصلح، باب ما جاء في التحلل وما يحتج به من أجاز الصلح على الإنكار، 108/6، برقم (11358)؛ والطيالسي في مسنده، 82/4-83، برقم (2440).

[6] - هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي، مدني تابعي ثقة، أحد الفقهاء السبعة وسيد التابعين في عصره. كان تاجرا لا يأخذ العطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر حتى سمي راوية عمر. [العجلي، معرفة الثقات، 405/1، برقم (616)؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 163/1، برقم (102/3)].

وجها من وجوه العفو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.[1] وردّ القول بالاستغفار للمظلوم، لوقوعه في التناقض؛ لأن إطلاق اسم المظلمة يثبت الظلامة للمظلوم، وثبوتها يمنع زوالها عن الظالم إلا بإحلال المظلوم له. كما رد القول بإنكار كونها مظلمة بالقرآن والسُّنة والإجماع العلماء على أن للقاذف مظلمة يأخذه بالحد حتى يقيمه عليه رغم أنه ليس في البدن ولا في المال. وهذا دليل على وقوع الظلم في العرض والبدن والمال.

أما إن تعذّر الاستحلال من المظلمة إما لموت المظلوم أو غيابه أو خوف إثارة الضغائن والأحقاد الناجمة عن إعلامهم، فقد نقل النووي عن العلماء القول بإكثار الاستغفار والدّعاء والحسنات ليوم لا يكون الوفاء إلا بها. مع استحباب تبرئة المظلوم للظالم؛ ليفوز بثواب الله ومحبته؛[2] لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.[3]

وإن كانت مظالم الأعراض تفتح باب الفواحش، وتزيين الشهوات، وإطلاقها من عُقالها، وتمجد الابتذال الجسدي والعاطفي والتعبيري، والدعوة إلى ذلك باسم الفن أحيانا، وباسم الحرية الشخصية التي لا يقف في وجهها إلا متعنت، ولا يأباها إلا متزمت أحيانا، وباسم التحضر أحيانا أخرى، سواء كان الإسهام في ظلم أعراض الناس بإنشاء قناة إعلامية أو نشر كتاب أو بصورة أو فيلم أو بكلمة، أو غير ذلك من الوسائل التي تحطّم الحواجز الأخلاقية، وتفسد الضوابط الفطرية والأسرية والاجتماعية، وتدفع بالبشرية إلى ظلمات الظلم، فإن التوبة من هذه المظالم تقتضي علاوة على إعلان الاعتراف بكونها ظلما، والندم عليه، والمبادرة إلى الإقلاع عنه والعزم على عدم العودة إليه، التبرؤ من هذه الأقوال والأفعال أمام الناس، وبيان أنها ظلم وباطل، وبذل الجهد في إصلاح ما تم إفساده.[4]

ومن الإصلاح أن يدعو الظلم إلى العدل، والشرك إلى الإيمان، والشر إلى الخير؛[5] لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[6] ولقوله ﷺ: {وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا}[1]

[1] – الشورى: 40.
[2] – النووي، الأذكار، ص297.
[3] – الشورى: 43.
[4] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 602/4-603؛ ابن ناصر الجليل، وقفات تربوية، 197/4-198.
[5] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2630/19/5/2.
[6] – النمل: 11.

فالإنسان إن وقع في الظلم، ثم بدل حسنا بعد سوء، أمِن مما يخاف من عقاب الذنوب؛ لأنه تدارك ظلمه بالتوبة، وإن ظلم و لم يتب يَخَف عقاب الذنب، فإن لم يظلم فلا خوف عليه.[2]

وهذا ما يؤيده أيضا قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3] أي أن الله ﷻ يرجع ويعود بالرحمة والرأفة على الذين تابوا عن الظلم، وأصلحوا عملهم وبينوا إصلاحهم، وجاهروا بعملهم الصالح وأظهروه للناس؛ ليكونوا حجة على الظالمين، وقدوة لضعفاء التائبين.[4]

قال محمد رشيد رضا: "وهذا من ألطف أنواع التأديب الإلهي، فإنه لم يذكر أنه يقبل توبتهم كما هو الواقع، بل أسند إلى ذاته العلية فعل التوبة الذي أسنده إليهم، وزاد على ذلك من تأنيسهم وترغيبهم أن قال: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يصف نفسه بكثرة الرجوع والتوبة، للإيذان بالتكرار، كلما أذنب العبد وتاب حتى لا ييأس من رحمة ربه، إذا هو عاد إلى ذنبه، فأي ترغيب في ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيرًا منه لمن يشعره ويعقل؟".[5]

وأما التوبة من ظلم أعراض الناس بالأفعال كالزنا واللواط اللذين يعدان فواحش كما سماهما القرآن، فقد اتفق العلماء،[6] بما في ذلك الأئمة الأربعة على أن التوبة من الزنا تتحقق بإقامة الحدود، التي تعد كفارات للذنوب، فتطهر نفوس الظالمين من الظلم، وتصون المجتمع من عدواه، وتدرأ عن الظالمين العقاب الأخروي؛ لأن الله لا يجمع على عبده عقابين على صورة واحدة من صور الظلم؛ لقوله ﷺ في توبة المرأة الغامدية من الزنا بعد أن أقيم عليها الحد: {لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى}.[7]

---

[1]– أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاشرة الناس، ص582، برقم (1992)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"؛ وأحمد في مسنده، 284/35، برقم (21354)، 318/35-319، برقم (21403) من طريق أبي ذر الغفاري ﷺ؛ الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، باب وأما حديث سمرة بن جندب، 110/1، برقم (178)؛ ابن أبي شيبة، المصنف، 89/6، برقم (19).

[2]– الزمخشري، الكشاف، 351/3؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، 231/19/8.

[3]– البقرة : 160.

[4]– محمد رشيد رضا، المنار، 50/2.

[5]– نفسه.

[6]– الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، 132/5-133.

[7]– أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، ص833-834، برقم (1295)؛ والنسائي، السنن الكبرى، 636/1، برقم (2084).

بينما اختلفوا في التوبة من ظلم الأعراض باللّواط، فذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى أنها لا تصح إلا بعقابه عقوبة الزاني، وهي الإعدام إن كان محصنا، وجلد الموطوء كالبكر، لأنه لا يتصور فيه إحصان، وذهب أبو حنيفة إلى القول بالتعزير، وأرجع أمره إلى ما يراه القاضي رادعاً له عن الظلم من حبس أو جلد، ولا يُعدم إلا إذا تكرر منه ذلك ولم يرتدع. ورجّح صاحب كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة الرجم مطلقا بكرا أو ثيبا اقتداءً بصنيع الله ﷻ في قوم لوط؛[1] لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[3]

وبما أن التوبة والإصلاح تطهير للنفوس من الظلم على اختلاف أنواعه وصوره، وتعديل أساسي في الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك، فإنه ينبغي على المجتمع معاملة التائبين من أهل الظلم بالتسامح والرّحمة، وقبولهم دون تذكيرهم وتعييرهم بما فرط منهم، من ظلم تابوا منه وتطهروا منه، وأصلحوا بعده، ومساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة، ونسيان ظلمهم حتى لا يثير في نفوسهم التأذي كلما واجهوا المجتمع، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس في الظلم، وخسارة أنفسهم، والنقمة على المجتمع.[4]

هذه المعاملة التي يرغب فيها القرآن في مواطن كثيرة، وذلك من خلال توجيه النفوس إلى الاسترشاد، والتحلي بالأخلاق التي أحبّها الله سبحانه، وجعلها من صفاته، كالتسامح والغفران والرحمة ونحوها. كما يتبين ذلك من خلال ما ذُيلت به الآيات القرآنية التي تُرّغب الظالمين في التوبة إلى الله كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[5] وقوله: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[6]

فالله ﷻ تواب رحيم يقبل توبة الظالمين، ويرحم التائبين، ويغفـــر لهم، ويدخلهم علاوة



1 – الجزيري ، الفقه على المذاهب الأربعة، 139/5-143.

2 – الذاريات: 33.

3 – العنكبوت: 31.

4 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 600/4/1.

5 – النساء: 16.

6 – المائدة: 39.

على ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1] مما يدل على أن التوبة تطّهر الظالمين تماما من الظلم، فهي علاج يجعل الإنسان وكأنه يولد من جديد؛ لينشأ نشأة جديدة، ويعيش حياة طاهرة.

ويمكن الوصول بالظالمين إلى مدارج التوبة ودفعهم إلى الإقلاع عن الظلم، واللجوء إلى هذا العلاج، وذلك من خلال تربية ملَكة الخوف والخشية الدّائمة من الله ﷻ لدى الفرد والمجتمع، والتربية على استشعار الرقابة الإلهية الدائمة في السّر والعلن، وذلك بنشر التوعية عن طريق المساجد ووسائل الإعلام المختلفة.



1 آل عمران: 136

المطلب الثاني: إنكار الظلم

قال تعالى:

1- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[1]

2- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.[2]

3- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.[3]

4- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.[4]

5- ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.[5]



[1] - الأنفال: 25.

[2] - هود: 116-117.

[3] - الأعراف: 163-165.

[4] - المائدة: 78-79.

[5] - المائدة: 62-63.

6- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.[1]

أرشد القرآن الكريم إلى أنّ النّهي عن الظلم وإنكاره على الظالمين، من أفضل الوسائل لمكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله، ووقاية الدول والمجتمعات من آثار انتشاره وعواقب استشرائه، هذه الآثار والعواقب التي لا تختص بالظالمين، ولا تقتصر عليهم، بل تتعداهم إلى غيرهم، لتعم وتشمل الناس جميعا، بما في ذلك أهل الصلاح؛ لأنّ الصلاح وحده لا يكفي في اتقاء عواقب الظلم، بل لابد من الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[2]

واختلف في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقوال:[3]

أحدها: أنها نزلت في أصحاب النبي ﷺ خاصة، عن مُطَرِّفٍ[4] قال: {قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ رضي الله عنه[5] عَنْهُ يَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكُمْ ضَيَّعْتُمْ الْخَلِيفَةَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ قَالَ الزُّبَيْرُ رضي الله عنه إِنَّا قَرَأْنَاهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رضي الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ}.[6]

والثاني: أنها نزلت في رجلين من قريش.

والثالث: أنّها عامة، قال ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية: {أَمَرَ اللهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ لاَ يُقِرُّوا المُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَيَعُمَّهُمْ اللهُ بِالعَذَابِ}.[7]

---

[1]- المائدة: 105.

[2]- الأنفال: 25.

[3]- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 341/3.

[4]- هو: مُطَرِّف بن طريف، أبو بكر، الإمام، المحدث، القدوة. حدّث عن الشعبي وعطاء بن نافع وغيرهما، وحدث عنه سفيان الثوري وأبو عوانة وغيرهما. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 127/6-128، برقم (39)].

[5]- هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، ويكنى بأبي عبد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ابن عمة النبي ﷺ وابن أخ أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها-. ولد عام (28 ق.هـ). أسلم وهو صغير، كان رابعا أو خامسا في الإسلام، أول من سل سيفا في الإسلام، شهد بدرا وأحدا وغيرهما، جعله عمر رضي الله عنه في الستة أصحاب الشورى، قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل. [ابن الأثير، أسد الغابة، 196/2-198؛ الزركلي، ترتيب الأعلام، 122/1، برقم (43/3)].

[6]- أخرجه أحمد في مسنده، [illegible]، برقم (1414).

[7]- أخرجه ابن الجوزي، [illegible] المسير في علم التفسير، 341/3؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 38/4.

والرابع: أنها: {نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ خَاصَة، فَأَصَابَتْهُم يَوْمَ الجَمَل}.[1]

والظاهر أن الآية لا تختص بحوادث معينة كموقعة الجمل وصفين بل عامة تبين سنة من سنن الله، وهي أن الفتنة التي تعد أثرا من آثار الظلم إذا نزلت فإنّها لا تختص بالظالمين بل تشمل الجميع بما في ذلك أهل الصلاح لتركهم النهي عن الظلم و إنكار المنكر.

واختلف في معنى الفتنة، فذكر الزمخشري أنَّ المراد بها إمّا الذنب أو إقرار المنكر أو افتراق الكلمة أو العذاب.[2]

بينما نقل ابن العربي فِي معنى الْفِتْنَةِ ثلاثةَ أقوالٍ:

الْأَوَّلُ: أنها المَنَاكِير.

الثَّانِي: أَنَّهَا فِتْنَةُ الأموالِ وَالأولادِ.

الثَّالِثُ: أَنَّها البلاءُ الَّذِي يُبتلى به المرءُ.

واختار أَنَّها فِتْنَةُ الْمَنَاكِيرِ بالسُّكوتِ عليها أو التَّرَاضِي بها؛ بدليل أنه داء مُهلك، وقد أهلك الأمم السَّالفة، مستشهدا بنصوص من القرآن والسنة والآثار. وردّ القول بأنها فِتنة الرَّجلِ فِي أهله؛ لأَنَّها لا تتعدَّاهُ ولا تأخُذُ بالعقوبةِ سِواهُ.[3]

ويستشف مما جاء في المنار أنّ الفتن عبارة عن الذنوب والمعاصي التي ينجر عنها العقاب الدنيوي قبل الأخروي، وضرب نماذج لذلك بالفتن القومية، والملّية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنازع على مصالحها العامة من الملك والسيادة، أو التفرق والانقسام إلى الأحزاب الدينية والسياسية، ونحو ذلك من ظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهر الناس، والمداهنة في الأمر بالمعروف.[4]

وذهب ابن عاشور إلى أنّه قد يراد بالفتنة العقاب من الله تعالى في الدنيا، ومن سنة هذا العقاب أن لا يخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس الفساد. وحاصل معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس.[5]

والآية تحذر من التراخي في النهي عن الظلم ومقاومته في أية صورة كان للوقاية من آثاره، وتبيّن أن الأمة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره، ولا تقف في وجه الظالمين؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين أمة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين. فالإسلام لا يسمح أن يقعد

1- أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف، 716/8، برقم (49)؛ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، 1682/5، برقم (8963).

2- الزمخشري، الكشاف، 211/2.

3- ابن العربي، أحكام القرآن، 846/2.

4- محمد رشيد رضا، المنار، 532/9؛ المراغي، تفسير المراغي، 9/188-189.

5- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/9/4.

القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع وهم ساكتون. ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنّهم هم في ذاتهم صالحون طيبون!". [1]

فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام إذا رأوا دبيب الظلم في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالنّاس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا الظالمين عن ذلك الظلم حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الظلم أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلالُ يفسد على الصالحين صلاحَهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلّت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم. [2]

وهو ما يبيِّنه المثل الذي ساقه النبي ﷺ في قوله: {مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا}. [3]

وفي هذا المثل"المضروب أنَّ الذين أرادُوا خَرق السَّفينة بمنـــزلةِ الواقع في حدود الله، ثُمَّ مَن عداهُم إمَّا مُنْكِر وهو القائم، وإمَّا ساكت وهو الْمُدْهِن...وهكذَا إقامة الحدود يحصل بها النَّجاة لمن أقامها وأُقِيمت عليه، وإلَّا هلك العَاصي بالمَعصيةِ وَالسَّاكِت بالرِّضَا بها". [4]

فقد شبّه النبي ﷺ المجتمع بسفينة تمخر عباب الحياة، ولا يكتب لها السلامة، إلا إذا كانوا حذيرين يأخذون على أيدي العابثين، أما ّإذا سكتوا عن فسادهم، فمآل السفينة الاستقرار في الأعماق، وذلك هو العذاب العام الذي توعد الله ﷻ به الأمة التي لا تأخذ على أيدي الظالمين. [5]

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1496/9/3.

[2]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/9/4.

[3]– البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة، ص438، برقم (2493) بنفس اللفظ، وفي كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، ص475-476، برقم (2686)؛ والترمذي في كتاب الفتن عن رسول الله، باب منه، ص44، برقم (2173)، بلفظ آخر وقال:"هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"؛ وأحمد في مسنده، 310/30، برقم (18361)، من طريق النعمان بن بشير بلفظ: {مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمُدَّهِنِ فِيهَا}، وفي 322/30، برقم (18370)، بلفظ {مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا أَوْ الْمُدَّهِنِ فِيهَا}، وفي 329/30، برقم (18379)، بلفظ {مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَالرَّاتِعِ فِيهَا وَالْمُدَّهِنِ فِيهَا}؛ والحميدي في مسنده، 164/2-165، برقم (946).

[4]– ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، 348/5، شرح حديث رقم (2605).

[5]– حسين شرفه، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، إشراف أحمد رحماني، رسالة دكتوراه، قسم أصول الدّين، الدّين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر-باتنة- الجزائر، (1424هـ-1425هـ/2003-2004)، ص568.

فدلّ المثل على أنَّ الأخذ على يد الظالم، وزجره عن الظلم، ومنعه من الاستمرار فيه وسيلة لوقاية الجميع، بما في ذلك الظالم والمظلوم ومن لم يظلم، وحمايتهم من آثار الظلم ونجاتهم من عواقبه الوخيمة، وأن السكوت عن الظلم وترك الظالم يتمادى في ظلمه، ويعربد في الآخرين حتى يتفشى الظلم ويكثر في المجتمع يفضي إلى نزول آثاره بهم جميعا، واستحقاقهم للعقاب العام دون تمييز بين الصالح والطالح. فعن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: {إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللَّهُ ﷻ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ صَالِحُونَ قَالَ بَلَى قَالَتْ فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ قَالَ يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ}.[1] وكذلك ما روي عَنْ زَيْنَب بِنْت جَحْشٍ أنّها قالت: {قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ}[2] والْخَبَثُ بفتح الخاء والباء: "فسَّره الجمهور بالفُسُوق والفُجور، وقيل: المراد الزِّنا خاصَّة، وقيل: أولاد الزِّنا، والظَّاهر أنَّه المعاصي مطلقا...ومعنى الحديث أنَّ الخَبَث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العامّ، وإن كان هناك صالحون".[3]

قال ابن العربي: "فيه البيان بأنَّ الخَيِّر يهلِك بهلاك الشِّرِّير إذا لم يُغَيِّر عليه خُبثه، وَكذلك إذا غَيَّرَ عليه لكنْ حيثُ لا يجدي ذلك ويصِرّ الشِّرِّير على عمله السَّيِّئ؛ ويفشُو ذلك ويكثر حتَّى يعمّ الفساد فيهلِك حينئذٍ القليل والكثير، ثمَّ يُحشر كُلُّ أحد على نيَّته".[4]

ولسائل أن يسأل ويقول: إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ومن لم يظلم، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم، ولكن ما ذنب المظلوم ومن لم يظلم والله ﷻ أخبرنا أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، ولا يعاقب إلا المذنب في آيات كثيرة منها قوله:

---

[1]- أحمد في مسنده، 216/44، برقم (26596)، من طريق أم سلمة؛ والهيثمي، مجمع الزوائد، كتاب الفتن، باب ظهور المعاصي، 529/7، برقم (12145) وقال: "رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح" وللحديث شواهد أخرى استوفاها الهيثمي في الموضع المشار إليه.

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب ياجوج وماجوج، ص1316-1317، برقم (7135)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم ياجوج وماجوج، ص1374، برقم (2880)؛ ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، 1304/2، برقم (3952)، وأحمد في مسنده، 216/44، برقم (26596)؛ ومالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة، 590/2، برقم(2835) من طريق أم سلمة؛ والحميدي في مسنده، 1/ 315، برقم (310)، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، برقم (20749).

[3]- النووي، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم ياجوج وماجوج، 3/18.

[4]- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الفتن، باب ياجوج وماجوج، 117/13، شرح حديث رقم (7135).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1] وَقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؟[3]

والجواب: أن المظلوم ومن لم يظلم بموافقتهم للظالمين أو بسكوتهم عن إنكار الظلم، أو بتركهما للفرار، أصبحوا كلهم ظالمين، هذا بفعله، وهذا برضاه به؛ فاستحقوا أن يشملهم العقاب جميعا.[4] كما أكدّ ذلك النبي ﷺ في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوُا المُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أنْ يُنْكِرُوهُ، فَلاَ يُنْكِرُونَهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلكَ عَذَّبَ الله العَامَّةَ والخَاصَّةَ}.[5]

وإليه يشير قول عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه:[6] {إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرَ جِهَارًا اسْتَحَلُّوا الْعُقُوبَةَ كُلُّهُمْ}.[7]

وَقَوْلُه: "إنَّ الله لا يعذِّب العامَّة بذنب الخاصَّة يريد قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقوله رضي الله عنه ولكن إذا عُمِل المنكر جهارا يقتضي أنَّ للمُجاهرة بالمنكر من العقوبة مزيَّة ما ليس للاستتار به، وذلك أنَّهم كلّهم عاصونَ من بين عاملٍ للمنكر وتارك للنَّهي عنه والتَّغييرِ على

---

[1]- البقرة: 286.

[2]- الأنعام: 164.

[3]- المدثر: 38.

[4]- ابن الجوزي، زاد المسير، 342/3؛ الشوكاني، فتح القدير، 376/2؛ الشعراوي، تفسير الشعراوي، 4656/8-4657.

[5]- أخرجه أحمد في مسنده، 258/29، برقم (17720)، 262/29، برقم (17725)، من طريق عدي بن عميرة؛ والطبراني، المعجم الكبير، 139/17، برقم (344).

[6]- هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أبو حفص، الإمام، الحافظ، الخليفة الصالح. كان واحد أمته في الفضل ونجيب عشيرته في العدل. جمع زهدا وعفافا، وورعا وكفافا. كان للرعية أمنا وأمانا وعلى من خالفه حجة وبرهانا. ولد بحلوان بمصر سنة (63هـ). قيل دس له السم فمات بحمص، ومدة خلافته سنتان ونصف. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 1/67، برقم (5056)؛ أحمد فريد، من أعلام السلف، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، (1418هـ/1998م)، 81/1-106، برقم (5)].

[7]- مالك، الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة، 591/2، برقم (2836).

فاعله إلَّا أن يكون المنكِرُ له مستَضعَفا لا يقدر على شيءٍ فينكِره بقلبه فإن أصابه ما أصابهم كان له بذلك كفَّارةٌ وحُشر على نِيَّته".[1]

والحديث يعلمنا أنّ ظهور الظلم والمنكر، والعلم بذلك مع القدرة على النهي عنه، أمارتان لحلول العقاب العام، فإذا كان خافيا فإنّه لا يضر إلا الظالم وعواقبه لا تصيبه إلا هو، أمَّا إذا ظهر وانتشر وعلم به النّاس، ولم يجد من يدفعه وينكره مع القدرة على ذلك ضرّ العامة وتسبب في نزول العقاب العام الذي لن يقتصر على أخذ الظالمين بل يشمل الجميع دون تمييز تبعا لسنة الله التي لا تحابي أحدا. وهذا ما يدل على أنّ العقاب العام يمكن دفعه عن طريق النهي عن الظلم وإنكاره.

قال الإمام مالك:[2] "لا يلزم التغيير إلا لمن له قدرة من العزة والمَنَعة. وإنّه لا يستحق العقوبة إلا من هذه حاله. وأما من ضعف عن ذلك، فالفرض عليه في ذلك التغيير بقلبه، والإنكار والكراهية".[3] وهي أدنى مراتب الإنكار كما جاء في حديث النبي ﷺ: {مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّره بَيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان}.[4]

فالرسول ﷺ يحمل المجتمع المسلم مسؤولية المساهمة في إنكار المنكر والنهي عن الظلم بالنصيحة وبالطرق العملية المثمرة، وتقويم الظالمين بمستويات تتناسب مع مستويات الاستطاعة لكل فرد منهم، فمن أنكر المنكر ومنع الظلم بيده فهو مؤمن، ومن أنكره بلسانه فهو مؤمن، ومن أنكره بقلبه فهو مؤمن. وليس دون ذلك إلا الرضا به ثم نشره.[5]

---

[1]- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي، المنتقى شرح موطأ مالك، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ/1999م)، كتاب الجامع، باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة، 497/9، شرح حديث رقم (1810).

[2]- هو: شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن الحارث. أمه عالية بنت شريك الأزدية. ولد على الأصح سنة (93هـ)، نشأ في صون ورفاهية وتجمل. أخذ عن نافع والزهري وغيرهما. حدّث عنه من شيوخه عمه أبو سهيل ويحي بن سعيد، ومن أقرانه مهمر، ابن جريج. قصده طلبة العلم من كل مكان، له مؤلف في النجوم ومنازل القمر، وكتاب السر". توفي سنة (179هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 135/48/8، برقم (10)].

[3]- أبو بكر محمد بن العربي المعافري، المسالك في شرح موطأ مالك، تعليق محمد بن الحسين السليماني، عائشة بنت الحسين السليماني، تقديم يوسف القرضاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، (1408هـ/2007م)، كتاب الجامع، باب ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة، 589/7.

[4]- مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ص52، برقم (49)؛ ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 1330/2، برقم (4013)؛ البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الغصب، باب نصر المظلوم والأخذ على يد الظالم، 157/6، برقم (11513).

[5]- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، (1420هـ/1999م)، ص652-653.

ولهذا فعلى الدول والمجتمعات أن تسعى إلى مقاومة الظلم والمنكر ومنع الظالمين من التمادي فيه، وإلا جرَّها إلى عواقب وخيمة شأن الأمم السابقة، كالذين كفروا من بني إسرائيل، فقد أدى تركهم النهي عن الظلم الذي كان سائدا بينهم إلى طردهم من رحمته الله كما أخبر تعالى بذلك في قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.[1]

وذلك في الزبور الذي أنزله على داود عليه السلام وفي الإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله، وكان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها، ولا ينهى بعضهم بعضا عن أي منكر فعلوه.[2]

فغياب النهي عن الظلم في مجتمع بني إسرائيل، ومنع الظالمين من التمادي في ركوب المعاصي، وترك الربانيون والأحبار النهي عن المنكر أدى إلى استساغة بني إسرائيل الظلم، والرضا به وانتشاره، فأخذتهم العقوبات التي منها الطرد من رحمة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.[3]

وهو ما جاء واضحا في قوله ﷺ: {إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿فَاسِقُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ

[1] – المائدة: 78-79.

[2] – إعداد نخبة من العلماء، التفسير الميسر، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د.ط، (1417هـ)، ص121.

[3] – المائدة: 62-63.

أَطْرًا وَلَتقصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصرًا}.[1] وَلَتَأْطُرُنَّهُ على الحقّ أَطْرًا أي لَتَرُدُّنَّهُ على الحقّ وتَعْطِفُنَّهُ عليه لأنَّ أصل الْأَطْر العَطف وَالتَّثَنِّي. وَلَتَقْصُرُنَّهُ على الحقّ قَصْرًا أي لَتَحْبِسُنَّهُ عليه وتُلْزِمُنَّهُ إِيَّاهُ.[2]

والحديث يرشد إلى أنّ المداومة على النهي عن الظلم، ومخالطة الظالمين بغرض منعهم من الظلم، والأخذ على أيديهم، وإلزامهم بالحق يقي المجتمع وينجيه من غضب الله ولعنته، أمّا مخالطتهم دون الاستمرار على نهيهم عن الظلم، فإنّه يؤدي إلى بقائه واستمراره أو تجدده وتكراره أو شيوعه وانتشاره واعتياده، وانتقال عدواه من فرد إلى آخر حتى يتفشى ويستفحل في المجتمع، فيعم الظلم فيبتعد الجميع عن الحق والعدل بسبب ظلم البعض، وسكوت البعض الآخر عن الظلم والرضا به؛ لأن "من لم يزحف بمبادئه زُحف عليه بكل مبدأ وفكرة".[3]

وخلاصة ما ترمي إليه الآية أنّه "لو كان في هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله، فينهون عن الفساد في الأرض، ويصدون الظالمين عن الظلم، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم، فإنّ الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة، فأنجاهم الله وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم، فأهلك القرى بأهلها الظالمين".[4]

والكلام في الآية وإن كان بأسلوب الخبر، لكنه يؤول إلى معنى النهي عن ترك إنكار الظلم لاقترانه بالذم والوعيد، كأنّه قال: لا تتركوا إنكار الظلم والمنكر، وإلا حل بكم من العقاب مثلما حل بهؤلاء.[5]

فالقرآن يرشدنا ويُعْلِمُنَا بما هو منجاة للدول والشعوب من الهلاك في الدنيا قبل الآخرة، وهو وجود طائفة عظيمة التأثير فيها، تنهاها عن الظلم والفساد في الأرض،[6] وهو ما كانت تفتقد إليه الأمم التي تحدث السياق عن هلاكها بالظلم والإفساد في الأرض قبل هذه الآية ﴿فَلَوْلَا كَانَ

---

[1] – سبق تخريجه ضمن عنوان: "غياب النهي عن الظلم"، ص226، هامش (1).

[2] – أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د.ط، (1389هـ/1969م)، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، 488/11، شرح حديث رقم (4314).

[3] – خالد عثمان السبت، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أصوله وضوابطه وآدابه، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، ط1، (1995م)، ص79.

[4] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1932/12/4.

[5] – محمد نوح، آفات على الطريق، 189/5.

[6] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 191/12.

مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ .[1]

حيث بيَّن لنا تعالى أنّ الأمم المتقدمة حلّ بها عذاب الاستئصال لسببين:[2]

السبب الأول: أنه ما كان في القرون الماضية أولو فضل وخير ينهون عما كان يقع بينهم من الظلم والمنكرات والفساد في الأرض إلا قلّة منهم، أمَّا سائرهم وأغلبيتهم–وهم الذين أهلكهم– فكانوا تاركين للنهي. وهذه القلة التي كانت تنهى عن الظلم والمنكر والفساد هي وحدها التي نجاها الله عند حلول عذابه، وفجأة نِقَمه من عذاب الاستئصال؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَنْجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السوء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُوا﴾ .[3]

والسبب الثاني: لنــزول عذاب الاستئصال هو: اتباع الظالمين للترف والنعمة وسعة المعيشة حتى أطغتهم وأنستهم المنعم.

وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتبعوا الهوى وطلب الشهوات واللذات بكل أنواعها واشتغلوا بتحصيل الرياسات والثروات.[4]

فالنهي عن الظلم والسُّوءِ من أهم أسباب النجاة من العقاب الدنيوي، وهو ما تشهد له قصة أصحاب السبت في تلك القرية التي كانت حاضرة البحر، وكانت تأتي أهلها حيتانهم شُرعا يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم، وتختفي يوم لا يسبتون، فانقسموا بسب ذلك إلى ثلاث فرق، فرقة ظالمة بالاصطياد رغم حرمته في ذلك اليوم، والفرقة الثانية تصدت للظلم بالنهي عن الصيد، وفرقة اكتفت بالامتناع عن الظلم، دون النهي عنه، بل أنكرت على الناهية كما أخبرنا بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

1– هود: 116–117.

2– الرازي، التفسير الكبير، 60/18.

3– الأعراف: 165.

4– الرازي، التفسير الكبير، 60/18؛ الشوكاني، فتح القدير، 534/2؛ القاسمي، محاسن التأويل، ص172.

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.[1]

فلمَّا لم يُجْدِ النصح، ولم تنفع العظة، ولم يؤثر التذكير في الظالمين، وسدروا في الظلم، حلّ عقاب الله بالفرقة الظالمة بسبب إصرارها على الظلم والفسق لا بالاعتداء في السبت فقط؛ لأنّ الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم في الدنيا بكل ظلم يقع منه بل بالإصرار عليه، ونجّى الله الفرقة التي كانت تنهى عن الظلم. فأمَّا الفرقة الثالثة التي أنكرت على الواعظين إنكارهم، فقد سكت النص عنها. فقيل بهلاكها، لأنّها لم تنه عن الظلم بل أنكرت على الناهين، وقيل بل نجت، لأنّها كانت منكرة للظلم، ولذلك لم تفعله، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي، واقتناعها باستحقاق الظالمين للعقاب، وسكت النص عنها إهمالا لها لقعودها عن الإنكار الايجابي، ووقوفها عند حدود الإنكار السلبي.[2]

ولا ينبغي الإمساك عن إنكار الظلم بدعوى اليأس وقطع الرجاء من إمكانية إقلاع الظالمين عن الظلم لتوغلهم فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.[3] الذي يدل على أنّ "إنكار الظلم واجب يؤدى لله؛ لنبلغ إلى الله عذرنا، ويعلم أن قد أدينا واجبنا، ثم لعلَّ النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية، فيثير فيها وجدان التقوى".[4]

هذا علاوة على ما في النهي عن الظلم وإنكاره من منافع وفوائد كثيرة يعود بعضها على الناهي وبعضها على الظالم وبعضها على الأمة منها: تهيئة أسباب النجاة من العقاب الدنيوي والأخروي، تحصيل الثواب، حفظ الدين وإقامته.[5]

فالوسيلة لمنع وقوع العقاب بالأمم الظالمة هو وجود أولي بقية فيها ينهون عن الظلم وينكرون المنكر والفساد في الأرض فيطاعون، إذ بفقدهم أو قلتهم وعدم قدرتهم على التأثير في المجتمع يتمادى الظالمون في ظلمهم ويستشرون في المعاصي والمنكرات ويتبعون ما أترفوا فيه من

---

[1] – الأعراف: 163-165.

[2] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 377/9؛ سيد قطب، في ظلال القرآن،1385/9/3.

[3] – الأعراف: 164.

[4] – سيد بن حسين العفاني، صلاح الأمة في علو الهمة، قدم له محمد صفوت نور الدين وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1417هـ/1997م)، 95/3.

[5] – خالد السبت، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص74-88؛ سيد العفاني، صلاح الأمة، 95/3.

الأهواء والشهوات والثروات التي تقودهم إلى الإجرام دون أن يلتفتوا إلى إنكار المصلحين حتى يفجَأَهم العذاب، إن لم يكن باستئصالهم فبذهاب استقلالهم.[1]

وهو ما يدل على أن السكوت على النهي عن الظلم والمنكر والفساد، وترك الظالمين يترفون يؤدي إلى فساد وظلم الدول والمجتمعات، وبذلك ينـــزل بها العقاب. أمّا وجود أولي بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق ينهون الظالمين عن الظلم والفساد والمنكر فإنه يصون الدول والمجتمعات من العقاب.

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. وهي أن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد عموما، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما باستئصال أو انحلال واختلال. فالمنكرون للظلم الواقفون في وجهه، والمكافحون للفساد بكل صوره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب. وهم يحُولون دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النَّكال والضياع.[2]

وفي هذا تنبيه وحض وإرشاد لأمة محمد ﷺ إلى أنَّ إنكار الظلم والنهي عن الفساد وتغيير المنكر، والدعوة إلى العدل والحق والخير، هو الوسيلة الناجعة التي تحفظ كيان الأمة، وتضمن له البقاء والاستمرارية والخيرية وتقيها من حلول العقاب العام.

ولا يكفي وجود الصالحين في الدول والمجتمعات لحفظها من العقاب الإلهي؛ لأن نفع صلاحهم قاصر عليهم، بل لابد من وجود المصلحين الذين يسخرون كل ما يملكون لخدمة المصالح العامة وبناء الأمة وتحيق الغاية من الاستخلاف، وهي عمارة الأرض من أجل البقاء؛ ولهذا رتبت الآية إهلاك القرى على خلوها من المصلحين لا الصالحين؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3] أي: لا يهلكهم إذا كانوا يتعاطَون الحقّ بينهم ولا يتظالمون، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا.[4] وقيل أي:"فيهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر"[5]

---

[1] – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 247/12.

[2] – سيد قطب، في ظلال القرآن، 1933/12/4.

[3] – هود: 117.

[4] – الطبري، جامع البيان، 530/15.

[5] – السمرقندي، بحر العلوم، 147/2.

فالمجتمع الصالح لا يسمح للظلم والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه، أو أن يصبحا أمرا سهلا يجترئ عليه كل من يهم به. والمصلحون عليهم أن يقفوا في وجه الظلم والفساد والطغيان والاعتداء، لا يخافون لومة لائم. والإسلام يشدد في ذلك، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من الظلم، إذا هي سكتت عليه، ويجعل الأمانة في عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.[1]

والتاريخ يشهد أنّ استمرار ظلم الظالمين واستبدادهم عبر العصور؛ كان نتيجة عدم وجود من يقف في وجه ظلمهم ويقاوم استبدادهم. لذلك فإنّ سكوت العقلاء من أهل الفضل والخير عن الظلم يؤذن بخراب الدول والمجتمعات وسيرها في طريق الهلاك.

وقد جعل النبي ﷺ ترك النهي عن الظلم حتى يتفشى ويسود، ثم تصبح له قوة ومنعة تولد الخوف في النفوس، بحيث يتعذر الأخذ على أيدي الظالمين، معيارا لعدم صلاحية هذه الأمة للبقاء فقال: {إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ}.[2]

قال البيهقي:[3] "والمعنى في هذا أنهم إذا خافوا على أنفسهم من هذا القول، فتركوه كانوا مما هو أشد منه وأعظم من القول والعمل أخوف، وكانوا إلى أن يَدَعُوا جهاد المشركين خوفا على أنفسهم وأموالهم أقرب وإذا صاروا كذلك، فقد تودع منهم واستوى وجودهم وعدمهم".[4]

وهذا لسان حال الأمة الإسلامية اليوم؛ إذ تخشى من إنكار الظلم الواقع عليها من قبل اليهود وأمريكا ومناصريهم، وتعيش تحت وطأة المداهنة والصمت، والرضا بالذل والهوان. هذا على المستوى الخارجي، أمّا على المستوى الداخلي فإن شعوبها تعاني من غياب العدالة الاجتماعية، وانتشار الظلم الذي يقطع ألسنة المصلحين ويهدد الناس في أديانهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم. بل صاروا يتنافسون في الظلم ويتفننون في أساليبه ويتسابقون في خدمة الظالمين وتزيين الظلم في أعينهم.

---

1 – العنزي، صلاح الأمة، 95/3.

2 – رواه أحمد في مسنده، 72/11-73، برقم (6521)، 390/11، برقم (6776)، 394/11، برقم (6784)، بنفس اللفظ، من طريق أبي الزبير عن عبد الله بن عمرو، [illegible]؛ والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الأحكام، باب إذا رأيت أمتي تهاب فلا تقول للظالم فقد، 195/4، برقم (7115)، من طريق محمد بن مسلم بن السائب، عن عبد الله بن عمرو– رضي الله عنهما–؛ البيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 80/6-81، برقم (7546)، ورقم (7547).

3 – هو: أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي النيسابوري الخراساني. ولد سنة (384هـ/992م). حفظ القرآن وهو صغير، ثم أقبل على مجالس العلم. توفي بنيسابورة سنة (458هـ/1065م). من أهم مؤلفاته "الأسماء والصفات" وغيرها. [إبراهيم مدكور، معجم أعلام الفكر الإنساني، 1199/1].

4 – البيهقي، شعب الإيمان، 80/6-81، شرح حديث رقم (7547).

ويعد انتشار الظلم من أعظم أسباب تأخر الأمة الإسلامية، إذ أصبح أمرا مألوفا في بلدانها، حيث يظلم القوي فيها الضعيف، على مستوى الأفراد والجماعات والأحزاب والدول، فلا يجد المظلوم له ناصرا. ولهذا سلّط الله تعالى على الأمة كلِّها، أعداءَها من اليهود والصليبيين والوثنيين، تحقيقا لسنة الله في خلقه، عندما ينتشر بينهم الظلم ويعّم أرضهم، فلا تقوم منهم فئة كافية للأخذ على يد الظالم ودفع ظلمه عمن ظُلِم.[1]

وهو ما أشار إليه أبو زهرة[2] في قوله: "وإنّه حق على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الهلاك الذي نزل بهم، لأن الظالم يظلم، ويجد الكثرة الكاثرة تؤيده، وتنصره على المظلومين، وتصفه بالحكمة والعدل والعبقرية، حتى اختلطت على الناس الألفاظ والحقائق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".[3]

وقد يتوهم البعض أنّ الشارع رخص في ترك النهي عن الظلم وإنكار المنكر نتيجة التأويل الخاطئ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] وهو ما يوحي به ظاهر الآية الكريمة، والذي فهمه البعض في عهد أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه فقام خليفة المسلمين بدفع هذا الوهم وإزالة الالتباس، وبيان المقصود منها؛ فقال بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: {إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ}.[5]

---

[1]- عبد الله قادري الأهدل، أثر التربية الإسلامية، ص321.

[2]- هو: محمد بن أحمد أبو زهرة، من علماء الشريعة الإسلامية. مولده بمدينة المحلى الكبرى سنة (1316هـ/1898م). تولى تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية. كان عضوا في المجلس الأعلى للبحوث العلمية. أصدر أربعين كتابا منها: "أصول الفقه"، وأخرج لكبار [illegible] توفي سنة (1394هـ/1974م). [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 3/43-44، برقم (11560)].

[3]- أبو زهرة، زهرة التفاسير، 7/3774.

[4]- المائدة: 105.

[5]- أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، 2/525، برقم (4338)؛ الترمذي، في سننه، كتاب الفتن عن رسول الله، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيَّر المنكر، ص629-630، (2173) وقال: "وهذا حديث صحيح وهكذا روى غير واحد عن إسماعيل نحو حديث يزيد ورفعه بعضهم عن إسماعيل وأوقفه بعضهم"؛ النسائي، السنن الكبرى، 6/339، برقم (11157)؛ ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 2/1327، برقم (4005) كلاهما بلفظ المنكر بدل الظلم؛ أحمد في مسنده، 1/208، برقم (30). قال الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، ذكر البيان بأن المنكر والظلم إذا ظهرا كان على من علم تغييرهما حذر عُموم العقوبة

أي أنّكم تقرءون هذه الآيَةَ، وَتَجْرُونَها على عُمُومِها، وتمتنعون عن النهي عن الظلم وإنكار المنكر وليس كذلك، فإنّ المطيقين لإزالة المنكر مع سلامة العافية، إذا علموا ظلمَ الظالم وفسْقَهُ وعصيانَهُ، فلم يكفُّوه عن الظلم بقول أو فعل، قارب أن يعمهم اللّه بعقاب منه، إمَّا في الدنيا أو الآخرة أو فيهما، لتضييع فرضِ اللّه بلا عذرٍ.[1]

فدل الحديث على أنّ منع الظالم من الظلم، عند العلم بظلمه، مع القدرة على المنع، وسيلة لدفع العقاب العام عن الدول والمجتمعات، ووقايتها من العذاب الذي قد يكون بالهلاك أو بما دونه؛ ليعود إلى الحياة صفوها وهناؤها، وأمنها واستقرارها، ويستوي في ذلك الفرد والجماعة.

ويعضد عدم ترخيص الآية في ترك النهي عن الظلم والمنكر والأمر بالمعروف إلا بظهور طغيان الشح واتباع الهوى وإيثار الدنيا والإعجاب بالرأي، ما ورد عن أبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ[2] قال: {أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ[3] فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ}.[4]

إياهم بهما، 539/1، برقم (304) وقال الأرنؤوط: صحيح على شرط الشيخين؛ والحُمَيْدِي في مسنده، 149/1، برقم (3)؛ وأبو يعلى الموصلي في مسنده، 120/1، برقم (132) بزيادة :"والمنكر فلم يغيروه". من طريق شعبة، عن الحكم، عن قيس بن أبي حازم به موقوفًا؛ الطحاوي، مشكل الآثار، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في المراد بقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا، 62/2، دون رقم.

[1] - المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المائدة، 422/8-423، شرح حديث رقم (5050).

[2] - هو: أبو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ الدمشقي يُحمِد، وقيل اسمه عبد الله بن أخامر. روى عن معاذ بن جبل وأبي ثعلبة الخشني، وروى عنه عمرو بن جارية اللخمي وغيره. ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: أدرك الجاهلية. [ابن حجر، تهذيب التهذيب، 483/4].

[3] - هو: أبو ثَعْلَبَة الخُشَنِيّ، صاحب النبي ﷺ، اختلف في اسمه واسم أبيه اختلافا كبيرا، فقيل جرهم بن ناشم وقيل جرثوم بن ناشر، وغيرها من الأسماء. قدم إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى حنين فأسلم. روى عن رسول الله ﷺ، ومعاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح، وروى عنه سعيد بن المسيب وغيره. توفي سنة (75هـ). [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 567/2-571، برقم (120)].

[4] - الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المائدة، ص849، برقم (3068) و قال: "هذا حديث حسن غريب صحيح"؛ أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، 526/2، برقم (4341) من طريق ابن

أي: "إذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر، بل يؤذى الناهي لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال، وبقي بالقلب".[1]

والشارع يحمّل المجتمع مسؤولية المساهمة في النهي عن الظلم وإنكاره لحماية الحقوق العامة والخاصة، ويجعل وظيفة حماية المجتمع وصيانته من الظلم وظيفة اجتماعية إلزامية، لا يجوز التخلي عنها في حال من الأحوال؛[2] لأنّ التقاعس عن ذلك اعتمادا على أنّه فرض كفائي، قد يؤدي إلى عدم إزالته بالكلية؛ فيقول النبي ﷺ: {الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ}[3] مؤكدا واجب المسلم في الامتناع عن الظلم وإنكار وقوعه وبذل الجهد لإزالته ومنعه.

ويقول ﷺ: {انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ}[4] داعيا إلى وجوب تضامن المجتمع الإنساني لمنع الظلم وإحقاق الحق، من خلال مبدأ التناصر في وجه الظلم؛ وذلك بالوقوف إلى جانب الأخ سواء أكان ظالما أو مظلوما، فإذا كان ظالما فنصرته بنهيه عن الظلم؛ لأنّ الظالم في الحقيقة ظلم نفسه قبل أن يظلم غيره، فهو مظلوم بل هو أول ضحايا ظلمه؛ لذلك ينبغي الأخذ على يده ومنعه من ظلم نفسه. أما إذا كان مظلوما فبدفع الظلم عنه في حدود القدرة. ونبّه إلى أنّ مناصرة الظالم لا تقل أهمية عن مناصرة المظلوم؛ فقدم نُصرة الظالم على نصرة المظلوم، لأهمية إنكار الظلم في وقاية الفرد والمجتمع من عواقب الظلم وآثاره التي تتجاوز الظالم.

المبارك؛ وابن ماجه في سننه،كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، 1330/2-1331، برقم (4014).

[1]- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، التفسير الكبير، تحقيق وترتيب: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، 166/4.

[2]- حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية، ص654.

[3]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ص428، برقم (2442)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ص1245، برقم (2580)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب المؤاخاة، 690/2، برقم (4893)؛ والترمذي في سننه، كتاب الحدود باب ما جاء في الستر على المسلم، ص439، برقم (1430).

[4]- أخرجه البخاري، في كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، ص428، برقم (2443)، ورقم (2444)، وفي كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل، ص1285، برقم (6952)، بنفس اللفظ؛ وأحمد في مسنده، 14/19، برقم (11949)، 363/20، برقم (13079)، من طريق أنس؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الغصب، باب نصر المظلوم والأخذ على يد الظالم، 156/6، برقم (11509).

والناهي عن الظلم "في كلتا الحالتين قد أعز المظلوم كأخ فلم يدعه يذل، وأرشد الظالم كأخ فلم يدعه يضل، وحفظ لهما جميعا ما ينبغي من تأييد ونصرة".[1]

وقد تناصرت قريش في الجاهلية ضد الظلم في مكة فأسست حلفا تاريخيا يعرف بحلف الفضول[2] تعاهدت فيه على الأخذ على يد الظالم، ونصرة المظلوم ونجدته حتّى تُردّ عليه مظلِمَتُه سواء كان قاطنا أو غريبا. هذا الحلف الذي شهده النبي ﷺ قبل بعثته، وكان إذا ذكره امتدحه[3] وقال: {لَقَدْ شَهِدْت فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جُدْعَانَ[4] حِلْفًا مَا أُحِبّ أَنّ لِي بِهِ حُمْرَ النّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت}.[5]

لذا فإنه يجب على المسلمين أفرادا وجماعات وحكومات ودولا أن يقوموا بواجب النهي عن الظلم لوقاية الأمة من عواقبه الوخيمة المهلكة.[6]

ولكن للأسف "فإن المسلمين لا يحسنون فقه سنن الله في الخلق، رغم أن بين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولكن الأهواء والمصالح الذاتية والقومية والجهوية كثيرا ما أنست المسلمين حقائق دينهم، وقصرت تفكيرهم على أمور ثانوية، ولا تزال هذه الذهنية إلى اليوم، والأمة

---

[1]- محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، نهضة مصر، طبعة جديدة محققة، (د،ت)، ص155.

[2]- وكان سبب الحلف أن قريشا كانت تتظالم بالحرم فقام عبد الله بن جدعان والزبير بن عبد المطلب فدعوهم إلى التحالف على التناصر في وجه الظلم، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابهما بنو هاشم وبعض القبائل من قريش، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان فسموا ذلك الحلف حلف الفضول تشبيها له بحلف كان بمكة أيام جرهم، قام به ثلاثة رجال من جرهم أحدهم: الفضل بن الحارث والثاني: الفضل بن وداعة والثالث: الفضل بن فضالة؛ وقيل بل هم الفضل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاعة، فسمي حلف الفضول جمعا لأسماء هؤلاء. [البيهقي، معرفة السنن والآثار، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان، 305/9، برقم (13233)، (13234)، (13235)].

[3]- أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تهذيب الآثار: الجزء المفقود، دراسة وتحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المأمون للتراث، ط1، (1416/1995م)، ص20؛ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبي، (د.ط.ت)،133/1- 134.

[4]- هو: عبد الله بن جُدْعَانَ بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويكنى أبا زهير. وهو ابن عم عائشة -رضي الله عنها- وكان في بدء أمره صعلوكا ترب اليدين، وكان مع ذلك فاتكا لا يزال يجني الجنايات، فيعقل عنه قومه وأبوه، حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه، وحلف ألا يؤويه أبدا لما أثقله به من الغرم وحمله من الديات، ثم كان أن أثرى ابن جدعان بعثوره على ثعبان من ذهب، وعيناه ياقوتتان، فأوسع في الكرم حتى كان يضرب بِعِظَم جفنته المثل. [الزركلي، ترتيب الأعلام، 70/1، برقم (76/4)]

[5]- أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان، 596/6، برقم (13080)؛ البيهقي، معرفة السنن والآثار، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان، 304/9-305، برقم (13232)، من طريق طلحة بن عبد الله بن عوف؛ الطبري، تهذيب الآثار- الجزء المفقود-، ص20، وصححه المحقق؛ وابن هشام، السيرة النبوية، 134/1.

[6]- عباس عوض الله عباس، محاضرات في التفسير الموضوعي، دار الفكر، دمشق، ط1، (1428هــ/2007م)، ص162.

الإسلامية تحصد الهزائم وخيبة الأمل. فهل حان الوقت لنعي حقيقة ديننا ونفقه سنن الله في الخلق فنتعظ بها ونعمل بها، عسى أن يرفع الله عنا الذل والتخلف والتمزق، وكل ذلك ممكن إذا غيرنا ما بأنفسنا وعدنا إلى ربنا".[1]

وقد توعد الله ﷻ بالعقوبة كل من تخلى عن هذه المسؤولية دون عذر على لسان النبي ﷺ حيث قال: {قَالَ رَبُّكُمْ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، لأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ فِي عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، وَلأَنْتَقِمَنَّ مِمَّنْ رَأَى مَظْلُومًا فَقَدَرَ أَنْ يَنْصُرَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ}.[2]

وللأسف فقد ضيع أكثر هذا الباب من أزمان متطاولة، ولا زال ينقص مع مرور الأيام والليالي، فلم يبق منه إلا النـــزر اليسير جدا، مع أنّه باب عظيم واسع، إذ به قوام الأمر وملاكه. وبه تبقى السلامة والعافية.[3]

فالقرآن قرر مبدأ النّهي عن الظلم، والأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم، من أجل ضمان الحقوق العامة والخاصة، ووقاية الأمة من أنواع الظلم المختلفة التي لا تخلف إلا الهلاك سواء بالاستئصال أو بما دونه من الفتن والكوارث الطبيعية وتسليط الأعداء، والفقر والمجاعات وغيرها.

ولهذا قال الغزالي:[4] "احتاط الإسلام لضمان الحقوق الخاصة والعامة بتقرير ثلاثة مبادئ يكمل بعضها بعضا: كف يد الظالم، استنهاض المظلوم ليدفع عن نفسه، مطالبة الغير بالتدخل لصد العدوان ورفع الغبن....ولو جمعنا هذه الأطراف في بلادنا ما شكونا حيفا، ولو تواصى أهل الأرض بهذه المبادئ ما قامت ثورة ولا سفكت قطرة دم، ولو أنصف الناس لاستراح القاضي.!!".[5]

---

1 - عيسى بوعكاز، فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال القرآن الكريم، إشراف أحمد رحماني، رسالة ماجستير، قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، (1421هـ-1422هـ/ 2000/2001م)، ص394.

2 - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، 338/10، برقم (10652)؛ وفي المعجم الأوسط، ضمن من اسمه أحمد، 15/1-16، برقم (36)، وقال: "لا يروى هذان الحديثان عن المهدي إلا بهذا الإسناد. تفرد بهما: يحي بن حمزة"؛ وأخرجه الهيثمي، مجمع الزوائد، كتاب الفتن، باب فيمن قدر على نصر مظلوم أو إنكار منكر، 526/7، برقم (12135) وقال: "فيه من لم أعرفه".

3 - خالد السبت، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص64.

4 - هو: محمد الغزالي السقا، ولد بإحدى قرى البحيرة بمصر سنة (1917م)، تخرج من الأزهر سنة (1941م). اشتغل بالدعوى إلى الإسلام والدفاع عنه بلسانه وقلمه. درّس ووجّه أغلب جامعات العالم الإسلامي، وقدم للمكتبة ما يزيد عن 50 مؤلفا. توفي بالرياض يوم (10 مارس 1996م) ودفن بالمدينة المنورة. [فتحي حسن ملكاوي، العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط1، (1417هـ)، ص184-205].

5 - محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص155.

والخلاصة أنّ الله ﷻ أناط بقاء الأمة ودوام حياتها بالنهي عن الظلم وإنكار حصوله، وألقى بهذه المهمة بالدرجة الأولى على عاتق عقلاء الأمة وفضلائها من أهل الخير والصلاح والعلم والقوة، وإن لم يلغ ضرورة الإحساس بالمسؤولية الجماعية في محاربة الظلم، وتظافر الجهود للمحافظة على كيان الأمة وتحقيق وظيفة الاستخلاف، وقيادة البشرية إلى السعادة في الدّنيا والآخرة.





خاتمة:

الحمد لله الذي أنعم عليّ بتمام هذا البحث، وأشكره ﷻ على ما يسر من دراسة مختلف جوانب هذا الموضوع، فضلا منه ومِنّة على ما قد يكون فيه من قصور، فله الحمد أولا وآخرا، لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وبعد:

فإنّ هذه الخاتمة التي أستعرض فيها أهم النتائج التي أسفر عنها البحث.

تناول هذا البحث مشكلة، تعد من أهم المشاكل التي تعاني منها البشرية اليوم، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الدول، وهي مشكلة الظلم التي تأخذ طابعا عقديا واجتماعيا. وقد اقتضت هذه المشكلة معالجتها من خلال بيان حقيقة الظلم، واستقراء أهم أنواعه وصوره، والبحث عن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الوقوع في بؤرة الظلم، على الرغم من نفور الطبع السليم منه، وتتبع آثاره، والبحث عن سبل الوقاية منه، وذلك من خلال استنطاق القرآن الكريم وجمع الآيات التي تناولت هذا الموضوع، ثم دراستها وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي، فكان من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي:

حظي موضوع الظلم بعناية وأهمية فائقة في القرآن الكريم، إذ ورد ذكره بصيغه المختلفة مائتين وتسع وثمانين مرة، في مائتين وخمس وستين آية، في ثمان وخمسين سورة، أي أزيد من نصف سور القرآن الكريم، فضلا عن الألفاظ المقاربة له في المعنى والمقابلة كالجور والحيف والضيم والهضم والقسوط والشطط والغشم والجنف والعسف والاضطهاد والرهق والبغي والعدوان والضيز والطغيان والعدل والقسط.

وقد وطأت للموضوع بتمهيد تناول بيان حقيقة الظلم من خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي؛ فلاحظت أن معنى الظلم في اللغة لم يخرج عن هذه المعاني: وضع الشيء في غير موضعه، الجور ومجاوزة الحدّ، الميل عن القصد أو العدول عن الحق إلى الباطل، أخذ حق الغير أو المنع.

وفي ضوئها جاءت التعريفات الاصطلاحية، وتبين لي من خلالها أنّ الظلم عبارة عن تعدي ومجاوزة الحدود الشرعية، أو العدول عن الحق إلى الباطل.

أمّا بالنسبة لأنواع الظلم، فقد توصلت إلى أنّ أنواعه كثيرة تكاد لا تحصى بعضها يتعلق بالظلم العقدي وهو أعظم الظلم، وبعضها يتعلق بالظلم الاجتماعي، ولكل منهما صور كثيرة.

فأمّا الظلم العقدي فيندرج تحته الشرك والكفر والنّفاق، فكلها ظلم اعتقادي؛ وهي من أعظم أنواع الظلم؛ لأنها جميعا ظلم في حق الله تعالى.

أمّا الظلم الاجتماعي، فيتعلق بحقوق النّاس، ومجاله واسع جدا، يشمل الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض

وقد انتهى البحث إلى نتيجة محورية، وهي أنّ الظلم مرض خطير، يصيب الأفراد والدول. وظهور هذا المرض عند الأفراد ينعكس سلبا على سلوكاتهم، ويدفعهم إلى الانحراف والفساد بل إلى انتشاره في المجتمع ومحاربة العدل وأهله، فتنتقل عدواه من فرد لآخر إلى أن يسود، فإذا ساد في دولة من الدول واستفحل فإنّه يُعد من أهم العوامل التي تؤدي تدريجيا إلى ضعفها أو سقوطها

وزوالها، بل أحيانا إلى استئصالها وإفنائها، إن لم تتدارك هذا الداء وتسارع إلى علاجه. فهو من أبرز عوامل الفناء والتآكل الذي ينخر كيان الدول تدريجيا إلى أن يقضي عليها نهائيا.

وقد تأكد ذلك من خلال عرض مجموعة من النماذج للمجتمعات البشرية والقرى والأمم الوارد ذكرها في القرآن الكريم، كقوم نوح وهود وصالح وشعيب- عليهم السلام- وقوم فرعون، هذه المجتمعات التي تبيَّن من خلال البحث أنّ الظلم استأصلها، وقطع دابرها كلها دون استثناء، رغم أنها كانت في أوج قوتها وحضارتها.

فالظلم كان حاضرا في جميعها، وإن اختلفت أنواعه وصوره وأشكاله، من مجتمع إلى آخر، ولكن ظلّ الظلم العقدي بالشرك والكفر حلقة وصل بينها جميعا، وإن ضمت إليه أنواعا أخرى من الظلم، كالظلم في المعاملات التجارية والمالية نتيجة الطمع والجشع، والظلم للأعراض نتيجة الانحراف عن الفطرة، والظلم للأنفس بالقتل والاستعباد وغيرها من صور الظلم.

ورغم اختلاف صور الظلم وأنواعه إلا أنّه أفضى بكل هذه المجتمعات والقرى الظالمة إلى الاستئصال بعد الإصرار عليه، ويأس المصلحين من الأنبياء والرسل- عليهم السلام- من إقلاعها عن الظلم.

وهذا ما يدل على خطورة الظلم، ويدعو إلى البحث عن أسبابه من أجل الوقاية منه قبل ظهوره وتفشيه؛ لأنّ الظلم إذا انتشر وألفته النفوس تمادت فيه واستعصى علاجه. لذلك بحثت في أهم الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى الوقوع في الظلم، وانتهيت إلى أن من بين هذه الأسباب:

أن يجعل الإنسان اتباع الهوى والظن الذي لا يقوم على حجة ولا دليل ولا علم يقيني والسعي وراء تحصيل الرغبات، والإقبال على اللذات، والاستسلام للشهوات المختلفة دون قيد غايته في الحياة، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه.

فليس من الظلم أن يعمل الإنسان ويجتهد لتحقيق رغباته؛ لأنّها في الحقيقة ما وضعها الله ﷻ في الإنسان إلا لحفظ الكيان البشري، واستمرار الحياة؛ لتحقيق وظيفته في البناء والإعمار ولكن إذا تعدت حدودها التي نص عليها الشارع الحكيم، وأصبح الهوى أو الظن هو الموجه دون اهتداء بهدي الله تعالى، ولا استنارة بنور كتابه المنير، فإنّه يقودها حتما إلى الوقوع في ظلمات الظلم.

لذلك لا ينبغي الخضوع للشهوات، والميل مع نزعات النفس الأمارة بالسوء، دون ضابط شرعي يحدد مجالها تفاديا للانزلاق في ظلام عواقب الظلم المدمرة. ولا سلامة ولا نجاة من ذلك إلا بجعل هوى النفس تبعا لأوامر المولى ﷻ ونواهيه.

كما يعد الجهل من أهم الأسباب المؤدية إلى الوقوع في دائرة الظلم، فالجهل بحقيقة الرسالة المحمدية، وغياب الفهم السليم للقرآن ووظيفته، ولما يحمله من خير وسعادة للبشرية، من خلال ما ينطوي عليه من تشريعات وسنن إلهية، تستجيب لمتطلبات الطبيعة البشرية، وتحقق لها التوازن المادي والروحي، جعلت الكثير من الأفراد والدول يقعون في الظلم، ودفعت الظالمين إلى نبذ كتاب الله وراء ظهورهم، وجعلت بعض المسلمين يعزفون عن تدبر ما جاء به من حكم وأحكام وسنن، ويعزفون عن العمل بما جاء به، ويكتفون بالتعبد به في الصلوات والتبرك به في المناسبا، رغم أنّ واضع هذه التشريعات والسنن وحده ﷻ يعلم حقيقة هذا الكائن البشري، وما يحتاج إليه في جميع أحواله وتقلباته. وكثيرا ما يؤدي الجهل سواء بحقيقة وعواقب ما يقدم عليه المرء من الأقوال والأفعال أو بالقوانين التي تنظم الدّول أو السنن الإلهية التي تحكم الكون والحياة ونحوها إلى ارتكاب الظلم، وقد يظل يعمه في ظلمات ظلمه إلى أن يُفَاجَأ بالعقاب.

ففهم النّاس للقرآن حق فهمه، وإدراك ما يحمله لهم من الوعد على العدل، والوعيد على الظلم، والإحاطة بذلك علما، من أقوى دوافع الإذعان لما جاء في القرآن والعمل بما فيه لضمان النجاة من الظلم.

ومن أسباب الظلم أيضا اتباع الترف والتنعم والتوسع في الملذات، دون شكر المنعم على الفضل والعطاء، ظنا أن ذلك عنوان الرضا، حيث يؤدي إلى التفنن في اللذات وتلبية الرغبات وجمع الثروات وإشباع الشهوات، فتكثر الحاجات وتتسع وجوه النفقات، ويكثر الإسراف، وتتمحور حولها الاهتمامات، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك، فتلجأ إلى تحصيلها بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة حتى تتعود النفس على ذلك، وتستهين بالقيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، وينتشر الفسق والرذائل، ويتجرأ المترفون على أنواع الظلم المختلفة والمجاهرة بها حتى تصبح من مألوفات الحياة بل ميدانا لتنافس الظالمين.

وعادة ما يدعو الإعجاب بالمال والبنون أو الاغترار بالقوة والصحة أو السلطان والنفوذ والحسد إلى التعاظم والتفاخر والاستكبار عن سماع دعوة الحق، وإنكار الخضوع والإذعان لها، رغم الاستيقان بها، وقيام الأدلة على صحتها، ولكن أصحابها يرون فيها تسوية لهم بغيرهم من سواء للأمة، وبعضا لمكانتهم، وخفضا من علو مناصبهم؛ لذلك يتلقونها بالإباء والاستكبار؛ فيرتكبون بذلك المظالم في حق أنفسهم، وفي حق غيرهم، دولا وأفرادا؛ بالاستعلاء والاستضعاف لطائفة منهم وإذلالهم وتسخيرهم، والاعتداء على أديانهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستغلال الناس لاسيما أصحاب الكفاءات في أخس الصنائع والأعمال، وتكليفهم ما لا يطيقون، واستخدامهم في تحقيق المآرب والأغراض الخاصة المختلفة، والتي لا تنتهي ولا تعرف حدودا. ومن

ثم تتراجع الفضائل والقيم العليا، وتنتشر الرذائل والمظالم التي تؤدي إلى التفتت والتمزق الاجتماعي.

ومن الأسباب رد الظلم، فرغم أنّ الشارع الحكيم نص على مشروعية رد الظلم إلاّ أنّ معظم المظلومين لا يحسنون الانتصار من الظالم، بل يتجاوزون في الانتقام، ويسرفون في رد الظلم والانتصار من الظالم، سواء تحت سورة الغضب أو تعذر الرد بالمثل؛ فيكون ذلك سببا في تولد ظلم جديد؛ فيصبح المظلوم ظالما؛ فيتسلسل الظلم ويستشري.

كما أن ترك التناهي عن الظلم، وعدم المواظبة على الأخذ بأيدي الظالمين، من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى تهيئة البيئة المناسبة لانتشار الظلم، واستفحاله بل والتنافس فيه؛ لأنّ النّفوس ستعتاد ذلك تدريجيا وتألفه بعد النفور، فتركن شيئا فشيئا إلى الظالمين. وإقرار الظالمين على الظلم يغريهم على الاسترسال في الظلم إلى أن يسود؛ فيتعذر استئصاله، ويصبح حلول العقاب وشيكا.

أمَّا من خلال تتبعي لآثار الظلم وعواقبه، فخلصت إلى أنّها كثيرة، وبعضها دنيوي والبعض الآخر أخروي، وخطورتها تتجاوز تهديد حياة الظالمين لتعم المجتمعات والدول:

ومن هذه الآثار التي تؤرق الأفراد والمجتمعات، ذهاب الأمن والاستقرار، وفقدان الدعة وهدوء البال؛ واستبداد الخوف، واستيلاء القلق الدائم على النفوس، فلا يشعر النّاس بالسعادة، ولا يتذوقون طعم الراحة، ولا يهنأون بالعيش، ولا يأمنون على مقومات الحياة وضروراتها؛ فينعكس ذلك سلبا على العمل والإنتاج والإبداع والإتقان، وتتدهور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية؛ لترمي بالدول في أحضان التخلف وألوان العدوان المختلفة.

وتبيّن لي أن الأمن والاستقرار المنشود لا يمكن فرضه بالقوانين، وإنما يتحقق باستئصال الظلم ومحاربته، والأخذ على أيدي الظالمين، ونصرة المظلومين، ونشر العدل.

وعلاوة على ذهاب الأمن والاستقرار، فإنّ من آثار الظلم والإصرار عليه، نزول الجدب والقحط، وذهاب الخيرات، وارتفاع البركات؛ بانحباس الأمطار، وقلة الزروع، ونقص الثمار والمواشي والأنعام، مثل ما حدث لفرعون وقومه في مصر التي كانت تزخر بالخيرات، وترفل بالأنهار، عقابا لهم على ظلمهم. وهو ما يؤدي إلى غلاء الأسعار، والحاجة إلى الأسفار.

ومن الآيات التي استوقفتني أنّ الله لا يهدي الظالمين، ولكن توصلت إلى أنّ ذلك ليس على الإطلاق، فالهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهداية معونة وتوفيق، فأمَّا هداية الدلالة على سبل الحق والخير، فقد منحها الله للظالمين، كما منحها للمؤمنين، أمَّا هداية المعونة والتوفيق، فقد خص الله بها المؤمنين، وحَرَم منها الظالمين بسبب ظلمهم. فلا يوفقهم إلى الخير في حال ظلمهم، وهو ما يقتضي الاحتراس من الظلم بجميع أنواعه لضمان التوفيق الإلهي.

وزيادة على ذلك فإنَّ الظلم يعقبه الخسران والخيبة في الدنيا والآخرة، فيحرم الظالم من الراحة والأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي؛ إذ يعيش قلقا يقلب الأمور، خوفا من الانتقام. فالظلم لا يثمر إلا حياة الشقاء والقلق والحيرة والخوف، وإن غرق الظالمون في النِّعم ووسع لهم الرزق بل إنّ النِّعم في حدِّ ذاتها شقاء لهم في الدنيا قبل الآخرة، حيث يولد الحرص على هذه النِّعم القلق الدائم خوفا على ضياعها، وحسرة على ما فات منها.

وكل العقوبات الدنيوية الغرض منها ردع الظالمين عن الظلم، ووعظهم لعلَّهم يتفطنون إلى أنَّ ما أصابهم كان ثمرة ظلمهم، فتدفعهم الشدائد إلى الإقلاع عن الظلم.

ونظرا لخطورة آثار الظلم على الأفراد والدول فقد بحثت عن السبل التي أرشد إليها القرآن الكريم للوقاية من هذا الداء الخطير؛ فتوصلت إلى أنّ من أهم هذه السبل ما يلي:

تجنب الركون إلى الظالمين، وعدم الرضا بما هم عليه من الظلم، من أهم السبل التي أرشد إليها القرآن للوقاية من الظلم ومنع شيوعه؛ لأن الركون إلى الظالمين يشجعهم على التمادي في الظلم، ويمدهم بالقوة المادية والمعنوية والمناصرة اللازمة لارتكاب المزيد من الظلم وتبريره.

وأنّ الحضور في مجالس الظالمين ينبغي أن يكون بغرض الأخذ على أيديهم، ومنعهم من الاستمرار في الظلم أو على الأقل التخفيف منه، أمَّا إذا كان الحضور لا يحقق مصلحة ولا يدفع مضرة شرعية، بل يجلب مفسدة؛ فيتعين هجرها ومقاطعتها، والإعراض عن شهود ما يقع فيها من المظالم؛ لأنّ ذلك في حد ذاته يعد إقرارا للظلم، وإعانة للظالمين، فضلا عن كون الحضور مع عدم القدرة على الإنكار، والتأثير في الظالمين يؤدي إلى التأثر بهم تدريجيا، واعتياد الظلم واستئناسه الذي قد ينتهي بممارسته، دون أن يشعر المرء بهذا الانتقال من السيئ إلى الأسوأ؛ فيتردى في دركات الظلم.

وتوصلت أيضا إلى أنّ الإمساك عن إعانة الظالمين على ظلمهم من أفضل السبل، وأحسن الوسائل لتهيئة البيئة الطاهرة، والجو النظيف الذي يمنع ظهور الظلم، ويقضي عليه في مهده، ويقمع الظالمين قبل أن تكون لهم قوة ومنعة، لأنّ الامتناع عن إعانة الظالمين، والانتهاء عن مشاركتهم في ظلمهم تشعرهم بالضعف والعجز؛ فيفقدون القدرة على ارتكابه، ويكبحهم عن التمادي فيه، ويدعوهم إلى مراجعة أفعالهم وأقوالهم ومواقفهم، وربما انتهى ذلك بهم إلى الكف عن الظلم.

ومن سبل منع الظلم والوقاية من استفحاله، التي ألقاها الشارع الحكيم على عاتق المظلوم الانتصار من الظالم، والعفو عنه عند المقدرة، أما حق الانتصار من الظالم، وعدم الاستكانة له، ورفض الخضوع والذل، فيعد من بين الإجراءات والسبل المحمودة في بعض الأحوال، بل السبيل

الوحيد أحيانا للوقاية من الظلم، ومنع انتشاره ودوام بلواه، وتبجحه حين لا يجد رادعا يمنعه من المضي في نشر الفساد في الأرض آمنا مطمئنا. ويتعين هذا الحل إذا كان الظالم معاندا مصرّا على الظلم، لاسيما إذا كان متعلقا بحفظ الدين والتمكين له، بل يحظر في هذه الحال ترك الانتصار، ولو مراعاة لقداسة الزمان والمكان؛ لأن الفتن عن الدين بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الأوطان، والاعتداء على الأموال والأعراض أشد ضررا من الانتصار من الظالم.

واستقراء التاريخ يثبت أن خضوع الشعوب للظلم على مرِّ العصور، وعدم الأخذ على أيدي الظالمين أدى إلى توارثه، وانتقال عدواه من جيل لآخر؛ لأن الظالم إذا لم يجد رادعا يزجره عن الظلم فإنه يسترسل فيه، بل ويستحدث له الوسائل ويطور له الأساليب ويتفنن في ذلك.

ورغم أنَّ القرآن يرغب في الانتصار من الظالم أحيانا، إلاّ أنَّه يحدده بمقدار الظلم؛ فيشترط مراعاة المماثلة في القصاص؛ لدرء ظهور ظلم جديد، وضمان عدم فوات حكمة تشريعه، المتمثلة في إقامة العدل.

وحيث لا يُجْدِ الانتقام من الظالم، يصبح تركه مقدما والعفو عنه عند المقدرة مفضلا، والضابط المعول عليه في تحديد السبيل الأنسب للوقاية من الظلم سواء بالانتصار أو العفو عند المقدرة، هو مراعاة جلب المصالح ودرء المفاسد، كأن يقدم العفو إذا كان الظلم زلة، والظالم معترفا بظلمه، ويسأل العفو أو أنّ الانتصار من الظالم يؤدي إلى إصراره على الظلم.

هكذا يوازن القرآن بين حق الانتصار من الظالمين وتركه، فيجعل العفو عن الظلم في بعض الأحوال وسيلة لحفظ النفوس من الضغائن والأحقاد، ووقايتها من الظلم، كما يجعل الانتصار من الظلم في أحوال أخرى السبيل الأمثل لصيانة النفوس من الذل والهوان، ووقايتها من الظلم، وردع الظالم حتى لا يتمادى في الظلم.

ولا يقل عنها الدعاء أهمية في دفع الظلم والوقاية منه، فهو سلاح المظلومين الضعفاء الذي لا يخطئ الظالم، والقوة التي قضت على أظلم الظالمين وأطغاهم عبر التاريخ، واستأصلت أقواما بعد ما لجوا وتوغلوا في الظلم، فما أبقى منهم إلا العظة والعبرة.

كما أنّ بيان عواقب الظالمين والتذكير الدائم بمصائرهم الدنيوية والأخروية، والدعوة إلى نبذها بالوسائل الحكيمة، من الطرق التي تساهم في الوقاية من الظلم واستئصاله من النفوس لاسيما أنّ هذه العواقب غالبا ما تأتي في أسلوب قصصي، يأخذ بمجامع الألباب، ويستحوذ على القلوب؛ فيترك فيها أثرا يدوم فترة طويلة، ينعكس تأثيره على الجوارح؛ لتتغير السلوكات.

ويظهر بوضوح إرشاد النصوص القرآنية إلى أنّ التوبة والاستغفار تطهر النفوس من الظلم، وترجع بها إلى أتم ما كانت عليه قبل الوقوع فيه، وتخرج الظالمين من دائرته. لذلك ينبغي ألاَّ ييأس

الظالمون من رحمة الله، وإنْ عظم ظلمهم وطال أمده، وتغلغل أثره في النفوس، فباب التوبة من الظلم يظل مفتوحا إلى أن يقف المرء على عتبة الموت. ومع ذلك فكلّما كانت التوبة من الظلم أسرع كلما كان أثره في النفس أضعف، وهجره أيسر، على أنّ التوبة بالمفهوم العلمي تتحقق بفهم الإنسان لملابسات الموضوع الذي كان يتخبط فيه.

وخلصت إلى أنَّ الله ﷻ أناط بقاء الدول ودوام حياتها بالنهي عن الظلم، وألقى بهذه المهمة بالدرجة الأولى على عاتق عقلائها وفضلائها من أهل الخير والصلاح والعلم والقوة، وإن لم يلغ الإحساس بالمسؤولية الجماعية في محاربة الظلم، وتظافر الجهود للمحافظة على كيان الدول واستقرارها وتحقيق الأمن والاستخلاف.

وفذلكة البحث فإنّ الحقيقة القرآنية التي تستنبط من خلال تناول هذا الموضوع أنّ الظلم مرض من أشد الأمراض التي تفتك بالأفراد، ومن أقوى العوامل التي تنشر الفساد والانحراف، وتضعف الدول وتعمل على فنائها أو استئصالها، والعدل مظهر من مظاهر الصحة والسلامة، وعامل من أقوى عوامل البقاء والتطور.

وفي ختام هذا البحث: أرجو من الله ﷻ أن تتجه همم الباحثين إلى إفراد كل نوع من أنواع الظلم بدراسة علمية مستقلة تستوعب الكشف عن جميع جوانبها، وتسلط الضوء على كافة جزئياتها، وتقدم تصورا واضحا شاملا حولها، يعين الأمة على فهمها وإدراك مدى خطورتها لتسعى إلى تفاديها ودفعها، من أجل تحقيق الحياة الطيبة، وإرساء دعائم الأمن والسلام والطمأنينة والتأهل لقيادة البشرية، وذلك وفق منهج التفسير الموضوعي التجميعي، والمساهمة في إثراء المكتبة القرآنية بدراسات جديدة، بنظرة أشمل وعمل أدق وجهد أكمل.

والله ﷻ أسأل أن يقبل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي وأن ينفع به. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



فَهْرَس

الآيَاتِ القُرْآنِيَة



الآيات	رقمها	الصفحة

سورة البقرة

الآيات	رقمها	الصفحة
﴿في قلوبهم مرض..... كانوا يكذبون﴾	10	115، 120
﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾	17	115
﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾	22	53
﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .... من الكافرين﴾	34	108، 212
﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾	35	24
﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم .... وأنتم ظالمون﴾	51	29، 35
﴿وما ظلمونا﴾	57	16
﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾	66	149
﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾	74	86
﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .... الكافرين﴾	89	103، 106
﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم .... وأنتم ظالمون﴾	92	29، 35
﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب... من ربكم﴾	105	93
﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾	113	93
﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾	113	93
﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾	113	93
﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله .... عذاب عظيم﴾	114	87، 95
﴿ولله المشرق والمغرب .... إن الله واسع عليم﴾	115	89
﴿وإذ قال إبراهيم ..... واليوم الآخر﴾	126	230

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً . . . . . . تَعْمَلُونَ﴾	140	83
﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . . . لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾	145	201، 205
﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾	146	106
﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ . . . عَفُوًّا قَدِيرًا﴾	149	55
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا . . . . وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	160	337
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا . . . . شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾	165	30، 32، 37
﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا . . . . بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾	166	149
﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً . . . . بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾	167	41
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ . . . . أَلِيمٌ﴾	178	134
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . . . . . إِذَا دَعَانِ﴾	186	37
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ . . . . تَعْلَمُونَ﴾	188	141، 174، 177، 178، 180
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾	190	300، 305
﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ . . . . أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾	194	138، 301
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى . . . اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	220	171
﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	229	22
﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا . . . . فَقَدْ ظَلَمَ﴾	231	25، 128
﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	254	99
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ . . . إِلَى الظلمات﴾	257	115
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ . . . لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	258	219، 242
﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . . . . . لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾		

119	260	
290 ،52 ،50	270	﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾
244	272	﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
144	279-278	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ . . . . وَلَا تُظْلَمُونَ﴾
160	281	﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
345	286	﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . . اكْتَسَبَتْ﴾

سورة آل عمران

156	37	﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾
85	65	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ . . . . أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
85	81	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . . . . مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾
242	86	﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . . . . الظَّالِمِينَ﴾
أ	108	﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾
28	136-135	﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . . الْعَامِلِينَ﴾
233 ،42	151	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . . . . الظَّالِمِينَ﴾
153	161	﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ . . . . وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
84	187	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . . . وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾
290	192	﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

سورة النساء

167	2	﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . . . . . . إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾
169	6	﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى . . . وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ومن كان غنيا فليستعفف . . . فليأكل بالمعروف﴾	6	168
﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . . . . . سعيرا﴾	10	166، 170، 171
﴿إن الله كان توابا رحيما﴾	16	338
﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون . . . . . لهم عذابا أليما﴾	18-17	331
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾	29	162، 180
﴿ولا تقتلوا أنفسكم . . . ا وكان ذلك على الله يسيرا﴾	30-29	136، 141، 143
﴿واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾	34	138
﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾	36	42
﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾	48	31، 41، 232
﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾.	48	31
﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا . . . العذاب﴾	56	96
﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾	58	159
﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم . . . . يصدون عنك صدودا﴾	61-60	122
﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم . . . . وا الله توابا رحيما﴾	64	328
﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه. . . . عذابا عظيما﴾	93	135
﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾	116	232
﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . . . خبيرا﴾	135	206
﴿الذين يتربصون بكم . . . ونمنعكم من المؤمنين﴾	141	119
﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . . . سبيلا﴾	143	119
﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل . . . . . نصيرا﴾	145	112

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول... الله سميعا عليما﴾	148	313
﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء... عفوا قديرا﴾	149	311
﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾	157	63

سورة المائدة

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾	2	136
﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق.... وذلك جزاء الظالمين﴾	27-29	131، 223
﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾	30	131
﴿والسارق والسارقة... إن الله غفور رحيم﴾	38-39	147، 327، 329، 330، 338
﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾	45	134، 310
﴿يا أيها الذين آمنوا... القوم الظالمين﴾	51	242، 243
﴿وترى كثيرا منهم.... كانوا يصنعون﴾	62-63	340، 348
﴿يد الله مغلولة﴾	64	237
﴿ولو أنهم أقاموا التوراة.... ومن تحت أرجلهم﴾	66	237
﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح... إلا إله واحد﴾	72-73	35، 37، 290
﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل.... فاسقون﴾	78-81	225، 340، 347
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا... لا يحب المعتدين﴾	87	44
﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم.... تعملون﴾	105	226، 141، 354
﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم.... من دون الله﴾	116	30
﴿وكتبنا عليهم فيها.... فأولئك هم الظالمون﴾	145	134

سورة الأنعام

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	21	28، 55، 74، 247، 248، 252
﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾	26	82
﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾	28	40
﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ . . . الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾	33	99، 102، 107
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ . . . فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾	44	249
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	45	260
﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ . . . . . الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾	47	255، 263
﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا . . . مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	68	291
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ . . . وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	82	100، 232
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾	89	56، 244
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . تَسْتَكْبِرُونَ﴾	93	17، 25، 61، 62، 63، 64، 66، 98، 213
﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	129	267
﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾	131	264
﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا . . . . لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	135	55، 247، 248، 250
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . . . الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	144	55، 68، 73، 242، 243
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . . كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾	157	81، 82
﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾	164	345

سورة الأعراف

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا . . . إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾	4-5	260، 270
﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . . . كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾	8-9	99، 102، 105، 247،

الآية	رقمها	الصفحة
		248
﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾	12	109
﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾	23	17
﴿فمن أظلم ممن افترى على الله . . . كانوا كافرين﴾	37	56
﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾	44	60
﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾	69	274
﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾	69	273
﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء . . . مفسدين﴾	74	275
﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم . . . جاثمين﴾	78-77	276
﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة . . . قوم مسرفون﴾	81-80	279 ،193
﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا . . . عاقبة المفسدين﴾	86-85	281
﴿ولو أن أهل القرى آمنوا . . . . بما كانوا يكسبون﴾	96	236
﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى . . . . عاقبة المفسدين﴾	103	320 ،282
﴿وقال الملأ من قوم فرعون . . . . قاهرون﴾	127	295 ،285 ،17
﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين . . . لعلهم يذكرون﴾	130	238
﴿واتخذ قوم موسى من بعده . . . . وكانوا ظالمين﴾	148	36
﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا . . . لغفور رحيم﴾	153	330
﴿الذين يتبعون الرسول . . . كانت عليهم﴾	157	85
﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾	160	16
﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون . . . ولعلهم يتقون﴾	164	351
﴿واسألهم عن القرية . . . بما كانوا يفسقون﴾	165-163	350 ،349 ،340

سورة الأنفال

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا . . . شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾	25	340، 341
﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا . . . . . أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾	31	65
﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ . . . . . كَانُوا ظَالِمِينَ﴾	54	99، 102، 106

سورة التوبة

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	19	243
﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	31	33، 45
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	31	46
﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . . . . عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾	47-45	112، 113، 117، 119، 121
﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . . . فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾	51-50	120
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	109	243
﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ . . . . وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾	125-124	116

سورة يونس

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ . . . . الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾	13	254، 255
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . . الْمُجْرِمُونَ﴾	17	55، 57، 74
﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ . . . عِنْدَ اللَّهِ﴾	18	37
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ . . . . أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾	31	36
﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا . . . . . . شَيْئًا﴾	36	207
﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . . . . عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾	39	201، 210، 318
	66	208

﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾	78	217
﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا . . . . ما نحن لكما بمؤمنين﴾	86-85	314
﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. . . . القوم الكافرين﴾	89-88	315
﴿وقال موسى ربنا . . . . قد أجيبت دعوتكما﴾	92	326 ،322
﴿فاليوم ننجيك ببدنك . . . . . . آياتنا لغافلون﴾	106	42 ،38
﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك . . . . من الظالمين﴾		

سورة هود

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله . . . . إلا من قد آمن﴾	18	60 ،55
﴿وما آمن معه إلا قليل﴾	36	313
﴿ويا قوم استغفروا ربكم . . . . إلى قوتكم﴾	40	319
﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾	52	238
﴿إلى ثمود أخاهم صالحا قال. . . . إن ربي قريب مجيب﴾	61	132
﴿فعقروها فقال تمتعوا . . . ذلك وعد غير مكذوب﴾	65	276
﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحا . . . هو القوي العزيز﴾	66	277
﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة. . . . . ألا بعدا لثمود﴾	68-67	277 ،105
﴿فلما جاء أمرنا جعلنا . . . . من الظالمين ببعيد﴾	83-82	279 ،195
﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا . . . [illegible] . . . بحفيظ﴾	86-84	281
﴿قالوا يا شعيب . . . . وما أنت علينا بعزيز﴾	91	217
﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا . . . . . كما بعدت ثمود﴾	95-94	281
﴿ذلك من أنباء القرى . . . وما زادوهم غير تتبيب﴾	101-100	263 ،260 ،254
	102	262 ،254

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى . . . . . شَدِيدٌ﴾	113	289
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا . . . . ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾	117-116	39، 221، 254، 259، 263، 340، 349، 352
﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ . . . . . . وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾		

سورة يوسف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا . . . . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	23	188، 247، 248، 252
﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا . . . وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾	73	148
﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ . . . كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾	75	147
﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ . . . . . . إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	78	150
﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا . . . . . . إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾	79	150

سورة الرعد

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾	23-22	250

سورة إبراهيم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . . . مِنْ بَعْدِهِمْ﴾	14-13	251
﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . . . . وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾	27	242
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . . . الْأَبْصَارُ﴾	42	265، 332
﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا . . . الْأَمْثَالَ﴾	45	325

سورة الحجر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾	6	63
﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ . . . . مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾	33-32	109
﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	36	104

سورة النحل:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	33	25
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ . . . وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾	61	266
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . . . فَوْقَ الْعَذَابِ﴾	88	82
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً . . . . . وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾	113-112	233
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ . . . . لَا يُفْلِحُونَ﴾	116	59
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا . . . . لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	119-118	16، 329، 330
﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾	126	224، 309
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾	126	304، 309

سورة الإسراء

﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾	13	164
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾	32	190
﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ . . . . كَانَ مَنْصُورًا﴾	33	24، 132، 224، 332
﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	34	168
﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾	59	104، 171، 276
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ . . . . خَلَقْتَ طِينًا﴾	61	109

سورة الكهف

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ . . . . سَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾	29-28	203
﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾	33	16
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ . . . . مُنْقَلَبًا﴾	36-35	221

الصفحة	رقم الآية	الآية
160	49	﴿ووضع الكتاب.... ولا يظلم ربك أحدا﴾
56، 75، 78	57	﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه.... أبدا﴾
266	58	﴿وربك الغفور ذو الرحمة..... من دونه موئلا﴾
254، 255، 265	59	﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا.... موعدا﴾
161	73	﴿أما السفينة فكانت لمساكين... سفينة غصبا﴾
70	104	﴿الذين ضل سعيهم في الحياة.... يحسنون صنعا﴾
48	110	﴿فمن كان يرجو لقاء ربه....... ربه أحدا﴾

سورة مريم

الصفحة	رقم الآية	الآية
37	42	﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾
40	82-81	﴿واتخذوا من دون الله آلهة... ويكونون عليهم ضدا﴾

سورة طه

الصفحة	رقم الآية	الآية
247	111	﴿وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾
108	116	﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾
265	134	﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب.... قبل أن نذل ونخزى﴾

سورة الأنبياء

الصفحة	رقم الآية	الآية
254، 256، 264	15-11	﴿وكم قصمنا من قرية...... حصيدا خامدين﴾
34	29	﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه...... الظالمين﴾
330	88-87	﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا...... ننجي المؤمنين﴾

سورة الحج

الصفحة	رقم الآية	الآية
301	39	﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا........ لقدير﴾

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة . . . مشيد﴾	45	270 ،260
﴿ويعبدون من دون الله . . . . وما للظالمين من نصير﴾	71	32، 39، 209

سورة المؤمنون

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة﴾	12	64
﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾	14	64
﴿فأخذتهم الصيحة بالحق . . . فبعدا للقوم الظالمين﴾	41	277 ،276
﴿فاستكبروا وكانوا قوما عالين﴾	46	105
﴿قل رب إما تريني ما يوعدون . . . . في القوم الظالمين﴾	94-93	312

سورة النور

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل . . . . في دين الله﴾	2	191
﴿والذين يرمون المحصنات . . . . . غفور رحيم﴾	5-4	334
﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾	22	311
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا . . . . تذكرون﴾	27	191
﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾	30	191
﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾	31	191
﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾	31	191
﴿وأنكحوا الأيامى منكم . . . . وإمائكم﴾	32	191
﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا . . . من فضله﴾	33	191
﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾	40	115

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول . . . . . وما أولئك بالمؤمنين﴾	47	113
﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله . . . . . . يأتوا إليه مذعنين﴾	49-48	122
﴿أفي قلوبهم مرض أم . . . . . . بل أولئك هم الظالمون﴾	50	113، 114، 119، 124

سورة الفرقان

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون . . . . ضلوا السبيل﴾	17	30
﴿ويوم يعض الظالم على يديه . . . . خذولا﴾	29-27	83
﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل . . . . . . عذابا أليما﴾	37	319
﴿فكلا أخذنا بذنبه . . . . كانوا أنفسهم يظلمون﴾	40	319
﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا . . . . يزنون﴾	68	26

سورة الشعراء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت . . . . ألا يتقون﴾	11-10	282
﴿ففررت منكم . . . . . جعلني من المرسلين﴾	21	314
﴿قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾	29	34
﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين . . . . . . برب العالمين﴾	98-97	36
﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون . . . . . . بطشتم جبارين﴾	129-128	274
﴿أتأتون الذكران من العالمين . . . . بل أنتم قوم عادون﴾	166-165	193
﴿وما أهلكنا من قرية . . . . . . وما كنا ظالمين﴾	209-208	274
﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾	224	301

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا . . . . وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾	227	301

سورة النمل

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ . . . . غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	11	336
﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا . . . . عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾	14-13	99، 102، 105، 201، 216
﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا . . . دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	51-50	278
﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . . . لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾	52	17، 258، 278، 323
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ . . . . . خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾	126	224

سورة القصص

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ . . . إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾	4	284
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي . . . . . هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾	16	128
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾	17	296
﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا . . . . نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	21	314
﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	25	314
﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي . . . . . . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	37	247، 248، 251
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ . . . . . مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾	38	33، 34، 283
﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ . . . عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾	40-39	215، 285، 296، 321
﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ . . . . لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	50	201، 204، 242، 243
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾	56	244
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ . . . . وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾		

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى . . . إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾	58	254
﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾	59	264 ،263 ،255
	63	40

سورة العنكبوت

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . . . . آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾	15-14	273 ،271
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ . . . . كَانُوا ظَالِمِينَ﴾	31	338 ،279 ،192
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . . . . . جَاثِمِينَ﴾	37-36	282
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . . . . كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	40	263 ،261 ،255
﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾	47	102 ،99
﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾	48	104 ،102 ،99
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾	68	74 ،67 ،55

سورة الروم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ . . . . . كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾	9	275
﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ . . . . وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾	29	202 ،201
﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾	33	80

سورة لقمان

الآية	رقمها	الصفحة
﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ . . . بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	11	201
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾	12	28
﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	13	26 ،24 ،17

سورة السجدة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى . . . . لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	21	80
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ . . . مُنْتَقِمُونَ﴾	22	75 ،56

سورة الأحزاب

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾	33	191
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	62	282

سورة سبأ

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ . . . لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾	19-15	220
﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾	23-22	38
﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	24	251
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ . . . . لَا يَعْلَمُونَ﴾	36-34	219
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا . . . . . كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾	40	30
﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ . . . . بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾	41	40

سورة فاطر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ . . . . وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾	14-13	43
﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾	32	24

سورة الصافات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿[illegible] . . . . مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	23-22	46
﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ . . . . أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	138-137	323
﴿[illegible] . . . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾	173-171	249

سورة ص

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ . . . . وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	74-73	108

سورة الزمر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . . . زُلْفَى﴾	3	37، 44
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ . . . مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾	32	56
﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾	38	38
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا . . . اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾	53	
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . . يُشْرِكُونَ﴾	67	44
﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾	70	14

سورة غافر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾	29	283
﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾	31	أ
﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾	52-51	249
﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ . . دَاخِرِينَ﴾	60	37، 43

سورة فصلت

الآية	رقمها	الصفحة
﴿صَاعِقَةً﴾	13	276
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ . . . لَا يُنْصَرُونَ﴾	16-15	214، 274، 275
﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾	17	244
﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . . . كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾	34	310
﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾	46	264
﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	53	80

سورة الشورى

الآية	رقمها	الصفحة
﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾	8	290
﴿أم لهم شركاء . . . . وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾	21	44، 47
﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾	39	299
﴿وجزاء سيئة سيئة . . . . إنه لا يحب الظالمين﴾	40	126، 171، 224، 299، 304، 305، 335
﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾	41	299، 305
﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس . . . .أليم﴾	42	126، 299، 305، 313
﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾	43	307، 336
﴿وقال الذين آمنوا . . . .إن الظالمين في عذاب مقيم﴾	45	247، 248
﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾	52	244

سورة الزخرف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات . . . . العزيز العليم﴾	9	36
﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾	23	86
﴿ونادى فرعون في قومه . . . . . إنهم كانوا قوما فاسقين﴾	51-54	220، 283
﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم . . . . ومثلا للآخرين﴾	55-56	320

سورة الجاثية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ثم جعلناك على شريعة . . . . . . .والله ولي المتقين﴾	18-19	205
﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾	23	203

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا . . . وما يهلكنا إلا الدهر﴾	24	102، 99
﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض . . . الحكيم﴾	37	216

سورة الأحقاف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وإذا حشر الناس كانوا . . . . . بعبادتهم كافرين﴾	6	40
﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله . . . . . القوم الظالمين﴾	10	243، 212

سورة محمد

الآية	رقمها	الصفحة
﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾	17	245

سورة الحجرات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم . . . . . فأولئك هم الظالمون﴾	11	328، 196
﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم﴾	12	208

سورة ق

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾	29	أ

سورة الذاريات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾	33	338
﴿فأخرجنا من كان فيها . . . . غير بيت من المسلمين﴾	36-35	279

سورة الطور

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾	47	240

سورة النجم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿تلك إذا قسمة ضيزى . . . . جاءهم من ربهم الهدى﴾	23-22	207

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى......إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾	52-50	272-270

سورة الحديد

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾	20	101
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ . . .لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾	25	ب

سورة المجادلة

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	21	249

سورة الحشر

﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾	19	32

سورة الصف

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ . . . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	7	56، 59، 73، 243

سورة الجمعة

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	5	243

سورة التغابن

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾	16	176

سورة الطلاق

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾	01	22

سورة التحريم

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا........نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	11	315

سورة الحاقة

الآية	رقمها	الصفحة
﴿طَاغِيَةِ﴾	5	276
﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ. . . . . كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾	7	214
﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ. . . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾	8-6	275

سورة نوح

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ . . . . وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾	9-5	272
﴿استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ . . . . يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾	12-10	238
﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾	24	313 ،272
﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ . . . . فَاجِرًا كَفَّارًا﴾	27-26	272
﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾	28	313

سورة المدثر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	38	345

سورة النازعات

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾	24-23	283 ،34
﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى . . . . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾	41-37	206

سورة المطففين

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . . . . أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	5-1	280

سورة الفجر

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . . . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾	8-6	273

سورة الليل

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾	15-14	172

سورة قريش

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ....آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾	4-3	234

فَهْرَسَ الأَحَادِيثِ النَبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَالآثَارِ



الحديث/الأثر	الصفحة
1- {آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ..........}	114
2- {أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟..........................}	127
3- {اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ}	316
4- {اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا.............}	316
5- {أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ.......................}	355
6- {أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ..........}	46
7- {اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ........................}	173
8- {إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا ....}	266
9- {إِذَا تَظَالَمَ النَّاسُ، وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنَا...............}	236
10- {إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا..................}	131
11- {إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..........}	48
12- {إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ.......................}	353
13- {إِذَا ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي.......................}	344
14- {إِذَا لُبِّسَ المِكْيَال ....}	236
15- {أَرْبَعَ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُدْخِلَهُمْ الجَنَّةَ..............}	173-172
16- {أَعْظَمُ الظُّلْمِ ذِرَاعٌ مِنْ الْأَرْضِ يَنْتَقِصُهُ...............}	163
17- {أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ذِرَاعٌ مِنْ الْأَرْضِ.............}	163
18- {أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا ....}	92
19- {الْتَقَى الأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ وَأَبُو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ..............}	107
20- {أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ.............}	158
21- {أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ.......................}	342
22- {أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ.........................}	173
23- {الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ.....................}	54-53
24- {انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا.................................}	356
25- {أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ.......................}	

26- {إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ..........}

27- {إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ..........}

28- {إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ..............}

29- {إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ...........}

30- {إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ ....}

31- {إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ........}

32- {إِنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بعَمَلِ الخَاصَّةِ..............}

33- {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ...............}

34- {إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ..................}

35- {إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ...........}

36- {إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ....................}

37- {إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ..........}

38- {إِنَّ هَذَا الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ..........}

39- {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ.......................}

40- {إِنَّمَا يَكُونُ الجُحُودُ ....}

41- {أَنَّهُ لَمَا أَتَى أَرْضَ الحَبَشَةِ أُخِذَ بِشَيْءٍ....................}

42- {أَنَهَا نَزَلَتْ فِي قَطِيفَةٍ حَمْرَاءَ فُقِدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ...............}

43- {إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلِي يَتِيمٌ...........................}

44- {أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ....}

45- {إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ ....}

46- {إِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ فَإِنَّ الْغُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ..........}

47- {ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.............}

48- {جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:..............................}

49- {[illegible] حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ...................}

50- {الحمد لله الذي قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.........}

51- {خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ.......................}

52- {خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَسْقِي...............................}

107
49
49
348-225
155
302
346
345
197
262
61
334
354-226
176
178
103
177
153
168
130
207
156
183
181
181
100
49-48
238

الرقم	طرف الحديث	الصفحة
53-	{رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ.........}	69
54-	{رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ ....}	176
55-	{الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ كُفْرٌ، وَهِيَ بَيْنَ النَّاسِ ....}	176
56-	{سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً.........}	285
57-	{سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ: إِنَ الظَالِمَ.........}	236
58-	{الظَالِمُ وَالْمُعِينُ عَلَى الظُلْمِ ....}	296
59-	{الظُلْمُ ثَلاثَةٌ؛ فَظُلْمٌ لاَ يَتْرُكُهُ اللهُ وَظُلْمٌ يُغْفَر وَظُلْمٌ لاَ يُغْفَر....}	41
60-	{الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ ....}	14
61-	{عَقِلَهَا وَاللهِ! وَفَهِمَهَا ....}	308
62-	{فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ.........}	130-126
63-	{فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ.........}	316
64-	{فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ.........}	327
65-	{فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ....}	184
66-	{فَمَنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ}	16
67-	{قَالَ رَبُّكُمْ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، لأَنْتَقِمَنَّ مِنَ الظَّالِمِ.........}	358
68-	{قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ.........}	26
69-	{قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ الْغُلُولَ.........}	157
70-	{قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ.........}	344
71-	{قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ رضي الله عنه عَنْهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكُمْ.........}	341
72-	{كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ.........}	157
73-	{كَانُوا يَكْرَهُونَ.........}	300
74-	{الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي.........}	216
75-	{كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُم}	268
76-	{كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ "الشِّرْكُ الأَصْغَر"}	49
77-	{كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا.........}	139
78-	{لا تُخَاصِمْ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ}	179
79-	{لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ.........}	324
80-	{لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا.........}	278

81- {لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ............}

82- {لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَان، وَلَكِنْ قُولُوا............}

83- {لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ}

84- {لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ...........................}

85- {لاَ يَحِلُ لِأَحَدٍ أَنْ يُعِينَ ظَالِمًا.........................}

86- {لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ.......................}

87- {لَا يَلْبَثُ الْجَوْرُ بَعْدِي إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَطْلُعَ..........}

88- {لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ..................}

89- {لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ...................}

90- {لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي}

91- {لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ...........}

92- {لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ}

93- {لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ}

94- {لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ...............}

95- {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ}

96- {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ}

97- {لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ.....................}

98- {لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا............}

99- {لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ.....}

100- {لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قَالَ......}

101- {لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾......}

102- {اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ.......................}

103- {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَاعْمِ بَصَرَهَا......................}

104- {لَمَّا هَبَطَ الْمُسْلِمُونَ الْمَدَائِنَ.........................}

105- {لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ قَوْمًا لَهُمْ مَشَافِرُ...................}

106- {مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ.......................}

107- {"مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ" أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟...................}

132
53
166
132
296
127
227
190
332
175
175
145
176
149
195
165-163
337
357
28
27
171
239
317
161-160
170
221

الحديث	الصفحة
108-{مَا عَلِمْتُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيَّ زَيْنَبُ.................}	53
109-{مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ..........}	303
110-{مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً..................}	310
111-{مَا هَذَا قِيلَ يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ..................}	155
112-{مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا..........}	140
113-{مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ..................}	343
114-{الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ....}	120
115-{الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا ....}	292
116-{الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ....}	308
117-{مَنْ أَخَذَ أَرْضًا بِغَيْرِ حَقِّهَا كُلِّفَ..................}	356
118-{مَنْ أَخَذَ مِنْ الْأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ..................}	164
119-{مَنْ أَخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ شِبْرًا..................}	163
120-{مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سَرْبِهِ..........}	165
121-{مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا ....}	234
122-{مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ..................}	268
123-{مَنْ اقْتَطَعَ أَرْضًا ظَالِمًا ....}	135
124-{مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِخُصُومَتِهِ..........}	165
125-{مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ..........}	179-178
126-{مِنْ أَنَّ الرُّمَاةَ قَالُوا حِينَ تَرَكُوا الْمَرْكَزَ..........}	182-162
127-{مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا..........}	153
128-{مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ..........}	144
129-{مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ ....}	137
130-{مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالْبَقَاءِ ....}	52
131-{مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ..................}	297
132-{مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا ....}	347
133-{مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظُلْمًا ....}	138
134-{مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ ....}	139
135-{مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا ....}	164

136-{مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ..........................}
137-{مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ...........}
138-{نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ خاصة..........................}
139-{هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ.......................}
140-{هُوَ أَنْ يَقُولَ: أُقْ، ....}
141-{وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ ....}
142-{وَأَمَا الظُّلْمُ الذِّي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمَ العِبَادِ.............}
143-{وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.............}
144-{وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا...............}
145-{وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بعفْوٍ ....}
146-{وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا ....}
147-{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ..............}
148-{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ..............}
149-{يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ...........................}
150-{يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الشِّعْرِ؟...................}
151-{يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي.....................}
152-{يَا كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ.............}
153-{يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بهِنَّ..............}
154-{يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ قَوْمٌ مِنْ قُبُورِهِمْ تَتَأَجَجُ أَفْوَاهُهُمْ.........}
155-{يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ الْعِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا............}
156-{الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ ....}

164
304
335
342
179
135
336
332
328
160
310
271
354
185
159
185
302
128
297
240
170
333
182



فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

اسم العلم	الصفحة

حرف الألف

اسم العلم	الصفحة
1- أحلام مستغانمي	302
2- الأصمعي أبو سعيد عبد الملك	16
3- الآلوسي شهاب الدّين محمود	258، 303، 307
4- أبو أمية الشعباني	3055
5- أنس بن مالك بن النضر	

-6 الأنصاري، زكريا بن محمد	41، 332 19

حرف الباء

-7 البخاري	300
-8 بختنصر	88، 92
-9 البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد	102، 103، 104، 109
-10 أبو بكر الصديق	226، 354
-11 بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري	309
-12 بلال بن رباح التيمي	144
-13 البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي	353
-14 بيوض، إبراهيم بن عمر بن بابة	319

التاء

-15 الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة	153
-16 ابن تيمية، أبو العباس تقي الدّين أحمد	24، 188، 258

حرف الثاء

-17 أبو ثعلبة الخشني	355
-18 ثوبان بن يجدد	175

حرف الجيم

-19 الجرجاني، علي بن محمد الشريف	17
-20 الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى	245
-21 الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي	90
-22 الجوهري، إسماعيل بن حماد	15

حرف الحاء

-23 ابن حجر، شهاب الدّين العسقلاني	19، 164، 324
-24 [illegible] بن المنذر	302
-25 الحسن البصري، أبو سعيد بن أبي يسار	154، 308

الاسم	الصفحة
26- أبو حنيفة، النعمان بن ثابت	178
27- أبو حيان، محمد بن يوسف	93، 100

حرف الخاء

الاسم	الصفحة
28- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد	27
29- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن	256
30- ابن خويز منداد، أبو عبد الله	291

حرف الدال

الاسم	الصفحة
31- أبو الدرداء عويمر بن مالك	310
32- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي	14

حرف الراء

الاسم	الصفحة
33- الرازي، فخر الدّين محمد بن عمر	18، 88، 90، 93، 96، 171، 180، 268، 271، 293،
34- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين	15، 101
35- رضا، محمد رشيد بن علي	51، 337

حرف الزاي

الاسم	الصفحة
36- الزبيدي، أبو الفيض محمد بن عبد الرزاق	18
37- الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي	267
38- الزمخشري، أبو القاسم محمود	303
39- أبو زهرة، محمد بن أحمد	262، 303
	354

حرف السين

الاسم	الصفحة
40- السدي، إسماعيل بن عبد الرّحمن	81، 104، 170
41- سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة	159
42- سعد بن معاذ	91
43- ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر	240

الاسم	الصفحة
44- أبو السعود، محمد بن مصطفى العمادي	19، 75
45- أبو سعيد الخدري، سعد بن سنان الأنصاري	48، 170
46- سعيد بن زيد بن عمرو	317
47- أبو سعيد بن أبي فضالة الأنصاري	48
48- سعيد بن المسيب المخزومي	335
49- سفيان بن سعيد الثوري	297
50- سفيان بن عيينة	135
51- أبو سلمة	164، 236
52- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن	64

حرف الشين

الاسم	الصفحة
53- شاكر، أحمد بن محمد	92
54- شداد بن أوس الخزرجي	49
55- الشعراوي، محمد بن متولي	20، 82
56- الشوكاني، أبو عبد الله محمد بن علي	186

حرف الصاد

الاسم	الصفحة
57- صفوان بن محرز	61

حرف الطاء

الاسم	الصفحة
58- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير	51، 89، 90، 91، 92، 107، 153، 238
59- طيطس الرّوماني	92

حرف العين

الاسم	الصفحة
60- ابن عاشور، محمد الطاهر	20، 62، 64، 70، 71، 78، 91، 93، 95، 98، 107، 166، 174، 189، 225، 230، 263، 269، 277، 294، 308، 342
[illegible]	161
[illegible]	34، 53، 54، 91، 153، 154، 81،

61- عامر بن عبد الله بن عبد قيس العنبري 62- ابن عباس، عبد الله بن عبد المطلب 63- عبد الله بن جُدْعَانَ بن عمرو 64- عبد الله بن الزبير 65- عبد الله بن سعد بن أبي سرح 66- عبد الله بن سلام بن الحارث 67- عبد الله بن عمر بن الخطاب 68- عبد الله بن عمرو بن العاص 69- عبد الملك بن مروان 70- ابن العثيمين، أبو عبد الله محمد بن صالح 71- عدي بن حاتم الطائي 72- عدي بن عميرة الكندي 73- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله 74- عطاء بن دينار 75- عطاء بن أبي رباح 76- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق 77- علي بن أبي طالب 78- عمر بن الخطاب 79- عمر بن عبد العزيز بن مروان 80- عمرو بن سعيد الأشدق 81- عمرو بن لحي بن قمعة 82- ابن عون، عبد الله	130، 171، 185،179، 258، 342 357 267 65-64 212 266 ،61 181 ،157 267 232 46 159 345 ،307 1 296 ،91 27، 103، 246، 296 123 150، 157، 238، 316 346 267 69 309

حرف الغين

83- الغزالي، محمد السقا	358

حرف الفاء

84- ابن فارس، أبو الحسين أحمد	14 13

العلم	الصفحة
85- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد	17
86- الفيروز آبادي، مجد الدّين محمد	17
87- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد	15

حرف القاف

العلم	الصفحة
88- قتادة بن دعامة السدوسي	90، 92، 103، 271
89- القرطبي، عبد الله محمد بن محمد	65، 258، 266، 268، 296، 300، 303، 307، 308، 335
90- قصي بن كلاب بن مُرة بن لؤي	107
91- قطب، سيد	89، 93، 155
92- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر	52، 102، 104، 109

حرف الكاف

العلم	الصفحة
93- ابن كثير عماد الدّين أبو الفداء	69، 92، 93، 114
94- كسرى	157
95- كعب بن الأشرف	123
96- كعب بن عجرة	297
97- كعب بن مالك	302
98- الكَفَوي، أيوب بن موسى الحُسَيْنِي	20، 21، 101

حرف اللام

العلم	الصفحة
99- ابن اللتبية، عبد الله بن أبي ليلى الأزدي	158

حرف الميم

العلم	الصفحة
100-مالك بن أنس، أبو عبد الله	346
101-مجاهد بن جبر أبو الحجاج	34
102-مروان بن الحكم بن أبي العاص	317
103-أبو مسعود البدري	139
104-ابن مسعود، عبد الله الهذلي	26، 27، 132، 177،225 268

105-مسيلمة الكذاب	62، 65
106-مطرّف	341
107-معاذ بن جبل بن أوس	316
108-مقاتل بن سليمان الأزدي	153
109-ميمون بن مهران	296

حرف النون

110-نافع بن عبد الرّحمن الليثي	154
111-النخعي، إبراهيم بن مالك	300
112-النضر بن الحارث بن علقمة	65
113-النووي، محي الدين أبو زكريا	29، 333، 336
114-النيسابوري، الحسن بن محمد القمي	80

حرف الهاء

115-أبو هريرة الدوسي اليماني	69، 127، 157، 178،173، 236، 239، 328، 332، 334
116-هشام بن حكيم بن حزام	140

حرف الواو

117-الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد	64
118-ابن أبي وقاص، سعد بن مالك	212، 285، 316



فَهْرس

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

حرف الألف

ابن الأثير: عز الدّين أبو الحسن علي بن محمد

1- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة، د.ط، (1970م).

2- الكامل في التاريخ: تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1407هــ/1987م).

ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري

3- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

الأدنه وي: أحمد بن محمد

4- طبقات المفسرين، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، (1417هـ/1997م).

أرقه دان: صلاح الدّين

5- مختصر تفسير القاسمي: ري الغليل من محاسن التأويل، دار النفائس، (د.ط.ت).

الأُرَمي: محمد الأمين بن عبد الله العَلَويّ الهَرَرِيّ الشافعي

6- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2001م).

الأزدي: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد

7- كتاب جمهرة اللّغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف، بلدة حيدر آباد، الدكن، ط1، (1344هـ).

الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد

8- تهذيب اللغة، تحقيق يعقوب عبد النبي، مراجعة محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، (د.ط.ت).

الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله

9- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

اطفيش: امحمد بن يوسف

10- تيسير التفسير، تحقيق وإخراج الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي بمساعدة لجنة من الأساتذة، المطبعة العربية، غرداية، د.ط، (1413هـ/1998م).

الألباني: محمد ناصر الدّين

11- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، (د.ط.ت).

12- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1422هـ/2002م).

13- صحيح وضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري، مكتبة الدليل، المملكة العربية السعودية، ط4، (1418هـ/1997م).

14- صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، دمشق، ط3، (1408هـ/1988م).

15- صحيح وضعيف سنن أبي داود للإمام الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1 للطبعة الجديدة، (1419هـ/1998م).

__الألوسي__: أبو الفضل شهاب الدين محمود

16- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1994م).

__الأنصاري__: زكريا بن محمد

17- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، تحقيق وتقديم مازن المبارك، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1991م).

__أيوب__: حسن

18- السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط3، (1427هـ/2006م).

حرف الباء:

__الباجي__: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب

19- المنتقى شرح موطأ مالك، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ/1999م).

__ابن باديس__: عبد الحميد

20- تفسير ابن باديس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، (1991م).

__بازمول__: أحمد بن [illegible]

21- [illegible] على ضوء السنة النبوية، مجالس الهدى، ط1،(1428هـ/2007م).

__البخاري__: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

22- الأدب المفرد، خرّج أحاديثه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1417هـ/1996م).

23- صحيح البخاري، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (1424هـ/2003م).

بخيت: رجب محمود إبراهيم

24- تأمل الفرق بين مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، دار الإيمان، الإسكندرية، مصر، (د.ط.ت).

البرسوي: إسماعيل حقي

25- تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

البغدادي: إسماعيل باشا

26-هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1413هـ/1992م).

البرهانفوري: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي

27- كنــز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح وفهرسة بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، (1409هـ/1989م).

البزار: أبو بكر بن عمرو بن عبد الخالق العتكي

28- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، تحقيق محفوظ الرّحمن زين الله، موسوعة علوم القرآن، بيروت، لبنان، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، (1409هـ/1988م).

البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء

29-تفسير البغوي المسمى معالم التنـــزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط4، (1417هـ/1997م).

30- شرح السنة، تحقيق علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1412هـ/1992م).

البقاعي: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر

31- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1،(1391هـ/1972م).

[illegible]

32- فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال القرآن الكريم، إشراف أحمد رحماني، رسالة ماجستير، قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، (1421هـ-1422هـ/2000/2001م).

البيضاوي: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله

33- أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، عليه حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت 1069هـ)، ضبط عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1417هـ/1997م).

بيوض: إبراهيم بن عمر

34- في رحاب القرآن: تفسير سورتي الفرقان والشعراء، تحرير عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، (د.ط.ت).

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي

35- السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، (1424هـ/2003م).

36- شعب الإيمان، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2000م).

37- معرفة السنن والآثار، توثيق وتعليق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، القاهرة، ط1، (1412هـ/1991م).

حرف التاء:

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة

38- سنن الترمذي: الجامع الصحيح، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (1422هـ/2002م).

التلمساني: أحمد بن المقري

39- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (1997م)

ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد

40- التفسير الكبير، تحقيق وترتيب: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

41- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرّحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د.ط، (1425هـ/2004م).

حرف الثاء

الثعالبي: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف

42- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/ 1996م).

حرف الجيم

الجرجاني: علي بن محمد الشريف

43- كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، (1985م).

الجزائري: أبو بكر جابر

44- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه " نهر الخير على أيسر التفاسير"، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط3، (1418هـ/1997م).

الجزيري: عبد الرحمن

45- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، دار الفكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1406هـ/1986م).

الجصاص: أبو بكر أحمد بن علي الرازي

46- أحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، مطبعة الأوقاف الإسلامية، دار الخلافة العلية، (1335هـ).

الجلالين: جلال الدين أحمد بن محمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

47- تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف بالرسم العثماني، مذيلا بكتاب لباب النقول في أسباب النــزول للسيوطي، تقديم ومراجعة مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، (1418هـ/1997م).

الجمل: إبراهيم محمد إبراهيم

48- فقه المسلم على المذاهب الأربعة، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، (1412هـ/1992م).

ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين بن محمد

49- زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، (1404هـ/1984م).

الجوهري: إسماعيل بن حماد

50- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، (1990م).

حرف الحاء:

ابن أبي حاتم: عبد الرّحمن بن محمد بن إدريس الرازي

51- تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق أسعد محمد الطيب، إعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط1، (1417هـ/1997م).

الحاكم: أبو عبد الله النيسابوري

52- المستدرك على الصحيحين، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي وبذيله تتبّع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي لأبي عبد الرّحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، (1417هـ/1997م).

ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي

53- صحيح ابن حبان، بترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، (1414هـ/1993م).

54- مشاهير علماء الأمصار أعلام فقهاء الأقطار، تحقيق وتعليق مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1، (1411هـ/1991م).

حبنكة الميداني: عبد الرّحمن حسن

55- الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، (1420هـ/1999م).

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

56- تهذيب التهذيب، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، (1404هـ/1985م).

57- فتح الباري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

الحزيمي: سعود بن عبد الله

58- الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، (2005م).

الحفني: عبد المنعم

59- موسوعة القرآن العظيم، مكتبة مدبولي، مصر، ط1، (2004م).

الحكمي: محمد بن عبد الله علي

60- الظلم وأثره على الفرد والمجتمع، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط2، (1415هـ/1995م).

الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي

61- مسند الحميدي، تحقيق حسين سليم أسد الدّاراني، دار السقا، دمشق، ط1، (1996م).

ابن حنبل: أحمد بن محمد الشيباني

62- مسند الإمام ابن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م).

حوى: سعيد

63- الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، (1405هـ/1985م).

أبو حيان: محمد بن يوسف

64- تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد بن الموحود، وعلي محمد معوض، وزكريا عبد المجيد النوفي، وأحمد النجولي الحمل، قرضه عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1413هـ/1993م).

حرف الخاء:

الخازن: أبو الحسن علاء الدين علي بن إبراهيم البغدادي

65- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنـــزيل، ضبط وتصحيح عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1995م).

خالد: عمرو

66- خواطر قرآنية: نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، (1425هـ/2004م).

الخرائطي: أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل السامري

67- مساوئ الأخلاق، تحقيق مصطفى عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، (1413هـ/1993م)،

الخزندار: محمود محمد

68- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقا، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط6، (1422هـ/2001م).

ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي النيسابوري

69- صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، د.ط، (1400هـ/1980م).

ابن خلدون: عبد الرحمن

70- مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، (1421هـ/2001م).

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر

71- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (1994م).

خليل: أحمد خليل

72- موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (2001م).

أبو خليل: شوقي

73- أطلس القرآن: أماكن-أقوام-أعلام، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، (1423هـ/2003م).

حرف الدال:

الدارمي: أبو محمد عبد الله بن الفضل بن بهرام

74- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1421هـ/2000م).

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني

75- سنن أبو داود، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ/1988م).

الداوودي: شمس الدين محمد بن أحمد

76- طبقات المفسرين، مراجعة وضبط لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

الدوسري: عبد الرّحمن

77- النفاق: آثاره ومفاهيمه، مكتبة دار الأرقم للنشر والتوزيع، الكويت ط2، (1402هـ/1982م).

حرف الذال:

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان

78- سير أعلام النبلاء، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1403هـ/1983م).

79- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ط.ت).

80- كتاب الكبائر وتبيين المحارم، تحقيق محي الدين مستوي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط4، (1998م).

حرف الراء:

الرازي: فخر الدين

81- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، طبعة جديدة مصححة ومخرجة آيات الشواهد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1990م).

رحماني: أحمد

82- الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية: دراسة في التفسير الموضوعي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، (1425هـ/2005م).

رضا: محمد رشيد

83- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (1414هـ/1993م).

الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد

84- غريب مفردات القرآن، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، (1425هـ/2004م).

الرحيلي: إبراهيم بن عامر

85- التكفير وضوبطه، دار الإمام أحمد، ط2، (1429هـ/2000م).

الرومي: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان

86- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، (1418هـ/1997م).

حرف الزاي:

الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني

87- تاج العروس، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، تحقيق إبراهيم الترزي، مراجعة سلامة رحمة، مصطفى حجازي، عبد اللطيف محمد الخطيب، مطبعة الفيصل، الكويت، ط1، (1421هـ/2001م)

الزحيلي: وهبة

88- أخلاق المسلم: علاقته بالمجتمع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، (1423هـ/2002م).

89- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصرة، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، (1411هـ/1991م).

90- التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، دار الفكر، دمشق، سورية، (د.ط.ت).

91- الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، سورية، ط3، (1409هـ/1989م).

الزركلي: خير الدين

92- ترتيب الأعلام على الأعوام، رتبه وعلّق عليه زهير ظاظا، شركة الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (1411هـ/1990م).

الزمخشري: أبو القاسم جار الله بن عمر

93- أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عُيون السُّود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/ 1998م).

94- الكشاف عن حقائق التنــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، فتحي حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1418هـ/1998م).

أبو زهرة: محمد

95- زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (د.ط.ت).

زيدان: عبد الكريم

96- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، (1417هـ/1996م).

حرف السين:

السايس: محمد علي

97- تفسير آيات الأحكام، خرّج أحاديثه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1418هـ/1998م).

السبت: خالد عثمان

98- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أصوله وضوابطه وآدابه، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي، ط1، (1995م).

السّدي الكبير: أبو محمد إسماعيل بن عبد الرّحمن

99- تفسير السدي الكبير، جمع وتوثيق ودراسة، محمد عطا يوسف، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط1، (1414هـ/1993م).

السعدي: عبد الرّحمن بن ناصر

100- تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرّحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، د.ط، (1420هـ/2000م).

أبو السعود: محمد بن مصطفى العمادي الحنفي

101- تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1999م).

أبو سليمان: صابر حسن محمد

102- النجوم الزاهرة في تراجم القراء الأربعة عشر ورواهم وطرقهم، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط1، (1419هـ/1998م).

السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم

103- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، زكريا عبد المجيد النّوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1413هـ/1993م).

السيوطي: الحافظ جلال الدين

104- الدّر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ط.ت).

105- طبقات المفسرين، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

106- لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية، (د.ط.ت).

حرف الشين:

شحاتة: عبد الله

107- تفسير القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ط.ت).

شرفه: حسين

108- سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، إشراف أحمد رحماني، رسالة دكتوراه، قسم أصول الدّين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر -باتنة- الجزائر، (1424- 1425هـ/ 2003-2004م).

الشعراوي: محمد متولي

109- تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، راجع أصله وخرج أحاديثه أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر، أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات، (د.ط.ت).

110- مكارم الأخلاق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، (1426هـ/2005م).

111- من وصايا القرآن الكريم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ط.ت).

الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني

112- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، خرج آياته وأحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1417هـ/1996م).

الشوكاني: محمد بن علي محمد

113- فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، (1417هـ/1997م).

114- نثر الجوهر على حديث أبي ذر، دراسة وتحقيق أحمد بن محمد بن حسن المصلحي، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2000م).

ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد

115- مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والأثار، ضبطه وعلق عليه سعيد اللحام، إشراف ومراجعة وتصحيح: مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر طبعة مستكملة النص ومنقحة

ومشكولة ومرقمة الأحاديث ومفهرسة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، (1409هـ/ 1989م).

الشيرازي: أبو إسحاق

116- طبقات الفقهاء، تهذيب محمد بن جلال الدين المكرم بن منظور، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، (1970م)

حرف الصاد:

الصابوني: محمد علي

117- روائع البيان: تفسير آيات الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

118- صفوة التفاسير، قصر الكتاب، البليدة، شركة الشهاب، الجزائر، ط5، (1411هـ/1990م).

الصنعاني: محمد بن إسماعيل

119- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: 3 (1417هـ/ 1979م).

حرف الطاء:

الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي

120- المعجم الأوسط، تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، (1415هـ/1995م).

121- المعجم الصغير للطبراني ويليه رسالة غنية الألمعي لأبي الطيب شمس الدين الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

122- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، (د.ت).

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير

123- تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، (1411هـ/1991م).

124- تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرآن، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، (1420هـ/ 2000م).

125- تهذيب الآثار: الجزء المفقود، دراسة وتحقيق علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المأمون للتراث، ط1، (1995/1416م)

الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة

126- شرح مشكل الآثار، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، (د.ت).

طنطاوي: محمد سيد

127- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: تفسير سورتي الفاتحة والبقرة، مطبعة السعادة، (د.ط.ت).

ابن طهروني: محمد بن رزق

128- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، (1426هـ).

طهماز: عبد الحميد محمود

129- أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، ط1، (1412هـ/ 1992م).

الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود

130- مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، ط1، (1420هـ/1999م).

حرف العين:

ابن عادل: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي

131- اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، شارك تحقيقه برسالته الجامعية محمد سعد رمضان حسن، محمد المتولي الدسوقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1998م).

عاشور: مجدي محمد محمد

132- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، إشراف مصطفى محمد الشكعة، تقديم علي جمعة مفتي الديار المصرية، دار السلام، مصر، ط2، (1428هـ/2007م).

ابن عاشور: محمد الطاهر

133- تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، (1984م).

عباس: عوض الله عباس

134- محاضرات في التفسير الموضوعي، دار الفكر، دمشق، ط1، (1428هـ/2007م)

أبو العباس: أحمد بن محمد بن المهدي

135- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1423هـ/2002م).

ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله

136- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، (1412هـ/1992م).

عبد الرزاق: أبو بكر بن همام الصنعاني

137- المصنف، تحقيق وتخريج وتعليق حبيب الرحمن الأعظمي، (د،ط،ت).

العثيمين: محمد بن صالح

138- شرح العقيدة الواسطية، طبعة ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، (د.ط.ت).

139- القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، (1418هـ).

140- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن للنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأخيرة، (1413هـ)

العجلوني: إسماعيل بن محمد الجراحي

141- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط3، (1408هـ/1988م).

العجلي: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح

142- معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1، (1405هـ/1985م).

العدوي: أبو عبد الله مصطفى

143- التسهيل لتأويل التنـــزيل: التفسير في سؤال وجواب، ط1، (1416هــ/1996م).

ابن العراقي: ولي الدين أبي زرعة أحمد بن الحسين

144- الذيل على العبر في خبر من عبر، حققه وعلق عليه صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1409هــ/1989م).

ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله

145- أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

عرجون: محمد صادق

146- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، (1977/1397).

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي

147- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، (1415هـ/1995م).

العسكري: أبو الطيب عبد الواحد بن علي

148- كتاب الأضداد في كلام العرب، تحقيق عزة حسن، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط2، (1996م).

ابن عطية: أبو أحمد عبد الحق بن غالب الأندلسي

149- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، مطابع فيضالة المحمدية، المملكة المغربية، ط2، (1403هــ/1982م).

العظيم آبادي: أبو الطيب شمس الحق

150- عون المعبود شرح سنن أبي داود مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية، عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د.ط، (1389هـ/1969م).

العفاني: سيد بن حسين

151- صلاح الأمة في علو الهمة، قدم له محمد صفوت نور الدين وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1417هـ/1997م).

العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد

152- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ضبط وتصحيح عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1421هـ/2001م).

حرف الغين:

الغزالي: محمد

153- الإسلام والاستبداد السياسي، نهضة مصر، طبعة جديدة محققة، (د،ت).

حرف الفاء:

ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكريا

154- معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (1399هـ/1979م).

الفراهيدي: أبو عبد الرّحمن الخليل بن أحمد

155- كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران،ط2، (1409هـ).

فريد: أحمد

156- من أعلام السلف، دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، (1418هـ/1998م).

الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب

157- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

158- القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

الفيومي: أحمد بن محمد علي

159- المصباح المنير معجم عربي-عربي، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، (1424هـ/2003م).

حرف القاف:

القرطبي: أبو عبد الله محمد الأنصاري

160- الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، (1373هـ/1954م).

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود

161- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

قطب: سيد

162- في ظلال القرآن، مطابع الشروق، القاهرة، ط15، (1408هـ/1988م).

قلعه جي: محمد رواس

163- معجم لغة الفقهاء، عربي-إنجليزي مع كشاف إنجليزي-عربي بالمصطلحات الواردة في المعجم، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، (1408هـ/1988م).

ابن قيم: الجوزية

164- أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ط.ت).

165- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق أحمد فخري الرفاعي، عصام فارس الحرستاني، دار الجيل ، بيروت، (د.ط.ت).

حرف الكاف:

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل

166- تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، (1420هـ/1999م).

الكتاني: عبد الحي بن عبد الكبير

167- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، (1982م).

كحالة: عمر رضا

168- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، (1418هـ/1997م).

169- معجم المؤلفين، اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1414هـ/1993م).

الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحُسَيْنِي

170- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ،فهرسة عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، (1419هـ- 1998م)

الكلبي: محمد بن أحمد بن جزي

171- كتاب التسهيل لعلوم التنـزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، (1401هـ/1981م).

حرف الميم:

ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني

172- سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (د.ط.ت).

مالك: بن أنس

173- الموطأ، رواية يحي بن يحي الليثي الأندلسي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، (1417هـ/1997م).

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب

174- النكت والعيون: تفسير الماوردي، مراجعة وتعليق بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت).

المباركفوري: محمد عبد الرحمن

175- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، (1404هـ/1984م).

المجذوب: محمد

176- علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض، ط4، (1992م).

مخلوف: محمد بن محمد

177- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.ت).

<u>*ملكور:*</u> إبراهيم

178- معجم أعلام الفكر الإنساني، إعداد نخبة من الأساتذة المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، (1984م).

<u>*المراغي:*</u> أحمد مصطفى

179- تفسير المراغي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.ت).

<u>*المراغي:*</u> عبد الله مصطفى

180- الفتح المبين في طبقات الأصوليين، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ط1، (د.ت).

<u>*المزي:*</u> جمال الدين أبي الحجاج يوسف

181- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، حققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1413هـ/1992م).

<u>*مستغانمي:*</u> أحلام

182- "ما لم أقله لكم... من فوق الشجرة"، زهرة الخليج، العدد: 1479، الإمارات للإعلام، (28 يوليو2007م الموافق لـ: 14 رجب 1428هـ).

<u>*مسلم:*</u> أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري

183- صحيح مسلم، فهرسة محمد بن نزار تميم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، (1419هـ/1999م).

<u>*المعافري:*</u> أبو بكر محمد بن العربي

184- المسالك في شرح موطأ مالك، تعليق محمد بن الحسين السليماني، عائشة بنت الحسين السليماني، تقديم يوسف القرضاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،(1408هـ/2007م).

<u>*المقدسي:*</u> موفق الدين بن قدامة وشمس الدين بن قدامة

185- المغني ويليه الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة جديدة بالأوفست بعناية جماعة من العلماء، (1403هـ/ 1983م).

<u>*ملكاوي:*</u> فتحي حسن

186- العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ط1، (1417هـ).

المنذري: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي

187- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تعليق مصطفى محمد عمارة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، (1388هـ/1968م).

ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي المصري

188- لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلا كاملا ومذيلة بفهارس مفصلة (د.ت).

المودودي: أبو الأعلى

189- فرعون في القرآن، ترجمة وتعريب أحمد إدريس، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط.ت).

حرف النون:

ابن ناصر الجليل: عبد العزيز

190- وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (1419هـ/1999م).

نخبة من العلماء:

191- التفسير الميسر، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، د.ط، (1417هـ).

النسائي: أبو عبد الرحمن شعيب بن علي بن سنان

192- السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1411هـ/1991م).

193- سنن النسائي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ/1999م).

النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود

194- تفسير النسفي المسمى مدارك التنـزيل وحقائق التأويل، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1415هـ/1995م).

نوح: محمد

195- آفات على الطريق، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، (1419هـ/1999م).

النووي: محي الدين بن شرف الدين

196- الأذكار النووية، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ،منشورات دار الملاح للطباعة والنشر، د.ط، (1391هـ/1971م).

197- شرح صحيح مسلم المسمى المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج، حقق أصوله وخرّج أحاديثه على الكتب الستة ورقّمه حسب المعجم المفهرس وتحفة الأشراف الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، (1418هـ/1997م).

نويهض: عادل

198- معجم المفسرين، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، (1406هـ/1986م).

النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي

199- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبط زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م).

حرف الهاء:

الهواري: هود بن محكم

200- تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق وتعليق بالحاج بن سعيد شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، (1990م).

الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر

201- بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (1414هـ/1994م).

202- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، عبده علي الكشك، دار الثقافة العربية، دمشق، ط1، (1412هـ/1992م).

حرف الواو:

الواحدي: علي بن أحمد أبو الحسن

203- أسباب النـــزول، تعليق وتخريج مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط1، (1408هـ/1988م).

الورد: باقر أمين

204- معجم العلماء العرب، مراجعة الأستاذ كوركيس عواد، مكتبة النهضة العربية، ببيروت، ط1، (1406هـ/1986م).

حرف الياء:

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي

205- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، (1397هـ/1977م).

يعقوب: عبد الرّحمن

206- الظالمون، مركز فجر للطباعة، القاهرة، د.ط، (2001م).

أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى التميمي

207- مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، (1409هـ/1988م).

اليوبي: محمد

208- مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة، الرياض، د.ط، (1418هـ/1998م).

209- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط21، (د.ت).

فَهْرَسُ المَوْضُوعَاتِ



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

مقدمة..أ

تمهيد: حقيقة الظـــلم..1

الفصل الأول: أنـــواع الظلــــم...23

توطئة...24

المبحث الأول: الظلم العقدي...26

المطلب الأول: الظلم العظيم " ظلم الشرك "....................................26

المطلب الثاني: الظلم الأصغر 48

المطلب الثالث: الظلـــم الأعظم..55

المطلب الرابع: ظلم الكفـــر 99

المطلب الخامس: ظلم النِّفـــاق...112

المبحث الثاني: الظلم الاجتماعي 126

المطلب الأول: ظلم الدّماء...130

المطلب الثاني: الظلم المالي..141

المطلب الثالث: ظلم الأعراض 184

الفصل الثاني: أسباب الظلـــم...200

توطئة...201

المبحث الأول: اتباع الهوى والظن 202

المطلب الأول: اتباع الهوى 202

المطلب الثاني: اتباع الظن 207

المبحث الثاني: الجهل والاستكبار والترف..209

المطلب الأول: الجهل...209

المطلب الثاني: الاستكبار...212

المطلب الثالث: الترف 219

المبحث الثالث: الحسد والانتقام وغياب النهي عن الظلم.............................223

المطلب الأول: الحسد 223

المطلب الثاني: الانتقام..224
المطلب الثالث: غياب النهي عن الظلم...225
الفصل الثالث: آثار الظلـــم وعواقبـــه......................................228
توطئة..228
المبحث الأول: ذهاب الأمن ونزول القحط.......................................230
المطلب الأول: ذهاب الأمن النفسي والاستقرار الاجتماعي..........................230
المطلب الثاني: نزول الجدب والقحط...236
المبحث الثاني: الحرمان من الهداية والفلاح 242
المطلب الأول: حرمان الظالمين من الهداية.......................................243
المطلب الثاني: حرمان الظالمين من الفلاح.......................................247
المبحث الثالث: سقوط دولة الظلم..254
المطلب الأول: ضعف دولة الظلم...256
المطلب الثاني: استئصال دولة الظلم...260
المطلب الثالث: نماذج لاستئصال الدول الظالمة...................................270
الفصل الرابع: سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج..............................287
توطئة..288
المبحث الأول: تجنب الرّكون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم....................289
المطلب الأول: تجنب الرّكون إلى الظالمين..289
المطلب الثاني: هجر مجالس الظالمين...291
المطلب الثالث: النهي عن إعانة الظالمين...295
المبحث الثاني: الانتصار والعفو عند المقدرة..................................299
المطلب الأول: حق الانتصار بعد الظلـــم...299
المطلب الثاني: العفو عن الظلم عند المقدرة......................................307
المبحث الثالث: أثر الدعاء والاعتبار...312
المطلب الأول: أثر الدعاء في دفع الظلم..312
المطلب الثاني: الاعتبار من مآل الظالمين 318
المبحث الرابع: التوبة من الظلم وإنكار حصوله.................................327
المطلب الأول: التوبة من الظلم..327

المطلب الثاني: إنكار الظلم..340
خاتمة..360
فهرس الآيات القرآنية..369
فهرس الأحاديث والآثار...394
فهرس الأعلام 402
فهرس المصادر والمراجع 410
فهرس الموضوعات..437



ملخص البحث

باللغة العربية

الظلم في ضوء القرآن الكريم

حقيقته – أنواعه – أسبابه – آثاره

يعالج هذا البحث مشكلة الظلم التي تُعد من أهم الإشكالات التي يعيشها الإنسان المعاصر بمختلف أبعادها، سواء على مستوى الأفراد أم الدول. وهو ما يدعو إلى التساؤل عن حقيقة هذه المشكلة، والبحث عن أسبابها وآثارها لإيجاد طرق العلاج، وتحديد سبل الوقاية منها، وتكوين تصور أو نظرة واضحة عن المشكلة.

وللوصول إلى ذلك تم استنطاق القرآن الكريم، لاسيما أنه تناول هذا الموضوع بصورة ملفتة للانتباه، إذ تكرر لفظ الظلم بصيغه المختلفة في مائتين وخمس وستين آية، وفي ثمان وخمسين سورة، فضلا عن الألفاظ المقاربة، والمقابلة له في المعنى، مما يدل على خطورة الموضوع وأهميته.

وقد فرض القرآن الكريم طرح هذه المشكلة تبعا لما تناوله من أطراف الموضوع، تحت هذا العنوان: "**الظلم في ضوء القرآن الكريم: حقيقته – أسبابه – أنواعه – آثاره**". وبما أن الهدف هو الوقوف على نظرة القرآن الكريم إلى الموضوع، كان التفسير الموضوعي التجميعي المنهج الأمثل لتحقيق ذلك.

وتلبية لحاجة الموضوع تم تقسيم البحث إلى مقدمة ثم تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، تطرق **التمهيد** إلى بيان حقيقة الظلم في اللغة والاصطلاح والعلاقة القائمة بينهما، وتوصلت إلى أنَّه لا يخرج في الاستعمال المعجمي عند أهل اللغة عن عدة معاني هي: وضع الشيء في غير موضعه، الجور ومجاوزة الحد، المنع والميل عن القصد. أمّا في الاصطلاح فتكاد فتتفق التعريفات في أنَّ الظلم يُراد به التعدي على حدود الله ومجاوزتها، وإن اختلفت الألفاظ في التعبير عن هذا المعنى الذي هو امتداد للمعنى اللغوي.

أمّا **الفصل الأول** فعني ببيان أنواع الظلم، واستدعى تقسيمه إلى مبحثين بحيث تناول **المبحث الأول** الظلم المتعلق بحقوق الله تعالى، وهو عبارة عن انحراف في التصورات وخلل في الاعتقادات؛ لذلك أسميته بالظلم العقدي. وتبيَّن أنّ هذا النّوع من الظلم له عدة أشكال وصور، يأتي في مقدمتها الشرك بالله تعالى، وذلك بصرف حق الله ﷻ إلى غيره ممن لا يستحقه، وهو رأس هذا النوع من الظلم، وقد سمي في القرآن الكريم باسم الظلم العظيم، وهو ما تولى بيانه **المطلب الأول** من هذا المبحث الذي جرّ إلى الحديث عن الظلم العقدي الأصغر في **المطلب الثاني**. أمّا المطلب الثالث فتكفل بإبراز الصورة الثالثة للظلم العقدي، وهي خمس صور تشترك في كونها جميعا من أظلم الظلم، وهي افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته، والصدف عنها أي بالإعراض عن سبيل الله والعمل على صدِّ النَّاس عن اتباع الحق، إذ يجمع الظالم هنا بين الضلال والإضلال، ثم الصورة الأخرى كتمان الشهادة، والسعي في تخريب المساجد ماديا ومعنويا؛ بمنع الناس من التعبد فيها بأي شكل من الأشكال أو هدمها. أما **المطلب الرابع** فكشف عن ظلم

الكفر الذي يعتمد على ستر الحقائق، والسعي وراء الأوهام والخرافات وتوارثها عبر الأجيال لتصبح من المسلمات والمقدسات، فينتشر الظلم والفساد بمختلف أنواعه. وقد ختم هذا المبحث **بالمطلب الخامس** الذي دار فيه الحديث حول ظلم النِّفاق، الذي يعد من بين أخطر صور الظلم العقدي؛ لخفاء ظلم هؤلاء الظالمين، الذين فضحهم المولى ﷻ بالكشف عن بعض صور ظلمهم.

ثم جاء **المبحث الثاني** من هذا الفصل الأول فانصب فيه الاهتمام على الظلم المتعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية، أي ظلم الناس بعضهم لبعض، وتبيَّن أنَّه في عمومه لا يخرج عن الاعتداء عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وهي من الكليات الخمس أو الست التي عملت الشريعة على حمايتها؛ لذلك تم تقسيمه إلى ثلاثة مطالب، تناول **المطلب الأول** ما يتعلق بظلم الدماء والنفس بصوره المختلفة كالقتل، والضرب، أمّا **المطلب الثاني** فتعرض لظلم الأموال بصوره المختلفة مع انتخاب بعض النماذج المنتشرة في هذا العصر، كالرِّبا والسرقة والغصب والاعتداء على الأموال العامة وأموال اليتامى، وأكل الأموال باليمين الكاذبة. وتبيَّن أنّها كلّها ظُلم وشُؤم لا يفلح صاحبها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وبعد تجلي أنواع الظلم، تمَّ تتبع الأسباب التي تؤدي إلى ظهوره في **الفصل الثاني** الذي قسم إلى ثلاثة مباحث، تمحور **المبحث الأول** حول اتباع الهوى والظن، وذلك عبر **مطلبين**، تناول **الأول** اتباع الهوى، وتبيَّن من خلاله أنّ الانسياق وراء الأهواء دون قيد شرعي يفضي إلى الظلم، **والثاني** اتباع الظن الذي لا يغني في الوقوف على الحقائق شيئًا لاسيما في الأمور العقدية. ثم جاء بعده في **المبحث الثاني** الحديث عن الجهل والاستكبار واتباع الترف وقسم إلى **ثلاثة مطالب** تبعا للترتيب المذكور؛ لأنّ الجهل بالقرآن والعقيدة والشريعة الإلهية والسنن الكونية والاستكبار عن سماع الحق والرضوخ له حفاظا على المصالح الدنيوية، واتباع الترف دون حدود من أهم أسباب الظلم. أمّا **المبحث الثالث** فتوقف عند الحسد وتمني زوال النِّعم عن أهلها، إذ قد يدفع الحاسد إلى السعي من أجل تحقيق ذلك على أرض الواقع خاصة في غياب التقوى، التي تُعد بمثابة الحارس المانع من ممارسة الظلم، وذلك في **المطلب الأول**، بينما تطرق **المطلب الثاني** إلى حق انتقام المظلوم من الظالم، وتبيَّن أنَّ مجاوزة الحدّ في الانتصار تجعل المظلوم ظالما، وتؤدي إلى استمرار الظلم واستشرائه، خاصة مع غياب دور الأمة في النَّهي عن الظلم وإنكاره أو تقصيرها في ذلك، وتراجع النّهي عن المنكر عموما في ظل انتشار عوامل تكريسه واتساع دائرته وقوة نفوذه، وهو ما تتبعه المطلب الثالث.

وكل هذا قاد إلى الحديث في **الفصل الثالث** عن آثار الظلم المدمرة لحياة الأفراد والدول عبر ثلاثة مباحث، تبيّن من خلال **المبحث الأول** أنّ ذهاب الأمن ونزول الجدب والقحط يؤدي

إلى زعزعة الاستقرار النفسي والاجتماعي؛ لأنّ الأمن والخصب قوام الحياة وضمان استقرارها واستمرارها وتطورها.

وظهر واضحا من خلال **المبحث الثاني** أنّ الظلم لا يقتصر على ذلك الأثر بل يؤدي إلى حرمان الظالمين من هداية المعونة والتوفيق، وخسران الدنيا والآخرة معا، لأنّ من لم يسخر الحياة الدنيا لتكون له جسرا للفوز بنعيم الجنَّة والنَّجاة من عذاب النّار يوم الحساب، فقد خسرها وخسر بذلك آخرته.

أمّا في **المبحث الثالث** فظهر أنّ الإصرار على الظلم يضعف الدول الظالمة تدريجيا على جميع الأصعدة إلى أن ينتهي بها إلى السقوط أو الاستئصال، شأن الكثير من القرى والأمم التي ساقها القرآن للعظة والعبرة.

وهو ما استدعى عقد **فصل رابع** لتحديد بعض سبل الوقاية من هذا الداء ووصف بعض طرق العلاج، فكان من أهم ما كشف عنه البحث في **المبحث الأول** ضرورة تجنب الركون إلى الظالمين ومجالسهم وإعانتهم؛ لأنّ ذلك يشعرهم بالضعف والعجز والخطأ، ويدعوهم إلى مراجعة آرائهم ومواقفهم إلا لمصلحة شرعية.

وفي **المبحث الثاني** العفو عن الظالم في بعض الأحوال من أجل حفظ النفوس من الضغائن والأحقاد، ووقايتها من الجور والظلم، والانتصار من الظالم في أحوال أخرى لصيانة النفوس من الذل والهوان، ووقايتها من الظلم وردع الظالم حتى لا يتمادى في ظلمه.

و في **المبحث الثالث** تبيّن أنّ الدعاء والتضرع إلى الله والاستعانة به وبتوفيقه من أيسر السبل وأنجعها لرفع الظلم، والتخفيف من حدة الألم الذي يسببه؛ لأنَّ الدعاء ينفس عن المظلوم ويهدئ ثورة غضبه حتى لا يثوب إلى القوة، ويشعره بالأمن والطمأنينة. ولا تقل عن ذلك أهمية الدعوة إلى الاعتبار من مآل الأمم الظالمة؛ وذلك بالتوعية عن طريق وسائل التربية والإعلام المختلفة.

وفي **المبحث الرابع** حديث عن التوبة باعتبارها العلاج الذي يمكن أن يتعاطاه الظالم للتخلص من الظلم نهائيا مهما عظم وتغلغل في النفس وطال أمده. ولئن كانت هذه مسؤولية الظالم قبل إنكار الظلم والنهي عنه عن طريق نصرة الظالم والمظلوم، وإعانتهما للتخلص من الظلم والقطع عليه قبل استشرائه مسؤولية الأمة.

وذيل البحث بخاتمة أعلنت في عمومها على أنّ الظلم مرض يصيب الأفراد، وتتسع دائرته لتشمل المجتمع كلما ازداد نفوذه، وتوفرت عوامل تكريسه، وتراجع النهي عن المنكر عموما حتى يؤدي بالدول إلى الزوال أو الدمار والاستئصال.


UNREGISTERED VERSION
REGISTERED
VERSION
ADDS NO
WATERMARK
www.print-driver.com

ENGLISH SUMMARY

Injustice through the holy Qu'ran
Its essence- Its kinds- Its reasons- Its impacts.

This research paper is dealing with injustice which is considered to be one of the most important problems facing human beings nowadays. This attracts us to know about the essence of this problem, its reasons and impacts to find solutions and ways of prevention.

To arrive to this, no better resource than the Qu'ran; where the word injustice has been mentioned in different ways within two hundred and sixty five verses, and within fifty eight chapters or Surahs, in addition to close words in meaning. This show how important is the subject.

For this research, I have chosen as a title: ***"Injustice through the holy Qu'ran: Its essence, kinds, reasons and impacts"*** and because the aim of this research is to show the Qu'ran's point of view about the subject, the gathering objective interpretation was chosen to deal with this study.

To serve the subject, the research was divided into: an introduction, then a preface, four chapters and a conclusion. In the preface, I gave both the linguistic

and the idiomatic meaning of injustice, and the relation between the two. Linguistically the most important meaning: to put something in the wrong place, oppression and passing limits. Whereas idiomatically, injustice is: The violation of Allah's boundaries.

In the first chapter, we'll find different kinds of injustice. The chapter was divided into two themes, in the first one we find the injustice related to Allah's duties which is considered as a kind of deviation in beliefs; it's why I name it ideological injustice. This kind of injustice has a lot of parts; the most important is to disbelieve in God. This injustice is called in the holy Qu'ran: The great injustice, which was explained within the first part, whereas in the second was showed the smallest injustice. In the third part, we find five images of injustice which are to lie on Allah, to not believe in His miracles and verses, to attract people for going far from the straight way, to hide witness and to destroy mosques by preventing people from worshipping Allah. The fourth part was about atheism, and the fifth was about hypocrisy's injustice, which is considered to be the most dangerous kind of ideological injustice; because it's a hidden injustice which is revealed by Allah in the holy Qu'ran.

Then comes the second theme in which appears the injustice within social relations; which means the oppression of men to men in their blood, money or honour and those are parts of the five or six entireties protected by Islam. This theme was divided into three parts; the first part was concerned with injustice against the body as murdering and hitting. The second part was about financial injustice with exposing some contemporary examples, such as: usury, robbery, coerce and intruding upon public and orphans' money. And everybody doing such injustice will lose both within this life and the life after.

After giving the different kinds of injustice, we have to know the reasons within the second chapter which was divided into three themes. The first one was about following one's feeling and doubt, and it was exposed through two parts; one about following one's beliefs far from God and the second about the doubt about ideological things.

The second theme spoke about ignorance and arrogance and to live in luxury, and it was divided into three parts in which it was showed that following one of these three things leads to injustice. Whereas the third theme deals with envy and jealousy which sometimes can push the envious to be unjust, this was showed in part one and the second part was about the oppressed revenge: so that he can be himself unjust.

The third chapter was about the destroyable impacts of injustice in the person's life and in the whole society, through three themes. In the first it was clear that the disappearance of security brings social and psychological troubles. In the second theme appears that the oppressor not only loses his life but also he'll lose the life hereafter.

The third theme deals with the impact of injustice on states, which will fall and disappear, included examples from the holy Qu'ran.

For this comes the fourth chapter to determine some ways of protection against injustice, also showed cures for it.
The first theme was about avoiding to lean on oppressors, or to help them except for religious benefit.
The second one was about forgiving oppressors in some cases to avoid more troubles, but this doesn't mean to not protect oneself from humiliation and stop the oppressor when necessary.
In the third theme it appears that Allah's invocation and seeking His help are the easiest way to face injustice. Also taking examples from the entire demolishion of the previous oppressors.
The fourth theme considers repent as the perfect cure for the oppressor to avoid injustice, this is for the person, and nevertheless the society has the most important role for getting ride of injustice.

At the end comes the conclusion in which we see that injustice is an illness touching first persons, then spreading into the whole society. And if not stopped it will destroy this entity.

